

منشورات اتحاد



القاهرة

# مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

## مع نخب النساء في حجهن إلي بيت الله الحرام في العصرين الأموي والعباسي مواكبهن ومثرفهن

د. إلهام بنت أحمد عبد العزيز البابطين  
أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة الملك سعود

### المخلص:

نبت فكرة البحث مما لاحظته - في حدود علمي - من أن كل من كتب عن الحج إلى مكة المكرمة وزيارة دار المصطفى ﷺ لم يخص حج النساء ببحت أو بدراسة مستقلة، على الرغم من أن ذكرهن في هذا الشأن يرد على نحو متناثر في بعض المصادر التي وصلت إلى يدي؛ ذلك أنه منذ أن فرض الحج على المسلمين أدى هذه الفريضة مئات الألوف من النساء عبر القرون. ولكن التاريخ لم يحفظ منهن إلا القليل من أكابرهن ومشاهيرهن ممن كان لحجهن شهرة، ومن تركن بصمات ونكريات ومآثر خلدها لهن التاريخ؛ وسيركز البحث بصورة خاصة على المواكب النسائية وما فيها من فراهة وأبهة، وكذلك ما لتلك الفئة من النساء من مآثر في مكة المكرمة وفي الطريق إليها. وسيتضمن جداول بأسماء من حج من مشاهير النساء وتواريخ حجهن وعدد حجتهن ونفقاتهن في الحج.

### توطئة:

الحج من أقدم العبادات السماوية التي عرفتها البشرية، وكان العرب في مختلف العصور يقومون بتأدية تلك العبادة على صورة تناسب فطرتهم، وتنمشي مع جاهليتهم. وكانوا على دينين جلة وخمس؛ فالحمس قريش وكل من وُلدت من العرب، فكانت قريش إذا أنكحوا عريبا امرأة منهم اشتراطوا عليه أن كل من ولدت له فهو أحمسي على دينهم<sup>(١)</sup>. ومن طقوسهم في الحج يطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم<sup>(٢)</sup>. أما تقاليد نساء الحلة - وهم

مع نزع النساء في جميع بيت الله الحرام في العشرين الأسرى والعباسي مواكبهن ومرتحن

قبائل من العرب - في أول حجة لهم يطفن ليلا عرا بينما يطوف الرجال نهارا عرا أيضا ويقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا<sup>(iii)</sup> وقيل كانوا يفعلون ذلك ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب<sup>(iv)</sup>. ويقال كانت الخمس يحتسبون على الناس، يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها، فمن لم يعطه الخمس طاف بالبيت عرياناً. وقد تطوف المرأة في ثيابها فإن طافت بها لا يحل لها أن تلبسها أبداً، ولا يَنْتفع بها، وتطرحها بباب المسجد فلا يمسه أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والأمطار والرياح ووطء الأقدام، وتسمى اللقي<sup>(v)</sup>.

وكان بعض نسائهم تتخذ سورا فتعلقها في حقوبها، وتستتر بها، وفي ذلك قالت ضباعة العامرية<sup>(vi)</sup>:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَغْضَةُ أَوْ كُفَّةٌ قَمًا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَجَلُهُ

هذا بالنسبة لحج النساء في العهد السابق للإسلام وليس لدينا معلومات تفصيلية عن مواكبهن ولا مآثرهن.

ثم جاء الإسلام فهدم ذلك كله، وجعل الحج صورة للمساواة بين الناس، فعندما حج أبي بكر بالناس سنة ٦٣١/٥٩م أعلن تحريم الحج عرايا قائلاً: "ولا يطوف بالبيت عريان"<sup>(vii)</sup>؛ بل مُنِعَ الناس أيضاً من الحج في ثيابهم المعتادة، وفُرضَ عليهم أن يلبسوا ملابس واحدة متشابهة، وهي ثياب الإحرام وأما النساء؛ فيلبسن ما اعتننه من الملابس.

وفرض الإسلام شعيرة الحج على معتنقيه رجالاً ونساءً، ولكن على كل من استطاع إليه سبيلاً. فشددت الرجال إلى مكة، وقطعت لذلك المسافات الشاسعة تيمنا بسنن الأنبياء، واستجداء لمثوبة الله وغفرانه. وكما تقاطر الرجال حجاجا إلى بيت الله الحرام، كانت النسوة أشد حرصا على تأدية تلك الفريضة لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾<sup>(viii)</sup>. وتباينت تكاليف حجهن بحسب قدرتهن المادية والمعنوية، وهو محور بحثنا هذا حيث إن العينة النسائية التي يتعامل معها البحث هن ممن كانت تكاليف حجهن مرتفعة ومتفاوتة. فسوف نرافق في بحثنا هذا

نخبة من النسوة في طريق حجهن إلى مكة المكرمة وزيارتهم لمدينة الرسول ابتداءً من عصر صدر الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي (١٦٥٦هـ/٩٧٤م) حسبما ورد في المصادر المتاحة من روايات :

### المواكب النسائية في الحج :

كانت نساء المسلمين يخرجن للحج ضمن ركب قافلة الحجيج في مواكب خاصة بهن تحملهن الهوداج، ولكن مواكبهن تباينت في مظاهرها من عصر لآخر وأيضاً من امرأة لأخرى، وفقاً للمكانة الاجتماعية لهن، ولعل أسباب الخروج في مواكب لها شأنها يعود لإظهار هيبة وعظمة الدولة والبيت الحاكم، وأيضاً الرفع من شأن المرأة، كما أنه يعطي دلالة على الحالة الاقتصادية للدولة.

وفيما يلي سنستعرض أهم رحلات الحج التي ورد ذكرها في المصادر، وعلى ضوءها سنستنتج سمات مواكب كل عصر، وسنلاحظ الفوارق بين العصور فمواكب النساء في العصرين النبوي والراشدي تتميز بالبساطة عن مواكب النساء في العصرين الأموي والعباسي ذات البهجة الكبيرة والمظاهر المترفة، ففي حجة الوداع سنة ١٠هـ/٦٣٢م حج ﷺ بنسائه جميعاً في الهوداج، وكان متاع أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٧هـ/ ٦٧٧م) رضي الله عنهما خفيفاً، وكان على جمل سريع، بينما كان متاع صفية بنت حيي (ت ٥٢هـ/ ٦٧٢م) فيه ثقل، وكان على جمل ثقالٍ بطئ السير، فقال عليه الصلاة والسلام: حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب<sup>(١)</sup>. إذن فقافلة الحج في العصر النبوي كانت بسيطة ليس فيها تكلف بل بقدر ما تقتضيه حاجة المرأة.

ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن مواكب الحج في العصر الراشدي فيما عدا ما ذكر عن حج بعض أزواج النبي ﷺ في آخر سنة من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٣هـ/ ٦٤٤م) عندما حج عمر بن الخطاب حجته الأخيرة فأرسلن إليه وهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر (ت ٤٥هـ/ ٦٦٥م) وأم سلمة هند بنت أبي

مع نخبه النساء في جميع بيت الله الحرام في العصور الأموية والعباسية وما قبلهما وبعدها

أمية (ت ٥٩١هـ/٦٧٨م) وأم حبيبة رمة بنت أبي سفيان (ت ٤٤٤هـ/٦٦٤م) وجويرية بنت الحارث (ت ٥٠٠هـ/٦٧٠م) وصفيّة بنت حُيَيٍّ وميمونة بنت الحارث (ت ٦١٠هـ/٦٨٠م) يستأذنه في الخروج فأذن لهنّ وأمر بجهازهنّ فحملن في الهودج على الإبل، وعلى هودجهن الطيالسة الخضراء وبعث معهنّ عبدالرحمن بن عوف (ت ٣٢٢هـ/٦٥٢م) وعثمان بن عفان (ت ٣٥٠هـ/٦٥٦م) رضي الله عنهما فكان عثمان يسير على راحلته أمامهنّ فلا يدع أحدا يذنب منهنّ، وكان عبدالرحمن يسير على راحلته من ورائهنّ فلا يدع أحدا يذنب منهنّ، وينزلن مع عمر كل منزل<sup>(٨)</sup>. وفي خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) اجتمعت أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة وميمونة وأم حبيبة فأرسلن إليه يستأذنه في الحج فقال: أنا أحج بكنّ كما فعل عمر فحج بهن عثمان جميعا<sup>(٩)</sup>. وبذلك يمكن القول أن مواعيد الحج في العصر الراشدي لم تكن تختلف عن حالها في عهد رسول الله ﷺ، خصوصاً في فترة خلافتي أبو بكر وعمر إذ اتبعوا سياسة الرسول ونهجه غير المتكافئ في الحياة، أيضاً موارد الدولة الاقتصادية كانت تصرف على الجهاد ومعارك الفتوح فضلاً عن رعاية شؤون المسلمين، وتوفير احتياجاتهم الأخرى. وغني عن الذكر ما مرت به دولة الإسلام من فتن وإنشاقات منذ مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ٢٣هـ/٦٤٤م وبعده عثمان بن عفان وأخيراً علي بن أبي طالب ٤٠هـ/٦٦١م رضي الله عنهم جميعاً.

ولكن الحال تغير في فترة مبكرة من العصر الأموي حيث تغير نمط الحياة وتسقلت إلى أساليب العيش مظاهر الترف، فظهر ما يسمى بمواكب الحج النسائية وفيها تباشر المرأة إعداد موكبها بنفسها لحرصهنّ على الظهور بأبهى المناظر وأزهى المظاهر بل كن يتنافسن ويتباهين في مواكبهنّ حتى ليتبارى الشعراء في وصفها؛ فمثلاً شهد حج سنة (٧٥٠هـ/٦٩٤م) عدة مواكب نسائية، منها موكب عاتكة بنت يزيد بن معاوية (ت ١٢٦هـ/٧٤٣م) زوج الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) الذي قال لها عندما استأذنته في الحج: ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة (ت ١٠١هـ/٧٢٠م) تحج، فرفعت حوائجها وتهايات فجاءت بهيئة جهدت فيها<sup>(١٠)</sup>. فلما سارت إلى مكة ناهضها

عدة مواكب لعائشة بنت طلحة فالموكب الأول لخازنتها، يليه موكب لا يقل عظمة عن الموكب السابق لما شطتها، وموكب ثالث معائل أمامها، ثم موكبها الذي فاق المواكب جميعا ويضم ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهواج، بحيث فاق المواكب جميعها حتى قالت عاتكة زوج الخليفة عبدالملك بن مروان: ما عند الله خير وأبقى<sup>(xiv)</sup>.

وغالباً ما كانت المرأة تصطحب معها حادياً يقود قافلته، وينشد لها طوال فترة السفر<sup>(xv)</sup>. ففي سنة ٧١٤/٩٥هـ عزمت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية على الحج مرة أخرى، ويبدو أن عائشة كانت تحرص كل الحرص على الإعداد لحجها بأجمل ما يكون عليه الحج من المظاهر؛ فدخلت على الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦هـ/٧١٥-٦٨٥م) وقالت: يا أمير المؤمنين مَر لي بأعوان يكونون معي، فضم إليها جماعة يكونون معها فحجت في موكب من ستين بغلاً من بغال الملوك عليها الهواج والرجال فقال حادياً:

عائش يا ذَاتَ الْبِقَالِ الْبَيْتَيْنِ لَا زَلَّتْ مَا عَشَتْ كَذَا تُحْجَيْنِ

وفي نفس السنة حجت سَكِينَةُ بنت الحسين (ت ١١٧هـ/٧٣٥م) فكانت عائشة أحسن منها آلة وثقلاً فقال حادي سَكِينَةَ:

عائش هذه ضَرَّةٌ تُشْكَوِكِ لَوْلَا أُبُوها مَا اهْتَدَى أَبوكِ

فأمّرت عائشة حادياً أن يكف، فكف احتراماً لسَكِينَةَ<sup>(xvi)</sup>.

وهذا يوضح التنافس بين نخب نساء العصر الأموي في تجهيز مواكب الحج، وأنه قد يُراد بها إبراز وجاهة اجتماعية.

وكانت مواكب الحج النسائية في العصر الأموي مزينة بأفخر الزينة تصل إلى مكة بمرافقة الجوّاري والخدم التي تسمح لهم صاحبة الموكب بذلك لتأدية فريضة الحج طلباً للأجر والثواب، فهذه عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان حجت مصطحبة معها الجوّاري<sup>(xvii)</sup>. وكذلك لما حجت عاتكة بنت يزيد بن معاوية (ت ١٢٦هـ/٧٤٣م) كان معها جواريتها<sup>(xviii)</sup> إضافة لما سبق ذكره للتو عن حج عائشة بنت طلحة وسَكِينَةُ بنت

مع نظيه النساء في ممبئي إلى بيته الله الحرام في العهدين الأموي والعباسي موأكبته وسترته

الحسين<sup>(xviii)</sup>، وكذلك فقد اصطحبت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان معها الجواري والخدم<sup>(xix)</sup>، أما أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فلما استأذنت زوجها الخليفة الوليد بن عبد الملك في الحج، وأذن لها حجت سنة ٧٩١هـ/٧١٠م ومعها من الجواري ما لم ير مثله حسنا على رأسهن جاريتهما الشهيرة غاضرة وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً أن يذكرها أحد منهم أو يذكر أحداً ممن معها<sup>(xx)</sup>.

وقد عكست المبالغة بزيادة مظاهر مواكب الحج بين النساء التنافس الشديد بينهن، لاسيما القرشيات، سواء كن من المقيعات في الحجاز، أو ممن يقمن في دار الخلافة في بلاد الشام.

وكانت هناك مواكب تنافس مواكب نساء الخلفاء وعلية القوم منها موكب المغنية الشهيرة جميلة السلمية (ت ١٢٥هـ/٧٤٣م)، ويشتمل على الهوداج والقباب المزينة على الإبل التي تميزت بالفخامة والتجمل، وخرج معها عدد من الرجال والنساء مشيعين ومشيعات لها، ومعظمت لقدرها، وخرج معها ثلاثون رجلاً وتخابروا في اتخاذ اللباس العجيب الظريف، وكذلك في الهوداج والقباب، كما خرج معها عدد من المغنيات، ولحقها خمسون قينة وجه بهن مواليهن معها، فأعطوهن النفقات، وحملوهن على الإبل في الهوداج والقباب ولكنها أبت إلا أن تنفق هي عليهن من مالها الخاص حتى قال من شاهد الموكب من الناس أنهم ما رأوا مثل ذلك الجمع سرفاً طيباً وخسناً وملاحة<sup>(xxi)</sup>. ولما اقتربت من مكة استقبلها عدد من مشاهير المغنين أمثال سعيد بن مسحج، وابن سريج، والغريص، وابن محرر، فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغن حاذق ولا مغنية إلا وكانوا معها، وخرج أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتها<sup>(xxii)</sup>. وربما كانت الأغاني في تلك المناسبة تظهر الزهد والورع والموعظة والتذكرة التي تناسب فريضة الحج، وهو ما يعرف بالغناء الديني.

وبذلك فإن شهريرات النساء في العصر الأموي لم يكن حجهن حدثاً عابراً كما هو الحال مع الألوف المؤلفة من النساء اللاتي حججن إلى مكة عبر السنين، وإنما هو حدث

يتناقل الناس أخباره قبل وصوله، ومما له دلالة أن المغنية جميلة السلمية خرجت لها الجموع من أهل مكة مستقبلة لها، ونحو ذلك فعل لها أهل المدينة عند خروجها منها حينما خرجت الجموع لتوديعها، وذلك لشهرتها في مجال الغناء، حيث كانت ذات حظوة في مجتمعتها.

أما في العصر العباسي فقد كانت معظم أمهات الخلفاء يحججن بتجمل وزينة وسعة في العطاء وفي مكارم الأخلاق التي يضرب بها المثل حتى إنه ليتكرر في المصادر ذكر عبارة: "حجت كما تحج أمهات الخلفاء من التجمل والزينة، وسعة العطاء ومكارم الأخلاق"<sup>(xxiii)</sup>. حدث ذلك لما حجت الخيزران (ت ١٧٣هـ/ ٧٨٩م) زوجة الخليفة العباسي المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م) وأم ولديه الهادي (١٦٩-١٧٠هـ/ ٧٨٥-٧٨٦م) والرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) التي كان حجها في غاية التجمل<sup>(xxiv)</sup>.

ولما حجت السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور (ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م) وزوج الخليفة الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) وأم الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٨-٨١٣م) أنفقت في حجتها (ستين يوماً) أربعة وخمسين ألف ألف درهم<sup>(xxv)</sup> (أكثر من خمسين مليون درهم بحسابنا اليوم). ويصف المقرئ حجتها في كتابه الذهب المسبوك بأنها كانت حجة عظيمة<sup>(xxvi)</sup>، لكنه لم يوضح تفاصيلها عدا ما ذكر أنها حجت ماشية إلى مكة المكرمة<sup>(xxvii)</sup>. والجدير بالملاحظة أن المصادر الأخرى حينما تأتي إلى ذكر حجتها تستفيض في الحديث عن الخدمات والإصلاحات التي قدمتها للحجاج من غير ذكر لصفة الموكب أو القافلة التي خرجت معها على الرغم من تعدد ججاتها. وتقدر أن موكبها عظيماً وفارها، ولكن حسناتها وما قدمته للحجاج من خدمات وإصلاحات غطت على كل المظاهر الخاصة.

ولما حجت شجاع (ت ٢٤٨هـ) أم الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) في عام ٢٣٦هـ/ ٨٥١م مع ولد ولدها المنتصر بالله محمد بن المتوكل (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م) وصف تجهيز حجتها في تجمل زائد<sup>(xxviii)</sup>.



مع نخبه النساء في جصرت إلى بيت الله الحرام في المعبرين الأموي والعباسي مواعيد ومبررات

وتجدر الملاحظة أنه في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤ هـ/ ٨٤٧-٩٤٦ م) لا نجد إشارات واضحة إلى قوافل الحج، ولعل مرجع ذلك يعود إلى الضعف الذي حل ببلاط الخلافة وسيطرة الأتراك وتسلطهم وظهور بعض الحركات الخارجة عنها، مثل القرامطة الذين استفحل أمرهم في شرق الجزيرة العربية، وأفلقوا قوافل الحج المارة بالأراضي التي يسيطرون عليها خلال الفترة وسطوا على البيت الحرام وقلعوا باب البيت والحجر الأسود وطرحوا القتلى في بئر زعزم عام ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م ودام الحجر الأسود عندهم حتى عام ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م<sup>(xxx)</sup>.

أما بعد ذلك وخلال العصر العباسي الثالث أو عصر النفوذ البويهي (٣٣٤-٤٤٧ هـ/ ٩٤٦-١٠٥٦ م) فتفيض المصادر في ذكر مواعيد الحج الفاخرة ومنه في سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٧ م موكب جميلة ابنة ناصر الدولة الحسن بن عبدالله ابن حمدان (ت ٣٧١ هـ/ ٩٨١ م) صاحب الدولة الحمدانية في الشام والموصل (٣١٧-٣٩٤ هـ/ ٩٢٩-١٠٠٤ م) في حجتها التي ضرب بها المثل في التجميل وأفعال الخير، فكان معها أربع مئة محمل أو كجاوة<sup>(xxx)</sup> لم يدر في أيها كانت لتساويها في الحسن والزينة، واستصحب البقول المزروعة في المراكب الخزف على الجمال التي قدرت بعشرة آلاف جمل، وأفردت للرجالة والمنقطعين ثلاث مئة جمل، وقيل خمس مئة، ونثرت على الكعبة حين شاهدها وقيل لما دخلتها عشرة آلاف دينار من ضرب أبيها، ولم تستصحب عندها وفيها إلا بشموع العنبر. وكان معها ألف عجوز، واعتقت ثلاث مئة عبد، وثلاث مئة أمة، وسقت جميع أهل الموسم السويق بالطيززد<sup>(xxxi)</sup> والتلج، وأعطت المجاورين عشرة آلاف دينار، وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب، حتى يقال أنفقت من الأموال الجزيلة ما لا يوصف بعضه عن زبيدة ولا غيرها من بنات الخلفاء ونساء الملوك<sup>(xxxi)</sup>.

وفي سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م حجت أسماء بنت شهاب السيدة الحرة الصليحية زوجة علي بن محمد بن علي الصليحي ملك اليمن ومكة في موكب فيه مائتي جارية مزينات

بالحلي والجوهر وبين يديها الجئانب<sup>(xxxiii)</sup> بمراكب الذهب المرصعة وفيها يقول الشاعر<sup>(xxxiv)</sup>:

قلت إذ عظموا لبليقيس عرشاً: دُست أسماء من عرش بلقيس أسمى  
وحجت أرجوان (ت ٥١٢هـ / ١١١٨م) أم الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧هـ /  
١٠٧٥ - ١٠٩٥م) ثلاث حجج كما تحج أمهات الخلفاء<sup>(xxxv)</sup>.

وشهدت سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٤م أي خلال العصر العباسي الرابع أو عصر نفوذ  
السلجقة (٤٤٧ - ٦٥٦هـ / ١٠٥٦ - ١٢٥٨م) عدة مواكب نسائية منها موكب زمرد  
خاتون (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) والدة الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ /  
١١٨٠ - ١٢٢٥م) وخاتون ابنة الأمير مسعود السلجوقي، وحجت معها الخاتون أم معز  
الدين صاحب الموصل زوج بابك أخي نور الدين صاحب الشام، والخاتون الثالثة ابنة  
الدقوسي صاحب أصبهان<sup>(xxxvi)</sup>. ووصف ابن جبير الوضع في الموصل واستعداد  
الخاتونتين أم معز الدين صاحب الموصل وبنيت الأمير مسعود للحج فيقول: "ومن أحفل  
المشاهد الدنيوية المربية بروز شاهدناه يوم الأربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل  
للخاتونين: أم معز الدين صاحب الموصل وبنيت الأمير مسعود فخرج الناس عن بكرة أبيهم  
ركباناً ومشاة وخرج النساء كذلك وأكثرهن راكيات وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج أمير  
البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال  
وأبهة قد جللوا أعناق إبلهم بالحريز الملون وقلدوها القلائد المزوقة. ودخلت خاتون  
المسعودية تقود عسكر جورايها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها  
سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات، فلا تكاد  
تبين من القبة موضعاً، ومطياتها تزحفان بها زحفاً، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع،  
ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب، ومراكب جورايها كذلك؛ مجموع ذلك الذهب لا يحصى  
تقديره. وكان مشهداً أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار، وكل ملك يقنى إلا ملك الواحد

مع نصح النساء أن يمتنعن إلى بيته الله الحرام من المعصية والأمور والعاسى وما كنن رمتن

القهار، لا شريك له<sup>(xxxvii)</sup>. ويذكر ابن فهد أن مواكبهن جمع لم يصل قط مثله من أمراء العجم الخراسانيين<sup>(xxxviii)</sup>.

وفي عام ٥٨٥هـ/٩٠٦م حجت زمرد خاتون مرة أخرى وتميز مواكبها بتجمل هائل، وسار في خدمتها صندل الخادم وطاشتكين وطفريل صاحب البصرة وكان معها في مواكبها ألفي جمل، وأنفقت في حجتها ما يقرب من ثلاثمائة ألف دينار<sup>(xxxix)</sup> حتى يقال: ثم تحج والدة خليفة في حياته إلا هي وأرجوان أم المقتدي وزبيدة أم الأمين<sup>(xl)</sup>. ويعلق الجزيري على هذه المقولة قائلا: لعل القائل لم يطلع على حجة الخيزران أم هارون الرشيد ولا على حجة والدة المستعصم<sup>(xli)</sup>. وفي كل هذه المقولات ما يفيد بتباري نساء البيت العباسي خاصة أمهات الخلفاء في الصرف على مواكبهن في الحج.

ولم تقتصر المواكب النسائية على وجهتهن إلى مكة بل كان لهن مواكب مماثلة عند توجههن إلى مدينة الرسول ﷺ وإن كان المعلومات المتيسرة عنها أقل بكثير مما هي في مكة. فمن ذلك مواكب خاتون ابنة الأمير مسعود بعدما فرغت من حجها متوجهة في السادس من محرم سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله، وقد رحلت إليه في مواكب مهيب، وهي راكبة في قبتها، وحولها قباب كرائمها وخدمها، والأفراء أمامها، والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم، فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها، ومشت إلى أن سلمت على النبي ﷺ، والخول أمامها، والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها، إشادة بذكرها، ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت المنحفة، والناس يتزاحمون عليها، والمقامع تدفعهم عنها. ثم صلت في الحوض بإزاء المنبر، ثم مشت إلى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة ففعدت في الموضع الذي يقال: إنه كان مهبط جبريل عليه السلام، وأرخي الستر عليها، وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها، واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة. فما زالت في موضعها إلى الليل<sup>(xlii)</sup>.

ويصف ابن جبير موكب عودتها إلى بلادها بأنها استقلت هودجاً عليه جلال مذهب، وأمامها رعي من فتيانها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق، ووراءها ركب من جواربها قد ركن المطايا والهماليج على السروج المذهبة وعصين رؤوسهن بالعصائب الذهبية، ولها الرايات والطبول والأبواق تُضرب عند ركوبها ونزولها<sup>(xiii)</sup>. وقد يعود سبب خروجها في موكب بهذا القدر من الأبهة والإجلال إلى مكانة والدها الحاكم، وأن دولته قد بلغت شأنًا كبيراً من التقدم والتوسع والرفاه الاقتصادي.

أما هودج الشريفة جمانة بنت فليحة عمة الأمير مكثر<sup>(xiv)</sup> فوصفه ابن جبير بأغرب مشاهد من الهودج فأذيان ستره كانت تنسحب على الأرض انسحاباً، وكذلك كان هودج حرم الأمير وحرم قواده، وهودج لم يستطع ابن جبير تقيد عدتها عجزاً عن الإحصاء. فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المصرية، فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق<sup>(xiv)</sup>.

كذلك من ضمن المواكب موكب ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل في عام ٦٠٨هـ / ١٢١٢م حيث تذكر المصادر أن الخليفة احتل بها، وجهازها بما يليق بها<sup>(xvi)</sup>. ولما حجت والدة الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨م) في سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م كان قوام موكبها ألف وسبعمائة وثلاثون رجلاً. ويذكر ابن فهد: أن الخليفة المستعصم بالله جهز الحجاج مع والدته، وجهاز لهم السلطان نور الدين ابن رسول هدية عظيمة وأمر متولي مكة الشلاح<sup>(xvii)</sup> بخدمتهم، وإقامة حرمتهم وتوجه في خدمتها الأمير مجاهد بن آيبك الدوادري وسيف الدين قيران أمير الركب وخلع على من كان بخدمتها وأنعم على مجاهد الدين الدوادار بخمسة عشر ألف دينار عينا وحلة وفرسا<sup>(xviii)</sup>.

أما آخر موكب حج نسائي عثرنا عليه خلال فترة البحث هو موكب ملكة مصر شجرة الدر الصالحية زوجة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت ٦٥٥هـ) عندما خرجت حاجة من مصر في سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م في موكب رسمي يليق بمكانتها تحيط

مع نعيه النساء من جسدته إلى بيته المأهلاً من المعهدين الأوسى والعاسى سواكسده وسرهت

به مظاهر الاحتفال والأبهة والزينة، وقد أعد لها زوجها محملاً فخماً من قافلة كبيرة فيها الخدم والجنود حرس خشية عليها من أخطار الطريق واللصوص، وعمل لها احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة. وقيل إنها أول من ابتدأ تقليد خروج المحامل مع قافلة الحج، ثم صار خروج المحمل على تلك الصورة عادة يقوم بها ملوك مصر كل سنة، وبالفون في الاحتفاء به<sup>(xlii)</sup>.

ولعل من المفيد قبل ختام فقرة المواكب النسائية أن نورد تصنيف الرحالة ابن جببر (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) لهوداج النساء في الحج وفقاً للمنزلة الاجتماعية لهن؛ فذكر: الكجاوات أو القشاوات ووصفها قباب بديعة المنظر عجيبة الشكل توضع على محامل فوق الإبل، وهذا النوع من المراكب كان مخصص لعلية القوم أصحاب الأموال والمناصب الرفيعة<sup>(i)</sup>. ومنها الهوداج المكسوة بأنواع الحرير و ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدي بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الأستار التي على الهوداج حتى تسحب أذيالها على الأرض. وذكر الهوداج الفخمة، وهي عبارة عن صناديق كبيرة تحمل فوق جملين<sup>(ii)</sup>.

ومنها: الشقاديف، جمع شقدف، وهي أشباه المحامل أحسن أنواعها اليمانية مريحة، عليها ظلال تقي حر الشمس هي من مراكب الأغنياء، وهي أقل من الكجاوات في الفخامة والراحة. ومنها: المحارات وهي محامل صغيرة ويذكر ابن جببر: "الشقادف أبسط وأوسع والمحارات أضخم وأضيق"<sup>(iii)</sup>.

ومنها العجلة أو العربية؛ وهي التي تجرها الإبل، ويكون عليها قبة<sup>(iv)</sup>.

أما عن مدة رحلة الحج فهي بلا شك تخضع للترتيب المتبع من قبل منظمي الرحلة، وفي العصر العباسي ينكر أن خروج الحاج من بغداد كان في سابع عشر من شوال، وقد تستمر رحلة الحج ثلاثة شهور وثمانية عشر يوماً كما حدث في رحلة حج

والدة الخليفة المستعصم بالله ٦٤١هـ / ١٢٤٤م حيث كان تاريخ عودتها ووصولها إلى بغداد في خامس صفر سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م<sup>(١٧)</sup>.

وقد تخرج إلى مكة وتقضي فيها شهر رمضان وتقيم فيها حتى وقت الحج فتحج كما فعلت الخيزران في سنة ١٧١هـ<sup>(١٧)</sup>.

وعادة ما يصحب المرأة واحد أو أكثر من محارمها فشجاع أم الخليفة المتوكل حجت مع ولد ولدها محمد المنتصر بالله وشيعها المتوكل إلى النجف عام ٢٣٦هـ / ٨٥١م<sup>(١٧)</sup>.

وحجت جميلة بنت الملك ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٨م بمعية أخيها إبراهيم<sup>(١٧)</sup>.

أما عن رحلة وداع واستقبال النساء عند خروجهن للحج وبعد عودتهن من الحج فهي أيضا تتفاوت من امرأة لأخرى؛ ويبدو أن الأمر راجع إلى شهرتهن ومكانتهن في المجتمع؛ فيروى أن معظم قبايل وقبائل الحجاز استقبلن المغنية الشهيرة جميلة عند قدومها لتأدية فريضة الحج وفي رواية خرج أبناء مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتها ولما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرفهم من الرجال والنساء وخرج الرجال والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها<sup>(١٧)</sup>.

ولما حجت أم الخليفة المستعصم بالله ركب ولدها الخليفة المستعصم بالله لوداعها<sup>(١٨)</sup> ولما عادت الخيزران من الحج خرج شريك قاضي الكوفة يتلقاها وحمل معه خبزاً فقال الشاعر<sup>(١٨)</sup>:

فما لك حين تخرج كل يوم      تلقى من يحج من النساء  
وسودت القميص فصرت فيه      تطوف يا شريك مع الإمام

مع نخبه النساء في جمعتهن إلى بيته الفرام في المعصية الأموي والعاسي مواكبهن ومرتحن

وخرج مؤيد الدين محمد بن العفقي وسائر أرباب المناصب لتلقي والدة الخليفة المستعصم عند عودتها في ثالث صفر سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م<sup>(ix)</sup>.

من خلال ما سبق يتبين مدى الترف والبذخ والمباهاة التي كانت عليها مواكب الحج النسائية، وما يصحبها من النفقات والأمتعة، وقد اقتصرت هذه المواكب على عليّة القوم، وأصحاب المناصب الرفيعة في الدولة. وقد بدأت في العصر الأموي وكثرت في العصر العباسي الأول، وعظم شأنها في العصور العباسية التالية. حيث أظهرن من التجمل ما يتجاوز حدود الاستطاعة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فقد رأينا أن المرأة الحاجة تُظهر من الألبهة والمبالغة في الصرف على حجها والمفاخرة في المواكب، واصطحاب الخدم والحشم والأعوان ما يفوق التصور، ويدعو إلى التوقف عنده، ومناقشة ما قد يظهر فيه للقارئ أنه من قبيل المبالغات، على أن الباحثة تجد صعوبة في التشكيك في حجم تلك التكاليف ومدى دقتها؛ لأن معظم المصادر التي أوردت تلك الأرقام معظمها معاصر للأحداث أو قريب للمعاصرة؛ وليس لدى الباحثة من الأدلة ما يدحضها. ومن ناحية أخرى فإن بعض تلك المبالغ تصرف على إصلاحات في مكة أو صدقات على ضعفائها والمجاورين بها - كما سيرد - مما يبرر الزيادة الكبيرة في مقاديرها يضاف إلى ذلك أن معظم هذه الأرقام مدعومة من خلفاء ذلك الزمان وسلطينهم أي أنها من أموال الدول.

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التاريخية لم تسعنا بذكر أي من نساء الخلفاء الفاطميين وبناتهم وبنات أكابر رجال دولتهم من حيث تأديتهن للحج طوال سني حكمهم في مصر وقبل ذلك في أفريقيا. ولا غرابة في ذلك فالخلفاء الفاطميون أنفسهم لم يؤثر عنهم أنهم أدوا فريضة الحج والعمرة إلى مكة المكرمة، وزيارة مدينة الرسول ﷺ، وقد عرض أحد الباحثين لموضوع عدم حج الفاطميين وناقشه بإفاضة مبديا بعض الأسباب والتبريرات الداعية إلى ذلك<sup>(xii)</sup> مما لا نرى مناسبة للتفصيل فيها في هذا البحث المتخصص.

### الأعمال الخيرية والعطايا لنُخب النساء في الحج

كان لنُخب النساء مساهمات فعالة في أفعال الخير منذ خروجهن للحج ومفادرتهن منازلهن؛ فمن ذلك إغداق العطاء في طريق الحج، أو في مكة، أو في منطقة المشاعر المقدسة؛ فقد وزعن أمهات المؤمنين العطايا والصلوات في حجهن سنة ٢٣هـ وفي رواية أعطت كل واحدة منهن أم معبد بنت خالد بن خليف خمسين ديناراً وصلة<sup>(lxiii)</sup>.

وفي العصر الأموي أجزلن نساء البيت الأموي العطاء والكساوي والألطاف عند حجهن مثل عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان<sup>(lxiv)</sup>. وعاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان<sup>(lxv)</sup>.

وأما أم عمر بنت مروان بن الحكم فقد قالت لأشعب بن جبير المدني لما حجت: أنت أعرف للناس بأهل المدينة فأذن لهم على مراتبهم<sup>(lxvi)</sup>.

وأنفقت أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان بسحاء كبير على أهل الحرمين وورد عنها القول: "جعل لكل قوم نعمة في شيء وجعلت نهمتي في البذل والعطاء والله للصلة والمواساة أحب إلي من الطعام الطيب على الجوع ومن الشرب البارد على الظما". فكانت تبعث إلى نسائها فتجمعهن وتكسوهن الثياب الحسنة وتعطينهن الدنانير وتقول: "وهل ينال الخير إلا باصطناعه" و: "ما حسدت أحدا قط على شيء إلا أن يكون ذا معروف فأني كنت أحب أن أشركه في ذلك"<sup>(lxvii)</sup>. وكانت فاطمة بنت عبد الملك توزع الأموال في موسم الحج<sup>(lxviii)</sup>.

ومن نساء العصر الأموي الموسرات عائشة بنت طلحة التي كانت تعد لمن يجيء إليها مستجماً أو ساللاً سواء من أهالي مكة أو من الوافدين إليها كسوة وأطاف؛ فجاءتها الثريا بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية وإخوتها، ونساء أهل مكة القرشيات وغيرهن، فجعلت تخرج كل واحدة ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشة من الخلع والأطاف<sup>(lxix)</sup>، وأعطت المقني الفريض خمسة آلاف درهم وثياباً عذنية وأطاف<sup>(lxx)</sup>. وقدمت



مع نخبه النساء في جصحت إلى بيت الله الحرام في العصور الأوسى والعباسى موأكسبت وسرعت

سكينة بنت الحسين الأعطيات والهبات في موسم الحج وقد أمرت مرة بتوزيع جمل قوي يحمل أثقالاً ومائة دينار<sup>lxxi</sup>.

وتبارين نساء الخلافة العباسية في الإصلاحات التي باتت شواهد على جودهن وحسن صنيعهن على مر السنين، وقد كلفهن ذلك نفقات طائلة؛ فلما حجت الخيزران زوجة المهدي في سنة ١٧١هـ/٧٨٨م أنفقت أموالاً كثيرة في الصدقات وأبواب الخير؛ فقد اشترت الدار المعروفة بدار الخيزران عند الصفا، وجعلت الموضع الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً يصلى به، وأمرت ببناء القصور والحصون والعديد من المرافق في طريق الحج، وعمرت الاستراحات في منى وعرفات<sup>lxxii</sup>. وقسمت بالمدينة المنورة أموالاً وأجازت بجوائز عظيمة وزوجت أيتاما وقسمت في النساء آنية من ذهب وقضة مملوءة من أنواع الطيب، وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالا يعطونه<sup>lxxiii</sup>.

أما السيدة زبيدة زوجة الرشيد فقد قامت بالكثير من المآثر الجليلة التي خلها التاريخ فقد أنفقت في إحدى حجاتها أربعة وخمسين ألف<sup>lxxiv</sup>، وفي رواية أخرى أنفقت في مكة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار<sup>lxxv</sup>؛ فعندما حجت ورأت حجاج بيت الله الحرام يقاسون الأمرين من قلة المياه وصعوبة الحصول عليها فأمنت لهم المياه العذبة كما سقت أهل مكة بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحو الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم فقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة فقالت: أعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار، فبلغت النفقة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار<sup>lxxvi</sup>. وحفرت لهم الآبار والعيون منها: عين مشاش<sup>lxxvii</sup> التي حفرتها ومهدت الطريق لعانها من كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة كما عملت على إجراء عين وادي نعمان<sup>lxxviii</sup> إلى عرفات، وأمرت بعمل أحواض الوضوء في الحرم المكي، وزوت الطريق من عرفات إلى مكة بآبار محفورة، وأوقفت عليها من مالها الخاص ما يقارب ثلاثين ألف دينار سنوياً، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة من مصانع وبرك أحدثتها، وقيل إنها بنت حائطاً من بغداد إلى مكة،

وحفرت الآبار في كل مرحلة<sup>(xxx)</sup>، كما أمرت السيدة زبيدة بحفر البرك والمصانع على طريق الحجاج ليستفيدوا منها<sup>xxx</sup>. وكانت تحتصب الأجر في كل ذلك فقد ورد عنها القول: "غفر لي الله بأول معول ضرب في طريق مكة"<sup>xxx</sup>. وفي حجتها عام ٢١١هـ / ٨٢٧م أنفقت في بناء المساجد منها مسجد في طريق مكة بين العقيق والعذيب<sup>(xxxii)</sup>.

ولما حجت شجاع التركية - أم الخليفة المتوكل على الله - في سنة ٢٣٦هـ / ٨٥١م أنفقت أموالاً جزیلة وأمرت لكل رجل من الطالبيين والعباسيين ألف درهم ولأبناء المهاجرين بخمسمائة درهم ولكل امرأة من الهاشميات بخمسمائة درهم، وأمرت في حجة أخرى لها في سنة ٢٤٦هـ / ٨٦١م بإجراء الماء من عرفات إلى مكة وكلفها مائة ألف دينار<sup>(xxxiii)</sup>.

وكان للسيدة شرف والدة الخليفة العباسي المقتدر بالله اهتمامات كبيرة بالأماكن المقدسة في مكة، فقد كانت تواظب على مصالح الحجاج وتبعت معهم في كل موسم خزائن الشراب والأطباء. وكانت تأمر بإصلاح الحياض في مكة المكرمة؛ فعمرت عدة منشآت مائية منها: في عام ٣٠٦هـ / ٩١٥م حيث قامت بحجارة البئر المعروف بسبيل الجواحي والآبار التي وراءه<sup>(xxxiv)</sup>. وأمرت في سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣م غلامها نؤلؤ بالباس الاسطوانة التي تلي باب الكعبة صفائح الذهب من أسفلها إلى أعلاها وكان بعضها قبل ذلك ملبسا بصفائح الذهب، والبعض الآخر كان مموها<sup>(xxxv)</sup>. وفي عام ٣١٥هـ / ٩٢٨م عمرت خمس برك بأرض عرفة وذلك لسقيا الناس في مواسم الحج<sup>(xxxvi)</sup>.

أما السيدة جميلة بنت الملك ناصر الدولة بن حمدان فقد قدمت كثيرا من أفعال الخير والبر بمكة عندما حجت سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م فمنها: وزعت عند رؤيتها الكعبة عشرة آلاف دينار للفقراء، وسقت أهل الموسم السويق بالسكر والثلج، كذلك أعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي جارية وكان من ضمن نفقاتها أيضا أن قامت بتوزيع المال على المجاورين بمكة حتى أغنتهم وقامت بخلع خمسين ألف ثوب على كبار الناس<sup>(xxxvii)</sup>.

مع نوبة النساء في بصيرة إلى بيعة الله الحرام في المهرين الأموي والعباسي موأكبت ومترهت

وقد قذمت الملكة أسماء بنت شهاب الصليحية زوجة علي بن محمد الصليحي صدقات كثيرة لأهل مكة حين حجت سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م<sup>xxxviii</sup>.

وأوقفت قهرمانة المقتدي عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م الرباط المعروف بالفقاعية عند الباب المنفرد في زيادة دار الندوة على المنقطعات الأراميل<sup>xxxix</sup>.

وكذلك كانت أرجوان بنت عبدالله قرّة العين أم الخليفة المقتدي امرأة صالحة البر والمعروف، بنت بمكة رباطاً وأثارت حسنة<sup>xc</sup>.

أما الملكة الحرة غلم أم فاتك آخر ملوك دولة آل نجاح باليمن فقد كانت موفقة للخير، تحج بأهل اليمن برا وبحرا فيأمنون بخفارتها من الأخطار والمكوس<sup>xci</sup>.

وكان للخواتين ابنة الأمير مسعود أم معز الدين صاحب الموصل وابنة الدقوسي صاحب أصبهان أعمال بر في طريق الحج وسقات على الناس في حجهن<sup>xcii</sup> ومنها ما خصصته الخاتون ابنة الأمير مسعود من ثلاثين من الإبل لسقي ماء السبيل وثلاثين مثلها للزاد بالإضافة إلى مائة من الإبل التي كان فيها كسوة للناس<sup>xciii</sup> وفي ذلك يذكر ابن جبير: "أخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه أنها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لأفعال البر فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا إلى الحجاز في صدقات ونفقات في السبيل مالا عظيماً وهي تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متكررة رغبة في دعائهم وشأنها عجيب كله على شبابها وانغماسها في نعيم الملك والله يهدي من يشاء من عباده"<sup>xciv</sup>.

وكانت السيدة زمرد خاتون - أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي - كثيرة البر والصدقات على أهل الحرمين، ويقال أنها أنفقت ثلاثمائة ألف دينار في حجتها عام ٥٧٩هـ / ١١٨٤م، وأمرت بحفر الآبار في كل من مكة والمدينة، وأصلحت البزك والمصانع<sup>xcv</sup>. وأوقفت في ذلك العام رباطاً في الجانب الشمالي من المسجد الحرام يعرف برباط أم الخليفة على الفقراء والصوفية ذوي التقى والعبادة والعفاف والزهادة والصلاح والرشاد<sup>xcvi</sup>.

وكان لخاتون ابنة الأمير مسعود أعمال بر في طريق الحج عندما حجت سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٥م حيث خصصت ثلاثين من الإبل لسقي ماء السبيل، وثلاثين مثلها للزاد، بالإضافة إلى مائة من الإبل التي كان عليها كسوة للناس<sup>(xcvii)</sup>.

وأوقفت طاب الزمان الحبشية عتيقة المستضى العباسي في عام ٥٨٠هـ / ١١٨٥م مدرسة استقطعت من دار زبيدة على عدة من فقهاء الشافعية<sup>(xcviii)</sup>.

وقامت زوجة تقي الدين بن صلاح الدين يوسف الأيوبي في عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م بعارة بلر برياط الدمشقية في أسفل مكة<sup>xcix</sup>.

وقد أوقفت الأختان أم خليل خديجة وأم عيسى مريم ابنتا القائد أبي ثامر مبارك بن عبدالله القاسمي رباط ابن السوداء لسكناه به ويقال له أيضا رباط الهزيش قرب موضع الذي يقال له الدرية في عام ٥٩٠هـ / ١١٩٤م على الصوفيات المتدينات الخاليات من الأزواج الشافعيات المذهب<sup>c</sup>.

أما ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل فقد اتفق حجبها في عام ٦٠٨هـ / ١٢١٢م مع حدوث فتنة بمنى وبمكة وغارات على الحجاج حتى جاء أمير الحاج العراقي محمد بن ياقوت فدخل خيمة ربيعة خاتون مستحيراً بها ومعه خاتون أم جلال الدين فبعثت ربيعة خاتون إلى أمير مكة قتادة بن إدريس الحسني (٥٢٧-٦١٧هـ / ١١٣٢-١٢١٩م) تقول له: ما ذنب الناس قد قتل القاتل وجعلت هذه وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء والأموال في الشهر الحرام والله لئن لم تنته لأفعلن ولأفعلن، فكف عنهم وطلب منة ألف دينار وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون مابين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان<sup>(ci)</sup>.

وكانت والدة الخليفة المستعصم بالله سيدة كثيرة الصدقات والخلع على الأمراء وأهل الدولة المقيمين في مكة. وكانت سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م لم يُرَ أكثر منها خيراً حتى اشترى أهل مكة الأملاك، وعمر القصور، وخلوا نساءهم بالذهب والفضة، وتظاهروا بالنعم<sup>(cii)</sup>.

مع نساء بني جهم بن عبد الله الحرام بن العيص الأموي والعباسي مراكبه ومترعة

ولما حجت زوجة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول في عام ١٢٤٤هـ/ ١٢٤٧م قامت بتعمير مسجد الهليجة بالتنعيم المعروف باسم أم المؤمنين عائشة وحفرت بقرية بنراً عذبه<sup>(ciii)</sup>. كما عمرت في عام ١٢٤٥هـ/ ١٢٤٨م بنراً آخر بمعنى يقال له بنر أم الحمام بقرية أم النخلة<sup>(civ)</sup>.

وقد ورث نساء البيت العباسي هذا النهج من الحرص على الحج وتقديم الصدقات والأعمال الخيرية إلى ما بعد فترة البحث فالمسيدة زاهدة بنت محمد بن مبارك بن الخليفة المستعصم بالله (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) كانت تحج سنوياً وتأخذ معها عدداً من الفقراء والخدم<sup>(cv)</sup>.

تلك القربات والنفقات السخية وأمثالها توقفت على الثراء والرفاه الاقتصادي الذي كانت تتمتع به النخب النسائية في فترة البحث، وحرصهن على يلحقن حجهن بالمزيد من العطايا والأعمال الخيرية التي خلدها لهن التاريخ.

ويظهر من خلال الملحق الموضح لمن حج من نخب النساء في العصرين الأموي والعباسي أن نسبة الحاجات وتجميلهن في الحج في العصر العباسي تفوق العصور الأخرى؛ وربما يعود ذلك لطول فترة الخلافة العباسية، وكثرة الأموال في خزائن الدولة. كما أن معظم صاحبات المواكب كن من خارج شبه الجزيرة العربية من ذوات المكانة الاجتماعية مثل أمهات الخلفاء وبنات الملوك والأمراء والتجار.

ولنلاحظ أن أكثر النساء يحرصن على الحج مرة أو مرتين إلا أن بعضهن حججن عدة مرات مثل عائشة بنت طلحة ولعل مرجع ذلك إلى الحديث الذي رواه عن خالتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَلَا تُغَرِّوْا وَلِجَاهِدٍ مَعَكُمْ؟ فَقَالَ: لَكِنْ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَجْمَلُهُ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ فَقَالَتْ غَائِشَةُ: فَلَا أَدْعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَبَغْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(cvi)</sup>. وقد تصل أحياناً عدد حجّاتهن إلى ثلاثين حجة مثل نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب (ت بعد ٢٠٨هـ/ ٨٢٤م)<sup>(cvii)</sup> وحجت أم سالم بنت مالك الراسبية البصرية سبعة عشر حجة<sup>(cviii)</sup>. ويقال أن أرجوان قرّة

العين أم الخليفة المقتدي حجت مرارا<sup>(cix)</sup>، وعُرفت الملكة اليعانية عُم أم فاتك بن منصور بكثرة حجها<sup>(cx)</sup>.

تعددت أوجه الخدمات التي قدمتها النساء عند حجهن لاسيما سيدات البلاط العباسي وصنقات وأعطيات نساء اليمن والعرق والشام؛ وقد حظيت مكة بقدر كبير من هذه الإنجازات فبالإضافة إلى الأعطيات التي وزعتها منذ خروجهن للحج وحتى عودتهن إلى بلادهن فقد ساهمن في الكثير من الأعمال الخيرية لاسيما حفر الآبار وبناء البرك وإجراء العيون مما ساهم في سقاية الحجيج وتيسير وجود الماء بعد أن كان الحجاج يلاقون من المشقة والتعب في الحصول على الماء. وحرصن على عتق الرقيق وتوزيع الكساوي على الفقراء والمجاورين في موسم الحج. ووقفن الدور على الفقراء، والأربطة على طلبية العلم، وعمران المساجد.



مع نخب النساء في جبهته إلى بيت الله الحرام من العصرين الأموي والعباسي موأكبته ومركزته

### ملحق من حج من نخب النساء في العصرين الأموي والعباسي

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
أمية بنت محمد (أبو البركات بن الزمان) بن الحسن بن طاهر لم يجد القرشي	العباسي	٥٥٥ هـ	ثلاث حجج	أوقفت رباطاً لسكنى الفقراء من النساء	ابن عساکر: تراجم النساء، ص ٤٩، ٥٠.
أرجوان بنت عبد الله قرة العين جارية الذخيرة أم ولد أرمنية أم الخليفة المقتدي (ت ٥١٢ هـ)	العباسي	لم يحدد	ثلاث حجج ولسبدي الصنفدي حجت مراراً	امراة صالحة كثيرة البر والمعروف، بنت بمكة رباطاً ولها فيها آثاراً حسنة.	ابن الجوزي، ج ١٦ ص ١٦٥؛ ج ١٧ ص ١٧٤؛ ابن كثير، ج ١٢ ص ١٨٣؛ الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦-٤٨٧؛ كحالة، ج ٤ ص ١٩٢.
اسماء بنت شهاب الصليحية السيدة الحرة الكاملة زوجة علي بن محمد بن علي الصليحي صاحب اليمن ومكة ووالدة ابنه الملك المنصور أحمد بن علي يخطب لها علي المنابر (ت ٤٨٠ هـ)	العباسي	٤٥٥ هـ وما	لم يحدد	تقربت بكافة المؤمنين كان لها صدقات كثيرة وكرم فائق وعدل وافر	ابن الجوزي، ج ٨ ص ٢٣٢؛ ابن الأثير، ج ١٠ ص ١١١؛ الفاسي: شفاء القرام، ج ٢ ص ١٩٥-١٩٦، ٢٢٧؛ العقد، ج ٦ ص ٢٣٩، ٢٤٤؛ ابن كثير، ج ١٢ ص ٨٩، ٩٠؛ ابن تغري بردي، ج ٥ ص ٧٢؛ ابن فهد، ج ٢ ص ٤٦٨؛ الرشيد، ص ١١٣-١١٤؛ الحضرأوي، حسن الصفا، ص ١٥٢؛ الزركلي، ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٦.

المصادر والمراجع	أعمالها في الحج	عدد حجاتها	سنوات الحج	العصر الذي تنتمي إليه	المسرة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها
ابن عساکر، ص ٣١، ٤٩.	لم يحدد	لم يحدد	٥٥٥ هـ	العباسي	أسماء بنت محمد (أبو البركات بن الران) بن الحسن بن طاهر القرشي (ت ٥٩٥ هـ)
ابن عساکر، ص ٥٠.	لم يحدد	لم يحدد	٤٣١ هـ	العباسي	أمة العزيز بنت محمد بن الحسن الديلمية
البلذري: أنساب الأشراف، ج ٨ ص ١٨٩ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٦ ص ١٣٥ ابن عبدبريه، ج ٦ ص ١٤١ ابن عساکر، ص ١٤٨٠ المكتبي، فنون الوفيات، ج ٢، ص ٧٣.	حجت بجواربها ومنهن الشهيرة غاضرة	لم يحدد	٩١ هـ	الأموي	أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان زوج الوليد بن عبدالملك
الفاشي: العقد الثمين، ج ٨ ص ١٩١ ج ١ ص ١٢٢ وفي شفا الغرام، ج ١ ص ٣٣٥.	لها رباط معروف يرباط بنت التاج في أجياد.	لم يحدد	لم يحدد	العباسي	تاج النساء - الناس - بنت رستم بن أبي الرجا الأصبهانية (ت ٦١٠ هـ)
ابن جبیر، ص ١٠٧.	لم يحدد	لم يحدد	لم يحدد	العباسي	جمانة بنت فتيحة عمة الأمير مكنـر (٥٨٧ هـ - ٥٩٧ هـ)



مع رغبة النساء في معرفة إله المرام في المهرين الأموي والعاسي موكبين وشرهين

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجتها	أصلها في الحج	المصادر والمراجع
جميلة المسلمية (ت ١٢٥هـ) كانت زوج أحد موالي بني الحارث من الخزرج فقبل مولاة الأنصار وقيل مولاة الحجاج بن علاط السلمي فقصبت إلى بني سليم	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	خرج معها ثلاثون رجلاً وخمسون قبيلة أنفقت عليهم من مالها الخاص.	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٧ ص ١٢٨؛ النويري، ج ٤ ص ١٤٧؛ كحالة، ج ١ ص ٢١٢-٢١٣.
جميلة بنت الملك ناصر الدولة الحسن بن حمدان (ت ٣٧١هـ)	العباسي	٣٦٣هـ - ٣٦٦هـ - ٣٦٨هـ	لم يحدد	لها نفقات بالطريق سقت أهل الموسم الموسيق بالطبرزد والتنج اعتقت ثلاث مئة عبد وثلاث مئة أمة. كسبت المجاورين، حنعت عن طبقات الناس خمسين ألف ثوب	ابن الجوزي، ج ١ ص ٢٤٨؛ الفاسي: شفاء، ج ٢ ص ٣٥٣؛ الفاسي: العقد ج ١ ص ١٨٦؛ ابن فهد: إتخاف الوري ج ٢ ص ٤١٤-٤١٥؛ الذهبي: ج ١ ص ٢٢٦؛ البيهقي: ج ٢ ص ١٣٨٥؛ العماد، ج ٣ ص ١٥٥؛ ابن تغري بردي، ج ٤ ص ١٢٦؛ العمري، ج ٣ ص ٣٧٠؛ كحالة، ج ١ ص ٢١٤-٢١٥.
أم الحسين بن شهاب الدين الطبري	لم يحدد	لم يحدد	لم يحدد	سبيل بالمعسر قريب المعسر	كحالة، ج ١ ص ٢٦٢.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
خاتون بنت الأمير مسعود ملك الدروب والأرمين	العباسي	٥٧٩هـ	مرة واحدة	لها موكب ونفقات وسقيا للمسبيل والحجاج.	ابن جبير، ص ١٦٦ ابن فهد: إتحاف السوري، ج ٢ ص ٥٥٠؛ كماله، ج ١ ص ٣١١.
أم خليل خديجة ابنة القائد أبي ثامر مبارك بن عبدالله القاسمي.	العباسي	٥٩٠هـ	لم يحدد	أوقفت الرياط المعروف بان الموداء عام ٥٩٠هـ.	القاسمي: شفاء، ج ١ ص ٥٣٧؛ ابن فهد إتحاف السورى، ج ٢ ص ٥٦١.
الخيرزان بنت عطاء جارية المهدي يمانية جرشيّة الأصل اشترها المهدي وأعتقها وتزوجها وأنجب له الخديفتين الهادي وإرشيد (ت ١٧٣هـ)	العباسي	١٧١هـ	لم يحدد	أوقفت الدار المعروفة بها عدد الضما أنعتت أموالا كثيرة في الصدقات.	الأزرقى، ج ١ ص ١٦٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨ ص ٢٣٥؛ الخطيب البغدادي، ج ١٤ ص ٤٣٠؛ المسعود، ج ٣ ص ٣٢٤، ٣١٣، الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٢ ابن فهد إتحاف السورى، ج ٢ ص ١٢٥؛ القاسمي: شفاء الفسرام، ج ١ ص ٣٦٢؛ الجزيري، ج ٢ ص ٤٧٠؛ الأزرقى، ج ٢ ص ٣٢٨، ج ١ ص ٣٩٨؛ كماله، ج ١ ص ٣٩٥.

مع نخبه النساء في جمعيت إحياء بيت الله الحرام من المعصيات الأموي والعباسي مواعيد ومتردد

المصادر والمراجع	أعمالها في الحج	عدد حجاتها	سنوات الحج	العصر الذي تنتمي إليه	المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها
ابن فهد: إتحاف السورى، ج ٢ ص ٥٥٠: الجزيري، ج ٢ ص ٥٧٣.	كان لها موكب عام ٥٧٩هـ	لم يحدد	٥٧٩هـ	العباسي	ابنة الدقومي صاحب أسبهان
الفاسي: شفاء، ج ٢ ص ١٣٧١ ابن فهد: إتحاف السورى، ج ٢ ص ١٠: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.	انفقت أثناء حجها عام ٦٠٨هـ		٦٠٨هـ	العباسي	ربيعه خاتون (ت ٦٤٣هـ) أخت الملك العادل صلاح الدين الأيوبي
ابن بطوطة، ج ١ ص ١١٥: كحالة، ج ٢ ص ٤.	يحج بصحبته سنويا عدد من الفقراء والخدم.	تحج سنويا	لم يحدد	العباسي	زاهدة بنت محمد بن مبارك بن الخليفة المستنصر بالله (ت ٧٢٦هـ)
الفاكهي، ج ٢ ص ٣٣: الخطيب البغدادي، ج ١ ص ٤٣٣: ابن جبير، ج ١ ص ١٥٢: ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤: الفاسي: العقد، ج ٥ ص ٢٨، ج ٨ ص ٢٣٦-٢٣٧: شفاء، ج ١ ص ١٥٥٣: ابن فهد: إتحاف السورى، ج ٢ ص ٢٤٨، ٢٨٥: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٤، ٤٨٢.	انفقت في بناء البرك والآبار والمساجد في مكة والمدينة وكان لها نفقات بطريق هي أثناء الحج وأجرت عيونا من الحل، إلى الحرم من المشاش، واتخذت لها بركا تكون فيها السيول، وأجرت بها عيونا من حنين واشترت حائط حنين فصرفت عنه إلى البركة، وجعلت حائطها سد تجتمع فيه السيول.	غير مرة هكذا ذكر ابن خلكان والفاسي	١٦٨هـ، ٢٠٨هـ، ٢١١هـ	العباسي	زبيدة أمة العزيز أم الأمين بنت جعفر بن الخليفة أبي جعفر المنصور زوجة الرشيد وأم الأمين (ت ٢١٦هـ)

المرأة: اسمها، نمبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
زوجة الملك المنصور صاحب اليمن	العباسي	٦٤٤هـ	لم يحدد	عمرت مسجد الهيلجة - مسجد عائشة: الضعيف - وعمرت بقريه بنرا عذبة	القاسي: شفاء، ج١ ص ١٥٥٠ الجزيري، ج٢ ص ٤٨٧.
زمره خاتون صفوة الملوك بنت الأمير جاولي بن عبدالله الدمشقي ت ٥٥٧هـ أخت الملك دقاق تاج الدولة صاحب دمشق لأمه وزوجة تاج الملوك بوري وأم ولديه إسماعيل شمس الملوك محمود	العباسي	لم يحدد	أكثر من مرة	محبسة للخير مكرمة لأهل العلم	ابن عساکر، ١١١٢ الزركلي، ج٣ ص ٤٩.
زمره خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله العباسي (ت ٥٩٩هـ)	العباسي	٥٧٧هـ ٥٧٩هـ ٥٨٥هـ	لم يحدد	كتيبة البصر والصدقات على أهل الحرمين. حفر الأبار في كل من مكة والمدينة. أصلحت البرك والمصانع. عمرت القرية عند قبر معسروف الكرخي والمدرسة التي جاتبها وأوقفت رياضاً في الجانب الشمالي من المسجد الحرام رياض أم الخليفة	الصفدي، ج١٤ ص ٢١٣ القاسي: شفاء، ج١ ص ٥٢٨ القاسي: العقد الثمين، ج٨ ص ١٢٣٨ ابن قهد: إتحاف السورى ج٢ ص ٥٥٢ ابن تقمري يسري، ج١ ص ٥٩٩، ١١٣ كحاله، ج٢ ص ٣٩.

مع نسبة النساء في جميع هذه إلى أبيه الخادم في العهدين الأموي والعباسي مواكبته ومشاركته

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حاجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
أم سالم بنت مالك الراسمية البصرية تابعة من الثانية	الأموي	لم يحدد	سبع عشرة مرة	لم يحدد	ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج ١٢ ص ١٧٠، كحاله ج ٢ ص ١٤٣.
سنت العشرة بنت عبدالله بن الحسن بن أبي الحديد السلمي	العباسي	٥٥٦هـ	مرتان	لم يحدد	ابن عساکر، ص ١٢٨.
سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١١٧هـ / ٧٣٥م)	الأموي	٩٥هـ	لم يحدد	لم يحدد	ابن عدي، ج ١ ص ١٣٠ أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ج ١ ص ٥٦ - ٥٧، ابن واصل الحموي، ج ١ ص ١٣٨٣، ٤٣ كحاله ج ٢ ص ٢٠٩، ٢١٠.
شجاع التركيبة (ت ٢٤٨هـ) أم المتوكل علي الله وقيل جدة المتوكل	العباسي	٢٣٦هـ - ٢٤٦هـ	مرتان	حجت في تحمل زائد أمرت بإجراء فداء من عرقها إلى مكة	الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩ ص ١٨٥، ابن الأثير، ج ٧ ص ٥٦، ابن تغري بردي، ج ٢ ص ٢٨٦، الجزيري، ج ٢ ص ٤٩٠.
شجرة الدر الصالحية أم خليل (ت ٦٥٥هـ) زوج الملك الصالح أيوب	العباسي	٦٤٥هـ	لم يحدد	لم يحدد	البنوني، ص ١٤٠، سيد بكر: ص ٧٦.
شعب (ت ٣٢١هـ) أم المقدر بالله	العباسي	٣٠٢هـ - ٣١٠هـ - ٣١٥هـ		تسوية الأشربة والأزود للحجاج، تسهيل الطرقات، صحت المسبيل المعروف بالجوهي	ابن هشد: إتحاف السواري، ج ٢ ص ١٣٦، كحاله، ج ٥ ص ١٦٧، لصفدي، ج ١٦ ص ١١٧.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
طاب الزمان الحبيبية عتيقة الخليلة المستنصرية العباسي	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	أوقفت الرباط المعروف بدار زبيدة عام ٥٨٠هـ	القاسبي: العقد ج ٨ ص ١٢٦١ ابن فهد: إتحاف الوزى ج ٢ ص ٥٥٣
عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التميمي (ت ١٠١هـ)	الأموي	٧٥هـ ٩٥هـ	لم يحدد	حجت بجماعة ومعها ستون بغلاً عليها الهواذج والرجال وبصحبتها حادي بياري بمظهرها شعرا	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ج ١٠ ص ٥٩-٥٧ ابن عساكر ص ٢٠٨ ابن وأصل الحموي ج ١ ٢٨٢، ٦٧٧ الجزري: الدرر ج ١ ص ٢٧٠ ج ١٤٨٢ كحالة ج ٣ ص ١٣٧-١٥٤
عائكة بنت معاوية بن أبي سفيان	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	حجت مصطحبة جواربها ووزعت الكسوة والألصاف والمال	البيلاذري: الساب الأشراق ج ٥ ص ٢٩٧ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ج ٧ ص ١٤٦، ٢٣٧ ابن عدي ص ج ٤ ص ٢٩٣ كحالة ج ٢ ص ٢١١
عائكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وأم ولده يزيد (ت بعد ١٢٦هـ)	الأموي	٧٥هـ	لم يحدد	حجت ومعها الجواري وأوقفت مالها على الفقراء	البيلاذري: الساب الأشراق ج ٥ ص ١٣٧٧ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ج ١٠ ص ١٥٧ ابن عدي ص ج ٤ ص ٤٠٧، ٢٩٩ ابن عساكر ص ٢٠٥، ٢٠٦ ابن وأصل الحموي ج ١ ص ٢٨٤ النوري: نهاية ج ٤ ص ٢٥٨ كحالة ج ٣ ص ٢١٨

مع هذه الساعات جمعيت إلى بيك المهرام في العصورين الأولى والعباسية مراكبتهم ومتركتهم

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	مبوبات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
عزم أم فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش بن نجاح الملكة اليمانية الحرة (ت ٥٤٥هـ)	العباسي	٥٢٩هـ	كثيرة الحج		عمارة اليمانية، ص ١٦٨: السديع، ص ١٣٥٢: ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ١٦٨: الزركلي، ج ٣ ص ٢٤٨: الجالة، ج ٣ ص ٣٣٠.
فاطمة بنت الأمير أبي ليلى محمد بن أنو شروان الحسني (ت ٥٧٧هـ).	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	أوقفت ريساط الخاتون علي باب السلام خارج المسجد الحرام المعروف في عصر ابن فهد ببيت محمود الصوفية الرجال الصالحين من العرب والعجم	الفاقي: شفاء، ج ١ ص ١٥٢٩: ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٥٤٤.
فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة عمر بن عبد العزيز	الأُموي	لم يحدد	لم يحدد	استطعت معها الجواري والخدم ووزعت الأموال والهدايا.	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ١ ص ٧٦، ج ٢ ص ١٣٥١: ابن عبد ربه، ج ٦ ص ١٠٠: كحالة، ج ٤ ص ٧٥: العاملي، ص ٢٠٤، ٢٠٥.
فهرماتة الخليفة المقتدي العباسي ٤٦٧ - ٤٨٧هـ	العباسي	٤٩٢هـ	لم يحدد	أوقفت ريساط الفاطمية علي المنقطعات والأراميل.	الفاقي: شفاء، ج ١ ص ١٥٢٩: ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٤٨٩.

مجلة المؤرخ العربي العدد الثاني والعشرون - أكتوبر ٢٠١٤

المراة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ ولاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
مريم أم عيسى ابنة القائد أبي تامر مبارك بن عبدالله القاسمي	العباسي	٥٩٠ هـ	لم يحدد	أوقفت الرباط المعروف بابن السوداء.	القاسمي: شفاء، ج١ ص ٥٣٧، ابن فهد: إتحاف السورى، ج٢ ص ٥٦١.
أم المستصم العباسي ٦٤٠ - ٦٥١ هـ	العباسي	٦٤١ هـ	لم يحدد	حجت مع دواذره، وجهز لهم السلطان نسور الدين عمر بن علي بن رسول هدية عظيمة وأغسرت من الصدقات والخلع على الأمراء وأهل الدولة المقيمين بمكة ولها صدقات جزيلة أعنت بها كثيرا من الفقراء.	ابن فهد: إتحاف السورى، ج٣ ص ٦٠ - ٦١: الجزيري، ج٢ ص ٤٨٦.
أم مسلمة بنت هشام بن عبدالملك زوج الحجاج بن عبدالملك	الأموي	١٢٤ هـ	لم يحدد	لم يحدد	الجزيري، ج١ ص ٤٥٥.
أم معز الدين صاحب الموصل زوج بابك أخ نور الدين زنكي صاحب الشام	العباسي	٥٧٩ هـ	لم يحدد	كان لها موكب عام ٥٧٩ هـ	ابن فهد: إتحاف السورى، ج٢ ص ٥٥٠: الجزيري، ج٢ ص ١٥٧٣ كحاله، ج٥ ص ٦٤.
لبابة بنت عبدالله بن عباس زوجة بلونيد بن عبدالملك والوليد بن عتبة بن أبي سفيان	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	كانت من أحسن خلق الله	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج٨ ص ١١٩٥ ابن عديري، ج١ ص ١٠٤.
نقيمة بنت الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب	العباسي	٢٠٨ هـ	٣٠ حجة	لم يحدد	العاملي، ص ١٥٢١ كحاله، ج٥ ص ١٨٧.



## الهوامش

- (i) الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت ٢٥٠هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق عبد الملك بن دهيش (مكتبة الاسدي: مكة المكرمة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) ج ١ ص ٢٧٠.
- (ii) الأزرقى: ج ١ ص ٢٧١.
- (iii) الأزرقى: ج ١ ص ٢٧٢-٢٧٣: الطبري، محمد بن جعفر (ت ٣١٠هـ): جامع البيان في تفسير القرآن (دار الحديث: القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ج ٨ ص ١١٤.
- (iv) نظام الدين القمي، الحسن بن محمد بن الحسين (ت بعد ٨٥٠هـ): تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (دار الحديث: القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) طبع بهامش كتاب جامع البيان للطبري، ج ٨ ص ٨٤-٨٥.
- (v) الأزرقى: ج ١ ص ٢٧٣، نظام الدين القمي، ج ٨ ص ٨٤-٨٥.
- (vi) الأزرقى: ج ١ ص ٢٧٣: مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١هـ): صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف، إشراف ومراجعة صالح آل الشيخ (دار السلام: الرياض ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص ١٢٠١: الطبري، جامع البيان، ج ٨ ص ١١٤: الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ): أسباب النزول، تحقيق عصام الحميدان (دار الإصلاح: الدمام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص ٢٢٥، وعن ضيعة العلمية انظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية: بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) ج ٨ ص ١٢١.
- (vii) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ): صحيح البخاري: موسوعة الحديث الشريف، بإشراف ومراجعة صالح آل الشيخ (دار السلام للنشر والتوزيع: الرياض ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) حديث رقم ١٦٢٢ ص ١٢٨، وانظر ايضاً حديث رقم ٣٦٩ ص ١٣٢ ابن حجر، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق قصي الخطيب وآخرين (دار الريان: القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م) ج ٣ ص ٥٦٥.
- (viii) سورة الحج: الآية ٢٧، وانظر: الطبري، جامع البيان، ج ٩ ص ١٠٦-١٠٧.
- (ix) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ): المغازي، تحقيق مارسدن جونز (علم الكتب: بيروت) ج ٣ ص ١٠٩٠ ابن سعد، ج ٨ ص ١١٠٠ ابن حنبل (ت ٢٤١هـ): مسند أحمد بن حنبل (بيت الأفكار الدولية: الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م) ص ١٩٩٧: أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي التميمي (ت ٣٠٧هـ): مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد (دار المأمون للتراث: دمشق ١٤٠٤ / ١٩٨٤) ج ٨ ص ١٢٩ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن علي الرازي (ت ٣٢٧هـ): الجرح والتعديل، تحقيق: عبد الرحمن المعطي (مطبعة دائرة المعارف العثمانية: حيدرآباد التكن ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م) ج ٨ ص ٣٩٣: أبو الشيخ الأصبهاني، عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان (ت ٣٦٩هـ): أمثال الحديث، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد (الدار السلفية: بومباي-الهند ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م) ج ١ ص ٩٦: الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (دار المعارف: بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج ٤ ص ٣٢٢: البيهقي، أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل (ت ٨٤٠هـ): اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، دار المنشأة للبحث العلمي (دار الوطن: الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) ج ٣ ص ١٥٥: عمر

رضا كحالة: اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (مؤسسة الرسالة: بيروت ١٩٧٧م) ج ٣ ص ١٩.

(X) ابن سعد، ج ٨ ص ١٦٨ - ١٧٠؛ البخاري، ص ١٤٥ - ١٤٦ رقم ١٨٦١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف: القاهرة ١٩٧٩م) ج ٤ ص ١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج ٤ ص ٨٨، ٨٧. والطائفة جمع طينسان وهو كساء اخضر لا تفصيل له ولا خياطة اشبه بالثال او الوشاح يوضع على الكتف. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ): لسان العرب المحيط، تحقيق يوسف خياط (دار لسان العرب: بيروت) ج ٢ ص ٦٠٤.

(XI) ابن سعد، ج ٨ ص ١٦٩؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٤ ص ٣٩٧؛ ابن حجر: فتح الباري، ٨٨. ولم نوافنا المصادر التاريخية بالسنة التي حجج فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان امهات المؤمنين ويصعب علينا تحديد تلك السنة لانه من الثابت ان عثمان حج طيلة سنوات خلافته عدا السنة التي قتل فيها ٣٥/٢٥٦م.

(XII) ابو الفرج الاصبهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ): الاغاثي، (دار الفكر: بيروت) ج ١٠، ص ٥٧؛ ابن عساکر، ابو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ): تاريخ مدينة دمشق: تراجم النساء، تحقيق سكبنة الشهلي (دمشق: ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) ص ٢٠٥، ٢٠٦؛ ابن واصل الحموي، جمال الدين محمد (ت ٦٩٧هـ): تجريد الاغاثي، تحقيق: طه حسين وابراهيم الأبياري منشورات دار الكتاب العربي: القاهرة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ج ١، ص ١٢٨٤؛ النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ): نهاية الارب في فنون الادب (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر: القاهرة) ج ٤، ص ٢٥٨.

(XIII) ابو الفرج الاصبهاني: الاغاثي، ج ١٠ ص ٥٧؛ ابن عساکر، ص ٢٠٥، ٢٠٦؛ ابن واصل الحموي، ج ١ ص ١٢٨٤؛ النويري، ج ٤ ص ٢٥٨؛ كحالة، ج ٣ ص ١٥٠.

(XIV) ابو الفرج الاصبهاني: الاغاثي، ج ١١، ص ١٩٣؛ ابن عساکر، ص ٢٠٨؛ المالقي، علي بن محمد المعافري (ت ٦٠٥هـ): الحدائق الغناء في اخبار النساء، تحقيق عايذة الطيبي (الدار العربية للكتاب: ليبيا / تونس ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ٥٥؛ ابن واصل الحموي، ج ١، ص ١٢٨٤، ١٢٨٥؛ الجزيري، عبد القادر بن محمد (ت ٩٧٧هـ): الدرر الفايدة المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر (دار اليمامة: الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج ٢ ص ٤٨١.

(XV) ابو الفرج الاصبهاني: الاغاثي، ج ١٠ ص ٥٦-٥٧؛ ابن عساکر، ص ٢٠٨؛ المالقي، ص ٥٥؛ ابن واصل الحموي، ج ١ ص ١٢٨٤، ١٢٨٥؛ ابن فهد، النجم عمر (٨٨٥هـ): إتحاف الوري بأخبار ام القرى، تحقيق فهم شلتوت (مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي: مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م) ج ٢ ص ١٢٨؛ الجزيري، ج ٢ ص ٤٨١ - ٤٨٢.

(XVI) ابو الفرج الاصبهاني: الاغاثي، ج ١٠ ص ١٣٥، ج ٧ ص ١٣٦، ١٣٧؛ كحالة، ج ٣ ص ٢١١.

(XVII) ابن عديريه، احمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٤٨هـ): العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وابراهيم الأبياري (دار الكتاب العربي: بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ج ٤ ص ٤٠٧، ج ٥ ص ٣٢٣؛ ابو الفرج الاصبهاني: الاغاثي، ج ١ ص ١٥٧؛ كحالة، ج ٣ ص ٢١٨.

- (xviii) انظر الهوامش: ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ من هذا البحث .
- (xix) أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني ، ج١ ص ٧٦ ؛ ج٢ ص ٣٥١ ؛ العاملي ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- (xx) أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني ، ج٢ ص ٣٥١ ، ج٣ ص ٣٥ ؛ الكتبي ، محمد شاعر (ت ٧٦٤هـ) : فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق إسماعيل عباس (دار صادر: بيروت) ج ٢ ، ص ٧٣ ؛ العاملي ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- (xxi) أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني ، ج٧ ص ١٢٨ ؛ ابن عساكر ، ص ٢١١ ؛ النويري ، ج ٤ ص ٤٧ ؛ كحلته ، ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ .
- (xxii) أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني ، ج ٧ ص ١٢٨ ؛ القيان ، تحقيق جليل الطنية (مطابع رياض الريس: لندن) ص ١٦٦ ؛ المائقي ، الحقائق ، ص ١٣٧ ؛ النويري ، نهاية ، ج ٤ ، ص ٤٧ ؛ كحلته ، ج ١ ص ٣١٢ .
- (xxiii) الجزيري ، ج ٢ ص ٤٨٣ .
- (xxiv) الأزرقي ، ج ١ ص ١٣٢ ؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ص ٢٣٥ ؛ الفاسي ، محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ) : شفاء الغرام بالخيار البلد الحرام ، تحقيق عمر تدمري (دار الكتاب العربي: بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ج ١ ص ١٣٦ ؛ ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٢ ص ٢٢٥ ؛ الجزيري ، ج ٢ ص ٤٨٣ ؛ خير الدين الزركلي: الاعلام (دار العلم للملايين: بيروت ٢٠٠٢م) ، ج ٢ ص ٣٢٨ ؛ ج ١ ص ٣٩٨ ، كحلته ، ج ١ ص ٣٩٥ .
- (xxv) الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) : تاريخ بغداد (دار الكتاب العربي: بيروت) ج ١ ص ٤٣٣ ؛ ابن خلكان ، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) : وفيات الاعيان وانباء انباء الزمان (دار الثقافة: بيروت ١٩٦٩م) ج ٢ ص ٣١٤ ؛ الجزيري: ج ٢ ص ٤٨٣ .
- (xxvi) المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشميل ( مكتبة الثقافة الدينية: بورسعيد ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م) ص ٨١ .
- (xxvii) المقرئزي ، ص ٨١ .
- (xxviii) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ١٨٥ ؛ ابن الأثير ، علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ (دار صادر: بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج ٧ ص ٥٦ ؛ الجزيري ، ج ٢ ص ٤٨٥ .
- (xxix) الفاسي: شفاء ، ص ٣٤٦ - ٣٤٩ ؛ المقرئزي ، ص ١٢ .
- (xxx) الكجوة مثل اليهود يجنس فيها مبطنة بالديباج وقد وردت في الروايات بمسميات عدة فبينما استعمل ابن الجوزي وابن كثير والفاسي لفظ المحصل ذكر الذهبي والياقعي لفظ كجوة وذكر ابن تغري بردي لفظ الصارية .
- ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا مراجعة نعيم زوزور (دار الكتب العلمية: بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ج ٧ ص ٨٤ ؛ الذهبي الحافظ شمس الدين (ت ٧٤٨هـ) : كتاب دول الإسلام (الهيئة المصرية العامة للكتاب : مصر ١٩٧٤هـ) ج ١ ص ٢٢٧ ؛ الياقعي ، عبدالله بن اسعد (ت ٧٦٨هـ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان (دار الكتب العلمية : بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ج ٢ ص ٢٨٩ ؛ ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية في التاريخ (دار الفكر العربي: القاهرة

(١٣٨٧هـ) ج ١١ ص ٢٨٧: الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢ ص ٣٥٣؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب العلمية: بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ج ٤ ص ١٢٦.

(xxx) (النوحي طعام يعمل من الحبوب بعد تحميصها، ويمكن تحضيره بأشكال متنوعة، منه الحلو ومنه الحامض، وذلك يعتمد على ما يضاف إليه من عسل أو سكر أو خل أو غير ذلك وعادة ما يحتفظ به لوقت الحاجة كأفضل أنواع الزاد والمونة حيث يمكن اختزانه لفترات طويلة، ولسهولة حملها في الأسفار. وأما الطُّبْرُزْد فهو السكر الأبيض الصلب يطحن قبل استعماله. الأتْرَقِي، ج ٢ ص ٢٤٩؛ ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦هـ): الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي العاني) مطبعة العاني: بغداد ١٩٧٢م. ص ١٦٠ جمهرة نسب قریش وأخبارها، تحقيق محمود شاكر (مطبعة المدني: القاهرة ١٣٨١هـ) ج ١ ص ٤٨-٤٩: المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٨٨هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غوبه (مطبعة بريل: ليدن ١٨٨٩م) ص ١٧٢: أدي شير، السيد: الألفاظ الفارسية المعربة (المطبعة الكاثوليكية: بيروت ١٩٠٨م) ص ١١١.

(xxxi) (الثعلبي، عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٩هـ): لطائف المعارف، تحقيق محمد سليم (دار الطلائع للنشر والتوزيع، ص ٨٢: ابن الجوزي، ج ١ ص ٢٤٨: البيهقي، ج ٢ ص ٢٧٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢ ص ٣٥٣؛ ابن تغري بردي، ج ٤ ص ١٢٦: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٥: الزركلي، ج ٢ ص ١٣٩، كحالة، ج ١ ص ٢١٤-٢١٥.

(xxxii) (الجنائب الخيول المسرجة الملجمة المطهمة، التي تسير في الموكب السلطاني أو الأمير، زينة وتفاخر، دون أن يركبها أحد. ابن منظور، ح ١ ص ٥٠٧-٥٠٨: عمارة، محمد: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية (دار الشروق: بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) ص ١٥٥.

(xxxiii) (ابن الجوزي، ج ٨ ص ٢٣٢: الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد (مؤسسة الرسالة: ط ٢ بيروت: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج ٦ ص ٢٤٠؛ ابن فهد، ج ٢ ص ٤٦٨: الزركلي، ج ١ ص ٣٠٦؛ الرشيد، ص ١١٣-١١٤: الحضراوي، ص ١٥٢.

(xxxv) (ابن الجوزي، ج ١٦ ص ١٦٥: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.

(xxxvi) (ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ): رحلة ابن جبير (دار صادر: بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠م) ص ١٣٦: ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٥٥٠: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦: كحالة، ج ٥ ص ٦٤.

(xxxvii) (ابن جبير، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(xxxviii) (ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٥٥٠.

(xxxix) (الأزرق، ج ٢ ص ١٠٨: الفاسي: شفاء الغرام، ج ١ ص ٥٢٨: العقد الثمين، ج ٨ ص ٢٣٨: ابن تغري بردي، ج ٦ ص ١٦٣، ٥٩٩: ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٥٥٨: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦: كحالة، ج ٢ ص ٣٩.

(xl) (الفاسي: العقد، ج ٨ ص ٢٣٨: ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٥٥٨.

(xli) (الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.

(xlii) (ابن جبير، ص ١٧٧: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.

- xliii ( ابن جبير، ص ٢٠٦.
- xliiv ( مكث بن عيسى بن قتيبة بن القاسم بن أبي هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم الأصغر محمد بن عبدالله بن أبي هاشم الأكبر محمد الأمير، أمير مكة. تولى إمرة مكة بعد منازعة مع أخيه داود سنة ٥٧١هـ وظل هو وأخوه داود يتقاتلان على إمرة مكة حتى صفت له سنة ٥٨٧هـ واستمر في ولاية مكة حتى سنة ٥٩٧هـ. القاسى: العقد الثمين، ج ٧ ص ٢٧٤، ج ٤ ص ٣٥٦.
- ج ٦ ص ١٢٩ ابن فهد، عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد (ت ٩٢٢هـ): غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهم شلتوت ( مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامى، دار المدني: جدة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج ١ ص ٥٢٨-٥٤٤.
- xlv ( ابن جبير، ص ١٠٧.
- xlvi ( القاسى، شفاء الغرام، ج ٢ ص ٣٧٠، ابن تغري بردي، ج ٦ ص ٢٠٣: ابن فهد: إتحاف الورى، ج ٣ ص ١٠: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.
- xlvii (الصلاح هو الأمير فخر الدين مملوك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن تولى مكة نيابة عنه. القاسى: للعقد الثمين، ج ٨ ص ١٧٥: ابن فهد: إتحاف الورى، ج ٣ ص ٦٠ - ٦١.
- xlviii ( ابن فهد: إتحاف الورى، ج ٣ ص ٦٠ - ٦١: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.
- xlix ( البتوني، محمد ليبب: الرحلة الحجازية (المطبعة الحماة: مصر ١٣٢٩هـ) ص ١٤٠: سيد عبدالمجيد بكر: العلامح الجغرافية لربوب الحج (موسسة تهامة: جدة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص ٧٦.
- i ( ابن جبير، ص ١٥٤، ٢٥٥.
- ii ( ابن جبير، ص ١٥٥.
- iii ( ابن جبير، ص ٤٢، ١٥٥.
- lii ( ابن فهد: إتحاف الورى، ج ٢ ص ٣٢٣.
- lii ( ابن فهد: إتحاف الورى، ج ٣ ص ٦٠-٦١: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.
- iv ( الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨ ص ٢٣٥.
- lv ( الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩ ص ١٨٥: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٥.
- lvii ( ابن الجوزي، ج ١٤ ص ٢٤٨: القاسى: شفاء، ج ٢ ص ٣٥٣: القاسى: العقد ج ١ ص ١٨٦: ابن فهد: إتحاف الورى ج ٢ ص ٤١٤-٤١٥: الذهبي، ج ١ ص ٢٢٦: الياقنى، ج ٢ ص ٣٨٥: ابن العماد، ج ٣ ص ٥٥: ابن تغري بردي، ج ٤ ص ١٢٦: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٥: كحالة، ج ١ ص ٢١٤-٢١٥.
- lviii ( أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٨ ص ٢١٨، ٢١٧: القيان، ص ٦٦: المالقي، ص ١٣٧: النويري، ج ٤ ص ٤٧: كحالة، ج ١ ص ٣١٢.
- lix ( الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦: ابن فهد: إتحاف الورى، ج ٣ ص ٦٠-٦١.
- lx ( الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨ ص ٢٣٥: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٢.
- lxi ( ابن فهد: إتحاف الورى، ج ٣ ص ٦٠-٦١: الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.

- (lxii) أحمد بن عمر الزليعي: مكة وعلاقتها الخارجية (عمادة شؤون المكتبات: جامعة الملك سعود، الرياض ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ١٣٤-١٣٦.
- (lxiii) ابن سعد، ج ٨ ص ١٦٩.
- (lxiv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٧ ص ١٣٦، ١٣٧؛ كحالة، ج ٣ ص ٢١٨.
- (lxv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٣ ص ٣١٩؛ كحالة، ج ٣ ص ٢١٨.
- (lxvi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ١٩ ص ١٨١؛ كحالة، ج ٣ ص ٣٤٣، ٣٤٤.
- (lxvii) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ): جمل من أنساب الأشراف: تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي (دار الفكر: بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) ج ٨ ص ٨٩؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٦ ص ٣٥؛ ابن عديبه، ج ١ ص ١٤١؛ ابن عساكر، ص ٤٨٠-٤٨١؛ الكتبي، ج ٢، ص ٧٣؛ كحالة، ج ١ ص ١٥٣.
- (lxviii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٢ ص ٣٥١.
- (lxix) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ١ ص ٣٦٦، ج ٢ ص ٣٧٢، ج ٣ ص ٣١٦-٣٢١؛ ابن واصل الحموي، ج ١ ص ٢٨٣؛ كحالة، ج ٣ ص ١٥٣.
- (lxx) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ٣ ص ٣١٨-٣٢٠، النويري، ج ٤ ص ٢٥٠، ٢٥٢.
- (lxxi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ١٦ ص ١٦٨.
- (lxxii) الفاكهي، محمد بن اسحاق (ت هـ): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالمكك بن دهبش (دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ج ٤ ص ١٥؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٦ ص ٣٨٦، ج ٨ ص ٢١٤، الجزيري، ج ٢ ص ٤٧٠، سعد عبدالعزيز الراشد: درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة (دار الوطن: الرياض ١٩٩٣م) ص ٦٥، ٦٧.
- (lxxiii) مجهول: العيون والحديث في أخبار الحقائق (لندن: مطبعة بريل ١٩٧١م) ج ٣ ص ٢٩١.
- (lxxiv) الخطيب البغدادي، ج ١ ص ١٤٣٣؛ ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٨ ص ٢٣٧؛ كحالة، ج ١ ص ٣١١.
- (lxxv) الأزرق، ج ٢ ص ٣٣؛ ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٨ ص ٢٣٧؛ الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٤.
- (lxxvi) ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤.
- (lxxvii) يتصل بجبال عرفات جبال الطائف ومنها مياه كثيرة اوشال وعظام قتي منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويتصل إلى مكة. ياقوت، شهاب الدين الحموي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان (دار صادر: بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ج ٥ ص ١٣١.
- (lxxviii) وادي ثعلبان: واد فحل من أودية الحجاز التهامية بين الطائف ومكة تمر بهذا الوادي عدة عيون أشهرها عين زبيدة المشهورة حتى تصل مكة. ياقوت، ج ٥ ص ٢٩٣؛ البلاذري، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز (دار مكة: مكة المكرمة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ج ٩ ص ٦٩١٧.
- (lxxix) الخطيب البغدادي، ج ١ ص ٤٣٣؛ ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤؛ العمري، ياسين الخطيب (ت بعد ١٢٣٢هـ): الروضة الفوحاء في تواريخ النساء (الدار العالمية: بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ٣٥٤.

(lxxx) البلاذري، فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات: القاهرة ١٩٠١م) ص ٣٠؛ المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف داغر (دار الأندلس: بيروت ١٩٧٨م)، ج ٤ ص ٤٤٤؛ الخطيب لبغدادي، ج ١ ص ٤٣٣؛ ابن جبير، ص ١٥٢؛ ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٨ ص ٢٣٧؛ العاملي، ص ٣٥٤؛ الراشد، ص ٦٥-٦٧.

(lxxx) الخطيب البغدادي، ج ١ ص ٤٣٤؛ ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤.

(lxxxii) ابن خلكان، ج ٢ ص ٣١٤؛ ابن جبير، ص ١٥٢؛ العاملي، ص ٣٥٤.

(lxxxiii) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩ ص ١٨٥؛ ابن الأثير، ج ٧ ص ٥٦؛ ابن تغري بردي، ج ٢ ص ٢٨٦؛ الجزيري، ج ٢ ص ٤٩٠؛ الرشدي، أحمد (ت ١١٧٨هـ)؛ حسن الصفا والابتنهاج في ذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد (مكتبة الخاتجي: القاهرة ١٩٨٠م) ص ١٠٣؛ الحضراوي، أحمد محمد (ت ٥١٣٢٧هـ)؛ مختصر حسن الصفا والابتنهاج في ذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق محمد الخزيم ومحمد التماسحي (زهراء الشرق ودار القاهرة: القاهرة ٢٠٠٧م) ص ١٣٥؛ كحالة، ج ٢ ص ٢٨٦.

(lxxxiv) ابن الجوزي، ج ٦ ص ٢٥٣؛ الصفي، خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ)؛ الوافي بالوفيات (دار احياء التراث العربي: بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ج ١٦ ص ١٦٧؛ الفاسي: شفاء، ج ١ ص ١١٥؛ العقد الثمين، ج ٣ ص ١٤١؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٣٦٣؛ كحالة، ج ٥ ص ٦٧؛ وفيد الفاسي (شفاء الغرام، ج ١ ص ٥٤١) أن سبيل الجوخني الآن محط لخرابه ويقول أيضا: ورأيت فيه حجرا ملقى مكتوب فيه: أن المفكر العباسي وولده امرأ بعمارة هذه السفلية والابر التي وراءها وتصدقا بها سنة اثنين وثلاثمائة.

(lxxxv) الفاسي: شفاء، ج ١ ص ١٨٨؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٣٦٨.

(lxxxvi) الفاسي: شفاء، ج ١ ص ٥٥١؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٣٧٣.

(lxxxvii) الذهبي، ج ١ ص ٢٢٦؛ اليافعي، ج ٢ ص ٣٨٥؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢ ص ٣٥٣؛ ابن تغري بردي، ج ٤ ص ١٢٦-١٢٧؛ كحالة، ج ١ ص ٢١٣-٢١٥.

(lxxxviii) ابن الجوزي، ج ٨ ص ١٢٣٢؛ ابن الأثير، ج ١ ص ١٠١؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٦ ص ٢٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٤٦٨؛ الرشدي، ص ١١٤؛ الحضراوي، ص ١٥٢.

(lxxxix) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١ ص ٥٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٤٨٩.

(xc) ابن الجوزي، ج ١ ص ١٦٥؛ الصفي، ج ٢ ص ١١٧؛ ابن كثير، ج ١ ص ١٨٣؛ الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦-٤٨٧؛ كحالة، ج ٤ ص ١٩٢.

(xci) عسارة اليمني، نجم الدين بن علي (ت ٥٦٩هـ)؛ تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع (المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع: صنعاء ١٩٨٥م) ص ١٦٨؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٤٦٨؛ الدبيع، أبو الضياء عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت ٩٤٣هـ)؛ قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع (المطبعة السلفية ومكتبتها: القاهرة) ص ٣٥٢؛ الزركلي، ج ٣ ص ١٢٤٨؛ كحالة، ج ٣ ص ٣٣٠.

(xcii) ابن جبير، ص ١٣٦؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢ ص ٥٥٠؛ كحالة، ج ٥ ص ٦٤.

- xciii ( ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٢ ص ٥٥٠ : الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٧ ؛ كحالة، ج ١ ص ٣١١.
- xciv ( ابن جبور، ص ٢١٣.
- xcv الصلبي: الوافي بالوفيات، ج ١٤ ص ٢١٣؛ الفاسي: شفاء، ج ١ ص ٥٢٨؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٨ ص ١٢٣٨؛ ابن تغري بردي، ج ٦ ص ١٦٣، ١٥٩٩؛ ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٢ ص ٥٥٢ ؛ كحالة، ج ٢ ص ٣٩.
- xcvi الفاسي: شفاء الغرام ، ج ١ ص ٥٢٨، العقد الثمين، ج ١ ص ١١٨، ج ٨ ص ٢٣٨؛ ابن فهد، ج ٢ ص ٥٥٢. ويذكر الفاسي (شفاء الغرام، ج ١ ص ٥٢٨؛ العقد، ج ٨ ص ٢٣٨) ورباط أم الخليفة الناصر العباسي يعرف ورباط الخطيفية لأن الشريف عظيمة صاحب مكة كان يسكنه.
- xcvii ( ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٢ ص ٥٥٠ ؛ كحالة، ج ١ ص ٣١١.
- xcviii الفاسي: العقد الثمين ، ج ٨ ص ٢٦١؛ ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٢ ص ٥٥٣. ويذكر ابن فهد أن هذه المدرسة تعرف اليوم بدار زبيدة.
- xcix الفاسي: شفاء الغرام ، ج ١ ص ٥٤٥.
- c الفاسي: شفاء الغرام ، ج ١ ص ٥٣٧؛ ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٢ ص ٥٦١.
- ci الفاسي، شفاء الغرام، ج ٢ ص ٣٧٠؛ ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٣ ص ١٠؛ الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٦.
- cii ابن فهد، ج ٣ ص ١٦٠ الجزيري: ج ٢ ص ٤٨٦
- ciii الفاسي: شفاء الغرام، ج ١ ص ٥٥٠ الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٧.
- civ ابن جبور، ص ١٦٢-١٦٤؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج ١ ص ٥٥٠، الجزيري، ج ٢ ص ٤٨٧.
- cv ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (٧٧٧هـ): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ( دار الكتاب اللبناني: بيروت) ص ١١٥، كحالة، ج ٢ ص ٤.
- cv ( البخاري، الحديث رقم ١٨٦١ ص ١٤٥-١٤٦، وانظر: الحديث رقم: ١٥٢٠ ص ١٢٠ والحديث رقم: ٢٧٨٤ ص ٢٢٤ والحديث رقم: ٢٨٧٥ ص ٢٣١ والحديث رقم: ٢٨٧٦ ص ٢٣١؛ ابن حجر: فتح الباري، ج ٤ ص ٨٦-٨٨.
- cvi ( العاملي، زينب بنت يوسف فواز (١٣٣٢هـ): الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، تحقيق مني الخراط (دار المعرفة: بيروت: ٢٠٠٠م) ص ٥٢١، كحالة، ج ٥ ص ١٨٧.
- cvi ( ابن حجر: تهذيب التهذيب (مطبعة دائرة المعارف النظامية : ط ١، الهند ١٣٢٦هـ) ج ١ ص ٤٧، كحالة، ج ٢ ص ١٤٣.
- cix ( الصلبي، ج ٢ ص ١٧٤.
- cx ( ابن فهد: إتحاف الوري ، ج ٢ ص ٤٦٨؛ كحالة، ج ٣ ص ٣٣٠.





## الحياة الثقافية لنصاري الحبشة في العصور الوسطى

د محمد أحمد محمد علي بهنساوي  
باحث حاصل علي درجة الدكتوراه

تتناول هذه الدراسة موضوع الحياة الثقافية عند نصاري الحبشة في العصور الوسطى، ولقد رُؤي أن يتم عرضه في أربعة أقسام رئيسية بحيث يتناول القسم الأول اللغة في الحبشة متناولاً كل من اللغة الجعزية، اللغة الأمهرية، اللغة العربية، في حين يتناول القسم الثاني التعليم الديني، أما القسم الثالث فيتناول موضوع الكتابة والأدب في الحبشة متناولاً الكتابة الدينية، الشعر، التدوين التاريخي، الأدب الشعبي، أما القسم الرابع والأخير فيستعرض حركة الترجمة في هذه الفترة التاريخية وسوف نتناول هذه العناصر السابقة بشيء من التفصيل:

### أولاً اللغة في الحبشة :-

تعددت اللغات واللهجات في الحبشة فقد أحصاها القلقشندي و قال بأنها تزيد علي خمسين لساناً<sup>(١)</sup>، وذلك نتيجة تنوع الأجناس والسلالات مما أدى بدوره إلي تعدد اللغات واللهجات في أقاليمها المختلفة، فكان لكل منطقة لغة خاصة بها، وقد قام الباحثون بتقسيم هذه اللغات إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي: اللغات الكوشية (كوشية غربية-كوشية شرقية) واللغات النيلية واللغات السامية<sup>(٢)</sup>، فأما أولها فأهمها الصومالية وهي السائدة في

١- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٤ جزء، القاهرة، ٢٠٠٤م، ج٤، ص ٣٠٣.

٢- السامية تسمية حديثة العهد اقترحها عالم اللاهوت الألماني شولتز Scholzer عام ١٧٨١ للميلاد، لتكون علماً على عدد من الشعوب التي أنشأت في غرب آسيا حضارات ترتبط لغوياً وتاريخياً، كما ترتبط من حيث الأنساب، وزعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، بناء على ما جاء في التوراة في صحيفة الأنساب الواردة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين. وقد

أوغادين، وهي لغة القبائل المعروفة بهذا الاسم (وتسمى أيضًا الغاليتة Galenna نسبة إلى الغالا)، وأما الثانية فتتضم مجموعة من لغات القبائل الصغرى في شرق الحبشة ومنطقة الحدود مع السودان وهي محدودة الانتشار، وأما المجموعة السامية فهي أقلها تفرغًا ولكنها أكرمها عند الأحباش وأكثرها انتشارًا بينهم ومن أهم لغاتها: -

١- اللغة الجعزية (لغة الجعز Ge'ez): تعرف اللغة الحبشية القديمة باللغة الجعزية أو التجنزية - قلبت العين همزة في اللغات الحبشية الحديثة- ويرجع أصلها إلى اللهجة 'الهشابية' وهي إحدى لهجات الحميرية (العربية الجنوبية) التي جاءت إلى شمال الحبشة في نهاية القرن الثالث الميلادي على أيدي الغزاة من قبيلة الأجاجز (الأجعازيان)<sup>(٢)</sup> وهي

شاعت هذه التسمية وأصبحت علمًا لهذه المجموعة من الشعوب عند عدد كبير من العلماء في الغرب ومن سار بهم من العرب على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي، أو إلى أسس علمية عرقية صحيحة. وهذه الشعوب هي في حقيقة الأمر قبائل عربية هاجرت بفعل العوامل الطبيعية من جزيرة العرب بحثًا عن الماء والكلأ، ومنها تفرعت الأقوام الأخرى. يؤكد هذا القول ما ذهب إليه كثير من العلماء الباحثين في أصل الأجاس والمسلالات من أن العرب هم أصل العرق السامي، ومن أرومتهم تفرعت الأقوام الأخرى وتشعبت قبائلها، ولهذا الفريق شواهد تاريخية وعرقية ولغوية تدعم بها حجة ويثبت آراءه. لذلك تنقسم اللغات السامية إلى ثلاثة فروع هي (١) اللغات السامية الشرقية و(٢) اللغات السامية الشمالية الغربية (٣) اللغات السامية الجنوبية الغربية (أو الجنوبية) وهذه الأخيرة تحتوي على بعض اللغات الأخرى وهي (١) العربية الجنوبية و(٢) العربية الشمالية و(٣) اللغات الحبشية. وهذه اللغة تشبه لغات جنوب الجزيرة العربية أكثر مما تشبه العربية الشمالية. وأقدم تلك اللغات هي الجعزية. ويعتقد بعض علماء الساميات أنها تفرعت من لغة جنوب الجزيرة العربية في بداية العهد المسيحي لتبلغ أوج اتساعها في القرن الرابع الميلادي. وكان قد تكلم بها في ذلك الوقت سكان مملكة أكسوم الواقعة على الحدود الحالية بين إثيوبيا وأريتريا. للمزيد انظر:

- Budge: A History Of Ethiopia, Nubia & Abyssinia, London, 1928, p. 576.

3- Richard Pankhurst: The Ethiopians, Blackwell, Cambridge, London, 1998, p. 57.

إحدى القبائل العربية التي هاجرت من اليمن إلى الحبشة<sup>(٤)</sup> واستوطنتها وأسسوا فيها مملكة أكسوم، وقد تأثرت هذه اللهجة باللغات الحبشية لأبناء المكان كما تأثرت باللغات اليونانية والسريانية في القرن الرابع الميلادي التي دخلت الحبشة بعد اعتناق المسيحية، ومن الجعزية تفرعت عدة لهجات مثل التقرنيا والتقرى والأمهرا وبقية اللهجات الحبشية، وتعد الجعزية اللغة الكلاسيكية للحبشة شأنها شأن اللغة العربية المكتوبة، وعلى ذلك فإن اللغة الجعزية تعد أقدم وأهم لغات الحبشة لأنها لغة النقوش الأكسومية ولغة التراث الحبشي حتى عهد قريب، وخطها متطور عن الخط العربي الجنوبي «المُسند» الذي أضيفت إلى حروفه رموز للحركات فخلصته من اللبس وعدم الوضوح، وقد كتب بها الكتاب المقدس الحبشي - مترجماً عن اليونانية منذ القرن الخامس الميلادي<sup>(٥)</sup>.

ولم تستخدم اللغة الجعزية حروف العلة قبل القرن الرابع الميلادي، ولكن تم استخدامها عندما دخلت الديانة المسيحية البلاد، وذلك لزيادة الرغبة في جعل نصوص الكتاب المقدس واضحة القراءة والكتابة لمعظم الناس، وهكذا أصبحت الجعزية لغة غنية بالمفردات، فتم ترجمة الكتاب المقدس إلى الجعزية من اليونانية وذلك عن طريق الرهبان التسعة<sup>(٦)</sup> فضلاً عن العهدين القديم والجديد حيث تظهر فيها الصلات من اللغة

٤ - محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، د. ت، ص ٣٣، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، القاهرة، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ص ٣٧٠، عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٣٦، انظر أيضاً

- A.H.M. Jones and Elizabeth Monroe : A history of Ethiopia, oxford university, at the clarendon press, 1974 , p . 34.

5 - Trimingham J S : Islam In Ethiopia , oxford, 1952, p . v .

٦ - جاء هؤلاء الرهبان هرباً من قرارات مجمع خلقدونية عام ٤٥١م وجاءوا إلى مصر والنوبة ومنها إلى مناطق النيل الأزرق والحبشة لأنهم سمعوا عن الحرية الدينية في هذه البلاد وبعدها عن الجدل اللاهوتي، وقد قاموا بتأسيس العديد من الأديرة في الحبشة خاصة منطقة تيغري، وهم ١ - أرجاوى ولقبه زاميكاني (ويُسمى باللغة الأمهرية الشيخ الروحاني) Zamika, el Aregwi وهو مؤسس دير دير دامو في تيغري كما يعد من أشهر القديسين التسعة بل أطلق عليه بعض المؤرخين لقب «باخوم الحبشة» لأنه أول من أنشأ ديراً للراهبات وآخر للرهبان، ٢ - القديس

السريانية<sup>(٧)</sup>. ومنذ ذلك انتشرت اللغة الجعزية انتشارا واسعا فى أوائل القرن الرابع الميلادى، كما استخدمت فى قراءة العهد القديم عند يهود الحبشة (الفلاشا)<sup>(٨)</sup>، وفى

بانتليون Pantilon مؤسس دير دبر أسبو فى أكسوم، ٣- القديس جيرما Girma مؤسس دير دبر مادارا وهؤلاء القديسين الثلاثة جاءوا من الإمبراطورية الرومانية (ويعتقد من سوريا)، ٤- القديس ألفسي Afse مؤسس دير فى مقاطعة يها (Yaha) بالقرب من عدوة وقد جاء هذا القديس من آسيا الصغرى، ٥- القديس جوبا Goba الذي جاء من صقلية وقد اشترك مع القديس جيرما فى تأسيس دير دبر مادارا، ٦- القديس أليف Alif الذي جاء من قيصرية وهو مؤسس دير بحرزا، ٧- القديس صيحا أو سيام Siam من أنطاكية وهو مؤسس دير سدنيا Sednya، ٨- القديس ياماتا Yam.ata الذي جاء من Coasit وهو مؤسس دير جرعالتا، ٩- القديس ليقانوس Liqlanas الذي جاء من القسطنطينية وقد اشترك مع القديس بانتليون فى تأسيس دير كوناىسل، ومن المعتقد أن جميع هذه الأديرة كانت فى الأصل معابد وثنية وتم تحويلها إلى أديرة وكنائس. كما يلاحظ أن اثنين من هؤلاء القديسين حملوا أسماء يونانية وهم ليقانوس وبانتليون، أما الباقون فقد حملوا أسماء تبدو أسماء آرامية أو سريانية، وقد قام هؤلاء الرهبان التسعة بتأسيس العديد من «الأديرة الحبشية الأخرى». كما أن هناك مئات من الأديرة التي انتشرت فى تاريخ الكنيسة الحبشية كانت قد تأسست بواسطة رهبان آخرين ينتمون إلى أولئك الأقطاب التسعة المشار إليهم، إذ صرحهم العديد من القساوسة الذين قاموا بمساعتهم فى حمل الكتب الدينية المختلفة كما قاموا بترجمة بعضها بعد ذلك إلى اللغة الجعزية. للمزيد انظر مراد كامل: الرهبنة الحبشية، رسالة مارميا عن الرهبنة القبطية، الأسكندرية، ١٩٤٨، الرسالة الثالثة، ص ص ٢٩-٣٠، ٤٤، رءوف حبيب، تاريخ الرهبنة والديرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٦.

7 - Paul B. Henze : Layers Of Time A history Of Ethiopia , Hurst , Company, London , 2000, p . 37.

٨ - يهود الفلاشا (Falashas) : كلمة أمهرية تعنى المنفيين أو الغريباء، وأصل الكلمة يعود إلى اللغة الجعزية، ويعنى المهاجرين أي السكان غير الأصليين للبلاد، ويستخدم الأحباش الكلمة للإشارة إلى جماعة إثنية أفريقية تدين باليهودية، ويطلق عليهم أحيانا اسم اليهود الزنوج Negro Jews، أما الفلاشا فيشيرون إلى أنفسهم بوصفهم «بيت إسرائيل Beta Israel» وهناك جماعات أخرى من اليهود الذين دخلوا فى الديانة النصرانية على يد المبشرين المسيحيين ويطلق عليهم الفلاشا مورا Mura Falasha وهي جماعة قبلية فى الحبشة يقال لها أيضاً «فلاس مورا». وكلمة «مورا» تعنى «الأغيار» أي غير اليهود، لذلك يعد الفلاشا أنفسهم أن الفلاشا مورا (أياً كان نوعهم) غير اليهود الأسرائيليين، ولذا فإن أحدهم إذا أراد العودة إلى الدين اليهودي، تطبق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، فيخلق شعر رأسه وجسمه، وهي شعائر لا تطبق إلا على غير اليهود، للمزيد انظر محمد جلاء إدريس، يهود الفلاشا أصولهم ومعتقداتهم وعلاقاتهم بإسرائيل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ص ١٩-٣٢ أيضاً

قداس الكنائس الحبشية كانت تؤدي بها الصلاة والشعائر الدينية الأخرى - ولا تزال - مثلها في ذلك مثل اللغة اللاتينية في أوروبا، واللغة القبطية في بعض الكنائس المصرية<sup>(٩)</sup>. وقد تعرضت اللغة الجعزية لتغيرات ضخمة في الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية عصر الزغاويين وبداية عصر الأسرة السليمانية عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، ذلك أن قدوم العديد من رجال الدين المسيحيين من بلاد مختلفة أدّى إلى إدخال ألفاظ جديدة من أصل يوناني وعربي وسرياني، كما أدّى إلى استحداث كلمات جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التي جاء بها هؤلاء الرهبان، وقد نجم عن هذا التطور تغيير أصاب اللغات الموجودة العديدة الموجودة في الحبشة نتيجة لتطرق كثير من الألفاظ الدارجة إلى هذه اللغات من جهة ولاستحداث كثير من التعبيرات والكلمات الجديدة من جهة أخرى<sup>(١٠)</sup>.

علي أنه لا يمكن بقاء لغة من اللغات في قالب واحد وعلي صورة واحدة مع استخدامها في مثل ذلك المحيط الواسع من المدن المتباعدة، وفي مثل تلك الأغراض المتنوعة المتباينة، لذلك نجد اللغة الجعزية في تلك الفترة تختلف اختلافاً بيناً تبعاً لاختلاف الزمان والمكان والغرض الذي استخدمت فيه<sup>(١١)</sup>. لذلك استسلمت هذه اللغة أمام ضغط اللغات الأخرى التي اشتدت عليها خاصة أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس

- Richard Pankhurst : The Falashas, or Judaic Ethiopians, in Their Christian Ethiopian Setting, Addis Ababa, 1992. p. 567. see also Taddesse Tamrat : op, cit , P.197.

٩ - سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١م، ج٢، ص ٢١٩

10 - Richard Pankhurst: An Introduction to the Economic History of Ethiopia from Early time to 1800, Sidgwick and Jackson LTD., First Edition, London, England , 1961 ,p. 25.

11 - David Appleyard,: Colloquial Amharic , first published , Rutledge - New York, 1995,p.2.

عشر الميلادي<sup>(١٢)</sup>، مما جعل طلاب المدارس يكتفون بمعرفة قسط محدود من أصول هذه اللغة لمعرفة قراءة الكتب الدينية<sup>(١٣)</sup>.

وعلى أية حال فقد ظلت هذه اللغة هي لغة التفاهم والاتصال بين رجال الدين في الكنيسة الحبشية في سائر أرجاء الحبشة، كما استعملها الناس في الصلاة والترانيل، كذلك كانت اللغة الجعزية لغة العلم والتعليم في ذلك العصر، فالطلاب يلقنون اللغة الجعزية في المدارس ويتلقون بها علومهم، كما أن كتبهم المدرسية دونت بها، مما جعل هذه اللغة هي لغة الطبقة المتعلمة المثقفة في المجتمع الحبشي<sup>(١٤)</sup>.

٢- اللغة الأمهرية Amharic : وموطنها الأساسي إقليم أمهرة في وسط المملكة الحبشية، و تعد من أهم وأندر وأقدم اللغات الإنسانية وتدرج ضمن لغات سامية جنوبية شرقية أو أي من أسرة اللغات الأفروآسيوية، وهي تلتقي مع اللغة التيجرية في كثير من مفرداتها، ومعظم كلماتها من الكوشية وخاصة لغة الأجاو ولغات هرر، ونتج عن ذلك التأثير لغة مفرداتها وقواعدها سامية بشكل واضح بينما نجد أن تركيبها النحوي كوشي بشكل كبير، ويؤكد بعض الباحثين أنها اللغة التي كان يتحدث بها سكان جنوب أكسوم وأضيفت إليها عدة لهجات مختلفة، والخلافات بينهما ليست جوهرية<sup>(١٥)</sup>. غير أن هناك اتفاق عام على أنه في المنطقة المتسعة التي تغطيها اللغة الأمهرية توجد اختلافات

12 - Lionel Bender et al. : Language in Ethiopia, Oxford Univeristy press, 1976, p.53.

13- Gelb, I . J & Edward Ullendorff : The Semitic Languages of Ethiopia : A Comparative Study, In Journal of Near Eastern Studies 20/2 ,pp. 134-136.

14 - Lionel Bender et al. : op . cit , p.71.

15 - Edward Ullendorff : The Ethiopians an introduction to country and people, London, oxford university ,Press Newyork.toronto,1965 , p.124

لهجية طفيفة وملحوظة مثل الاختلافات الموجودة بشكل خاص بين صيغ الحديث المتداول في إقليمي شوا وجوجام<sup>(١٦)</sup>.

وقد أخذت اللغة الأمهرية في الانتشار خارج هذا الإقليم شمالاً وجنوباً لأسباب متعددة، حتى أصبحت من أكثر اللغات انتشاراً في الحبشة، وقد تم استخدامها كلغة إدارية في البلاط الإمبراطوري منذ بداية حكم يكونو أملاك Yekuno Amlak ١٢٧٠-١٢٨٥م/٦٨٤هـ/١٢٧٠-١٢٨٥م<sup>(١٧)</sup>. كما انتشرت في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي في جميع أنحاء البلاد حتى أصبحت اللغة الأكثر انتشاراً علي نطاق واسع في جميع أنحاء الحبشة، وذلك لتأثرها بالبيئة الحبشية وباللغات الحبشية غير السامية، إذ كان من الصعب أن يستعمل جميع أفراد الشعب اللغة الجعزية في حياتهم الخاصة والعامة، لذلك شاع في ذلك العصر استخدام الأمهرية في قالبها العامي، فأصبحت الأمهرية هي اللغة الشائعة في معظم أنحاء الحبشة في تلك الفترة و تكلم بها الملوك وكتب بها المؤرخون<sup>(١٨)</sup>، وقد بدأت الكتابة باللغة الأمهرية منذ عهد (زرع يعقوب Zera\_Yaqob ٨٣٨ - ٨٧٣هـ/١٤٣٤ - ١٤٦٨م)، واستمر الأمر كذلك لدرجة أن كتب البرتغاليون بعض منشوراتهم والمنشورات الدينية الأخرى باللغة الأمهرية بل استخدموها للتدريس فيما بعد في العصور الحديثة<sup>(١٩)</sup>.

٣- اللغة العربية: وهي أكثر اللغات انتشاراً في شرق أفريقيا، وفي المدن التجارية و خاصة في المناطق التي يقطنها المسلمون فاستعملت كلغة للتعامل فيما بين التجار المسلمين، فقد كانت لغة التفاهم في الأسواق والمراكز التجارية في الداخل<sup>(٢٠)</sup> خاصة في

16 - Gelb, I. J & Edward Ullendorff : op, cit, p. 135.

17 - Paul B. Henze: op . cit ,pp77-78

18- Budge: op. cit, Vol. 2, p.548.

19- Edward Ullendorff.: op. cit,pp.130-131.

٢٠ - الجدير بالذكر أن هذه المدن الساحلية كانت تعد أسواقاً ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليون لبيع حاصلاتهم، وشراء ما يحتاجونه وكانت تتم المعاملات التجارية في مثل هذه الأسواق في الغالب باللغة العربية أو بالعربية المختلطة بلغات البلاد المحلية مما أتاح لهؤلاء



## الحياة الثقافية لنهارى الحبشة في العصور الوسطى

هرر وعلي الساحل إذ يفضل الغالبية العظمى من السكان استخدام اللغة العربية لارتباطها بالدين الإسلامي<sup>(٢١)</sup>.

وقد عرفت اللغة العربية طريقها إلى الحبشة منذ فترة بعيدة، فالجوار الجغرافي بين شبه الجزيرة العربية والحبشة أدى إلى قيام علاقات متعددة بين الجانبين، فقامت علاقات تجارية وسياسية وهجرات متبادلة مما أحدث نوعاً من التأثير والتأثر<sup>(٢٢)</sup>، فقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى الحبشة وأثرت فيها خاصة بعد ظهور الإسلام، إذ كان هؤلاء المهاجرون أكثر تقدماً ورقياً من أهل البلاد الأصليين<sup>(٢٣)</sup>، وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج على الساحل الحبشي أدت لإنشاء عدة ممالك اشتهرت وذاع صيتها وعُرفت باسم ممالك الطراز الإسلامي<sup>(٢٤)</sup> وقد اتسم تكوين هذه الممالك بصفة عامة بالطابع التجاري، إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية، وامتزج المسلمون العرب بالوطنيين وصاهروهم فأخذ الإسلام واللغة العربية ينتشران تدريجياً<sup>(٢٥)</sup>.

ARCHIVE

الأفراد أن يعرفوا قدرًا من اللغة العربية من خلال هذه المعاملات مما كان له أثر ما في نشر اللغة العربية بين السكان الأصليين للمزيد انظر تاديسي نامرات : القرن الأفريقي المسلمانيون في أثيوبيا ودول القرن الأفريقي، في كتاب تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، موسوعة اليونسكو، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٣٥، غيثان بن علي بن جريس، الإسلام واللغة العربية في دول الطراز الإسلامي خلال العصور الوسطى، مجلة المؤرخ العربي، العدد الخامس، المجلد الأول، مارس ١٩٩٧م، ص ١٦٧-١٨٣.

21 - Paul B. Henze : op . cit , pp. 50 – 51 .

٢٢- محمد بن ناصر العبودي : في أفريقية الخضراء، دار الثقافة-القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٥٨.

٢٣- الحيمي : سيرة الحبشة، تحقيق مراد كامل، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ص ١٨

٢٤- واشتهرت في هذا الطراز إمارات سبع هي : وفات، داراو، أرييني، هدية، شرخا، بالي، دارا للمزيد انظر القنفشندي، المصدر السابق، ص ٣٢٤

25 - Bender, M.L : « Language in Ethiopia », Oxford University Press, London, 1976,p.6.

كما شهدت اللغة العربية مرحلة أخرى من الازدهار في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حيث شهدت حركة انتشار الإسلام مع ظهور الإمام أحمد بن إبراهيم عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م الذي استولي على العديد الأقاليم الحبشية حتي دخلت أغلب أقاليم الحبشة في طاعته وتحت سيطرته عدا أجزاء محدودة منها، واستمر جهاد الإمام أحمد حوالي خمسة عشر عامًا قبل أن يتدخل البرتغاليون في ساحة الصراع والأحداث التي انتهت بمقتل الإمام، وكان لهذه الفترة من التوسع أثر كبير في توطيد قواعد الإسلام ونشر اللغة العربية في أنحاء الحبشة، فامتد الإسلام ووصل إلى مناطق وأراضي لم يكن قد وطأها من قبل<sup>(٢٦)</sup>.

وقد انتشرت اللغة العربية في هذه الممالك بشكل كبير فكان أهالي البلاد يتكلمون اللغة العربية إلى جانب لغاتهم المحلية، خاصة أهل أوفات الذين كانوا يتحدثون العربية إلى جانب لغاتهم الحبشية<sup>(٢٧)</sup>. ولم يتوقف انتشار اللغة العربية على الساحل الشرقي للحبشة فقط بل امتد إلى داخل الحبشة نفسها، فقد حملها إلى الداخل التجار العرب والدعاة والمعلمون وحملتها القبائل العربية المهاجرة والطرق الصوفية إلى أعماق الهضبة الحبشية<sup>(٢٨)</sup>.

#### ثانياً التعليم :

لم يثال موضوع التعليم عامة اهتمام الباحثين والرحالة وذلك نظراً لأسباب عديدة أهمها عدم اهتمام الأحياس أنفسهم بالأقبال علي التعليم باستثناء فئة قليلة من رجال

26 - Ferguson, C.A.: The Role of Arabic in Ethiopia: A sociolinguistic perspective. » In : J.B. Pride and Janet Holmes (Eds.) Sociolinguistics selected readings .penguin Books Ltd, England. 1972,pp.112- 124.

٢٧- إبراهيم علي طرخان - الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، بحث بالمجلة التاريخية المصرية، القاهرة، المجلد الثامن، ١٩٥٩، ص ٣٩

٢٨- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ص ٤٣١-٤٣٢

الدين وأبناء طبقة النبلاء أما باقى فئات المجتمع فلم تعطى لهذا الموضوع أهمية تذكر نظراً لارتفاع تكاليفه<sup>(٢٩)</sup>.

ولقد اقتصر التعليم فى الحبسة على المدارس الملحقة بالكنائس والأديرة حيث لم توجد مدارس غير مرتبطة بالكنيسة نهائياً، إذ كانت بمثابة المصدر الوحيد للتعليم وهو ما يعنى أن معظم أولاد الدين يصبحون كهنة وقساوسة فى مستقبلهم حيث يقوم هؤلاء بتعليم أولادهم مبادئ الدين والقراءة والكتابة، وذلك بهدف أعدادهم للخدمة فى السلك الدينى بالكنائس المختلفة<sup>(٣٠)</sup>. وإلى جانب القراءة والكتابة يتعلمون التراتيل على طريقة اليهود ويحفظون المزامير والمدائح الدينية للعرء وبعض الصلوات وذلك باللغة الجعزية القديمة<sup>(٣١)</sup>، وكانت فصول التعليم فى هذا النوع من المدارس تقام فى الهواء الطلق أو تحت ظل جميزة كثيفة ! أما المعمر فى الدير فكان يجلس على كرسي ويراقب التلاميذ، وقد قامت هذه المدارس بتخريج أعداد كبيرة من الكهنة والشماسين، لكنهم كانوا قليلي العدد لتلبية احتياجات المملكة الواسعة خاصة مع عدم اتقان معظمهم اللغة الجعزية<sup>(٣٢)</sup>.

أما أولاد النبلاء والطبقة الأرستقراطية فلم يلتحقوا بمدارس الكنيسة مع أبناء رجال الدين وبعض أبناء الطبقة الوسطى، بل جرت العادة على أن تتفق جماعة منهم فيكلفون أحد القساوسة لحضور إلى منزل أحد الأغنياء<sup>(٣٣)</sup> فيعلمهم القراءة والكتابة خاصة قراءة المزامير وبعض مبادئ الدين والحساب مقابل أجر يدفعونه له، وقد اشترطوا على هؤلاء

29 - C.H. Walker, O.B.E : The Abyssinian at Home, London, 1933, p.241.

30 - Sylvia Pankhurst: The Ethiopia A cultural History, London, 1956, p. 216.

31 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia (1270-1527), Oxford, Clarendon press, 1972, p . 294.

32 - Edward Ullendorff : op, cit, pp52-53.

٣٣ هالك فئة من الأغنياء اتفقت فيما بينها على إنشاء كوخ صغير يتعلم فيها أولادهم بجوار الكنيسة حتى لا يدخل أحد من القساوسة إلى منازلهم. انظر

- C.H. Walker, O.B.E : op, cit, pp.174-175.

القساوسة ألا يدفعوا هذا الأجر إلا بعد إتقان التلميذ لهذه الأشياء، بل لابد وأن يقوم بتعليم أحد التلاميذ القادمين من بعده هذه المبادئ منفرداً<sup>(٣١)</sup>. الجدير بالذكر أن هذا الأجر تمثل عادة في منح المعلم بقرة وحصاناً أو عجلًا وخروفاً عن كل تلميذ، أما عن مدة تعليمه فكان يقضي حوالي ستة أشهر في حفظ المزامير ومثلها في تعلم مبادئ القراءة والكتابة<sup>(٣٢)</sup>. وكان خريجو هذه المدارس يتفوقون علي أمثالهم من مدارس الكنائس العادية، فكان لديهم قدرة عالية علي أداء الطقوس الكنسية باللغة الجعزية، وكان غالبية هؤلاء من رجال الدين المدنيين الذين كانوا يمثلون الكنيسة في المقاطعات البعيدة الوثنية<sup>(٣٣)</sup>. وبصفة عامة عند انتهاء دراسة هؤلاء الطلاب إما ينخرطون في سلك الرهبنة في الدير الذي ينتمون إليه، وإما يعملون في السلك الكنسي لأداء بعض الوظائف الكنسية<sup>(٣٤)</sup>.

٣٤ - غسان علي محمد الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، دار العلم للطباعة، جدة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص ١٥٥، مراد كامل، الرهبنة الحبشية، رسالة مارمييا عن الرهبنة القبطية، الرسالة الثالثة، مطبوعات جمعية مارمييا العجايب، الإسكندرية، مايو ١٩٤٨م ص ٣٢، تاديسي تامرت، السليمانيون، ص ٤٤١؛ جون بوهلنسر، أرض الوجوه السمراء، ترجمة رمزي يسن، مراجعة محمد محمود الصياد، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦٠.

٣٥ - من أهم المشاكل التي تواجه التلميذ أثناء تعليمه هو أن مبادئ الدين والمزامير الذي يقوم بحفظها كانت مكتوبة باللغة الجعزية التي لا يفهما إلا رجال الدين الأحباش فقط، بينما كان الناس يتحدثون فيما بينهم اللغة الأمهرية التي كانت منتشرة علي نطاق واسع بين الشعب الحبشي انظر ممتاز العارف، الأحباش بين مارب وأكسوم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٣٢٥.

36- Taddesse Tamrat: op. cit, pp . 232-٢٣3.

٣٧ ساويرس بن المقفع، تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة، تحقيق عبد العزيز جمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٩٨٢، عبد الحفيظ محمد علي، الحركة الديرية في مصر وأثرها علي بلدان البحر المتوسط في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ندوة مصر وعالم البحر الأحمر المتوسط، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ص ١١٢، ١١٣.

وقد احتل هؤلاء الكهنة والشمامسة بعض المناصب الدينية خاصة فى الكنائس التى فتحت فى المجتمعات البعيدة على حدود المملكة الحبشية حيث كان أغلبية سكانها من الوثنيين، فقد عملوا بالوظائف الخاصة بأداء طقوس الاحتفالات الدينية والحفاظ على تقاليد الكنيسة الطقسية، إلا أنهم كانوا غير قادرين على نقل روح التعاليم المسيحية لهذه المجتمعات، حيث اقتصرت طرق تعليمهم على قراءة كتب الخدمة العادية<sup>(٣٨)</sup>. وعلى الرغم من ذلك فقد حرص هؤلاء على القيام بالعديد من الأعمال التى كان من أهمها نسخ الكتب والمخطوطات حتى ظهر عدد من الرهبان الأحباش الذين تخصصوا فى نسخ الكتب والمخطوطات وترجمتها<sup>(٣٩)</sup>، وحرصوا على أن يحافظوا على مخطوطاتهم فى مكان أمين خفى. أما الأديرة الكبيرة مثل دير دبر برهان أو دير ليبانوس فكان فيها حجرة مخصصة للمكتبة بها خزائن لحفظها ومكان لنسخ الكتب، الجدير بالذكر أنه تم نقل السنكسار المصرى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى وهو جامع حياة القديسين والشهداء النصارى منذ عصر منكر من استئثار المسيحية وحتى نهاية عصر الشهداء من اللغة العربية إلى اللغة الحمرية، وقد طبقها الأحباش فى كتابهم وأدبرتهم<sup>(٤٠)</sup>.

٣٨ - نظرت الشعوب الوثنية إلى مراسيم الكنيسة كطائفة دينية غريبة، وعندما دخل بعضهم فى الديانة النصرانية بدأ هؤلاء السكان أن طقوسهم لا تختلف كثيراً عن وثنيهم التى يمارسونها فى ديانتهم الخاصة، وعلى الرغم من ذلك فقد مارسها البعض دون التخلي عن كل مظاهر معتقداتهم الأصلية. ويرى ترمينجهام أن الأجباز على اعتناق المسيحية فى الحبشة لم يأت بنتائج إيجابية فقد تم تحويل قبائل الأجاو إلى المسيحية بطريقتين الأولى بالقوة والثانية عن طريق نشاط بعض الرهبان، إلا أن هؤلاء تحولوا إلى المسيحية بالأسم فقط، حيث احتفظوا بولائهم لألهتهم القديمة أنظر الفلشندي، المصدر السابق، ص ٣٢٥ أيضاً

-Trimingham: op. cit, p. 76.

٣٩- عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة اسحاق عبيد، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ١٩٨.

40- Budge: History of Ethiopia, Vol. 2, p.571.

انظر أيضاً: ساويرس بن المقفع: مصدر سابق، ج ١، ص ٩١٩، عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص ١٩٩.

وهناك ميدان حضاري آخر أسهمت فيه الحركة الديرية بسهم وافر في الحبشة، ذلك أن مهمة نشر الديانة النصرانية وتعليم الناس مبادئ القراءة والكتابة لم يقم بها الأباطرة وحدهم، بل كانت بعثات الديرين وجهودهم تساند جيوش الغزاة وتسير في ركابها لتنتشر الديانة النصرانية بين الشعوب الوثنية. فقد عمل الرهبان علي محاولة اقتلاع جذور الوثنية من الحبشة، التي استمر تاريخها لقرون طويلة في البلاد واقتلاع الخرافات وأعمال السحر من عقول أبناء الحبشة، فقد كانت الأديرة مثل المصابيح المضيئة في وسط عالم يموج بالغموض والظلام، وتؤكد النصوص الحبشية علي الدور الكبير الذي قام به الإمبراطور والقديس (زره يعقوب) في هذا المضمار فلم يدخر جهداً في نشر التعاليم المسيحية خاصة في المناطق النائية<sup>(٤١)</sup>. إذ أعطي تعليماته لرجال الدين الرهبان والمدنيين بأن الجزء الرئيس من أعمالهم هو توجيه وتعليم الناس مبادئ الدين خاصة أيام السبت والأحد فضلاً عن معرفة قراءة الكتاب المقدس باللغة الجعزية، وعلي جميع الناس أن يذهبوا إلي الكنائس ليهتم الكهنة بتعليم الناس عبادة الله واحترام الصبوت، بل وصل الأمر إلي أنه أمر بعض الكهنة بالذهاب إلي المنازل البعيدة عن الكنائس يوم الجمعة لتعليمهم، وكان الناس يقدمون لهم الغذاء المناسب، وكان يجب على كل مسيحي أن يأخذ القس للاعتراف له بذنوبه<sup>(٤٢)</sup>.

كما تدلنا مصادر دير لبيانوس، علي أنه قام باختيار - علي سبيل المثال - اثنا عشر راهباً وقسم بينهم منطقتي شوا وداموت وأعطى لكل منهم لقب رسول، ثم حدد لكل واحد المنطقة التي يبشر فيها، ولكن واحداً منهم ويدعى (فيلبس) كان الرئيس بينهم وبالتالي

41- Mordechai Abir: Ethiopia and The Red Sea The Rise and Decline Of The Solomonic Dynasty and Muslim - European Rivalry in the Region, Gainsborough House, London, E11.Rs, England, 1980, p.32

42 - Herbert Weld Blundell & Reginald Koettlitz : A Journey through Abyssinia to the Nile, The Geographical Journal , Vol.15, No. 3, (Mar, 1900) .pp.99-101.

كان له الحق في التبشير في أى مكان من تلك المنطقة<sup>(١٣)</sup>. هذا عدا جهود ذلك الجيش الضخم من رهبان الأديرة والمندنين الذين كافحوا في سبيل نشر المسيحية وما يرتبط بها من تعاليم بين الشعوب الوثنية علي حدود أرجاء المملكة الحبشية، وقد استغرقت هذه العملية فترة طويلة نجحت بعدها الكنيسة في فرض تعاليمها علي هذه الشعوب في بدايات العصور الحديثة<sup>(١٤)</sup>.

وهكذا أثرت هذه الأديرة في تطوير الطقوس الدينية الكنسية وإثراء ترانيم الكنيسة الحبشية، كما امتد أثرها إلي الألب الكنسي، كما فعل القديس يارد<sup>(١٥)</sup> الذى أدخل الترانيم

43 - Richard Pankhurst: *An Introduction to the Economic*, pp. 222.

44- Christine Chaillot : *The Ethiopian Orthodox Tewahedo Church Tradition, a brief introduction to its life and spirituality* Published Paris , 2002, p 63.

٤٥ - القديس يارد : أحد تلاميذ القديسين التسعة، ولد وعاش في الحبشة في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، أرسلته والدته إلي أحد القديسين (الأب جدعون Gede,wen) ليتعلم علي يديه في كنيسة صهيون في -أكسيوم، حيث كان يتلقي دروسه بجد واجتهاد حتي أصبح قسا، ثم سافر إلي أورشليم القدس حيث تعلم هناك، وعاد ليعمل معلماً في كنيسة أكسيوم، الجدير بالذكر أن القديس يارد له بصمات عظيمة التأثير علي الكنيسة الحبشية، فقد وضع ألحان الموسيقى الدينية الحبشية الوحيدة في البلاد، ويقال أنه استقي أصولها من الموسيقى السريانية، إلا أنه أدخل عليها الترتيل المصاحبة بالآلات الموسيقية والطبل والرقص المقدس الهادي، كما ينسب إليه أنه أدخل الصوت العالي إلي الكنيسة الحبشية وقد استقي ذلك من أورشليم القدس بعد أن استمع هناك إلي ترانيم التسييح والشكر بالصوت العالي الجهوري، للمزيد انظر

- George A. Lipsky : *Ethiopia, its people, its Society, its Culture*, New Haven, Hraf press, 1962. p. 214., Sergew Hable Selassie : *Ancient and Medieval Ethiopian History to 1270*, Addis Ababa, 1972, p. 158.

المصاحبة بالآلات الموسيقية وصيغ الألحان، وينسب إليه أيضًا إدخال الصوت العالي في إنشاد الترانيم و تمكنوا من تأسيس نوع من الليتورجيا<sup>(٤٧)</sup> الكنسية في البلاد<sup>(٤٨)</sup>.

وهكذا كان التعليم في هذه الأديرة دينيًا يتناول الصلوات والطقوس والإنجيل وكتابات آباء الكنيسة، فقد كان الهدف الأساسي من هذه المدارس إعداد رجال الدين لمباشرة مهامهم في الوعظ والإرشاد ونشر المسيحية، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجل الدين نفسه علي قسط وافر من إتقان اللغة الجعزية، لأن الجعزية كانت لغة الكنيسة، وذلك بخلاف اللغة الأمهرية التي يتفاهم بها غالبية أهالي المملكة الحبشية، مما صعب علي هؤلاء القيام بالجمع بين اللغتين الأمهرية والجعزية<sup>(٤٩)</sup>.

وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة هامة، وهي أن الأديرة في الحبشة كانت هي المراكز الأساسية للثقافة والفنون. وصار الدير يورث يكونون ركنًا كبيرًا في المجتمع الحبشي، حتي غدت تعاليمهم وأعمالهم تمثل جزءًا أساسيًا من حياة المجتمع كله، وحسب الديرين أنهم شاركوا مشاركة فعالة في عملية البناء والإنتاج التي حفظت النهضة الأدبية في المجتمع، كما بذلوا جهدًا كبيرًا في صيانة هذه الحضارة وسط الكوارث التي ألمت بالمملكة الحبشية في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي<sup>(٥٠)</sup>. كما كانت هذه الأديرة مركز النشاط الديني وترجمة الكتب الدينية المختلفة، فقد غدت هذه الأديرة مركز العلم والدراسة، مما جعل ثقافة ذلك العصر ديرية بكل معاني الكلمة<sup>(٥١)</sup>.

<sup>٤٧</sup> - الليتورجيا : هي الطقس الديني الخاص بالكنيسة الحبشية، وهي عبارة عن ترجمة لنسخة القديس مارك التي استخدمتها الكنيسة القبطية وترجمت إلي اللغة الجعزية . انظر Hyatt H.M :: The Church of Abyssinia, London, 1928, p.83.

47 - Wolf Leslau : : Falasha Anthology , Schocken, New York, 1951, p.107.

48 - Bender, M.L : op. cit, p. 57.

٤٩ - تاديسي تامرت: المسلمينانيون، ص ١٤٤١ جون بوخهلتسر: مرجع سابق، ص ٦٠.

٥٠ - مراد كامل : صلة الأدب الحبشي بالأدب القبطي. رسالة مارمينا في عيد النيروز، سبتمبر، ١٩٤٧، ص ٣٦.



ولقد شبه بعض المؤرخين هذه الأديرة بأنها كانت في هذه الفترة بمثابة جزر مضيئة يشع منها بريق المعرفة وسط بحر واسع من الظلمات يعمه الجهل والفوضى. وبذلك أنقذت الأديرة تراث الحبشة الفكري من الضياع في وقت لم توجد قوة أخرى تعمل علي تحقيق هذه الغاية. حقيقة أن الأديرة تأثرت بالنزعة المحلية التي سادت في القرى المحيطة بها، لكن ذلك لم يمنع من وجود نوع من الاتصال فيما بينها وبين بعض، وذلك بفضل الرحلات التي قام بها الرهبان - خاصة رهبان أتباع أوسطاتيوس<sup>(٥١)</sup> - وبفضل جهود

٥١ - أوسطاتيوس: المعروف عنه غير واضح تماماً ولكن يقال أنه ابن شقيق الأنبا دانيال جبريتا Abba Daniel of Gar, ita وتتلمذ علي يده وقد استطاع أن يؤسس لنفسه نيزاً في سيريا Sara'e وجمع حوله العديد من الطلاب، غابر الحبشة نتيجة تعرضه لبعض محاولات الاغتيال، فذهب لزيارة القاهرة حيث التقى مع البطريك بنيامين (٧٢٨-٧٤٠/١٣٢٧-١٣٢٩م) واتهم هناك أيضاً ببعض الاتهامات الدينية مثل عدم تقديسه ليوم السبت ودافع عن نفسه هناك من خلال اللجوء إلي الوصايا العشرة والشرائع الرسولية، وقد طلب البطريك بنيامين التصالح مع أبناء بلاده في الحبشة فرد عليه قائلاً 'جلت إلي بلادك لكي أموت من أجل كلمة الله إلا أنني لم أجد الراحة في هذا العالم فرحل إلي العديد من البلدان مثل القدس وقبرص وأرمينيا وتوفي هناك، فعاد بعض طلابه ممن كانوا بصحبته إلي الحبشة بعد أن قاموا بالإطلاع ونسخ العديد من المؤلفات المسيحية العديدة من البلاد التي قاموا بزيارتها مما أدى إلي تطور نظام أدب الرهبنة في الحبشة في تلك الفترة إذ شكلت هذه الكتب معلماً حاسماً في النهضة الحضارية التي شاهدها الكنيسة الحبشية فيما بعد، وقد قام هؤلاء الأتباع بنشر تعاليمه بقوة في المجتمع الحبشي وكان مركزهم دير دير ماريام، إلا أن هناك العديد من أتباعه وطلابه ممن خالفوه في آرائه وانتشروا عنه. والملاحظ أن أتباع أوسطاتيوس كانت هي الفئة الوحيدة في الحبشة التي قامت بمعارضة كنيسة الأسكندرية فيما يتعلق بالعديد من المعتقدات الدينية، وذلك في مقابل أن الغالبية العظمى من الأديرة الحبشية خاصة الموجودة في أمهرة وشوا كانت تتوافق مع تعاليم بطريرك كنيسة الأسكندرية، و كان ذلك من منطلق الخوف من الطرد والحرمان لكل من يرفض تعاليم الكنيسة، وتأتي أكثر القضايا التي عارضها أتباع أسطاتيوس قضية يوم السبت فطعي الرغم من أن تقديس يوم السبت لا يوجد إلا في العهد القديم، فإن ذلك كان له تأثير كبير علي تفكير العديد من الأحباش في إعادة بعض التقاليد الخاصة المتعلقة بالممارسات الدينية، خاصة في غياب أدبيات الديانة النصرانية في القرون الأولى لها فيما عدا الكتاب المقدس، و بعد أشهر أتباع أوسطاتيوس القديس فلبس الذي قام بتأسيس دير دبرا بازان وهو الدير الذي أصبح أحد المراكز القيادية التعليمية والدينية الهامة في الحبشة حتى اليوم. انظر

زره يعقوب في محاولة تطبيق المركزية وحرصه الدائم علي الأشراف علي المؤسسات الدينية، هذا كله بالإضافة إلي أثر الإصلاحات الكنيسية التي استهدفت تهذيب الحياة الديرية عن طريق الربط بين الأديرة واخضاعها لأشراف مركزي دقيق، مما جعل الأفكار والكتب تنتقل من دير إلي آخر في سرعة أثرت الدهشة<sup>(٥٢)</sup>. وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة قاطعة، وهي أن الأديرة في الحبشة كانت المراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة فضلاً عن الفنون فيما بين أوائل القرن الخامس عشر ونهاية القرن السادس عشر الميلادي<sup>(٥٣)</sup>.

### ثالثاً الكتابة والأدب في الحبشة

#### ١- الكتابة الدينية

منذ دخول المسيحية في المملكة الحبشية كانت اللغة الجعزية القديمة وسيلة للتعبير الأدبي في الحبشة، وتطور الآداب المكتوبة بالجعزية حول المواضيع الدينية وأغلبها مترجم عن القبطية والسريانية واليونانية والعربية، إذ تمت ترجمة الكتاب

Knud Tage Andersen: The Queen of the Habasha in Ethiopian History, Tradition and Chronology, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 1. (2000), p.142 see also Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, pp. 206-208.

٥٢ - ساويرس بن المقفع، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٨٢، نيب حبشي: المخطوطات القبطية: رسالة مارميثا في عيد الثبروز توت ١٦٦٤، مطبوعات جمعية مارميثا العجايب، كنيسة السيدة العذراء، الإسكندرية، ١٩٤٧، ص ١٢٦ عبد الحفيظ محمد علي: المرجع السابق، ص ١١٢، ١١٣ انظر أيضاً:

- Donald Crummey: Land and Society in the Christian Kingdom of Ethiopia from the Thirteenth to the Twentieth Century, University Illinois Press, 2000, pp.45-49;

53 -Stuart Munro.: Aksum an African Civilisation of Late Antiquity, first published, Alan Light, British Library, 1991, p.13-15.

## الحياة الثقافية لنهارى الحبشة في العصور الوسطى

المقدس<sup>(٥١)</sup> وعدد من الكتب الدينية الأخرى إلى هذه اللغة، إلى جانب القداصات القبطية لكل من الآباء جريجوري (غريغوريوس) وباسيليوس (باسيل) وكيرلس، وكذا بعض القداصات الأخرى التي إختفت من الكنيسة القبطية، في حين أن بعض القداصات الأخرى الحبشية خالصة، ورغم ما يتردد عن أن الكتاب المقدس المكتوب بالجعزية من وضع فرومونتوس، إلا أن معظم الدلائل التاريخية تضعه في عصر القديسين التسعة أي مع نهايات القرن الخامس<sup>(٥٢)</sup>. ومع انتشار الإسلام في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والأقاليم الساحلية الحبشية تعرضت المسيحية التي تعايشت مع غيرها من الأديان في الأقاليم الداخلية إلى الذوبان كنتيجة لذلك فإنه منذ بداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي أخذ تطور الأدب الجعزي في التراجع واستمر ذلك التراجع حتى منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر عندما بدأ الأدب الجعزي في الانتعاش والازدهار مرة أخرى<sup>(٥٣)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك نقاج أدبي غير قليل لهذه الفترة يتكون من الجدلّات Gedles وهي عبارة عن أخبار لمآثر وأعمال العديد من القديسين أو بطولات الملوك (مثل أعمال الملك لاليبالا Gedle Lalibala ٥٨٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٩٠ - ١٢٢٥ م)<sup>(٥٤)</sup>

٥٤ - تعتبر الكنيسة الحبشية أن الكتاب المقدس هو القاعدة والمرجع لكل ما يتعلق بمسائل الإيمان. ومن المرجح أن أول نص كتابي نقل للغة الجعز هو الإنجيل، ورغم ما يتردد عن أن الكتاب المقدس المكتوب بالجعزية من وضع فرومونتوس، إلا أن معظم الدلائل التاريخية تضعه في عصر القديسين التسعة أي مع نهايات القرن الخامس، وقد خصصت هذه الترجمة لأكثر من مراجعة كان آخرها في القرن الرابع عشر.

٥٥ - عبد الحفيظ محمد علي: المرجع السابق، ص ٩٦.

56 - Tesfaye Gesesse : Ethiopian Literature before and after the revolution, in Lotus "Journal of Afro-Asian writers association no: 46 -4/80, pp.33-34.

٥٧ - اتخذ الملك لاليبالا (Lalibela) لنفسه لقب جبراماسقال (Gebre Mesqel) ومعاها خادم الصليب، وقد عرف عنه حبه للسلام واهتمامه برجال الدين، وقد قام بترميم العديد من الكنائس وبني أكثر من عشر كنائس جديدة في جميع أنحاء البلاد ما زال بعضها باقياً حتى الآن استعان فيها بعدد من العمال المصريين بالإضافة إلى بعض الهنود، ويقال إنه قبل توليه الحكم نفى بسبب عداوة عمه Tatadim إلا أنه استطاع الهرب وقام بثورة استطاع الاستيلاء بها

والذي ارتبط " اسمه بالكنايس الصخرية الشهيرة في إقليم "لاستا" وكتابة تاريخ الأسرة الزوجية (٣٢٩-٦٦٩هـ/٩٤٠-١٢٧٠م) و "أعمال تكلا هيماوت Gedle Tekle Haimanot " الذي يعد مستعيد الحكم للأسرة السليمانية ... ومن الجدلات التي كتبت أيضاً - أعمال الألب فيليبوس الذي عارض الإمبراطور عمدا صهيون الأول (٧١٤-٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤م) بسبب تعدد زوجاته فضلاً عن أنه تزوج بزوجة أبيه، مما أثار غضب الإمبراطور فأمر بجلده وأجبره على السير عازياً وسط جماهير الرجال والنساء الساخرة وقد أدت هذه للمهانة الراهب في كرامته<sup>(٥٨)</sup>.

ومن أعمال هذه الفترة أيضاً أخبار الإمبراطور عمدا صهيون الأول والتي تحكي عن معاركه وبطولاته، وكذلك من الأعمال الأصلية في هذه الفترة " قصة الإسكندر الأكبر " والتي تحتوي على العديد من الأعمال البطولية الخيالية التي لا تستند إلى أساس تاريخي، ومن الكتب العلمانية التي ظهرت في هذه الفترة كتاب "صراطنا منجمت" والذي يقال أن عمدا صهيون هو الذي كتبه بنفسه، والكتاب يصور نظام الحكومة والحقوق المطلقة للإمبراطور وامتيازات الطبقة الحاكمة<sup>(٥٩)</sup>.

ولم تكن هذه الكتب خاصة بالكتب الدينية فقط، بل ألغت كتب في موضوعات غير دينية ومن أشهر الكتب التي ظهرت في هذه الفترة كتاب "مجد الملوك " أو "كبرا نجست Kibre negest وكان الهدف الأساسي من هذا الكتاب هو إضفاء شرعية الحق الإلهي

علي الحكم في عهد أخيه الكبير لذا يعتقد أنه وصل للحكم بقوة السلاح، ويختلف الباحثون في سنوات حكمه ( ١١٨٩ - ١٢٢٩م) بينما ينكر آخرون أنها (١١٨٠ - ١٢٢٠م) وبينما نجد أريقاً ثالثاً يؤكد أنه كان معاصراً للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ( ٩٩٦ - ١٠٢٠م ) ولكنهم يجتمعون على أن مدة حكمه كانت أربعين عاماً انظر زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٥.

58 - Perruchon : Histoire des guerres d'Amda Seyon, roi d'Ethiopie, in Journal asiatique.ser.8, t.Xiv,1889, p.152

59 - Sergew Hable Selassie : op,Cit.p. 154.

لنسل الأسرة المليمانيّة باعتبارهم المستحق الوحيد للعرش<sup>(٦٠)</sup> ويحتوي هذا الكتاب على القصة الدرامية لرحلات ملكة سبأ (ماكيدا) إلى أورشليم ولقائها مع الملك سليمان، وعلى الرغم من أن الموضوع ليس ذا صبغة دينية خالصة إلا أن معالجته مشربة بمسحة روحانية دينية<sup>(٦١)</sup>، وهذا أمر متوقع لأنه من المفترض أن سلطة الملوك مستمدة من الرب ولهذا فإن دور الكنيسة وتأثيرها يكون أمراً ضرورياً وفي الحقيقة يمكن اعتبار هذه المسحة الدينية إحدى الخصائص العامة المميزة لمعظم إنتاج الأدب الجعزي<sup>(٦٢)</sup>.

وقد شهد القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي تطورت سياسية ودينية خطيرة في الحبشة، مثل انتشار حركات الإصلاح والمجادلات اللاهوتية والمنشقين عنها من معتنقي الخرافات، والنزاع بين الأباطرة وبعض معارضي المطران المصري في بعض الأمور المتعلقة بالديانة المسيحية، ويبدو أن هذه الأحداث العظيمة كان لها أثرها في إثراء الحركة الأدبية، لذلك تعد هذه الفترة هي العصر الثاني من ازدهار وانتعاش الأدب الحبشي بعد مرحلة النقل من الأدب القبطي المصري في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي<sup>(٦٣)</sup>.

لقد ارتبطت الحركة الأدبية في هذه الفترة بمحاولة تعزيز هيبة الأئمة الحبشية إذ كانت ثورة عام ١٤٥٣م كانت ضد الثروة الطائلة لبعض الأئمة ولمناهضة الإمبراطور، لذلك أنتشرت بعض الأعمال الأدبية التي تروج للخرافات والشعوذة ولاقت رواجاً بين عامة

60- Budge : op,Cit.p.567.

٦١ - يقال أن الرأس ميخائيل حاكم مقاطعة تيجري هو الذي أمر بكتابة هذا العمل وقد نشره العالم الألماني بيزولد Bezold باللغة الجعزية مصحوباً بترجمة إلى اللغة الألمانية عام ١٩٠٥، كما قام العالم السير وليم بدج بعرضه وترجمته وتحقيقه باللغة الإنجليزية وهو الآن موجود في المكتبة البولندية(كاتلوج ديلمان تحت رقم ٢٤)تحت عنوان:-

- Budge: the Queen of Sheba& her only son  
Menyelek,London,1922

62 -Edward Ullendorff : Ethiopia and the Bible, London,1955,  
p.38.

63- Budge: op. cit, pp.568-569.

الشعب عن طريق الأسطفانيوسيين والميكائيلين<sup>(٦١)</sup>، فقد كان لهم عدد من المؤلفات منها كتاب "همارا نفس أو سفينة نوح" و"مرسي أمين أو المرفأ الأمين" وفكاري ملكوت أو تفسير الألوهية" وهو من تأليف أحد المنشقين عن هذه الجماعة وهو يمتاز بأسلوبه الأدبي البديع والأفكار المعارضة لهذه الجماعة، فضلاً عن كتاب "قم العدل" وقد أدى ظهور هذه الأعمال الأدبية إلى إشعال حماس الكنيسة من أجل تطهير تابعيها من آثار وشوائب الوثنية القديمة<sup>(٦٢)</sup>.

وطبقاً لبعض كتب هذه الفترة فإن الإمبراطور (زرع يعقوب) الورع بذل ما في وسعه لكي يخلص رعيته من السحر والشعوذة، وقد ألغت بعض الكتب للرد على عبادة الأصنام وممارسة السحر والشعوذة والهرطقات وعلى ذلك فقد نسب إلي الإمبراطور تأليف عدد ليس قليل من الكتب الدينية المقدسة التي وصف فيها حالة البلاد السياسية والدينية في

٦٤ - أحد أهم الجماعات المعارضة للكنيسة الحبشية والتي كان لها دوراً بارزاً في المجادلات الدائرة حول العديد من الأمور الدينية الهامة كان أهمها قضية أقيانيم الثالث (حيث قالوا أن الأب والابن والروح القدس هم ثلاثة أسماء لوجه واحد وعضو واحد وصورة واحدة، كما قالوا أن الرب لا صورة له على هيئة الناس ولا يشبههم وأنكروا أقيانيم الثالث) كما عارضوا أيضاً فكرة أن الأب والروح القدس سيظهران مع الابن في مجيئه الثاني، كما عارضوا أن يخصص الإمبراطور للعزاء العديد من أيام الاحتفال، ولم يوافقوا على محتوى الكتب القانونية للكنيسة، وقد تبنتهم بعض الجماعات الأخرى مثل جماعات عاصفا وجماليل للمزيد انظر الأنبا يوانس، عقيدة المسيحيين في المسيح، دار الكتب، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٧٢-١٧٥، البابا شنودة الثالث، طبيعة المسيح، دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٣ أيضاً

Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , rois d'Ethiopie . Texte ethiopien inedit comprenant en outre un fragment de la chronique de Ba'eda- Maryam, leur Precededeur, et traduction. In Journal asiatique.ser.9.vol.3. 1894 .319-366. Sep.- Dr. Paris, 1894 mit eigner Seitenzahlung ,p.365.see also J. B. Coulbeaux: Histoire politique et religieuse d'Abyssinie ("The Political and Religious History of Abyssinia"), Paris, 1929, p.314

65- Gelb, I. J & Edward Ullendorff : op, cit, p. 136.

عهده، فقد ظل لمدة اثنتي عشرة سنة يكتب فيها دون انقطاع، ومن هذه الكتب<sup>(٦٦)</sup>:  
 'طومار تصبغت أو رسالة الإنمائية'<sup>(٦٧)</sup> و'مصحف برهان أو كتاب النور'<sup>(٦٨)</sup> و'مصحف  
 ميلاد أو كتاب الميلاد'<sup>(٦٩)</sup> و'كهنت شيطان أو إنكار الشيطان'<sup>(٧٠)</sup> و'مصحف باحري أو

66- Perruchon : Les chroniques de Zar'a ya'eqobe et de Bae'da Maryam, Rois d' Ethiopie de 1434 A 1478, Paris, 1893, p. 77

٦٧ - أشار زرع يعقوب في هذا الكتاب إلي قصة المؤامرة التي حيكت ضده في البلاط من قبل ابنه وزوجها البحت ودد أنيساياس واعتمادهما في ذلك علي السحر والسحرة والعرافين، والنص عبارة عن ثلاثة مواظ تقرأ في أعياد الاحتفالات بالحوارين، ويقول زرع يعقوب أنه قد جمعها من واحد وثمانين من كتب الشريعة التي تتحدث عن عبادة الرب بقلب طاهر بعيد عن الغزليات، وهي مواظ كتبت عموماً من أجل معارضة أعمال السحر والأوثان.

٦٨ - وهو يعد أشهر كتب زرع يعقوب علي الإطلاق، فهو كتاب تشريعي اهتم فيه بوضع كل التشريعات لشعبه وكهنته، بجانب بعض التعليمات للكهنة والشعب وكيفية تقديم القرابين وقراءة الكتب وإقامة الصلوات، كما احتلت فيه قضية يوم السبت جانباً كبيراً، وأقوال السنودس والديسقليا، وبعث وميلاد المسيح..... إلخ. انظر مجدي عبد الرزاق سليمان، النص الملكي في تاريخ الحبشة خلال عصري الإمبراطورين (زرع يعقوب ١٤٣٤-١٤٦٨) وابنه (بنيد ماريام ١٤٦٨-١٤٧٨) ترجمة ودراسة تحليلية، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٩١.

٦٩ - ويدعي كذلك خوختا صحاري أي نافذة الشمس والمقصود به كتاب ميلاد ربنا يسوع وهو يتضمن جزءاً آخر يسمى 'مصحف سيلاسي' ويتناول فيه الإمبراطور عقيدة 'التثليث' وهو مجموعة من النصائح العامة للشعب المسيحي، وتفسير لبعض أجزاء العهد القديم وارتباطها بالمسيح، كما يوجه بعض الانتقادات لكل من اليهود والمسلمين، وتمرد أولاد إسطفانوس وشهاب الدين أحمد بدلاي ضد الإمبراطور.

٧٠ - هي صلاة معينة ينسب تأليفها لزرع يعقوب، وترد ضمن الصلوات المعروفة باسم (سيف الثالثوث) المنسوبة لزرع يعقوب.

كتاب التلوثة<sup>(٧١)</sup> و تعقبو مشطير أو حفظ الأسرار<sup>(٧٢)</sup> و إجزينا بيجير نجش أو الرب ملك<sup>(٧٣)</sup>.

وقد شكك بعض الباحثين في انتمساب هذه الكتب إلي (زرع يعقوب)، وذكروا أنها كتبت علي يد رجال الدين الموجودين في البلاط الإمبراطوري تحت رعاية الإمبراطور وإشرافه، وأن هدف تلك الكتب دعم الملك ومقاومة نزعة الهرطقات والممارسات الوثنية، مما يقدم دليلاً حياً علي تدخل الملك في شئون الكنيسة وشريعتها<sup>(٧٤)</sup>، غير أن الباحث يتفق مع الرأي المؤيد أن (زرع يعقوب) قد كتب بنفسه معظم ما نسب إليه بصورة مباشرة أو بإشراف مباشر علي كهنته، فمن المعروف أن (زرع يعقوب) خريج مدارس الأديرة المحيطة بالبلاط، والجدير بالذكر أن معظم خريجي هذه المدارس قد عملوا في مناصب متميزة كالقضاء وغيره، كما أنها خرجت العديد من الأمراء الذين تولوا عرش الحبشة فيما بعد مثل (داود ٧٨٤-٨١٤هـ/ ١٣٨٢ - ١٤١١م) و(زرع يعقوب) و(ناوود ٩٠٠-٩١٤هـ/ ١٤٩٤-١٥٠٨م) أي أن مؤهلاته الدينية كراهب قبل أن يكون ملكاً تؤهله لذلك، علاوة علي أن أسلوب الكتابة في معظم هذه الكتابات يكاد يكون واحداً، كما تجدر الإشارة إلي أن ما نسبته المؤرخ إلي (زرع يعقوب) أقل بكثير مما نسبته الباحثون إليه إنتاجاً<sup>(٧٥)</sup>

٧١ - والمقصود به هو السيد المسيح وهو عبارة عن موعظة يحارب فيها زرع يعقوب السحر واعتماد المريض علي السحرة، ويركز فيها علي ضرورة أن يلجأ الناس في علاجهم إلي القساوسة لا السحرة .

٧٢ - وهي موعظة كتبت بخصوص جسد ودم المسيح تحت الأحباش المسيحيين علي المحافظة علي ما في الأقداح من شراب بحيث لا يراق منها شيء، لأن القديس قد بورك بدم المسيح.

٧٣ - وهو عبارة عن مجموعة من التراتيل تتضمن تحيات تكريماً للقديسين، انظر - Perruchon : Les chroniques de Zar'a ya'eqobe et de Bae'da Maryam, p. 77

74 - David Buxton : The Abyssinians, Camelot press, Colorado, first Published, London, 1970, pp.123-124.

٧٥ - يشير أحد الباحثين إلا أن هناك مخطوطاً يحتوي علي قائمة بالأعمال المؤلفة بالجزعيرة تنسب جميعها إلي زرع يعقوب منها كتاب يسمى كتاب الزهور وكذلك موعظة قصيرة عن الدور الذي أدته السيدة مريم العذراء في خلاص المسيحيين. كما أن له عدة مقالات أخرى تتعلق



وإشرافاً<sup>(٧٦)</sup> إذ حرص علي تأليف العديد من الكتب الدينية التي شرح فيها آراء معارضيه والرد عليهم<sup>(٧٧)</sup>.

ولم تقتصر عملية تأليف الكتب الدينية في عهد الإمبراطور زره يعقوب فقط، بل كانت هناك العديد منها ما تم تأليفه في عهد أبنيه وخليفته (بليد ماريام ٨٧٣-٨٨٣هـ/١٤٦٨م - ١٤٧٨م) خاصة تلك التي تحتوي علي الصلوات الخاصة بالصوم الكبير، علاوة علي مخطوطات أخرى مزينة من داخلها بصور جميلة، وبها أنواع من الحلي الممزوجة بالصلبان والمتعددة الألوان<sup>(٧٨)</sup>.

أما في ما يخص بتفسير الكتاب المقدس فقد كان الأقباش يؤثرون الاستعانة بآباء الكنيسة لا سيما القديس باسيليوس والقديس يوحنا الذهبي الثماني والقديس كيرلس الإسكندري، فضلاً عن بعض الآباء السريان والرومانيين، ويعد كتاب "هيماتونه أبأو أو إيمان الآباء" عملاً نموذجياً في هذا الصدد، إذ يشمل علي مختارات في أصول العقيدة

ARCHIVE

بالصلاة، وأخرى لرفض الممارسات السحرية التي اتبعتها الوثنيون، علاوة علي ابتهاج ديني يسمى "تمجيد المحبوب" وهي صلاة عامة لأيام الأسبوع . للمزيد انظر مجدي عبد الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ٩٢.

٧٦ - ينسب إلي زره يعقوب كذلك الإشراف علي مجموعة من الكتب في عهده مثل إشرافه علي ترجمه كتاب قوانين الملوك الذي أشار عليه به بطرس بن عبد السيد -وهو ناسخ الكتاب- كبديل عن كتاب (فاوس منفساوي)، فمنح بطرس ثلاثين أوقية من الذهب ليسافر إلي مصر ويحضر نسخة من القوانين المدنية لابن الصال ليترجم في بلاطه. كما ينسب إليه أيضاً الإشراف علي كتاب إخنوخ الذي كان أساساً نموذجياً للحوار مع اليهود. مجدي عبد الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ٩٢.

77 - Tadesse Tamrat : A Period of Conflict, In A Panorama of History and Spirtual Life, Addis Ababa, 1970, p.256.

78 - Tesfaye Gesesse : Ethiopian Literature before and after the revolution, in Lotus "(JAA) no: 46 -4/80, p.84.

والدفاع عن الإيمان وقد نقل الكتاب إلى الجعزية في عهد الإمبراطور الإسكندر (٨٨٣-٨٩٨هـ/١٤٧٨-١٤٩٢)<sup>(٧٩)</sup>، كما ظهر كتاب مصحف مستي Mashafa Mastir أو كتاب المرفي عهد (نأؤؤ ٩٠٠-٩١٤هـ/١٤٩٤-١٥٠٨م) في نحض الهرطقات المسيحانية والثالوثية ولمعتقدات أربوس وصايلنوس ونسطور ولتعاليم المجمع الخلقدوني<sup>(٨٠)</sup>

وقد أهتمت الكتب التي تم تأليفها في عصر الإمبراطور (لبنأ ننجل ٩٦٤-٩٤٧هـ/١٥٠٨-١٥٤١م) بالدفاع عن المسيحية في وجه الإسلام، ومن أبرز كتاب هذه الفترة إنباكوم Enbakom وهو تاجر سوري استقر في الحبشة وأصبح رئيساً لأحد الأديرة فيما بعد، وقد كتب بالجعزية في موضوعات دينية وغير دينية، ومن أهم أعماله الدينية كتاب "أنقسأ أمين أو باب الإيمان Anketse Amin"، الذي يهدف إلى تغيير وتحويل عقيدة الأحباش الذين اعتنقوا الإسلام أثناء غزو الإمام أحمد بن إبراهيم وفيه نكر لآيات قرآنية وبراهين عن صحة المسيحية وشموليتها، ومن أعماله العثمانية المهمة كتاب "قوانين الملوك" الذي أعاد ترجمته إلى الجعزية عن العربية، وقد استمر استخدام هذا الكتاب كمصدر أساسي للقوانين والتشريع حتى أوائل العصر الحديث عندما ظهرت قوانين أكثر تقدماً وممايرة لروح العصر، كما كتب إنباكوم كذلك الموسوعة الجعزية Mesthafa hawi و "أبو شاكِر" Abu shakir وهو كتاب عن دراسة معاني الأعداد السحرية والتنجيمية ويقع في تسعة و خمسين فصلاً<sup>(٨١)</sup>، كما ظهر كتاب "مازغها حينوت"

79 - Ulrich braukamper : The Correlation of Oral Traditions and Historical Records in Southern Ethiopia A Case Study of The Hadiya/ Sidamo, (JES), Vol. XI, No.2, Addis Ababa, (July 1973), p.138.

٨٠ - أنناسيوس المقاري : الكنائس الشرقية وأوطانها، الجزء الثالث، دار نوبار، القاهرة، الطبعة الثانية، أكتوبر ٢٠٠٦، ص ٧٢-٧٣

٨١ - استنبطنا من مقدمة هذا الكتاب المعادلة الآتية : العام ٦٧٥٠ من تاريخ العالم = عام ١٥٦٩ بعد الإسكندر = عام ٦٥٥ = عام ١٢٣٧ بعد المسيح انظر :

Mazgaba Haymanot وهو عبارة عن قراءة تاريخية للمجامع المسكونية الأربعة، ويهدف إلى دحض ادعاءات المرسلين والرد علي أولئك الذين دخلوا في الدين الإسلامي وأظهروا ما في المسيحية من بطلان للعقيدة الصحيحة<sup>(82)</sup>.

## ٢- الشعر :

أما في ميدان الشعر فقد شهد فترة حكم الأسرة السليمانية علي وجه الخصوص نشاطاً ملحوظاً وخاصة في الشعر الديني الذي يمجّد مريم العذراء والقديسين وله منزلة خاصة عند الأقباش، ويلاحظ أن الشعر الجعري الذي تمخضت عنه نهضة هذه الفترة لم يتعرض لمنافسة خطيرة من الشعر المنظوم باللغة الأمهرية، حقيقة أن هذه الفترة شهدت نمواً سريعاً للشعر المنظوم بهذه اللغة، ولكن هذا اللون من الشعر لم يقف عندئذ موقفاً عدائياً من الشعر الجعري، لأن الجعرية كانت لا تزال في هذه الفترة اللغة الطبيعية للمالوفة في نظم الشعر، كما ظل الشعر الجعري يصادف هوي عظيماً في نفوس كثيرين حتي استخدموه في تصوير بعض مظاهر الحياة المعاصرة. الجدير بالذكر أن هذا الشعر كان عبارة عن ضربين يسمى أولهما «سلام أو صورة» Malke يحيي كاتبه فيه صديقاً أو محبوباً أو يصف محاسن فتاة من الرأس حتى القدم، ويمثل ثانيهما مقطوعات قصار تغنى غناء في المناسبات الدينية، ومما ألفت من الأناشيد والتراثيل مجموعة في تسبيح مريم العذراء ونشيد آخر ظهر في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر يسمى «دقة» Deggua وإن كانوا ينسبونه خطأ إلى المقني ياريد Yared الذي عاش في القرن السادس الميلادي<sup>(83)</sup>.

## ٣- التدوين التاريخي :-

- Budge: op. cit, Vol. 2, p.571.

82- Ibid , pp.571-572.

83 -Steven Kaplan ; " Iyasus Mo'a and Takla Haymanot, A Note on Hagiographic Controversy" in (JSS) 31, 1, 1986, p. 48.

وثمة مظهر آخر من مظاهر النشاط الفكري في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، يبدو واضحاً في الكتابات التاريخية التي ازدهرت في تلك الفترة، أما هذا الازدهار فيرجع إلي عدة أسباب من أهمها: عودة حكم المملكة للأسرة السليمانية مرة أخرى، وإحياء الأساليب القديمة في كتابة التاريخ، فضلاً عن الأحداث المهمة التي امتازت بها فترة حكم السلیمانیین والتي ترتب عليها ازدياد الشغف بتدوين التاريخ، كذلك الحروب مع المسلمين فضلاً عن النزاع مع معارضي الكنيسة، وقد بدأت الكتابة التاريخية الحقيقية في الحبشة منذ اعتلاء أول حكام هذه الأسرة العرش عام ١٢٧٠ إذ تم تعيين كاتب متخصص من قبل البلاط وهو "منصب الصحافي تنزل" لتسجيل الأحداث التاريخية<sup>(٨١)</sup>.

وقد ازدهرت ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية التي عرفتها العصور الوسطى بصفة عامة وهي سير حياة العظماء من الملوك والقديسين، والمخطوطات التي كانت تحتوي علي معلومات وهبات الكنائس، فضلاً عن كتب الحوادث الوقائع الملكية، ولكن إذا كان القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي قد استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة فإنه استأنفها علي نحو جديد من الابتكار يتفق مع روح النشاط التجديد التي امتازت بها نهضة ذلك القرن<sup>(٨٢)</sup>.

ففي كتابة السير نجد أنه بوجه عام حرصت علي أن تظهر سير حياة القديسين في قالب مدح وثناء، بحيث يبدو في ثوب أرباب المعجزات والكرامات، واستمر هذا الأسلوب متبعاً في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع والخامس عشر الميلاديين، فنونت سير

٨٤- هو منصب استحدثه الإمبراطور (يكونو أملاك) مؤسس الأسرة السلیمانية الذي عهد إليه بمهمة تسجيل الأحداث التاريخية، مما كان له الفضل الأول في معرفة أحداث وتاريخ هذه الأسرة، وقد أضاف إليه (زري يعقوب) مهمة حفظ المراسلات الإمبراطورية وختمها والترجمة الحرفية لهذا اللقب 'الكاتب المأمور'، وكان من أهم اختصاصاته: حمل أختام الإمبراطور وقيد زواج الأسرة الإمبراطورية وقيد أوامر الإمبراطور وحفظ جميع المعاهدات وأوراق المملكة للمزيد انظر محمد خليفة حسن، نصوص من الحواريات الملكية الأثيوبية، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٣٧٣.

بعض القديسين السابقين من جديد وفقاً لمقتضيات المناسبات والظروف أبرزها سيرة الأنبا تكلا هيمانوت، كما كتبت تراجم لقديسي القرن الخامس عشر الميلادي أنفسهم، وعلى رأسهم القديس صموئيل Samu'el حيث نظر إليه المعاصرون على أنه شهيد الكنيسة في صراعها مع السلطة العلمانية، فضلاً عن سيرة القديس مرحنا كريستوس التي احتلت مكاناً بارزاً في الدراسات الأدبية، وجميع هذه الكتابات لم تخل من كثير من المعجزات التي نسبت إلى ذلك القديس<sup>(٨٦)</sup>.

أما الجانب الثاني من الكتابات التاريخية هي المخطوطات التي مهدت في هذا العصر لمولد نوع جديد من التوثيق التاريخي، وقد بلغت هذه المخطوطات ذروتها في القرن الخامس عشر الميلادي، وهي مكتوبة جميعها باللغة الجعزية، وقدر لها أن تظل قائمة حتى نهاية العصور الوسطى، ذلك أن هذه المخطوطات لم تكن مجرد وقائع وصفية، وإنما كانت سرّداً لأهم أحداث السنوات خاصة زيارات الأباطرة للأديرة والهبّات الممنوحة لها، فضلاً عن تناولها أخبار الحروب مع المسلمين، وكانت هذه المخطوطات قليلة الأهمية في الأديرة الصغيرة، لكنها صارت في الأديرة الكبيرة مثل دير دبر ليبانوس ودير برهان على جانب كبير من الأهمية، فقد أقدم معظم الرهبان على عملية نسخ المخطوطات حتى ظهر عدد من الرهبان الأحباش الذين تخصصوا في نسخ الكتب والمخطوطات وترجمتها<sup>(٨٧)</sup>.

وكانت جميع المخطوطات الحبشية مكتوبة على الرق المصنوع من الجلد الذي ينقسم إلى نوعين : أما ورق مصنوع من جلد الماعز أو من جلد الغنم وهذا الأخير هو الأفضل، نظراً لأن قيمته عالية فضلاً عن أن جلد الماعز كان يكفي فقط لصنع مستويين أو اثنين من المخطوطات بمقياس ١٨ في ١٥.٥ بوصة قسمة محتوياتها في المتوسط ٢٤٥ كلمة، وقد تم ذبح عدد كبير من الماعز خصيصاً لأخذ جلودها واستخدامها في

كتابة المؤلفات الدينية مثل الكتاب المقدس وكتب الدراسة و ذلك بدلاً جلود الخراف، أما الكتب الأخرى التي صنعت خاصة لأفراد العائلة الحاكمة والنبلاء كانت مكتوبة علي جلد الماعز، وكان القلم عبارة عن عود من القصب الطويل الذي استخدم في جميع أنحاء الشرق والحبر جيد مثل الحبر المستخدم في مصر، أما العناوين والنقاط فهي مكتوبة بالحبر الأحمر، والعديد من المخطوطات مكتوبة في مطلعها بالحبر الأحمر والأسود<sup>(٨٨)</sup>.

أما عن أغلفة المخطوطات فكانت مصنوعة من الألواح الخشبية الغليظة التي يختلف سمكها وفقاً لعدد صفحات الكتاب، هذه الألواح الخشبية مغطاة من الخارج بالجلد البني وألوان مختلفة، وهناك بعض الألواح المصنوعة من المعدن النحاسي المطلي بالذهب مع ثلاثة صلبان علي بعضها، أما الحواف الداخلية فهي لوحات خشبية مغطاة بلون الجلد الداخلي والمسافة التي تفصل بينهما عبارة عن قماش من الحرير أو قطعة من القماش الملون، وتتميز الكتب التي تتعلق بالصلاة بأنها مغطاة بقطع من الزجاج وهو شيء لا يقدر بشئ في نظر الأحياس<sup>(٨٩)</sup>.

وعلي الرغم من أن هذه الأديرة كانت عرضة للنسب والنهب إلا أن بعضها كان به مخازن في جدران الحوائط، أو في صناديق مصنوعة من الخشب أو الحجر، أما في الأديرة الكبيرة مثل دير دبر ليبانوس أو دبر برهان كانت توجد غرفة خاصة تحتوي علي

<sup>٨٨</sup> - نشر العديد من العلماء والرحالة الأجانب تاريخ السجلات التاريخية العيشية الهامة ومن أهم هؤلاء العلماء : باست (Basset) وجول برشون (Perruchon) وكونزلمان (Conzelman) وبيرايرا (Pereira) وجايدى (Guidi) وكونتي روسيني (Conti Rossini) وليمان (Littmann) وبلندل (Blundell) وقد تم ترجمة هذه المجلات إلي عدة لغات أهمها اللاتينية والفرنسية والألمانية والبرتغالية والروسية والإنجليزية . للمزيد أنظر

- Budge : op. cit. p. 567.

<sup>٨٩</sup> - أكتشف المبشرون البرتغاليين في القرن السادس عشر الميلادي العديد من هذه الكتب التي تخص العبادات، وكتب أخرى مثل معجزات العذراء مريم وحياة القديسين والشهداء، كما وجدوا كثيراً من الرسوم مثل ملكة سبأ، فضلاً عن مائة وأحد عشر من معجزات مريم العذراء . انظر

- Budge : op. cit. p. 566.

مكتبة وبها العديد من الرفوف مثل الكنائس الموجودة في مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين في ذلك الوقت، وكان رئيس المكتبة علي علم تام بنسخ هذه الكتب ويحتفظ بقواتها وهو أحد الرهبان أو القساوسة<sup>(٩٠)</sup>.

أما النوع الثالث من الكتابات التاريخية فيشمل كتب الوقائع والحوادث التي تعد الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخي في بداية حكم الأسرة السلیمانیة، عندما أخذت الكتابة التاريخية في تدوين أحداث البلاط الملكي، وخير مثال علي ذلك : النصوص الملكية في عصور (عمدا صهيون الأول) و(زرة يعقوب) وابنه (بئيد ماريام) و(لبنا لنجل) فضلاً عن تاريخ ملوك هذه الفترة مثل (إسكندر) و(ناؤود) و(عمدا صهيون الثاني ٨٩٨-٨٩٩هـ/١٤٩٢-١٤٩٣ م)، ولم يقف مؤرخو هذه الحوادث التاريخية عند حد معالجة الحوادث المحلية المتعلقة بالدير والكنيسة وأفراد الشعب وتدوين الحوادث الكبيرة في حياة كل إمبراطور، بل تخطوا ذلك إلى العالم الخارجي وإلى ما حدث في البلاد الأخرى مثل ذكر إحراق دير المغطس في مصر وعقد مؤتمر فلورنسا وغيرها، ومن الواضح أن مؤرخي هذه الفترة كانوا يعرفون هذه الأخبار التاريخية من الزوار الذين كانوا يترددون علي الحبشة، الجدير بالذكر أن هذا النوع من الكتابة خضع لإشراف رجال البلاط الإمبراطوري<sup>(٩١)</sup>.

وعلي الرغم من المؤلفات السابق ذكرها التي قام العديد سواء من العلمانيين ورجال الدين بكتابتها، إلا أن مراكز العناية بالدراسات الدينية كانت الأميرة والكنائس بحكم أقدميتها وانتقال تراث الأدب القديم إليها من ناحية، وبحكم أنها لم تشارك المنظمات الديرية الجديدة في الاهتمام بالحركات المتعلقة بإصلاح الكنيسة من ناحية أخرى، وهكذا ظلت الأميرة المستودع الأساسي لحفظ الدراسات والأدب العبشي حتي ورثتها المدارس الديرية في هذه المهمة وغدت الأخيرة مركزاً للدراسات الأدبية وغير الأدبية في العصور

٩٠ - كانت معظم هذه الكتب دينية في المقام الأول إذ كان يحملها المسافرين في الصحراء حول رقبته أو تحت ظهره تحت عباءته. نلزمزيد انظر

- David Buxton: op. cit, p.47.

91 - Paul B. Henze : op, cit, p.37

الحديثة<sup>(٩٢)</sup>، ولكن علي الرغم من ضيق أفق المدارس في ذلك العصر، إلا أن أثرها أضحى عظيماً بالنسبة للأجيال التالية، فهي من ناحية أدت إلي إحياء اللغة الجعزية بوصفها لغة الأدب الديني، وبذلك استطاعت أن تقاوم ما طرأ عليها من تحريف في طريقة الأساليب وتركيب الجمل، ومن ناحية أخرى كان تلاميذ هذه المدارس وخريجوها هم الذين نهضوا فيما بعد بنسخ ونشر ما عثروا عليه من تراث العصور السابقة، وأكثر هذه الكتب كانت بالطبع الكتب الدينية وكتب اللاهوت<sup>(٩٣)</sup>.

وإذا كان العصر الثاني من حكم الأسرة السليمانية (٨٣٨ - ٩٤٧ هـ / ١٤٣٤ - ١٥٤١ م) يمثل العصر الذهبي للأدب الجعزي وللنهضة الأدبية في الحبشة، إلا أنه من الصعب بناء صورة متكاملة عن الإنجازات الأدبية والفنية للحبشة في العصر الوسيط، ويرجع ذلك إلي تعرض الحبشة إلي سلسلة من الغزوات من جانب الإمام أحمد الجران واستولى فيه على معظم أنحاء المملكة، وتم خلالها تدمير كثير من الكنائس ونهب كنوزها وإحراق كثير من مخطوطاتها، كما أن الأتراك قد أبادوا خلال هجماتهم المتكررة علي البلاد ولم يفلت من هذا الدمار سوي بعض الأديرة والكنائس التي كانت في مناطق نائية ومرتفعة والتي لم يتمكن الغزاة من الوصول إليها، ومع ذلك لا تزال هناك بعض المخطوطات المهمة في أديرة جزر بحيرة تانا وقد تم الكشف عن بعض هذه المخطوطات ووجدت طريقها إلي بعض الدوائر العلمية في أوروبا<sup>(٩٤)</sup>.

ولعل خير ما يصور لنا مدي العناية بالأدب في هذه الفترة التاريخية، هو أن عدد ما تم إرجاعه إلي الحبشة من مختلف البلدان الأوروبية وخاصة بريطانيا كان حوالي ألف مخطوطة، فقد أعاد الجيش البريطاني منها نحو أربعمئة مخطوطة إلي البلاط الملكي بخلاف حوالي ستمئة مخطوطة أخرى إلي الكنائس والكهنة، علي أنه يوجد ما لا يحصى

92 - Richard Pankhurst : op . cit , p . 136.

٩٣ - ساويرس بن المقفع: مصدر سابق، ج ١، ص ٩٩، عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص ١٩٩.

94 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, pp. 199.



في المكتبات العامة الأوروبية فضلاً عن التي في حوزة الأفراد العاديين<sup>(٩٥)</sup>، فضلاً عن ما تعرضت له هذه المخطوطات في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين من عمليات السلب والحرق التي تعرضت لها الكنائس والأديرة علي يد المسلمين<sup>(٩٦)</sup>.

#### ٤ - الأدب الشعبي:

علي أننا إذا كنا في حديثنا عن الأدب الحبشي في هذه الفترة التزامنا جانب الأدب الجعري، بحكم بقاء الجعزية لغة الكنيسة والمتعلمين، فليس معني ذلك أن عامة الناس لم يكن لهم أدب شعبي خاص بهم، ذلك أن طبقة العامة في الحبشة لم تعرف الجعزية، وإنما عرفت اللغة التي توارثها الناس عن أجدادهم، وهي اللغة الأمهرية<sup>(٩٧)</sup>، هذا مع ملاحظة أن اللغات المحلية الأخرى لم تنهض لتعبر عن النشاط الأدبي قبل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وإلي أن قامت اللغات المحلية بهذه المهمة كان لغامة الناس

٩٥ - سمي العالم كونتي روسيني Conti Rossini لدراسة معظم هذه المخطوطات في مؤلفاته المختلفة وأبرزها كتاب:-

- Note Per La Storia Letteraria Abissina, in The Rendiconti Accad . Lincei, Ser.VIII,

- وقد تضمن هذا الكتاب حوالي ١٣٠٠ مخطوطة، وعلي الرغم من ذلك لم تكن هذه المخطوطات كاملة . وقد أخذ العديد من الكهنة الإيطاليين والأسبان والبرتغاليين مجموعات صغيرة من هذه المخطوطات إلي أوروبا فضلاً عن العديد من الرحالة خاصة كل من العالم Salt - Bruce - Parkyns - فضلاً عن أحد الأكاديميين الفرنسيين الذي يدعي D'Abbadie في كتاب يدعي Catalogue Raisonne , Paris, 1895، كما جلب العالم رايت Wright أكثر من خمسمئة مخطوطة حبشية إلي إنجلترا عام ١٨٦٨م أودع منها عدد ٤٠٨ مخطوطة في المتحف البريطاني.

- وفي عام ١٨٤٧م نشر المتحف البريطاني حوالي ٨٢ مخطوطة حبشية للعالم ديلمان Dillmann's، كما نشر مجموعة أخرى بعد حوالي عشرين عاماً تحت عنوان :

- Verzeichniss der abessinischen Hand Schriften, Berlin, 1878.

96 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.561.

٩٧ - حققت اللغة الأمهرية أول ظهور لها أوائل القرن الرابع الميلادي مزبداً من التقدم، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال جودة القصائد التي كتبت في مدح الملك إسحاق Yitshak .

آدابها الشعبية، ولكنها كانت آداباً غير مكتوبة، تألفت من أغان وقصص وأساطير يتناقلها الناس شفاهة ويتوارثها الخلف عن السلف، والواقع أنه مهما بلغت بدائية شعب أو قوم، فإن لكل شعب مقدرته علي التعبير التصويري الذي قد يبدو لنا تافها وبسيطاً، لكنه لا يخلو من جمال فطري<sup>(٩٨)</sup>، أما التأليف بالأمهرية فكانت بدايته على يد المبشرين في بدايات العصر الحديث الذين قاموا بترجمة الكتاب المقدس ومؤلفات دينية أخرى إلى الأمهرية لينشروا المذهب الكاثوليكي، ثم ظهر ما يسمى بعد ذلك «أناشيد الملوك» وهو قصائد في مدح الملوك وتمجيدهم<sup>(٩٩)</sup>.

ويلاحظ المتتبع للأدب الحبشي في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أن هذا الأدب لم يعد جعزياً خالصاً، ذلك أن تيار اللغات المحلية أخذ يقوي ويشد في ذلك العصر، تمهيدا لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف المدن الحبشية، الأمر الذي يجعل من النصف الأخير من القرن السادس عشر مرحلة انتقال من الأدب الجعزي الخالص إلى مرحلة الآداب المحلية الناشئة<sup>(١٠٠)</sup>، فقد عثر على أدب تقليدي مكتوب باللغة الأمهرية يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي وهو عبارة عن بعض الأغاني الإمبراطورية القديمة، ولقد نالت الأنشطة الأدبية الأمهرية أهمية مؤقتة في هذه الفترة حيث كتبت بالأمهرية رسائل مذهبية جدلية بين رجال الدين، كذلك فإنه منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي بدأت الإرساليات في استخدام اللغة الأمهرية في محاولتها لحسب أنصار أكثر في نضالها ضد الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية التي كانت تستخدم اللغة الجعزية ولذلك فقد قام هؤلاء المبشرون بطباعة ونشر أعمال باللغة الأمهرية، وبدأت أيضا

98 - Manoel de Almeida: Some Records of Ethiopia 1593-1646, Trans., And Ed.by C.F. Beckingham& G. W. B Huntingford, Hakluyt Society,N. Y. 1990, pp.189-194.

99 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.563.

100 - Ulrich braukamper : op, cit, p.133.

ترجمات أمهرية للكتاب المقدس وكذلك وضعت بعض الكتب الشعبية الروائية بالأمهرية<sup>(١٠١)</sup>.

وهكذا يتضح لنا أن التراث الأدبي -الجعزي والأمهري- كان أقدم منبع للآداب الوطنية في الحبشة العصور الوسطى، إذ ظلت الأساطير والقصص والروايات التاريخية القديمة بذلك التراث متداولة في الحبشة، ويقدم العديد من الرهبان وأمثالهم من رجال الدين صار الكتاب المقدس يمثل مصدرًا جديدًا للإلهام الأدبي، حتي غدا كل حدث ورد في ذلك الكتاب موضوعاً لتعبير أدبي، ومهما يكن من أمر فإن أهم الميادين التي ظهرت فيها الآداب الوطنية في أواخر العصور الوسطى كانت الكتب الدينية من جهة وسير القديسين من جهة أخرى، مما جعل لهذين النوعين أهمية خاصة تتطلب معالجة كل منهما علي حدا<sup>(١٠٢)</sup>.

ولعل أول ما نلاحظه علي هذه النهضة الأدبية في الحبشة أنها كانت نهضة مصطنعة، حدثت بفعل فاعل، وبعبارة أخرى قامت هذه النهضة لأن (زرة يعقوب) أراد لها أن تقوم، وأراد لها أن تكون نهضة، فهي ليست نهضة تلقائية شاملة، منبعثة من عوامل ومؤثرات حضارية طبيعية كامنة، وإنما ولدت في بلاط الإمبراطور و نمت وترعرعت فيه، وظلت ريبية (يعقوب) وخلفائه المباشرين إلي أن ماتت وخمدت جذويتها بالسرعة التي ظهرت بها، ولعل هذا هو السبب في أن النهضة الأدبية إذا تم موازنتها بغيرها من الحركات الحضارية في العصور الوسطى ومستهل الحديثة، فإنها تبدو ضيقة الأفق قصيرة العمر، لأنها ارتبطت في مولدها ونشأتها برجل واحد يتعهدها ويرعاها، فظلت منتعشة ما عاش صاحبها، حتي إذا ما مات ماتت معه أو بعده بقليل<sup>(١٠٣)</sup>.

101- C.H. Walker, O.B.E : op . cit , p. 259.

102- Edward Ullendorf. The Ethiopians, p.141

103- Ulrich braukamper : op, cit, p.133.

كذلك نلاحظ علي هذه النهضة أنها كانت حركة إحياء أكثر منها حركة ابتكار وتجديد، ونقصد بالإحياء هنا إحياء الدراسات الدينية ورفع مستوى اللغة الجعزية، بعد أن انحط انحطاطاً بالغاً في العصور السابقة، وبعبارة أخرى فإن الدور الأساسي لهذه النهضة انحصر في المحافظة علي التراث الجعزي القديم<sup>(١٠١)</sup>.

ومن الطبيعي أن تؤدي هذه العناية بالمدارس من جهة وبالكتب والمكتبات من جهة أخرى الي نهضة أدبية كبرى، هي في الواقع المظهر الرئيسي للنهضة الأدبية، وقد رأينا أن كلا من (زرع يعقوب) و(لبنا دنجل) لم يحاولا محاكاة أباطرة أكسوم القدامي في عظمتهم السياسية والحربية فحسب، بل عملوا أيضاً علي أن التشبه بالقديسين العظام في المجال الحضاري والديني، فجمعوا حولهما جماعة من الأديباء والقديسين والعديد من رجال الدين خاصة العلمانيين، مما هيا للنهضة الحبشية عاملاً أساسياً من عوامل الازدهار. وقد اكتسبت هذه النهضة طابعاً دينياً في المقام الأول نظراً للعلاقة التي ربطت الأباطرة بالكنيسة، والتي املت عليهم سياسة معينة تجاهها، لذلك كانت الصدارة في الجانب الأدبي للأدب الديني، كما سبق أن رأينا، ثم جاء التاريخ ليحتل المرتبة الثانية في آداب النهضة الحبشية. فامتازت الكتابات التاريخية في ذلك العصر بريقها وحسن صياغتها مع التعمق في الأسلوب الجعزي. وفيما عدا سير القديسين اهتم كتاب ذلك العصر بكتابة المخطوطات ولم يقفوا عند حد تدوين المخطوطات القصيرة أو الصغيرة، إنما دونت مخطوطات طويلة أشرف عليها رجال البلاط، وهذه المخطوطات الأخيرة التي سميت باسم الوقائع الملكية ظلت تسرد تاريخ البلاد منذ عصر (يكونو أملاك) - مؤسس الأسرة السليمانية - سنة ١٢٧٠م حتي العصور الحديثة<sup>(١٠٢)</sup>.

كما نلاحظ أنه إذا كان الناس قد اعتادوا دائماً أن يسجلوا مآثر أسلافهم وبطولتهم في أدبهم، فإن (زرع يعقوب) سرعان ما أصبح بعد وفاته محوراً ومادة لكثير من الكتابات

التي صورتها في صورة القديس العظيم الذي حارب الوثنيين ودافع عن الكنيسة من معارضيتها، وهكذا أثرى (زره يعقوب) الأدب في حياته وبعد مماته<sup>(١٠٦)</sup>.

وأخيراً يميل بعض الباحثين إلى عدم المبالغة في أهمية النهضة الأدبية الحبشية في تلك الفترة لأنها اعتمدت على عنصر الإحياء والمحاكاة أكثر من اعتمادها على عنصر التجديد والابتكار<sup>(١٠٧)</sup>، ويضيف آخرون أن أفق الحياة العلمية في النهضة الحبشية ارتبط بالكنيسة ورجالها وتقاليدها، مما جعل هدف رجال العلم وطلابه لا يتعدى تنظيم تراث الكنيسة وتفسير علومها، ولكن هذه الانتقادات لا يمكن أن تصرفنا عن تقدير مزايا النهضة الحبشية وآثارها، ويمكن الوقوف على الأثر الذي تركته هذه النهضة بموازنة النشاط العلمي في الحبشة حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي - سواء في فترة الإنتاج والكتابات أو في كثرة المساجلات والمناقشات العلمية - بالركود الذي ساد العصر السابق للنهضة الأدبية في تلك الفترة، لهذا لا نستطيع أن نقلل من أثر النهضة الأدبية في تلك الفترة<sup>(١٠٨)</sup>.

رابعاً : حركة الترجمة:

إذا كان كثير من مظاهر النهضة الأدبية الحبشية بداية العصور الوسطى تميز بغلبة الطابع الديني عليه، فإن هذه النهضة اعتمدت في الحقيقة وبالدرجة الأولى على حركة الترجمة عن اليونانية والعربية، ويرجع ذلك إلى أن التعليم كان محصوراً على رجال الكنيسة الذين لم يهتموا بأداب اليونان والرومان والعرب وفلسفتهم وعلومهم، بل جعلوا الكتاب المقدس وما يتصل به من علوم لاهوتية مصدر المعارف كلها، ولم تستطع الحبشة

106 - Budge : The Book of the Saints of the Ethiopian church, II, Olms, 1976, p.124.

107 - Budge: A History Of Ethiopia ,Vol. 2, p.571.

108 - Roland Oliver: The Rise of The Solomonic Dynasty, The Cambridge History of Africa, Vol. 3 , Cambridge University Press, 1977, pp.128-129, 159.

أن تستفيد من هذا التراث اليوناني والعربي استفادة كاملة في هذه الفترة، إلا عن طريق حركة ترجمة عن اليونانية من ناحية والعربية والقبطية خاصة في التاريخ وسير القديسين والتراجم الدينية وغيرها من ناحية أخرى<sup>(١٠٩)</sup>.

وقد مزّت الترجمة في عهدين تفصل بينهما مرحلة دامت نحو خمسة قرون لم يصل منها شيء يستحق الذكر، وكانت الترجمة في العهد الأول منهما - أي من القرن الخامس إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، من اليونانية وشملت الكتاب المقدس، وأسفاراً أخرى أهمها كتاب «اليوبيل» Jubilees و«أخنوخ» Enoch و«صعود اشعيا» Ascension of Isaiah و«ابن سيراخ» Sirach، وكتابان في الرهبنة هما «قوانين باخوم» مؤسس نظام الرهبنة في مصر و«كتاب الرهبان»، وكتاب عنوانه «كيرلس» Kyrillos نسبة إلى بطريرك الإسكندرية المتوفى عام ٤٤٤م، وكتاب آخر يدعى «الفيزيولوجية» Physiologos **عن النبات والحيوان** مع تضمينه رمزاً مسيحياً، وكانت الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب شائعة في أوروبا في القرون الوسطى<sup>(١١٠)</sup>.

أما العهد الثاني فقد صارت المؤلفات العربية مصادر الترجمة في الحبشة منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وإن كان بعضها مترجماً أصلاً عن اليونانية أو المريانية، كما تدل بعض المواضع في النصوص المترجمة على أن أصولها العربية مترجمة عن القبطية، وأهم ما وصل من هذه الكتب كتاب «بيان يسوع» الذي يتنبأ بظهور ملك يدعي ثيودور يملأ العالم سعادة، وقد كتب في عهد الامبراطور ثيودور الأول (٨١٤-٨١٧هـ/ ١٤١١-١٤١٤م) وكتاب «عقيدة الآباء» Haimanote Abew و «قدس الأقداس» Fikare melekot وترجمة لكتاب تاريخ البطركية يوحنا النيقوسي عن القبطية «جلال الملوك» (كما سبقت الإشارة)، وكتاب «الضياء» المنسوب إلى الملك (زره يعقوب) و ثلاثة كتب قانونية تشمل التشريعات الكنسية هي «قانون الملوك» وهو ترجمة

109 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.570.

110 - Tadesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, p.243.

«المجموع الصفوي» لصفي الدين بن الصال<sup>(١١١)</sup>، كذلك أكثر الكتب شهرة كتاب «مصحف سنكسار Vesthafe sinksar أو سيناكساريوم Synaxarium والذي لا يزال يحظى بتقدير من الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية، ويحتوي علي التعاليم الكنسية من العربية إلي الجعزية مع بعض إضافات عن القديسين الأحباش في عهد الإمبراطور (لينا دنجل)<sup>(١١٢)</sup>. أما الكتاب الثالث فهو «السندوس» Synodus ومجموعة منها: كتاب الميلاد ومعجزات مريم وتقويم القديسين وسيرة الإسكندر، ضمن سلسلة طويلة من الكتب المليئة بالأساطير تتحدث عن معجزات المسيح ومريد العذراء والقديسين والإسكندر المقدوني الذي يعدونه قديساً مسيحياً، وثلاث ترجمات في التاريخ، هي «الوقائع» لأبي شاكرا، و«الوقائع» ليوحنا من نيقية، علي أن أهم كتب الترجمات في ذلك الوقت كتاب جرجس بن المكين بن العميد وهو كتاب تاريخ العالم يعرف في الحبشة باسم (ولد عمينا) والذي تم ترجمته في عهد (لينا دنجل)، وثمة ترجمات أخرى كثيرة في الوعظ والتنجيم والسحر واللغة والنحو وسواها<sup>(١١٣)</sup>.

غير أن موقع الصدارة في لأدب الحبشي قد ظل وفقاً علي الكتابات حول السيدة العذراء وكما هي الحال عند الأقباط في تبجيلهم الخاص للسيدة مريم العذراء، ربما كامتداد للاحترام العظيم الذي كان أجدادهم المصريون يكتفون للربة المصرية إيزيس، فإن الأحباش

١١١ - يد هذا الكتاب من أهم الكتب الدينية التي أثرت في المجتمع الحبشي من الناحيتين الدينية والمدنية لفترة زمنية امتدت إلي أكثر من سبعة قرون لصاحبه ابن الصال المتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، والذي يتكون من جزئين، يبحث الجزء الأول منه في القوانين الكنسية التي يجب أن تدير الكنيسة عليها، والواجبات الدينية المفروضة علي الفرد المسيحي. في حين يبحث الجزء الثاني في الحياة المدنية والعلاقات بين الأفراد للمزيد انظر الصفوي أمعد بن الصال، المجموع الصفوي، زاهر رياض: العصر الأول من الأسرة السلطانية في الحبشة من (يكونو أملاك) إلي (زرة يعقوب) وعلاقة المسلمين بالمسيحيين بوجه خاص (١٢٦٨ - ١٤٦٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٠١.

112- Richard Pankhurst : op . cit ,p .58.

113 - Edward Ullendorff : op . cit , P.144 .

بذورهم قد ساروا علي هذا التقليد وتلك المشاعر بل وكثفوا فيها بدرجة فاقت الكنيسة القبطية نفسها في ذلك التبجيل<sup>(١١١)</sup> لذلك فقد تم ترجمة عدد من الكتب الدينية حولها وأشهرها كتاب عجائب العزراء (تأمارا مريم) وعجائب العزراء والمسيح (تأمارا مريم وإياسوس)<sup>(١١٢)</sup>. فضلاً عن كتابي عجائب مارجرجس الذي ترجم في عهد الإمبراطور إسكندر، كما تم نقل في عهده أيضاً ترجمة وتفسير يوحنا خريميسستوم علي سفر الرسالة إلى اللغة الجعزية، فضلاً عن ترجمة مؤلفات يوحنا صابا في الحياة الديرية إلى الحبشية<sup>(١١٣)</sup>.

أما الأعمال السريانية الأصل التي نقلت إلى العربية أولاً ثم إلى اللغة الجعزية إبان عصر (لينا دنجل) فيبلغ عددها ثلاثة أعمال: يتناول العمل الأول منها كتاب "فيلكسيوس syusFilke أي فيلو كسين وينمب إلي فيلو كسين المنبجي ت ١٥٢٣م أي حياة آباء البرية المتوحدين علي شكل أسئلة وأجوبة، أما العمل الثاني فهو رسالة في ترويض النفس" لإسحاق النينوي<sup>(١١٤)</sup>، أما العمل الثالث والأخير فيعرف باسم الشيخ الروحاني (سابا في السريانية معناها شيخ بينما تقابل في العربية شاب) وهو عبارة عن مجموعة مؤلفات ترويضية ليوحنا صابا، تتضمن دروساً في الأخلاق والحياة الروحية وبعض رسائل صابا، ويشتمل كتابه في الحبشية علي ٣٦ ميمراً وفي العربية ٣٠ ميمراً و ٤٨ رسالة وثلاثة ميامر تسمى رؤوس المعرفة، ثم تنتهي المخطوطة برسالة منه إلى

114- Budge . op .cit . p.327.

115 - Jones and Monroe : op . cit , p.54.

116- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , rois d'Ethiopie . Texte ethiopien inedit comprenant en outre un fragment de la chronique de Ba'eda- Maryam, leur Precededeur, et traduction. In Journal asiatique.ser.9.vol.3. 1894 .319-366. Sep.-Dr. Paris, 1894 mit eigner Seltenzahlung .p.356.

117- Merid Wolde Aregay : Southern Ethiopia and The Christian Kingdom, 1508-1708,With Special Reference to The Galla Migrations and Their Consequences ,London, 1971. p.63.



أخيه ثم استفسار لأخيه، وقد قام بترجمة الكتاب إلى الحبشية أنشجى دير ليبانوس الذي يدعي عنبا قوم (حبقوق) وهو مصري أو يمني الأصل وقد تم ترجمة هذا الكتاب بأمر الملك (لبنا دنجل)<sup>(١١٨)</sup>.

وكانت الاتصالات الثقافية بين أوروبا المسيحية والمملكة الحبشية محدودة ضعيفة الأثر، لكن هذه الاتصالات أخذت تظهر قوة واضحة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، عندما ترد علي الحبشة كثير من الرحالة ورجال الدين سواء لاستكشاف هذه البلاد أو هروباً من الاضطهادات الدينية في بلادهم، فهناك كتابات منقولة عن اليونانية حول التاريخ الطبيعي، وكتاب آخر يدعى «الفيزيولوجية» Physiologos عن النبات والحيوان مع تضمينه رموزاً مسيحية وترجمة لـ «شرح الأنجيل» لديونيسيوس برصليبي، وهناك ترجمات لعظات القديس يوحنا الذهبي وعلي الأخص شرحه للرسالة إلي العبرانيين وغيرها من الكتب<sup>(١١٩)</sup>.

هذا عن الحركة الترجمة عن العربية واليونانية في فترة العصور الوسطى، وهي الحركة التي ترتب عليها إنعاش الحياة الأدبية في المملكة الحبشية في الجزء الأخير من العصور الوسطى، ولعل أهم ما نلاحظه والغريب في هذا الأمر أن المترجمين عن العربية اتفقوا مع إخوانهم المترجمين عن اليونانية في معالجة موضوعات متشابهة، كان أهمها العلوم الدينية، لذلك كثيراً ما نصادف في ذلك العصر ترجمتين بالجعزية لمؤلف واحد أصله باليونانية، أحدهما مأخوذة عن العربية والأخرى مأخوذة عن الأصل اليوناني مباشرة، وفي معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنياً الترجمة عن اليونانية<sup>(١٢٠)</sup>.

118- Sylvia Pankhurst: op. cit, pp.302-303

١١٩ - أثاناسيوس المقاري: المرجع السابق، ص ٧٣.

120 - Ulrich braukamper : op. cit, p.139.

### الخاتمة

عرضت هذه الدراسة للحياة الثقافية عند نصاري الحبشة في فترة العصور الوسطى، وقد توصلت عن عدد من النتائج أبرزها :

أولاً :- أظهرت الدراسة تعدد اللغات في المملكة الحبشية وإن كانت اللغة الجعزية الوسيلة الرئيسية للتعبير الأدبي والديني، إذ تعد فترة الدراسة الحالية تحديداً العصر الثاني هي فترة إنعاش الأدب الحبشي بعد مرحلة النقل من الأدب القبطي المصري - إذ انتشرت المؤلفات الحبشية لأول مرة في تاريخها نتيجة حركة الإصلاح الديني، مثل كتب : «همارا نفس أو سفينة نوح» و«مرسي أمين أو المرفأ الأمين» و«فكاري ملكوت أو تفسير الألوهية» و«قم العدل» كما نسب لبعض الأباطرة تأليف عدد من الكتب للرد علي المهترقين مثل «طومار تصبنت أو رسالة الإنسانية» و«مصحف برهان أو كتاب النور» و«مصحف ميلاد أو كتاب الميلاد» و«كهنت شيطان أو إنكار الشيطان» و«مصحف باحري أو كتاب اللؤلؤة» و«تعقبو مشطير أو حفظ الأسرار» و«إجزيانا بيجير نجش أو الرب ملك». كما امتازت أواخر هذه الفترة بتأليف كتب اهتمت بالدفاع عن المسيحية في وجه الإسلام، أبرزها كتاب «أنقسا أمين أو باب الإيمان» Anketse Amin .

ثانياً :- أوضحت الدراسة ازدهار التدوين التاريخي في هذه الفترة، فقد كان هناك ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية التي عرفتھا العصور الوسطى بصفة عامة وهي سير حياة العظماء من الملوك والقدسين، والمخطوطات التي تحتوي علي معلومات وهبات الكنائس، فضلاً عن كتب الحوادث والوقائع الملكية، ولكن إذا كان القرن الثالث عشر قد استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة فإنه استأنفها علي نحو جديد من الابتكار يتفق مع روح النشاط و التجديد التي امتازت بها نهضة ذلك القرن، لذلك تمثل فترة الدراسة الحالية «العصر الذهبي للأدب الجعزية» .

خاتمة :- بينت الدراسة ازدهار حركة الترجمة في تلك الفترة، إذ كانت المؤلفات العربية مصادر الترجمة في الحبشة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، وإن كان بعضها مترجماً أصلاً عن اليونانية أو السريانية، خاصة الكتب المليئة بالأساطير التي تتحدث عن معجزات المسيح ومريم العذراء والقديسين والإسكندر المقدوني الذي يعدونه قديساً مسيحياً، وهناك ترجمات أخرى كثيرة في الوعظ والتنجيم والسحر واللغة والنحو وسواها، أما الأعمال السريانية الأفضل التي نقلت إلى العربية أولاً ثم إلى اللغة الجعزية إبان عصر (لينا دنجل) فيبلغ عددها ثلاثة أعمال، وقد ترتب علي ترجمة هذه الكتب إنعاش الحياة الأدبية في المملكة الحبشية.



**الدور السياسي للقاضي كمال الدين أبو الفضل  
الشهرزوري (٥٣٠-٥٧٢هـ/١١٣٥-١١٧٦م)**

د. منال محمد السيد عبد المجيد  
مدرس بكلية الآداب جامعة بني سويف

أدى القاضي كمال الدين الشهرزوري دورًا كبيرًا في المجالين العلمي والديني، وقد تناول الحديث عن ذلك العديد من الكتاب، لكن الدور الذي أغفل ولم يتحدث عنه أحد بشيء من التفصيل هو دوره السياسي، فالمعروف أن هذا الرجل أدى دورًا هامًا في مجال السياسة، وخاصة أنه كان مقرَّبًا من حكام بلاد الشام والعراق. ويتمثل هذا الدور في عدة مجالات، أولاً دوره في دولة عماد الدين زنكي، فقد اعتمد السلطان عماد الدين زنكي اعتمادًا كبيرًا على القاضي كمال الدين الشهرزوري، حيث ولاء عماد الدين زنكي قضاء الموصل، وأصبح قريبًا منه في كثير من الأعمال الهامة وعهد إليه بالمهام الصعبة، فلم يوجد شيئًا في الدولة يخرج عنه على حد قول الإسكندر<sup>(١)</sup>.

أما القاضي كمال الدين الشهرزوري فهو: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبدالله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، ولد سنة ١٠٩٨هـ/١٠٩٨م بالموصل، وتلقاه ببغداد على يد أسعد الميهمي، وسمع الحديث من أبي البركات محمد بن خميس الموصل<sup>(٢)</sup>.

استطاع أن يجمع بين الفقه والأدب والشعر، مما يدل على مدى علمه وثقافته، لذلك وصف بأنه فقيه أبيب شاعر كاتب فكه المجالسة<sup>(٣)</sup>.

فكتب العديد من أبيات الشعر التي تدل على حسه الموهب، فقد ذكر الكاتب عماد الدين الأصفهاني وغيره من المؤرخين العديد منها، على سبيل المثال :

ولقد أثبتك والنجوم رواصد  
وركبت م الأهوال كل عظيمة  
والفجر وهم في ضمير المشرق  
شوقاً إليك لعنا أن نلتقي<sup>(١)</sup>

وغيرها من أبيات الشعر الرائعة التي تدل على أنه شاعر متمكن.

ويتغير دوره السياسي في زمن عماد الدين زنكي من الأنوار الهامة في تاريخ هذه الفترة، حيث قام عماد الدين زنكي بإرساله إلى السلطان السلجوقي سنجر ابن ملكشاه عام ٥٣٠هـ/١١٢٥م، وذلك لكي يتوسط لديه ويقنعه بتولية الراشد في الخلافة العباسية، ومن الواضح أن عماد الدين زنكي لم يرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري في هذه المهمة الصعبة، إلا لعلمه الأكيد بما يتمتع به كمال الدين من حسن تصرف ولباقة وقدرة على الإقناع.

ويحدثنا التاريخ أنه كان بني الخلافة في تلك الفترة الخليفة المقتفي بالله العباسي (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)<sup>(٢)</sup>، مما يجعلنا نتساءل عن السبب الذي دفع زنكي إلى الاهتمام بتولية الراشد الخلافة بدلاً من المقتفي.

من الجدير بالذكر أنه في عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م وصل السلطان مسعود بن ملكشاه إلى بغداد، وضايق الخليفة الراشد بالله، وكان معه عماد الدين زنكي، وعندما طال المقام بها ولم ينالوا شيئاً، عاد عماد الدين إلى الموصل، أما السلطان مسعود فبقي ببغداد، الأمر الذي ضايق الراشد، وعلم أنه لا طاقة له بالمقام معه، فذهب إلى الموصل واستجد بعماد الدين، في نفس الوقت أقام مسعود الخليفة المقتفي بأمر الله في الخلافة وبايعه<sup>(٣)</sup>.

على أية حال فما أن وصل القاضي كمال الدين إلا واستقبل في دار السلطنة استقبالا حافلاً، وأكراماً زليلاً، وبدأ يتحدث في أمر الراشد، إلا أنه عندما وصلته رسالة من الخليفة المقتفي يعاتبه على الامتناع عن البيعة له، وأنها من حقه، فما كان من القاضي كمال الدين إلا أن غير رأيه وتصرف من تلقاء نفسه، ويقنع السلطان بالبيعة للخليفة المقتفي. وفي ذلك يقول ابن الأثير : " وقيل لي في أمر البيعة فقلت إن الراشد له في

أعناقنا بيعة. ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه، وأنا فقيه، لا يجوز لي فعل ما يناهض الشرع، فيثبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه، وأبایع عني وعن صاحبي فلما سمعوا هذا احضروا المحضر المذكور، فلما رآه وشهد به الشهود، خلع الراشد وبایع المقتفي لأمر الله<sup>(٧)</sup>.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى المكانة الكبيرة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين في تلك الوقت، حيث استطاع أن يقنع السلطان بإقرار المقتفي في الخلافة بذكائه وقدرته على الاقتناع.

والسؤال هنا ماذا كان موقف زكي مما حدث ؟

لم يكن أمام زكي، تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية، إلا أن يتخلى عن الخليفة الراشد، وانحاز إلى المقتفي الذي كافأه بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد ألقابه<sup>(٨)</sup>.

كذلك لم يجد عماد الدين زكي أفضل من القاضي كمال الدين لكي يرسله رسولا إلى السلطان مسعود بن محمد ملكشاه، عندما وصلت حملة الروم والفرنج عام ٥٣٤هـ / ١١٣٨م إلى بلاد الشام، للقضاء على زكي وإجباره على رفع الحصار عن حصن بارين، إلا أن الحملة فشلت في تحقيق هدفها<sup>(٩)</sup>.

من أجل ذلك قرر كل من الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين والصليبيون عام ٥٣٦هـ / ١١٣٨م) قصد بلاد المسلمين، ومحاصرتهم، لعلهم يحققون نجاحا يحو أثر فشلهم في رفع الحصار عن بارين، وبالفعل وقع اختيارهم على مدينة حلب، فزحفوا إليها بحشود كثيرة، أفزعت المسلمين في ذلك الوقت، وضربوا الحصار عليها بالفعل، وفي ذلك يقول ابن الأثير " ونازلوا مدينة حلب وحصروها، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة"<sup>(١٠)</sup>.

فما كان من عماد الدين زكي، عندما علم بحصار حلب إلا أن نزل بالقرب منهم ومنع عنهم الميرة، وأخذ يحفظ أطراف البلاد حتى لا ينتشر العدو فيها ويغيروا عليها. ولم يحاول زكي أن يدخل معهم في حرب مباشرة، لأنه لم يفضل أن يخاطر بالمسلمين<sup>(١١)</sup>.

وفي ذلك الوقت العصب أخذ زكي يفكر فيما يفعله، أمام هذه الحشود الكثيرة، فهذه تفكيره إلى الاعتماد على القاضي كمال الدين الشهرزوري، لما عرف عنه من راحة العقل وسداد الرأي وحسن التصرف، حيث أرسله رسلاً إلى السلطان مسعود، ليعرفه بحقيقة الحال وكثرة عدد العدو، المحاصرين لمدينة حلب، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر<sup>(١٢)</sup>.

إلا أن القاضي كمال الدين تخوف من أن تخرج البلاد من أيدي عماد الدين، إذا استجاب السلطان مسعود لطلب النجدة وأرسل إليه العساكر، فمن الممكن أن يطمع مسعود في حلب ويمتلكها، فما كان من عماد الدين إلا أن رد على القاضي كمال الدين ردًا يدل على الحكمة والعقل اللذين اشتهر بهما عماد الدين زكي، حيث فضل أن يمتلك السلطان مسعود مدينة حلب بدلاً من أن يمتلكها البيزنطيون والصليبيون.

وقد ذكر المؤرخون مدى **تخوف القاضي الشهرزوري** من السلطان مسعود، فقال القاضي لعماد الدين حين أرسله: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا، وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها. فقال عماد الدين " إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار"<sup>(١٣)</sup>.

وبعد هذا الرد الصائب من عماد الدين زكي، خرج القاضي إلى بغداد لمقابلة السلطان مسعود وتبليغه رسالة عماد الدين زكي، إلا أن السلطان مسعود لم يهتم بالأمر كثيرًا، واكتفى بأن وعد القاضي كمال الدين بإرسال عساكر لنجدة حلب، ولكنه لم ينفذ وعده<sup>(١٤)</sup>.

وهنا تظهر حكمة وحسن تصرف القاضي كمال الدين الشهرزوري، لكي يجبر السلطان مسعود على تنفيذ وعده بسرعة لنجدة حلب، قبل أن يستولى عليها البيزنطيون والصليبيون.

فأسرع القاضي باستخدام الحيلة، حيث أعطى أحد الفقهاء في بغداد مبلغًا كبيرًا من المال، وطلب منه أن يفرق هذه الأموال على جماعة من أوباش بغداد، ويتفق معهم على أن يحضروا بالجامع يوم الجمعة ويستغيثوا بصوت واحد: "وا إسلاماه! وا دين محمداه!". ثم يخرجوا من الجامع يقصدون دار السلطان مسعود مستغيثين<sup>(١٥)</sup>.

ولم يكتف القاضي كمال الدين بفعل ذلك، بل فعل نفس الشيء مع فقيه آخر في جامع السلطان، وكان هدفه من ذلك إثارة الناس على السلطان مسعود، ومطالبة بخروج العساكر لإبقاء مدينة حلب ورفع الحصار عنها، الأمر الذي يجعل السلطان مسعود في مأزق، ويضطر مع إثارة الناس إلى إرسال العساكر والوفاء بوعده للقاضي كمال الدين الشهرزوري<sup>(١٦)</sup>.

وقد شرح المؤرخون هذه الحادثة بالتفصيل على هذا النحو: "فما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستقاثوا بصوت واحد: 'وا إسلام ! وا دين محمداه !' ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين، ثم وضعت إسماعيل آخر فعل ذلك في جامع السلطان، فمما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر وقام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح، وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى، وبطلت الخطبة، ومارس الناس كلهم إلى دار السلطان، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان ويكون يصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره"<sup>(١٧)</sup>.

وهكذا نجحت خطة القاضي كمال الدين رسول عماد الدين زنكي، حيث طلب السلطان مسعود مقابلته فحضر إليه وهو خائف مما حدث، ولكنه في الوقت نفسه عزم على قول الصدق والحق، وبمجرد أن حضر سأل السلطان مسعود عن سبب هذه الفتنة، فرد عليه كمال الدين بأن الناس فعلوا ذلك خوفاً من الفتنة والشر، لأن الصليبيين إذا استولوا على مدينة حلب سوف يسبرون بعد ذلك إلى بغداد عن طريق الفرات والبر، دون



أن يكون أمامهم أي عائق يصددهم عن بغداد.

ومن الجدير بالملاحظة أن القاضي كمال الدين بالغ في تخويف السلطان مسعود من حدوث ذلك، الأمر الذي جعل السلطان يقرر سرعة خروج العساكر التي طالب بها كمال الدين، على أن تكون مجهزة بالإمدادات والمؤن الكافية، بشرط أن يعمل القاضي كمال الدين على تقريب هؤلاء العامة المجتمعين خارج دار السلطان مسعود، وبالفعل خرج إليهم الشهرزوري وعرفهم بما قرره السلطان مسعود، وأمرهم بالعودة من حيث أتوا، ففعلوا ذلك، وهذأت الأمور على هذا النحو<sup>(١٨)</sup>.

الأمر الذي يدل على مقدرة القاضي كمال الدين على إيجاد الحل المناسب لأي مشكلة تواجه بالحكمة والعقل والذكاء.

على أية حال اختار كمال الدين عشرة آلاف فارس من أفضل العسكر لدى السلطان مسعود، ثم كتب إلى عماد الدين زنكي يعرفه بأنه نجح في مهمته، ولم يبق أمامه سوى أن يسير بالعساكر إلى مدينة حلب لإنقاذها، فأمره عماد الدين بسرعة السير والحث على ذلك، وما إن عبرت العساكر الجانب الغربي، إذ مرسل من عماد الدين زنكي يصل ويخبر القاضي كمال الدين بأن البيزنطيين والصليبيين قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها شيئاً، ويأمر القاضي كمال الدين بترك العساكر. لأن عماد الدين لم يعد يحتاج إليهم في شيء، إلا أن السلطان مسعود عندما علم بذلك الأمر أصر بشدة على خروج العساكر مع القاضي كمال الدين للجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان هدفه الحقيقي من ذلك أن تصل عساكره إلى هذه البلاد وتمتلكها<sup>(١٩)</sup>.

أصبح القاضي كمال الدين الشهرزوري في حيرة من أمره: كيف يستطيع أن ينفذ أمر عماد الدين زنكي مع إصرار السلطان مسعود على خروج عساكره معه ؟  
فما كان منه إلا أن أخذ يتشاور مع الوزير وأكابر الدولة، حتى أقنعهم بالعودة للعساكر إلى البر الشرقي<sup>(٢٠)</sup>.

وهنا ظهر مدى بُعد نظر القاضي كمال الدين الشهرزوري وحكمته وفطنته لما يدور

حوله، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود، وبحسن تصرفه في الموقفين في توفير الجيش عند الاحتياج له، وصرفه عند انتفاء الحاجة إليه، وهذا أنقذ بلا شك عماد الدين من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذا وصلت عساكر السلطان مسعود إلى الشام في ذلك الوقت، بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين<sup>(٢١)</sup>.

وقد أشار ابن الأثير إلى حسن تصرف القاضي كمال الدين مع السلطان مسعود بقوله: "فانتظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس"<sup>(٢٢)</sup>.

فقد استطاع كمال الدين الشهرزوري بحنكته ونكاته أن يبعد عن عماد الدين أطماع السلطان مسعود، من أجل ذلك كانت لجمال الدين مكانة خاصة عند عماد الدين زنكي<sup>(٢٣)</sup>.

ولحسن تصرف كمال الدين في أي شيء يوكل إليه؛ نجد عماد الدين يستعين به في عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، عندما سار عماد الدين زنكي لمحاصرة مدينة دمشق، وكان يتولاها في ذلك الوقت الأمير جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، ولكنه لم يكن له من الأمر شيء، فكان المتقلب عليه معين الدين أتر مملوك جده طغتكين<sup>(٢٤)</sup>.

من الجدير بالذكر أن الظروف التي مرت بها دمشق في ذلك الوقت ساعدت زنكي على التدخل في شئون دمشق، وتتخلص في أن بهرام شاه، أخا جمال الدين بوري، عز عليه أن يتجاهله أتر بعد مقتل شهاب الدين، من أجل ذلك لجأ إلى مساعدة زنكي، في نفس الوقت الذي عز على زمرد خاتون - عروس زنكي - أن يقتل ولدها شهاب الدين، ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرته التي تزوجت أتر، فطلبت هي الأخرى من زنكي أن يتدخل لطلب الثأر<sup>(٢٥)</sup>.

فعندما أيقن عماد الدين أن معين الدين أتر لن يسمح له بدخول مدينة دمشق، من أجل ذلك لجأ عماد الدين إلى الحيلة للاستيلاء عليها، وهنا لم يجد أفضل من القاضي كمال الدين يستعين به لثقته الكبيرة به، ولأنه اعتاد أن يوليه المهام الصعبة لحسن تصرفه، فأمره بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداث ونظار دمشق، واستمالتهم وترغيبهم بالأموال والهدايا والمناصب الكبيرة، ففعل ذلك القاضي كمال الدين، واستطاع بحنكته

ونكاته أن يكسب الجميع إلى جانبه<sup>(٢٦)</sup>.

حيث أجابه خلق كثير، واتفقوا معه على فتح أبواب دمشق وتسليمها إليه عندما يزحف عماد الدين إليها، ثم خرجوا متفرقين إلى كمال الدين الشهرزوري وجدد عليهم العهود.

وهكذا نجح القاضي كمال الدين في مهمته على أكمل وجه، وعلى الفور أرسل الشهرزوري إلى سيده عماد الدين يخبره بما توصل إليه من اتفاق، إلا أن عماد الدين رأى أنه من الصعب تنفيذ ذلك، لأن شوارع وطرق دمشق ضيقة، وإذا دخل العسكر إليها لا يتمكنون من القتال فيها، وربما كثر المقاتلون لهم والمحاربون، فيعجز عن مقاومتهم<sup>(٢٧)</sup>. لأنهم سوف يقاتلون على الأراضي والأسطح، وإذا دخل جيش عماد الدين زنكي إلى دمشق، فسوف يضطر إلى التفريق لضيق المسالك والطرق، وفي هذه الحالة سوف يطمع أهالي دمشق في الجيش وتكون الخسائر كبيرة، من أجل ذلك تراجع عماد الدين عن هذا العزم بشدة وحذر<sup>(٢٨)</sup>.

وإذا كان عماد الدين زنكي عهد إلى القاضي كمال الدين بهذه المهام الكبيرة والصعبة، التي لم يستطيع أحد أن يقوم بها إلا هو، لذكائه وفطنته وحكته، يضاف إلى ذلك ثقة عماد الدين زنكي فيه.

فكان عماد الدين يصطحبه معه في أسفاره وحروبه، لراحة عقله وسداد رأيه ولمنزله الكبيرة لديه.

فقد كان القاضي كمال الدين حاضراً في عسكر عماد الدين زنكي، عندما حاصر عماد الدين قلعة جعبر عام ١١٤٧/٥٤٠م، وظل مصاحباً له ناصحاً ومشيراً، حتى قتل عماد الدين على يد خادمه برتقش، قبل أن يستولى على قلعة جعبر عام ١١٤٧/٥٤١م<sup>(٢٩)</sup>.

هكذا قام القاضي كمال الدين الشهرزوري بدور كبير وهام، في دولة عماد الدين زنكي، لا يمكن إغفاله، فلا عجب أن يمتدحه عماد الدين زنكي بأنه كان ذا الرأي والعقل،

وأجزل له العطاء اعترافاً منه بمكانته الرفيعة لديه. فمثلاً عندما قيل لعماد الدين: "إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تديرون دولتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر، وغيره بكثير له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار<sup>(٣٠)</sup>.

وهذا الرد الصائب من عماد الدين يعتبر شهادة كبيرة للقاضي كمال الدين، لما يتمتع به من العقل وسداد الرأي، والخبرة، وأنه بالنسبة لعماد الدين كان العقل الراجح الذي يدير به دولته.

مما يدل على المكانة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين لدى عماد الدين زنكي. إلا أن هذه المكانة الرفيعة للقاضي كمال الدين الشهرزوري، عصر عماد الدين زنكي، لم تستمر ولو لحين بعد وفاة عماد الدين عام ٥٩١هـ/١١٤٧م. عندما تولى سيف الدين غازي ابن عماد الدين الأمر، ففي بداية حكمه فوض الأمور كلها إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري، وأخيه تاج الدين أبو طاهر يحيى، بالموصل وجميع ما يمتلكه، إلا أنه ما لبث أن تغير تجاههما، وأمر بالقبض عليهما عام ٥٩٢هـ/١١٤٨م، واعتقلهما بقلعة الموصل، ثم أحضر نعيم الدين أبا علي الحسن بن بهاء الدين، وهو ابن عم كمال الدين، وكان قاضي الرحبة، وولاه القضاء بالموصل وديار ربيعة بدلاً من كمال الدين<sup>(٣١)</sup>.

ولكن نظراً للمكانة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين، عصر عماد الدين، أرسل الخليفة العباسي المقتفي بالله رسولاً من عنده ليشفع في كمال الدين الشهرزوري وأخيه، وبالفعل تم إخراجهما من الاعتقال، إلا أنهم ظلوا في بيوتهما وعليهما الترسيم<sup>(٣٢)</sup>.

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فبعد وفاة سيف الدين غازي عام ٥٩٤هـ/١١٥٠م، تولى مكانه أخوه قطب الدين مودود بن زنكي، وقام قطب الدين برفع الترسيم عن القاضي كمال الدين وأخيه، فحضرُوا إليه في الميدان بالموصل وعليهما ثياب العزاء، فعزاه عن أخيه، ثم عادا إلى بيوتهما بغير ترسيم، وعادوا مرة ثانية في الخدمة<sup>(٣٣)</sup>، فعاد

القاضي كمال الدين بنفس المكانة التي تمتع بها من قبل.

ثم انتقل القاضي كمال الدين الشهرزوري، بعد ذلك، إلى خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي أصبح يحكم بلاد الشام عام ٥٥٠هـ/ ١١٦٠م، فتتمكن من الدولة النورية، فأصبح الحاكم المتحكم على حد قول أبي شامة<sup>(٣٤)</sup>، فولاه قضاء دمشق عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٥م، ونظر الأوقاف ونظر أموال السلطان، واستتاب ابنه أبا حامد بحلب، وابن أخيه القاسم بحماه، وابن أخيه الآخر في قضاء حمص<sup>(٣٥)</sup>.

فصار قاضيه ووزيره ومشيره، على حد قول ابن العماد<sup>(٣٦)</sup>. فيمكن القول إن كمال الدين الشهرزوري وصل إلى مكانة عالية، وأصبحت كلمته نافذة عصر نور الدين محمود فلم يكن شيئاً من أمور الدولة يخرج من يده، على حد قول ابن خلكان، فتحكم في أمور الولاية وشد الديوان وغير ذلك<sup>(٣٧)</sup>. وعلى هذا النحو تجلّى دور القاضي كمال الدين الشهرزوري السياسي في زمن نور الدين محمود.

ونظراً لعلو شأن القاضي كمال الدين الشهرزوري لدى السلطان نور الدين محمود، فقد أرسله رسولاً إلى الخليفة المقتدي عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان، وما هو عليه من جهاد الكفار، وفتح بلادهم، كما يطلب من الخليفة تقليداً بما بيده من البلاد: مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته، كديار بكر وما يجاورها مثل خلاط، وأن يعطي من الإقطاع سواد العراق ما كان لأبيه زنكي، وأن يسمح له ببناء مدرسة للشافعية، وغيرها من الأمور التي جاءت بالرسالة<sup>(٣٨)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة أكرم القاضي كمال الدين إكراماً لم يكرم به رسولاً قبله، وأجيب إلى كل ما التمس<sup>(٣٩)</sup>.

وقد أجيب إلى كل ذلك بفضل بلاغة ورجاحة عقل القاضي كمال الدين الشهرزوري، يضاف إلى ذلك أن الخليفة المقتدي أرسله رسولاً للإصلاح بين نور الدين محمود، وفتح أرسلان بن مسعود صاحب الروم<sup>(٤٠)</sup>.

وإذا دل ذلك على شيء، فيدل على مدى ثقة كل من نور الدين والخليفة المقتضى في حكمة ونكاه وخبرة كمال الدين، فقد وصفه المؤرخون بأنه 'عظيم الرئاسة خبيراً بتدبير الملك، لم يكن في بيته مثله ولا نال أحد منهم ما ناله من المناصب' <sup>(١١)</sup>. 'فتمكن في الأيام النورية تمكنًا بالغًا' <sup>(١٢)</sup>.

فولاه نور الدين محمود مهامًا كثيرة في دولته، منها: الإشراف على المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة، وجميع الأمور الدينية والشرعية، فكان صاحب القلم والسيوف في وقت واحد <sup>(١٣)</sup>.

كما عهد إليه ببناء الأسوار والبیمارستان <sup>(١٤)</sup>، ونظر الجامع بدمشق، فأصلح أموره، وفتح مشاهده الأربعة <sup>(١٥)</sup>.

ولم تقتصر وظائف ومهام القاضي كمال الدين عند هذا الحد، بل نجده يتولى شحتكية دمشق، وولي فيها كمال الدين بعض **ظلماته** <sup>(١٦)</sup>. وذلك عندما أسقط نور الدين الجهات المحظورة والمكبوس - غير السجن - قال للقاضي كمال الدين : 'انظر أنت في ذلك فأحمل الأمور فيها على الشريعة ولم يكون نور الدين يحاسب القاضي كمال الدين على شيء من الوقوف، ويقول : 'أنا قد قلته أن يتصرف بها بما يجب، ثم ما قلل من مصاريقها وشروط واقفيها بصرف من بناء الأسوار وحفظ الثغور' <sup>(١٧)</sup>. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى ثقة نور الدين في القاضي كمال الدين لحسن تصرفه.

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري يقوم بعمل القضاة على أكمل وجه، لا يجامل أحدًا على حساب أحد، يحكم بين المختصمين بالعدل، حتى ولو كان المختصم نور الدين نفسه.

فقد حدث أن اختصم أحد الأشخاص نور الدين محمود نفسه، وحضر نور الدين أمام القاضي الشهرزوري وبدأ يستمع إلى كل من الطرفين المختصمين، وانتهت المحاكمة

بإنصاف نور الدين، فلم يثبت عليه شيء يدينه.

حقيقة إن عدل نور الدين محمود هو الذي سمح للقاضي الشهرزوري بمحاكمة نور الدين، فقد طلب منه أن يتبع معه مثل ما يتبعه مع غيره : " إني قد جئت للمحاكمة فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري" (٤٨).

ونظرًا لقرب القاضي كمال الدين من نور الدين، وشدة تأثيره عليه، فقد طلبت زوجة نور الدين، وهي الخاتون بنت معين الدين، ومساعدة القاضي الشهرزوري لكي يقنع زوجها نور الدين بزيادة النفقة الخاصة بها، وبالفعل عرض القاضي هذا الأمر على نور الدين، وحاول أن يقنعه بذلك، ولكنه فشل لأن نور الدين الذي امتاز بالعدل رفض هذا الأمر قائلاً : " قد فرضت لها ما يكفيها والله لا أخوض جهنم بسببها وهذه الأموال ليست لي وإنما هي للمسلمين وأنا خادمهم فلا أخونهم فيها، وني بحمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها إياها، وكان يحصل منها قدر يسير" (٤٩).

ولم يقتصر دور القاضي كمال الدين عصر نور الدين محمود عند هذا الحد، بل كان يقوم بترشيح الموظفين الأكفاء لنور الدين ويعرفه بهم. عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م رشع العماد الأصفهاني ليعمل في ديوان إنشاء السلطان نور الدين، وذلك نظرًا لما بلغه من النبوغ في العلم، فعندما جاء إلى دمشق أنزله كمال الدين بالمدرسة النورية الشافعية، والتي نسبت إليه بعد ذلك لأن نور الدين ولاه إياها عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. ومنذ ذلك الوقت أصبح له شأن كبير في دولة نور الدين، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي الذي اتخذها كاتبًا له لا يفارقه في أسفاره (٥٠).

ومن الجدير بالذكر أن عماد الدين كتب قصيدة مدح في نور الدين محمود، قام القاضي كمال الدين بعرضها على نور الدين، ومطلعها :

لو حفظت يوم النوى عهودها	ما مقلت بوصلكم وعودها
مؤيد أموره بعزمه	من السموات العلا تأييدها (٥١)

وإذا كان القاضي كمال الدين الشهرزوري لعب دورًا كبيرًا في دولة عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ووصل عندهم إلى أعلى مكانة، وحاز على ثقتهم واحترامهم، فإنه لعب أيضًا دورًا يحسب له بعد وفاة نور الدين عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م، حيث اتفق مع كبار الأمراء على أن يتولى الأمر الصالح إسماعيل بن نور الدين " وتحالف معهم على أن يكون أيديهم واحدة وعزائمهم متعاقدة " (٥٦).

ونظرًا لبعد نظر القاضي كمال الدين؛ فقد أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم، وهو القائم على تربية الصالح إسماعيل وأتابكته - وغيره من كبار الأمراء، بالرجوع إلى مشورة صلاح الدين الأيوبي، عندما حدث صراع بين الأمراء على تربية الصالح إسماعيل، فقال لهم " قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه، والمصلحة أن يتشاور في الذي نفعه، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك مصر " (٥٧).

وبالرغم من هذه النصيحة الهامة، التي نصح بها القاضي كمال الدين الأمراء في الشام، إلا أنهم لم يستمعوا إليها، بل إنهم خافوا من صلاح الدين إذا تدخل في هذا الصراع سوف يدخل البلاد ويخرجهم منها (٥٨).

الحقيقة أن القاضي كمال الدين كان بعيد النظر صائب الرأي فيما قاله، لأن صلاح الدين كان بالفعل أنكى وأقوى أمراء نور الدين محمود، في ذلك الوقت، وكان القاضي كمال الدين يعلم أن صلاح الدين عندما يعرف بموت سيده نور الدين وتصارع الأمراء على أملاكه، سوف يسير إليهم ويستخلص البلاد لنفسه، وهو ما حدث بالفعل (٥٩).

فمجرد أن علم صلاح الدين بوفاة نور الدين؛ لم يجد أفضل وأقرب من القاضي كمال الدين لكي يرسل له رسالته يقول فيها : لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامه، أو يثق به مثل ثقته بي، لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفرقتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام ولده بخدمة يظهر أثرها



وأقبل كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده<sup>(٥٦)</sup>.

هكذا تحقق ما كان يخاف منه القاضي كمال الدين الشهرزوري، والذي حذر منه الأمراء، لأن صلاح الدين غضب غضباً شديداً من عدم استعانة الأمراء ومحاولاتهم إبعاده عن الأحداث.

وكما تسلم القاضي كمال الدين رسالة صلاح الدين الأيوبي، تسلم رسالة أخرى من الأمير شمس الدين علي بن الداية، عندما أراد أن ينقل الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب، فأرسل إلى القاضي كمال لعلو مكانته وسداد رأيه، لكي يقنعه بأن من المصلحة تنفيذ ذلك، حتى لا يستطيع سيف الدين غازي بن قطب الدين بن زنكي؛ الاستيلاء على مدينة حلب وغيرها من البلاد الجزرية، إلا أن الأمراء رفضوا أن يرسلوا الملك الصالح إلى حلب<sup>(٥٧)</sup>.

على أية حال؛ عزم صلاح الدين على المسير إلى دمشق لتأديب أمراء نور الدين محمود.

ومن الجدير بالذكر: أن أصحاب القاضي كمال الدين الشهرزوري عندما علموا بقرب وصول صلاح الدين؛ توقعوا أن صلاح الدين سوف ينتقم من القاضي الشهرزوري بسبب العداء الذي كان بينهما أيام نورالدين محمود، عندما كان صلاح الدين متولي الشحنة بدمشق، فكان كمال الدين يكسر أوامره ويعترض عليه في أموره، لتوخي كمال الدين الأحكام الشرعية<sup>(٥٨)</sup>، وفي ذلك يقول مسبط ابن الجوزي: "وكانت بينهما مضايقة وكل واحد ينقص حكم الآخر"<sup>(٥٩)</sup>.

يضاف إلى ذلك أن القاضي الفاضل كاتب صلاح الدين، كان يريد أن يتخلص منه، لذلك أسرع بجمع الشكاوى والمرافعات التي نسبت إلى كمال الدين لكي يسلمها إلى صلاح الدين وهو في طريقه إلى دمشق<sup>(٦٠)</sup>.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أصحاب كمال الدين أشاروا عليه بضرورة الخروج لمقابلة صلاح الدين والقاضي الفاضل، إلا أن كبرياء وعزة القاضي كمال الدين نفسه

جعلته يرفض هذا الأمر، لأنه تعود منذ أيام نور الدين محمود أن يتردد الناس إليه وليس العكس. وفي ذلك يقول السبكي: " فلما كانت ليلة دخول السلطان دمشق، تحزب أصحاب كمال الدين عليه، وقالوا: هذا السلطان من الأصل لا يحبك، ومدير دولته القاضي الفاضل كذلك، وأعدائك قد تحزبوا عليك، وما كنت تعرفه من الرفعة قد زالت بزوال دولة نور الدين" (١١).

ثم أشاروا عليه بضرورة مقابلة القاضي الفاضل الذي وصل إلى دمشق قبل السلطان صلاح الدين، وألحوا عليه في ذلك إلحاحاً كبيراً، الأمر الذي جعل القاضي كمال الدين يضطر إلى مقابلة القاضي الفاضل، وهو مرغم على ذلك، إلا أنه كان متوقعاً أنه بمجرد أن يصل إلى دار القاضي الفاضل، فإنه سيرفض مقابلته، وبالفعل عندما وصل القاضي كمال الدين الشهرزوري، وطُلب مقابلة القاضي الفاضل، ظل منتظراً طويلاً على بابه حتى يؤذن له. ثم بعد ذلك أخبره طواشي القاضي الفاضل أنه نائم ولن يقابل أحداً، فعاد القاضي كمال الدين إلى داره وهو في أسوأ حال (١٢).

ولم يكتف القاضي الفاضل بعدم مقابلة كمال الدين، بل عندما خرج لاستقبال صلاح الدين أراد أن يوغر قلب صلاح الدين على الشهرزوري، إلا أن صلاح الدين لم يستمع إلى كلام القاضي الفاضل، ورد عليه قائلاً: " يا خوند، هذا رجل عظيم في العلم والسؤدد وأفعال نور الدين عند الناس مسددة، وكان منها تعظيم هذا الرجل، وغالب من ينسب إليه كذب، وأما ما ذكر من كثرة دخله، فهو وإن كثرت دونه كثير من أمراء المملكة، ولعله أحق ببيت المال، وأمواله من كثير منهم، فالذي أراه تعظيمه، وكذا" (١٣).

وهذا دلالة على المكانة الرفيعة التي تمتع بها القاضي كمال الدين الشهرزوري عصر نور الدين، والتي جعلت صلاح الدين يثني عليه ويعظمه.

وما أن وصل صلاح الدين إلى دمشق حتى مشى إلى دار القاضي كمال الدين زائراً ومشيراً، ودخل عليه وجلس معه، وقال يا كمال الدين: لما كنت في الشحنة قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، فقد جئت إليك لأزيل ما في خاطرك من الوهم وأعرفك أن ما في

قلبي لك تكزه قطب نفساً فالأمر أمرك والبلد بلدك<sup>(١٦)</sup>.

الحق أن كلاً من صلاح الدين والقاضي كمال الدين تناسى ما كان بينهما أيام نور الدين، وقام القاضي بدور كبير في مساعدة صلاح الدين في فتح دمشق، أعانه وفتح له أبوابها، لأنه كان "الحاكم النافذ حكمه، والصابغ مهمه، الثابت نجمه"، على حد قول أبو شامة<sup>(١٧)</sup>.

ولم ينس صلاح الدين وقوف القاضي كمال الدين بجانبه، ف بمجرد أن دخل دمشق أبقي عليه في منصب القضاء، وأكرمه واحترمه واستشاره وعظمه، كما أبقي على ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري، واستمر في خدمة صلاح الدين وأقطعه وأحسن إليه واستمر في صحبته<sup>(١٨)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن القاضي كمال الدين نال عصر صلاح الدين ما لم ينله أحد من الفقهاء من التقدم ونفاذ الكلمة، وسارت له اليد البيضاء عند صلاح الدين<sup>(١٩)</sup>. واستمر يتمتع بهذه المنزلة الرفيعة حتى توفي يوم الخميس السادس من المحرم عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م بدمشق<sup>(٢٠)</sup>. وكان حاضراً عنده ابن أبي عصرون فتولى أمره، فخرج في جنازته، ماشياً كما حضر الأمراء ومشوا في جنازته مثل سيف الإسلام وتقي الدين عمر وشمس الدولة وغيرهم، وصلى عليه بجامع دمشق، وعندما توفي كان قد تصدق بجميع ما كان عنده، وأوصى بماله وأوقف أوقافاً كثيرة، على أبواب البر وقيل إنه لم يكن له كنز فكفن في أحرامه<sup>(٢١)</sup>.

ودفن في اليوم التالي بجبل قاسيون وكان عمره ثمانين سنة وأشهر<sup>(٢٢)</sup>. ومن الجدير بالذكر أنه قبل موته أوصى بالقضاء من بعده لابن أخيه أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله الملقب بـ ضياء الدين، فنفذ السلطان صلاح الدين وصيته، وفوض القضاء بدمشق إلى ضياء الدين؛ احتراماً لرغبة كمال الدين ولمكانته السامية عند السلطان<sup>(٢٣)</sup>.

وقد أثنى عليه كثير من المؤرخين منهم: سبط ابن الجوزي الذي قال عنه:

كان فاضلاً جواداً سمحاً ديناً عفيفاً ذا مروءة ظاهرة وصداقات داره وافرة وبر واصل<sup>(٧٣)</sup>.  
كما قال عنه ابن الأثير: " كان جواداً فاضلاً رئيساً ذا عقل ومعرفة في تدابير الدول<sup>(٧٤)</sup>.

كذلك نجد ابن خلكان يقول عنه إنه كان: " شهماً جسوراً كثير الصدقة والمعروف  
وقب أوقاف كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق<sup>(٧٥)</sup>.  
أما الأصفهاني فقال عنه: " كان باراً بالأبرار مختاراً للأخبار، وقد قواه نور الدين  
رحمه الله ولقدده الحكم في أيامه وسدد مرامي مرآته فكان في الأيام النورية الحاكم المطلق<sup>(٧٦)</sup>.

وقد ترك القاضي كمال الدين عدة منشآت كان قد أنشأها قبل وفاته، منها المدرسة  
التي بناها بالموصل لدراسة المذهب الشافعي<sup>(٧٧)</sup>. كذلك كانت له مدرستان بنصيبين<sup>(٧٨)</sup>.  
يضاف إلى ذلك أنه بنى رباطاً في المدينة المنورة<sup>(٧٩)</sup> كما أحدث الشباك الكمالي  
الذي يصلي فيه نواب السلطنة عصر نور الدين محمود<sup>(٨٠)</sup>.  
كما سن دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان حتى لا يبقى عليه مغمز ولا  
ملمز لذوي الشأن فيما دبره " على حد قول الأصفهاني<sup>(٨١)</sup>.

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري معروفاً بكرمه الشديد، حيث أوقف قرية  
الهامة على الشيخ أحمد بن قدامة والد الشيخ ابن عمر، والنصف الآخر على الأساري: "   
فقول إنه لما قدم أحمد بن قدامة والد الشيخ ابن عمر إلى دمشق خرج إليه القاضي كمال  
الدين ومعه ألف دينار فعرضها عليه فلم يقبلها، فاشتري بها قرية الهامة وأوقف نصفها  
على الشيخ أحمد والمقاسة ونصفها على الأساري<sup>(٨٢)</sup>. كذلك كان يهب بالآلاف دينار فما  
فوقها<sup>(٨٣)</sup>.

رحم الله الشيخ كمال الدين الشهرزوري لكل ما قام به من أعمال هامة تحسب له.

## المواضع :

- (١) طبقات الشافعية، ج ٢، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٧م، ص ١٨.
  - عباد الدين زنكي: ابن قسيم الدولة أقي سنقر التركي، تولى شحنة بغداد آخر دولة المستظهر بالله ثم انتقل إلى الموصل، وقام بتربية فرخشاه الملقب خلفا لـ ابن السلطان محمود، ولهذا قيل له أتابك، استطاع أن يملك الموصل وحلب وحمص إلا أنه قتل على يد خادمه برتقش عام ٥٤١ هـ. للمزيد عن عباد الدين زنكي ودوره في توحيد الجبهة الإسلامية، انظر: ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٤ أجزاء، تحقيق: مامي الدهان، دمشق ١٩٥٤م، ج ٢، ص ٢٤١-١٤٦؛ انظر أيضا: حامد زيان: حلب في العصر الزنكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٣٥-٤٠.
  - للموصل: قال عنها ياقوت الحموي: فهي باب العراق ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أنزيبجان، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات. معجم البلدان، ٥ أجزاء، تحقيق: فريد عبدالعزیز الجندي، لبنان، د. ط. ج ٥، ص ٢٥٨-٢٦٠.
- (٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، ج ٤، دار الصادر، بيروت، ص ٢٤١. المبكي: طبقات الشافعية، ١٠ أجزاء، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، محمود الطحاحي، ج ٦، ص ١١٨، ١١٧.
  - أسعد الميهني: نسبة إلى مينة قرية بقرب طوس بن مريخس وأبيور. تلقه بمرور وشاع فضله وبعد صيته وولى نظامية بغداد مرتين ثم توجه من بغداد رسولا إلى همدان وتوفي بها عام ٥٢٧ هـ. ابن العديم الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦ أجزاء، بيروت د. ت، ج ٤، ص ٨٠.
- (٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٢؛ ابن العديم الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٣ جزء، ج ٣، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركلي مصطفى، بيروت لبنان، طبعة أولى ٢٠٠٠م، ص ٢٦٦ الأسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٧م، ص ١٨.
- (٤) الأصفهاني: خريدة القصر وخريدة العصر، ٣ أقسام، ق ٢، خاص بشعراء الشام، تحقيق: أحمد أميرن، شوقي ضيف، ص ٣٢٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٣؛ الصفدي: الوافي،

ج ٣، ص ٢٦٧.

- العباد الأصفهاني: ولد عام ٥١٩ هـ بأصفهان وتلقه ببغداد على المذهب الشافعي، وأتقن الفقه والعربية، تفوق في الكتابة والترسل والنظم، وخدم في ديوان الإنشاء وترقى إلى أعلى المراتب وعظمت مكانته، وصنف العديد من المؤلفات منها الفتح القسي، وخريدة القصر، توفي عام ٥٩٨ هـ. للمزيد عنه انظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، تقديم حامد زيان، القاهرة ٢٠٠٣ م، ص ٩-١٢٠ ابن العباد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٣٢-٣٣٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٤٧-١٥٢.

(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد ظليمات، القاهرة د.ت، ص ١٥٤ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٥٦، ٢٥٧.

- سنجر أبو الحارث سنجر ملكشاه بن ألب أرسلان بن سنجوق سلطان خراسان وغزنة وما وراء النهر، تلقب بالسلطان الأعظم مغز الدين، ولد عام ٤٧٩ هـ، بمنجار ولذلك سمي سنجر نسبة إلى المدينة، تولى الحكم عام ٤٩٠ هـ نيابة عن أخيه بركياروق ثم استقل بالحكم عام ٥١٢ هـ. وتوفي ام ٥٥٢ هـ بمدينة مرو ودفن بها. للمزيد من التفاصيل عنه، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

- الراشد وهو أبو جعفر المصور بن المسترشد بالله بويح بالخلافة عام ٥٢٨ هـ وتلقب بالراشد بالله، وفي عام ٥٣٠ هـ طلب مساعدة عماد الدين زنكي، عندما احتلف العساكر السلطانية على السلطان مسعود، تفاصيل ذلك انظر. ابن الأثير: الباهر، ص ٥١-٥٣.

- الخليفة المقتفي لأمر الله أبو عبدالله محمد بن المستظهر بالله العباسي، أمير المؤمنين، كان عالماً فاضلاً حليماً شجاعاً، خليفاً للإمامة، كان لا يجرى في دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه، استمر في الخلافة خمساً وعشرين سنة، وفي أيامه عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق لها منازع، توفي عام ٥٥٥ هـ. للمزيد من التفاصيل عنه، انظر: ابن العباد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٧٢، ١٧٣.

(٦) للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، دمشق ١٩٠٨ م، ص ٢٥٦، ٢٥٧. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عطا، ١٩ جزء، لبنان ١٩٩٢ م، ج ١٧، ص ٣٠٠-٣١٣؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد ظليمات، القاهرة د.ت، ص ٥١-٥٥.

(٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ٥٤؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،

ص ٢٥٧، ٢٥٨.

- (٨) علي محمد الصلابي: عصر الدولة الزنكية بقيادة نور الدين محمود، بيروت ٢٠١٠ م، ص ٤٧.  
(٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جزءان، دار الجبل، بيروت، د.ت، ج ١، ص ١٣٠-١٣٢.

من الجدير بالذكر أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصار الملك فولك في حصن بعين أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطي والغرب الأوربي. للمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزءان، ج ١، الطبعة السابعة، ١٩٩٧ م، ص ٤٥٥-٤٥٧ محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية، ص ٢١٦-٢١٩.

Steven Son (W.B): The CRUSades. In the East, Bei Rat 1966, p. 137-139.

- السلطان مسعود: غياث الدين أبو الفتح بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جطر الملجوقي، رياه بالموصل الأمير مودود ولما تمكن أخوه السلطان محمود، طعمه جوس بك في السلطنة، فدخل في صراع مع أخيه انتهى بوزيمته، ثم تنقلت به الأحوال حتى استقل بالملك عام ٥٢٨ هـ وامتدت أيامه وعاش خمسا وأربعين سنة، ومات عام ٥٤٧ هـ. ابن العاص الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٤٥: ابن خلكان. وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٠٠-٢٠٢.

- حصن يارين أو بعين: بكسر الراء، وياه ساكنة، ولتون، والعامية تطلق عليه بعين وهو مدينة حسنة بين حنب وحماة من جهة الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨١.

(١٠) التاريخ الباهر، ص ٦٢.

- حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء لها سور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب المور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان. للمزيد عنها، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٢٤-٣٢٢.

- حنا كومنين: تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة والده الكسبروس كومنين عام ١١١٨ م، واستمر في الحكم حتى عام ١١٤٣ م. هسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية. القاهرة ٢٠٠٠ م، ص ٢١٤.

(١١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢ أبو شامة: الروضتين، في أخبار الدولتين، ج ٢، ص ٤٢٦.

(١٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥ أجزاء، ج ١، ٢، تحقيق: جمال الدين الشيبان. القاهرة ١٩٥٧، ج ١، ص ٧٩ أبو شامة: الروضتين، ج ١،

ص ١٣٢، ١٣٣.

(١٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٧٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٣٣؛ انظر أيضاً: محمد الصلابي، السلطان الشهيد عماد الدين زنكي، بيروت ٢٠١٠م، ص ١٢٠.

(١٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٧٩.

(١٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٧٩.

- الفقهاء: مفردوا الفقيه، من ألقاب العلماء، وكان هذا اللقب من الألقاب المعظمة. الفقهسدي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية بالقاهرة، ج ٦، ص ٢٢.

- الأوباش: تعني أهل الفساد من العوام الذين عاشوا في ضيق وعسر بالقياس إلى غيرهم من الطبقات الممنعة. وقد استفادوا من منازعات الأمراء، إذا حاول بعض هؤلاء الأمراء أن يكتسب العوام إلى جانبه. مبعود عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٤٤، ٤٥.

(١٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٧٩.

(١٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٧٩، ٨٠.

(١٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٢، ١٦٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٨٠، ٨١؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٣٣، ١٤٣.

- الفرات: مغارة الماء العذب، ومخرج الفرات فيما زعموا من أرمينية ثم من قائلقلا قرب خلاط ويودر بتلك الجبال حتى يدخل أرض الروم. عنه انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(١٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٣، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٣٤، ١٣٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٨٠، ٨١؛ انظر أيضاً: الصلابي: السلطان عماد الدين، ص ١٣١.

(٢٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٨١؛ انظر أيضاً:



الصلابي: عماد الدين، ص ٣١.

- الوزير: يُعد منصب الوزير من أهم المناصب في النظام الإداري بالدولة الإسلامية، حيث يلي الوزير السلطان أو الملك في المكانة، وينفذ أوامره ويعكس له أحوال شعبه، ويعاين الوزير السلطان في شتى الأمور. للمزيد من التفاصيل عن منصب الوزير ومهامه واختصاصاته، انظر: مثال محمد: الوزارة في مصر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة بني سويف، ٢٠٠٧م.

(٢١) الصلابي: السلطان عماد الدين، ص ١٣١.

(٢٢) التاريخ الباهر، ص ٦٣.

(٢٣) الصلابي: السلطان عماد الدين، ص ١٣٢.

(٢٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٢٧، ١٢٨.

- دمشق: من أشهر مدن بلاد الشام وأجملها وأحسنها. للمزيد عنها انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢٧.

- جمال الدين محمد بن بوري بن طفتكين، كان ظالماً سيئ السيرة. تولى دمشق لمدة عشرة أشهر ومات عام ٥٣٤ هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٠٥.

- معين الدين أنر: هو مقدم جيش دمشق اشتهر بالشجاعة والتدين وكان كثير الصدقات، وتوفي عام ٥٤٤ هـ ودفن بقبلة التي تقع بين دار البطح والشمالية. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٣٨.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، جزء ١١، بيروت ١٩٧٩م، ص ٣٦-١٣٩ ابن القلاسي: نيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م، ص ٢٦٩-٢٧٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ٢، ص ٢٧٢-٢٧٤ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزء ١، ج ١، طبعة سابعة، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٤٦٧-٤٦٨.

- زمر خاتون: صلووة الملوك بنت الأمير جادلي أخت الملك دقاق صاحب دمشق لأمه وزوجة تاج الدين بوري وأم ولديه شمس الملوك إسماعيل ومحمود، سمعت من ابن الحسن بن قيس، واستحسنت الكتب وحفظت القرآن وبنت المدرسة الخاتونية بصنعاء دمشق ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين حتى قُتل. للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٧٨.

- خاتون: جمعها خاتونات أو خواتين، هي كلمة عربية محرفة عن الكلمة المغولية 'قادين

وذلك دون لقب " الملكة " الذي كان في عصر الفاطميين، وكانت تلقب به الزوجة أو الأم أو الأخت وكان لهن مشاركة في الحكم في بلاد الروس. محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١١٥ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار. القاهرة ١٩٧٨م، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

- المقدم: هو موظف يرأس الصناعات الفخمين بدار الضرب، وهو المسئول الأول عن جميع مراحل عمليات المسبك في دار الضرب. حسن بن محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين. القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٠٤، ١٠٥ محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى. القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٣١٩.

- أحداث: تعني الشرطة غير الرسمية وكانت تستعمل في الشام خاصة، وهي من العصر الفاطمي وكان من يتولى ولاية الأحداث من الصكريين. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ١٦، ١٢٢ محمد قنديل: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٩٦.

- النظار: مفردا ناظر وهو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليها حسابها لينظر ما يرد. ابن معاتي. قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢٩٨م؛ البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٤٦.

(٢٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥٨ أبو شامة. الروضتين، ج ١، ص ١٢٨

(٢٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥٨ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٢٨

(٢٨) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٢٨.

(٢٩) عن حصار قلعة جبر، انظر: ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٦، ص ٢٤١؛ ابن القلانسي: دبل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤-٢٨٥ ابن الأثير: الباهر، ص ٧٣، ٧٤ انظر أيضاً: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٤٧٦ محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية، ص ٢٥٥.

- قلعة جبر: تقع على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الواقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكانت تعرف أولاً باسم دوس فتملكها رجل من بني نمير يقال له جبر بن مالك فعرفت باسمه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٣.

- المشير: تعني الناصح الذي يؤخذ رأيه، وهي من الوظائف المستحدثة، وصاحبها يلي وظيفة الإشارة، ويكون عادة من يتولاها من كبار الأمراء، ممن يحضرون مجلس المشورة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٧٠ ج ١١، ص ١٥٣، ١٥٧؛ محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٣١٢.

- يرتكش: أصله أفريقي وكان من المقررين لعماد الدين، إلا أنه حقد على سيده لإساءة تقدمت منه إليه فأسرهما في نفسه، وقتله وهو نائم ثم هرب إلى قلعة جبر وكان صاحبها الأمير عز الدين علي بن مالك فأواه في القلعة وأكرمه. ابن القلانسي: نيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤، ٢٨٥.
- (٣٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٦٣؛ أبو شامة: الروشتين، ج ١، ص ٢٣٥؛ انظر أيضًا: الصلاحي: عماد الدين، ص ٤١.
- (٣١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤١، ٢٤٢.
- تولى سيف الدين غازي بن زنكي حكم الموصل، ولم تذكر المصادر شيئاً عن تغربه تجاه القاضي الشهرزوري وسوء معاملته.
- الرُحبة: يضم أوله وسكون ثانية، وباء موحدة، تمتاز بالساتين والقرى، تقع بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى ياقوت الحموي معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧.
- ديار ربيعة: تقع بين الموصل إلى رأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين، ورأس عين وديسر والشاهور، سميت ديار ربيعة لأنهم كلهم ربيعة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٦٢.
- (٣٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٢.
- الترسيم: مال تفرضه الدولة لقاء خدمة من قبلها الرسمي. وفي المصطلح المملوكي كان الترسيم عبارة عن تعويق المتهم بمكان من الأماكن ويعين عليه حارس. للمزيد من التفاصيل، انظر: البيومي إسماعيل: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، جزء ١، ج ١، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٢٣، ٢٤.
- (٣٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٢.
- (٣٤) الروشتين، ج ٢، ص ٤٢٦.
- (٣٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٢٦٦؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١١٨.
- حماء: مدينة كبيرة عظمى الحيرات، واسعة الرقعة، حافظة بالأسواق، يحيط بها سور محكم، وبها جامع يشرف على نهرها المعروف بالعاص. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٤-٣٤٥.
- حمص: تقع بين دمشق وحلب بها قلعة حصينة على تل كبير. عنها انظر: ياقوت الحموي:

معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٤٧-٣٥٠.

(٣٦) شذرات الذهب، ج ٤، ص ٩٤٢.

(٣٧) وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٢.

- الولاية: في التقسيم الإداري بمعنى مديرية أو محافظة في اصطلاحنا المعاصر، وكانت مصر مقسمة إلى أربع عشر ولاية في الوجهين البحري والقبلي، ويشرف على الولاية الوالي، وكانت تسمى أيضاً (عمل) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٩٢-٣٩٧؛ انظر أيضاً: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٦٢.

- شد الديوان: مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها وعادته إمرة عشرة القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢؛ حسنين ربيع: النظم المالية، ص ٨٢٢.

(٣٨) الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص ١٧٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٩١.

- ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن قاسط بن دعسي، يحدها من الغرب دجلة إلى بلاد الجبل المطلة على نصيبين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٦١-٥٦٢.

- جلائط بكر أوله. وأخره طاء مهملة. البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اللينة، طولها أربع وستون درجة ونصف وثلاث، وعرضها تسع وثلاثون درجة وثلاثين في الإقليم الخامس، وهي قصبة أرمنية الوسطى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣٥-٤٣٦.

(٣٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ١٩٩؛ سنا البرق الشامي، ص ٧٢.

(٤٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٢.

- من الجدير بالذكر أن نور الدين محمود خرج عام ٥٦٨ هـ إلى أملاك عز الدين قنج أرسلان بن مسعود عازماً على حربه وأخذ بلاده منه، وذلك نظراً لاستجداد ذي النون بن دانشمند صاحب ملطية وسواس بنورالدين ضد قنج أرسلان الذي استولى على بلاده، فما كان من نور الدين إلا أن استقبله بحفاوة وكرم ووعد بهرد بلاده إليه. للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٨٩.

- قنج أرسلان: بن مسعود بن قنج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق التركي السلجوقي صاحب الروم، امتدت أيامه وكبر في السن وتصرف أولاده في مملكته في حياته، عاش سلطاناً أكثر من ثلاثين سنة وتوفي عام ٥٨٨ هـ، وتملك من بعده ابنه غياث الدين. ابن العاص: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٩٥.

- (٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٢؛ الاسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ١٨.
- (٤٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١١٨.
- (٤٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ جزء، لبنان ١٩٩٢م، ج ٦، ص ١٧٣  
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المجلد الثامن، قسم ١، ٢؛ طبعة أولى حيدر  
أباد ١٩٥١م، ص ٣٤٠.
- الحسبة: من وجوه العدل وأعيانهم من يتولاها تكون يده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي  
عن المنكر ويتحدث في أمر المكابيل والموازن. للمزيد من التفاصيل عنها انظر: المقرئ:  
المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٤ أجزاء، طبعة مصورة بالأوفست من طبعة بولاق،  
ج ١، ص ٤٦٣، ٤٦٤؛ انظر أيضاً: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٠٣.
- صاحب القلم والسيف معناه من يجمع بين فضيلة القدم (العلم والدراسة) وفضيلة السيف  
(تعليم فنون الفروسية والقتال) مثال ذلك أولاد ابن شيخ الشيوخ، عنهم انظر: حامد زيان:  
العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي، القاهرة ١٩٧٨م.
- (٤٤) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٢٧، ٤٢٨؛ الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٠٨.
- البيمارستان: يقال له المارستان والمرستان، وهو مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، وهو  
لفظ فارسي مركب من بيمر أي المريض، وستن أي محل، ويقال له بالتركية خسته خاتنه أي  
محل المرضى. ويطلق البيمارستان أيضاً على المحل المعد لإقامة المجانين. المقرئ:  
المنوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ج ١، ق ٣، تحقيق: مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م،  
ص ٧١٦، هامس ٦.
- (٤٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤ جزء، طبعة أولى، القاهرة ٢٠٠٠م، ج ١٢، ص ٢٧٨.
- (٤٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٧٣.
- شحتكية دمشق: أو الشحنة وهي وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة وهو رئيس الشرطة  
والموكل بالأمن في بلد من البلاد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٦٢؛ انظر أيضاً:  
محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١٩٣.
- (٤٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٢٨١؛ أبو شامة: الروضتين، تحقيق: أحمد البيومي، دمشق  
١٩٩١م، ق ١، ص ٣٤٧؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، اختصار الفتوح بن علي البنداري،  
تحقيق: فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٢٨.
- (٤٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٦، ١٦٧؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ١٣٨؛ ابن

واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٦٧.

(٤٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٠٧.

- عصمة الدين الحاتون بنت الأمير معين الدين أتر زوجة نور الدين ثم صلاح الدين. قامت بوقف المدرسة التي بدمشق للحنفية، وبنت حاتقاء للصوفية خارج باب النصر، توفيت عام ٥٨١ هـ. وبقيت بقرتها في قاسيون على نهر يزيد. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٧٢.

(٥٠) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٦، ١١٧ الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٠.

(٥١) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٢٧ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص ٢٢.

(٥٢) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣١٨.

- الصالح إسماعيل وهو الملك الصالح أبو الفتح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي، أوصى له والده بالسلطنة من بعده فلم تتم له وحكم حلب فقط، وكان شامًا دينًا عاقلًا محبًا إلى أهل حلب، مات بمرض القولنج عام ٥٧٧ هـ، وحزن عليه أهل حلب وأقاموا عليه المآتم وبالقوا في النواح والبكاء. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٨.

(٥٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١١٦٢ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣.

أتابك: يتكون من لفظين تركيين، أتا أو أطف بمعنى الأب، وبك بمعنى أمير، فيكون المعنى الأمير الوالد. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨. محمد عبد الغني الأشقر: أتابك الصكر في القاهرة عصر المماليك البحرية، القاهرة ٣٠٠٢ م، ص ٢١.

(٥٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١١٩٢ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٣ انظر أيضًا: حامد زيان: تاريخ مصر في العصر الأيوبي، القاهرة ٢٠١١ م، ص ٤٠.

(٥٥) نظرًا لصغر سن الصالح إسماعيل فقد تناقص أمراء نور الدين للوصاية عليه، ودب الخلاف بين اثنين من أقوى أمراء نور الدين وهما شمس الدين بن الداية، وشمس الدين بن المقدم حيث أراد كلاهما أن تكون له الوصاية. عن الصراع الذي حدث انظر: ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٩٦، ١١٩٧ الأصفهاني: سنا البرق، ص ٧٣ انظر أيضًا: حامد زيان، تاريخ مصر في العصر الأيوبي، ص ٣٩؛ ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة ٢٠٠٥ م، ص ٤٣-٤٥.

(٥٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١١٦٣ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٥٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١١٦٣ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٤٤.

- من الجدير بالذكر أن نور الدين محمود قيل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها، فصار سيف الدين في عساكره، وفي الطريق علم بخبر موت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين، فملكها كما استولى على الخابور والرها والرقّة وغيرها من بلاد الجزيرة. أبو شامة الروضتين، ج ٢، ص ٣٢٤، ٣٢٥.
- (٥٨) أبو شامة. الروضتين، ج ٢، ص ٤٢٦، ٤٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٩.
- (٥٩) مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٤٠.
- (٦٠) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١١٩.
- القاضي الفاضل: أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البهسماني ثم الصقلاني ثم المصري محي الدين صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة، ولد عام ٥٢٩ هـ قيل إن مسودات رسائله لو جمعت لبلغت مائة مجلد، كان يحب الكتابة، قصد مصر وخدم الأكابر، فلما تملك صلاح الدين مصر استنصره لنفسه وحسن اعتقاده فيه ولازمه وارتفعت منزلته، توفي عام ٥٩٩ هـ. عنه انظر: ابن العاص. شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢٤-٣٢٧؛ فتحية النبراوي: إنشاءات القاضي الفاضل، طبعة أولى، القاهرة ١٩٨٠ م؛ موسن محمد نصر: القاضي الفاضل وصلاح الدين، القاهرة ١٩٩٠ م، ص ١٣٢-١٣٤.
- (٦١) طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٨٩.
- (٦٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٩، ص ١٢٠.
- الطواشي: جمعه طواشيه. وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية وفي الحرير السلطاني. سعيد عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥ م، ص ٤٣٣؛ حامد زيان: العلماء، ص ٤٠؛ هامش ٤.
- (٦٣) من الجدير بالذكر أن القاضي الفاضل عاد إلى دمشق قبل دخول صلاح الدين، وتوجه إلى دار القاضي كمال الدين الشهرزوري، وطلب مقابلته ولما دخل الخادم، يستأذن كمال الدين توقع القاضي الفاضل أن كمال الدين سوف يرفض مقابلته مثلما فعل هو من قبل، لذلك فضل أن يرحل قبل أن يخبره الخادم بذلك وهو ما حدث بالفعل. السبكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١٢٠.
- خوند: بالفتح، لفظ فارسي واستعمل أيضاً في اللغة التركية، ومعناه السيد أو الأمير، ويخاطب به المذكر والمؤنث. المقريري: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٢٦؛ انظر أيضاً: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص ١٢٤، ١٢٥.
- (٦٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٢٧.

- (٦٥) الروضتين، ج ٢، ص ٣٢٩. عن فتح صلاح الدين لمدينة دمشق، انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٢٦، ٣٢٧، ١٣٤٠ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٢٩-١٣٤٢ انظر أيضاً: ليلى عبدالجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٤٥، ٤٦.
- (٦٦) الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص ١١٠٨ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٢٦، ٤٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١٢، ص ٤٩.
- من الجدير بالذكر أن ضياء الدين دخل في خدمة صلاح الدين منذ أن كان بمصر، فرحب به صلاح الدين وأنعم عليه وولاه الوصائف واسطخبه معه إلى بلاد الشام. للمزيد من التفاصيل، انظر: الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٠٨؛ أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٤٢٧.
- (٦٧) المسكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١١٨، ١٢٠.
- (٦٨) ابن الوردي: تنمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٥م، ج ٢، ص ٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٤٤.
- (٦٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٤١.
- ابن أبي عسرون: هو قاضي القضاة ولفيه الشام شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد التميمي الحديثي ثم الموصلني ولد عام ٤٩٢هـ، تلقه بالموصل، ثم رحل إلى بغداد وقرأ الفراءات ودرس النحو والفقه، ورجع إلى الموصل معلوم جمه، ودرس بها وأفتى ثم ولي القضاء لصلاح الدين عام ٥٧٣هـ وله مصنفات كثيرة، وتوفي عام ٥٩٣هـ. ابن العباد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٨٣، ٢٨٤.
- (٧٠) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٩.
- (٧١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٤٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٩٥؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص ١٠٨.
- (٧٢) مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٤١، ٣٤١.
- (٧٣) الكامل، ج ١١، ص ٢١٣.
- (٧٤) وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٤٢.
- (٧٥) سنا البرق الشامي، ص ١٠٧، ١٠٨.
- (٧٦) الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤٣؛ الصلبي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٦٦؛ الأسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ١١٨؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١٨، ص ٢٣٣.
- (٧٧) المسكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١١٨؛ ابن العباد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤٣.



ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٨، ص ٢٣٣.

- نصيب: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام. للمزيد من التفاصيل عنها: انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

(٧٨) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٦، ص ١٢٤٦: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٣٦٦: السبكي، طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١١١٨: الأسنوي: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ١٨.

- الرباط: هي دار يسكنها الصوفية، أي أهل طريق الله، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة. المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٤٢٧.

(٧٩) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤٣.

- نائب السلطنة: هو الذي يقوم مقام السلطان في عامة أموره وفي غالبها. للمزيد من التفاصيل انظر: ليلي عبدالجود: نائب السلطنة في القاهرة في عصر المماليك البحرية، بحث منشور بالمؤرخ المصري، يصدره قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الأول، يناير ١٩٨٨م، ص ١٥٩-٢٢٥.

(٨٠) سنا البرق الشامي، ص ٨٠.

(٨١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٤١: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤٣.

- قرية الهامة: واحدة الهام، وهي كورة واسعة فيها جبل الأقي. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٤٧.

(٨٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ١١٩.

**الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا  
حاكم مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية**

د أمال حامد زيان غانم

أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة القاهرة

اهتم بنو أيوب بالعلم وفشروا العلماء، وأجزلوا لهم العطاء، وتقربوا منهم، ولا أدل على ذلك من قول السلطان صلاح الدين الأيوبي لأصحابه: "لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيفكم، بل بعلم الفاضل"<sup>(١)</sup>.

ويعود الأمر وراء اهتمام صلاح الدين الأيوبي بالعلم والعطاء إلى أنه نشأ في أحضان البيت الزنكي<sup>(٢)</sup>، الذي عُرف بحكامه بحبهم للعلم والعطاء، وازدهرت الحركة العلمية ببلاد الشام في زمنهم ازدهاراً كبيراً<sup>(٣)</sup>.

والمعروف أن صلاح الدين انتقل صبية والده الأمير نجم الدين أيوب إلى دمشق عام ٥٤١هـ/١١٤٦م، وكان له من العمر تسع سنوات<sup>(٤)</sup>، وكنت دمشق في تلك الفترة

(١) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٩٥٢م، ج ٨، ق ٧، ص ٤٧/٤٨.

- يقصد صلاح الدين بالفاضل، القاضي الفاضل وهو عبدالرحمن بن علي بن حصن أبو علي البيهقي الكاتب، ولد بمدينة عسقلان عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، وتولى والده القضاء بمدينة بيسان، ولهذا نسب إليها، برع في الأدب خاصة كتابة الرسائل، ارتبط بصلاح الدين الأيوبي، وتولى وزارته، كما استمر بعد وفاة صلاح الدين يتولى خدمة ابنه العزيز والمنصور، توفي عام ٥٦٩هـ/١٢٠٠م، ولفن في القاهرة. انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، نشر مجلة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند ١٩٥١م، ج ٨، ق ٢، ص ١٤٧٢ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحصان عباس، بيروت ١٩٧٧م؛ ج ٣، ص ١٥٨-١٦٣.

(٢) أشار ابن تغري بردي إلى ذلك صراحة بقوله: "نشأ بنو زنكي (أعني السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد) بنو أيوب سلاطين مصر وغيرها". انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة د.ت.

(٣) ابن واصل: مفرج الكرب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج ١، ص ٢٨٤-٢٨٤ التميمي: المدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م، ج ١، ص ٦٠٧.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٢٠ الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م، ج ١، ص ١١٨.

- نجم الدين أيوب: هو الملك الأفضل نجم الدين أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان الكردي، تولى حكم قلعة تكريت، ثم انتقل إلى حلب، ثم إلى دمشق، وبعدها استقر

## الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

مركزاً علمياً نشطاً، امتلأت بالعلماء والمدارس، مما جعل صلاح الدين ينشأ في بيئة علمية صالحة، جعلته فيما بعد يحب ويقدّر العلم والعلماء.

سار خلفاء صلاح الدين على نفس سياسته في الاهتمام بالعلم والعلماء، وكان من بينهم ابن أخيه تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، الذي وصفته المصادر بأنه كان له "أثر في المصنفات دلت عليها التواريخ، وله في أبواب البر كل حسنه، منها: مدرسة منازل العز التي بمصر، كانت دار سكنة، فوقف عليها وقفاً كثيراً وجعلها مدرسة، وكانت اليوم ببلادها إقطاعه، وله بها مدرستان، شافعية ومالكية، وعليهما وقف جيد أيضاً وبني بمدينة الرها مدرسة، وكان كثير الإحسان إلى العلماء"<sup>(١)</sup>.

ويعتبر تقي الدين عمر هذا هو أول من تولى حكم مملكة حماة من أبناء البيت الأيوبي، حيث واه عمه صلاح الدين حكم حماة عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م<sup>(٢)</sup>. واستمر حكم حماة في ذريته حتى وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي الأيوبي في ٢٦ شهر ذي القعدة عام ٦٩٨هـ/ ٢١ أغسطس ١٢٩٩م، حيث

بالديار المصرية إلى حبر وافته عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥م.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٥٦-٤٥٧، ابن شداد: اللوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٧٣-٧٤، العهد الكتيب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القيسي، تحقيق: محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٥٥٦-٥٧٠، الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م، ص ٢٣٤-٢٣٥.

- ولد تقي الدين عمر عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وتوفي عام ٥٨٧هـ/١١٩١م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٥٧.

- منازل العز: كانت منزلها للفاطميين، تقع على شاطئ النيل، استكنها صلاح الدين الأيوبي لابن أخيه تقي الدين عمر، ثم اشتراها الأخير من بيت المال عام ٥٦٦هـ/١١٧٦م، وعلمها عزم الأخير على ترك الديار المصرية والاستقرار ببلاد الشام عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م جعلها مدرسة. انظر: ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٣١٠هـ، ص ٩٣، المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٢٧٠هـ، ج ١، ص ٤٨٥.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية، مصر د.ت، ج ٣، ص ٦١؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر دار الكتب المصرية د.ت، ج ٤، ص ١٧٣؛ انظر أيضاً: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م، ج ١، ص ١٥٣.

- يذكر ابن خلكان أن صلاح الدين أعطى حماة لحكمه تقي الدين عمر في ٢٣ شعبان عام ٥٨٢هـ، انظر: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٥٧.

خرجت حماة من حكم البيت الأيوبي عندما عهد السلطان الناصر محمد بنقباة حماة إلى الأمير قرّة سنقر المنصوري، في أوائل ذي الحجة من نفس العام<sup>(٣)</sup>. استمر حكم حماة خارجاً عن يد أبناء البيت الأيوبي إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً، وبعدها عادت مرة أخرى إلى البيت الأيوبي عندما أصدر السلطان الناصر محمد تلقيداً بحكمها إلى الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بن الملك الأفضل نور الدين علي في ١٨ جمادى الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر عام ١٣١٠م<sup>(٤)</sup>. ويضيف الفلقشندي<sup>(٥)</sup> أن عماد الدين إسماعيل تولى حكم حماة هذه المرة "على عادة من تقدمه فيها من الملوك الأيوبيين" وذلك لأنه كانت لملوك بني أيوب الذين حكموا حماة قبله رسوم خاصة بهم، حيث ضربوا السكة باسمهم إلى جانب اسم السلطان، وكذلك خطبوا باسمهم إلى جانب اسم السلطان.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٦١؛ ابن الوردي: تمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراني، بيروت ١٩٧٠م، ج ٢، ص ٣٥٢؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣١، تحقيق: السيد الباز العريتي، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٣٧٩.

- حكم حماة من ذرية تقي الدين عمر خمسة حكام هم علي التتالي: الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر (٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م)، الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان بن المنصور محمد (٦١٧-٦٢٦هـ/١٢٢٠-١٢٢٩م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م)، الملك المنصور محمد بن المظفر محمود (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٨٣-٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٩م). انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٨٠، ٨١، ١٢٦، ١٤٣، ١٧٣، ج ٤، ص ١٩، ١٤١ انظر أيضاً: زامباور: معجم الأسرات، ج ١، ص ١٥٣-١٥٤.

- قرّة سنقر المنصوري الأمير سيف الدين، يقول عنه ابن تغري بردي أنه نسب إلى الملك المنصور قلاوون، رقاّه إلى أن جعله أمير مائة. ومقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة حماة، ثم نقله إلى نيابة حلب، ثم صار نائباً للديار المصرية، واستمر يلي مثل تلك الوظائف إلى أن وقعت بينه وبين السلطان الناصر محمد عدة خلافات. غادر على أثرها سلطنة المماليك ولجأ إلى دولة مغول فارس، واستمر بها حتى وفاته عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م، ج ٩، ص ٤٨-٤٧. وقد وصفته المصادر بأنه كان "ذو همة عالية، ومعرفة، وتدبير ودهاء"، انظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م، ج ٢، ص ١٨٣؛ المقريزي: الملوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ق ١، ص ٣٠٥.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، تحقيق: حمزة أحمد عباس، أبو ظبي، ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ١٣٢٢-١٣٢٣؛ أبو الفدا: المختصر، ج ٤، ص ٦١.

(٥) صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٧٣.

أما عماد الدين إسماعيل أبو الفدا هذا فهو ابن الملك الأفضل علي بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ولد في شهر جمادي الأولى عام ٦٧٢هـ / نوفمبر ١٢٧٣م بدمشق في دار ابن الزنجبيلي ونشأ وترى بها<sup>(١٠)</sup>، وتلقى تعليمه بحماة وحلب ودمشق، فقد كان والده الملك الأفضل يتنقل بين هذه المدن الثلاث، حيث كان أخوه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد هو الذي يتولى حكم حماة (٦٤٢-٦٨٣هـ / ١٢٤٤-١٢٨٤م)<sup>(١١)</sup>، ومن بعده تولى حكم حماة ابنه الملك المظفر محمود (٦٨٣-٦٩٨هـ / ١٢٨٤-١٢٩٩م)<sup>(١٢)</sup>، وخلال ذلك كان الملك الأفضل علي والد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، يقوم على خدمة أخيه وابن أخيه يعاونهما في حكم حماة<sup>(١٣)</sup>.

وعلى هذا النحو نشأ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في بيت اشتهر بالاهتمام بالعلم، فقد ورث بنو أيوب منذ أيام جدهم الأكبر السلطان صلاح الدين الأيوبي، فضيلة العلم، والاهتمام بأهله، وأنشأ الكثير منهم المدارس ودور العلم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، وتبوأ بعضهم مكانة عالية بين علماء ذلك العصر<sup>(١٤)</sup>.

(١٠) يقول أبو الفدا أن سبب ميلاده بدمشق يعود إلى أن معظم أبناء البيت الأيوبي الذين كانوا بحماة رحلوا عنها، وهاجروا إلى دمشق بسبب هجوم المغول عليها. انظر : المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨؛ انظر أيضاً: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٤٥٩.

(١١) اليوناني : ذيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات الحكيمة والامور الثقافية للحكومة الهندية، حيدر أباد ١٩٦٠م، ج ٤، ص ٢٣٦.

(١٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٤١؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت ديت، ج ٥، ص ٤٤٢-٤٤٣.

(١٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢١٩، ج ٤، ص ١٨-١٩.

(١٤) على سبيل المثال كان جد عماد الدين إسماعيل، الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (٥٨٧-٦١٧هـ / ١١٩١-١٢٢٠م) الذي وصف في المصادر بأنه كان شجاعاً عالمًا، يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة، وكان في خدمته قريب مائتي معمم من النحاة والفقهاء ومن بينهم الطبيب المشهور موفق الدين عبد السلام، وصف عدة مصنعات مثل "المضمار" في التاريخ، و"طبقات الشعراء". انظر: محمد تقي الدين شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق : حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٧-١١٢ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م، ج ٣، ص ٤٣٢ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٣٧-٣٣٨. كذلك جده الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور (٦٢٦-٦٤٢هـ / ١٢٤٤-١٢٨٤م)، الذي وصفه ابن واصل بقوله : "كان له ميل إلى من عده فضل ومعرفة، ورد إليه الشيخ عزم الدين قيصر بن أبي القاسم (المعروف بتعاسيف) المهندس الفاضل في العلوم الرياضية فأحسن إليه وقربه، وولاه تدريس المدرسة الحنفية النورية بحماة، وكان يقترح عليه أموراً علمية وآلات رياضية". مفرج الكرب في أخبار بني أيوب، تحقيق : حسنين محمد ربيع،

والمعروف ان الحركة العلمية بمصر والشام نشطت نشاطاً كبيراً خلال العصر الأيوبي، حيث انتشرت المدارس بكل الاتجاه على مختلف المذاهب الدينية<sup>(١٠)</sup>، واكتظت تلك المدارس بالعلماء والدارسين<sup>(١١)</sup>، وبعد أن بسط المماليك نفوذهم على مصر والشام ساروا على نهج بني أيوب في إنشاء المدارس وتشجيع وفود العلماء إليها وإجزال العطاء لهم، ووقف الأوقاف الممنية للإتفاق منها على تلك المدارس<sup>(١٢)</sup>، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية في تلك الفترة ازدهاراً كبيراً.

في تلك البيئة العلمية انغمس عماد الدين إسماعيل في الدرس والعلم، حيث نال قدراً كبيراً من التعليم على يد عدد كبير من علماء عصره، ونبع في كثير من العلوم<sup>(١٣)</sup>، ويذكر ابن تغري بردي أنه " حفظ القرآن العزيز، وعدة كتب، وبرع في الفقه والأصول والعربية، والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة"<sup>(١٤)</sup>. ويؤكد معاصره ابن أبيك الصفي، أن "أجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أنقته"<sup>(١٥)</sup>، وي زيد ابن حجر على ذلك بقوله: " فاق في علم الهيئة"<sup>(١٦)</sup>.

القاهرة ١٩٧٧م، ج ٥، ص ٣٤٣-٣٤٤: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٧٣.

وعن الأوقاف التي أوقفها بني أيوب على دور العلم ببلاد الشام وأثرها في الازدهار العلمي، انظر:

Amal Hamed Azyan The role of Endowments in The scientific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, in International Research Journal of Sciences, V.I, September 2012, pp. 39-48.

(١٠) النعمي: المدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٣٣٠، ٣٧٩، ج ٢، ص ٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٦، ص ٢٢٨.

(١١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٥٩-١١١؛ عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٨٧-١٤٠.

(١٢) المقرئ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ٣٣١-١٤٠٤؛ انظر أيضاً: محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م، ص ٣٣٣-٣٧٥؛ حامد زيان: الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٢٦١-٢٦٢.

(١٣) ابن حجر الصقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م، ج ١، ص ٣٩٧.

(١٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(١٥) كتاب السوافي بالوفيات: تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركسي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م، ج ٩، ص ١٠٤؛ أعيان العصر وأعيان النصر، تحقيق: فتح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م، ج ١، ص ٣٠٤.

علم الهيئة: هو علم الفلك، وهو علم يبحث عن أصول الأجرام السماوية، وعلاقة

## الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا مالك حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

إن الفترة التي عاصرها عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، تعد فترة ازدهار لعلم الفلك في العالم الإسلامي، فبعد أن اتخذ هولاكو أنزيبجان عاصمة لمملكته في الشرق<sup>(٢١)</sup>، عهد إلى العالم الفلكي نصير الدين الطوسي بإقامة مرصد كبير في مدينة مراغة عام ٥٦٧هـ/١٢٥٩م<sup>(٢٢)</sup>، وفعل نفس الشيء فيمورلنك بعد استقراره بسمرقند عام ٧٧١هـ/١٣٦٩م<sup>(٢٣)</sup>، حيث جمع حوله فريقًا كبيرًا من علماء الفلك على رأسهم الخواجه

بعضها ببعض، ومثلها من تأثير في الأرض. انظر: المعجم الوسيط، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٥م، ج ٢، ص ١٠٤٣.

<sup>(٢١)</sup> ابن حجر : الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٧.

<sup>(٢٢)</sup> ابن الصدي : أخبار الأيوبيين، نشر Cloude Cahen في :

Bulletin d'etudes Orientales, Tom XV, Paris, 1955-57, p. 175;

أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم : الذيل على الروضتين، عني بنشره السيد عزت الطاهر الحسني، بيروت ١٩٤٧م، ص ٢٠٧.

- هولاكو خان هو ابن تولوي خان بن جنكيزخان، تولى قيادة الحملة الموجهة إلى الشرق واستطاع السيطرة على إيران وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وبعد هزيمة جيوشه في عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، تراجع إلى إيران حيث أسس دولة عرفت باسم الدولة الإلخانية، نسبة إلى كلمة "إيل" المغولية، بمعنى المطيع، أي المطيع للخان، توفي هولاكو عام ٦٦٢هـ/١٢٦٥م. انظر : رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ترجمة = محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م، مجلد ٢، ج ١، ص ٢٢٦-٢٣٧؛ انظر أيضًا: فؤاد عبدالمطي السيد : الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م، ص ٢٨-٢٧.

- أنزيبجان : تقع جنوب إقليم القوقاز بين قهستان وأران، انظر : القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص ٢٨٤-٢٨٥.

<sup>(٢٣)</sup> المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢١.

- نصير الدين الطوسي : هو نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، ولد عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م بطوس، نبغ في علم الفلك، كان شاعرًا على مذهب الأئمة الاثني عشرية، خدم الإسماعيلية بقلعة الموت، ثم انتقل بعد سقوط دولتهم إلى خدمة هولاكو خان، حيث نال قدرًا كبيرًا من احترامه، توفي عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م. انظر : كتاب الحوادث المعروف باسم الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق : بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م، ص ٤١٦-٤١٧ ابن العماد الحنبل : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٥، ص ٣٣٩-٣٤٠.

<sup>(٢٤)</sup> خواندمير : دستور الوزراء، تحقيق حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م، ص ٣٩٢.

- تيمور (تلك) : يعود أصله إلى بلاد ما وراء النهر، ولد عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م في قرية خواجا إيلغار من أعمال مدينة كش إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، أبوه طراغاي (تاراجي) ينتمي إلى قبيلة برلاس إحدى القبائل التركية المسلمة، وأمه الخاتون تكيمة من = سلالة جنكيزخان، ومعنى ذلك أن تيمور يجمع بين السلالة التركية والسلالة

علي بن المؤيد الطوسي<sup>(٢٦)</sup>.

ولاشك في أن تبحر عماد الدين أبو الفدا في علم الهيئة (علم الفلك)<sup>(٢٧)</sup>، هو الذي ساعده مساعدة كبيرة في أن يؤلف كتابه في البلدان، المعروف باسم "تقويم البلدان"، كما سيرد فيما بعد.

ولم يقتصر تبحر عماد الدين إسماعيل علي علم الهيئة، وإنما "شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة، على رأي ابن أبيك الصفدي"<sup>(٢٨)</sup>، ومن بين تلك العلوم التي برع فيها عماد الدين إسماعيل، الطب، وقد أشار عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلى قيامه بـ"مداواة وعلاج ابن عمه الملك المظفر محمود حاكم حماة عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، عندما كان محاصراً لمدينة حمص أثناء غزواته للأمن"<sup>(٢٩)</sup>، وأصاب الملك المظفر مرض ولم يكن بصحته طيب، فقام أبو الفدا بمداواته ووصف بعض الأدوية له، وقد أتت هذه الوصفات الطبية ملحوظاً طيباً، حيث تم شفاء الملك المظفر، مما دفع المظفر إلى أن ينعم على عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ويحسن إليه "على جاري عائلته" كما يقول أبو الفدا<sup>(٣٠)</sup>.

كذلك مما يوضح مدى مهارته في صناعة الطب، ما حدث عندما حضر إلى القاهرة وبصحبه ابنه الملك الأفضل محمد<sup>(٣١)</sup>، فمرض ذلك الولد، فما كان من السلطان الناصر محمد

المغولية، أضوف إلى اسمه كلمة ننگ أو لاج، وهي كلمة فارسية بمعنى الأعرج، وذلك لإصابته بعرج في رجله اليمنى، وتيمور كلمة تركية بمعنى الحديد، انظر: ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨٦م، ص ٤٩٠-٣٩٩: القرماني: أخبار الدول وأثر الأول، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٥٠٠.

(٢٦) يقول ابن عربشاه عن علي بن المؤيد الطوسي، إنه كان رجلاً شجاعاً ينتمي إلى طائفة الأتشي عشيرة، شهماً شجاعاً، انظر: عجائب المقدور، ص ٧٩.

(٢٧) الذهبي: ذيل العبر في خبر من غير، تحقيق: أبو هاجر محمد المسعود، بيروت د.ت، ج ٤، ص ٩٢.

(٢٨) الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤.

(٢٩) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣١، ص ٣١، ص ٣٤: مفضل بن أبي الفضائل: التهج السديد والدر الغريد فيما بعد تاريخ ابن الصدي، نشر بلوشه، في:

Patrologia Orientalis, Tom 14, Paris 1920 .

- حمص: قلعة تقع شرقي تل حمدون. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٣٤٠، هامش ٢.

(٣٠) المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٣٥-٣٦.

(٣١) هو الملك الأفضل محمد ناصر الدين، تولى حكم حماة بعد وفاة والده عماد الدين إسماعيل أبو الفدا عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. انظر: ابن أبيك الدوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٩، المعروف باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت روبر، القاهرة



إلا أن أمر جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء بملازمته لعلاج ابنه المريض<sup>(٢١)</sup>، فلأزمه ليلاً ونهاراً، وتروي المصادر أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا : كان يبحث معه في تشخيص ذلك المرض، ويقرر معه الدواء، ويباشر طبيخه بيده، حتى كان ابن المغربي يقول : والله لولا أمر السلطان ما لازمته فإنه لا يحتاج إلى<sup>(٢٢)</sup>.

وعندما يقرر رئيس الأطباء وهو الذي من شأنه الإشراف على الأطباء، والمسئول عن مستواهم الطبي<sup>(٢٣)</sup>، أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا قادر بمفرده على مداواة المرضى وتقرير الدواء وإعداده لهم؛ فهذا يعني شهادة معتمدة بأن أبي الفدا قد انضم إلى رزمة الأطباء المهرة الذين اشتهروا في ذلك العصر.

لم يقتصر علم عماد الدين إسماعيل أبو الفدا على الفلك والطب فقط، وإنما تعداه إلى غيره من العلوم، من ذلك تبحره في الفقه، فقد درس كتاب "الحاوي" في الفقه لفيقه الشافعية المشهور أبو الحسن الماوردي<sup>(٢٤)</sup>. وقام بنظمه شعراً<sup>(٢٥)</sup>، ويؤكد معاصروه على

٢٠٠١م، ص ٤٦٤-٤٦٥.

- اعتاد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا الحضور إلى القاهرة لزيارة السلطان الناصر محمد، حاملاً معه مختلف الهدايا. انظر : ابن أبيك الصلبي : الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م، ج ١، ص ١٠٢.

(٢١) جمال الدين ابن المغربي : هو إبراهيم بن أحمد، رئيس الأطباء بالديار المصرية المعروف بابن المغربي، نال حظوة كبيرة عند السلطان الناصر محمد، وكان الناصر يروي له أسراره خاصة مع حريمه، وحاول الكثير من الأمراء الإيقاع به عند السلطان الناصر لكنهم لم يفلحوا في ذلك، توفي عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. انظر: ابن أبيك الصلبي : أعيان العصر وأعيان النصر، ج ١، ص ٢٩-٣٠.

(٢٢) ابن حجر الصقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٣٩٨ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م، ج ١، ص ١٨٥.

(٢٣) يقول السبحاي واصفاً رئيس الأطباء: " هو أعلم أهل زمانه بهذه الصناعة، وأحذقهم وأعرفهم بالعلاج ". انظر : الثغر الباسم في صناعة الكتاب والكتام، المعروف باسم: المقصد الرقيق المتشأ الهادي لديوان الإنشأ للخالدي، تحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة =

٢٠٠٦م، ج ١، ص ٤٢٢. وعن مهام رئيس الأطباء، انظر : ابن الأخوة " معالم القرية في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن ليوي، كمبردج ١٩٣٨م، ص ١٦٥-١٦٧ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٧؛ انظر أيضاً : أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م، ص ٢٤.

(٢٤) أبو الحسن الماوردي : هو علي بن محمد بن حبيب المصري، الماوردي الشافعي، من أشهر علماء القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، له عدة مؤلفات أهمها " الحاوي " في الفقه، وكتاب " تفسير القرآن "، وكتاب " الأحكام السلطانية "، وكتاب " قانون الوزارة وسياسة الملك ". حمل لقب " أفضى القضاة " لقب به في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م، وتولى

أنه "لو لم يعرفه جيداً ما نظمته"<sup>(٣٦)</sup>، مما يدل على مدى تبحره في علم الفقه، ودفع ذلك بعض المؤرخين إلى تعته بأنه كان "إماماً جليلاً"<sup>(٣٧)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك كان لعامد الدين إسماعيل أبو الفدا مؤلفات في علوم أخرى مثل كتاب "الموازين" وكتابه المشهور في التاريخ "المختصر في أخبار البشر"، وفي جغرافية البلدان: "تقويم البلدان"<sup>(٣٨)</sup>. كما كان له مؤلفات أخرى وأشعار كثيرة وعدة موشحات<sup>(٣٩)</sup>. ويحمل ابن تغري بردي العلوم التي برع فيها عامد الدين إسماعيل بقوله: "وبرع في الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة"<sup>(٤٠)</sup>. وقد نبغ في تلك العلوم أو على حد تعبير ابن العماد الحنبلي: "تفنن فيها"<sup>(٤١)</sup>.

وهكذا نبغ عامد الدين إسماعيل أبو الفدا في العديد من العلوم والمعارف، ولم يقتصر دوره فقط على التحصيل والدرس، وإنما تعداه إلى التأليف في علوم شتى، وبلغت مؤلفاته درجة كبيرة من الإجابة، لدرجة دفعت بعض المؤرخين إلى وصفه بأنه "كان أعجوبة أعاجيب الدنيا"<sup>(٤٢)</sup>. وعلى هذا النحو كان لعامد الدين إسماعيل أبو الفدا دور كبير في دفع عجلة الحضارة الإنسانية.

ومن الجدير بالذكر أن معاصره ابن أبيبك الصغدّي، قرر أنه كانت لدى عامد الدين مكتبة ضخمة ضمت صنوف عديدة من الكتب، انتقاها بعناية فائقة، وعلى حد قول ابن أبيبك "أمدّه على اقتنائها انتقاؤه وقطّاعته، فمنها الجواهر القيمة، والزواهر التي هي في أفقه مقيمة". وبعد وفاته تولى ابنه الملك الأفضل توزيع هذه الكتب على أصدقاء والده،

القضاء في بلدان كثيرة، وفي أواخر أيامه أقام ببغداد حيث توفي بها عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، بعد أن بلغ ستاً وثمانين عاماً. انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م، ج ١٥، ص ٥٥٠-٥٥٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت ١٩٨٤م، ج ١٨، ص ٦٤-٦٨؛ انظر أيضاً: أحمد أمين: ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م، ص ٢٢٥.

(٣٥) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٤.

(٣٦) ابن أبيبك الصغدّي: الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١١٠٤؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٤.

(٣٧) المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م، ص ٥٦.

(٣٨) أحمد الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٤٦١؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٤.

(٣٩) ابن حجر الصقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٧.

(٤٠) النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٤١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٦، ص ٩٨.

(٤٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٦، ص ٩٩.

كما أنه وقف بعضاً منها<sup>(١٣)</sup>.

وهكذا كانت حياة عماد الدين إسماعيل مليئة بالأحداث السياسية، وفي نفس الوقت نتيجة حبه للعلم والدرس أحب العلماء<sup>(١٤)</sup>، ولم يتردد في إجزال العطاء لهم، فهذا هو جمال الدين محمد بن نباتة، الذي أجرى له راتباً سنوياً، سوى ما كان " يتحطه به إذا قدم عليه "<sup>(١٥)</sup>. لأن ابن نباتة لم يكن مقيماً بحماة، وإنما كان مقيماً بدمشق، ويذكر الصفدي أنه رتب لجمال الدين بن نباتة ستمائة درهم كل عام<sup>(١٦)</sup>. وقد مدحه ابن نباتة بقصائد كثيرة<sup>(١٧)</sup>.

وسيزا على سياسة أبو الفدا في الإغداق على العلماء، تلك الأموال والهدايا التي منحها لرئيس الأطباء جمال الدين بن المغربي، بعد أن شفى ولده الملك الأفضل محمد، فيذكر ابن حجر العسقلاني أنه " أعطاه فرساً بكنبوس زركش، وعشرة آلاف، واعتذر إليه مع ذلك، ووعد أنه إذا توجه إلى حماة يكافئه "<sup>(١٨)</sup>.

تمتع عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بخلق طيب، فقد أجمع المؤرخون على وصفه بأنه كان ذو " مكارم وفضيلة تامة "<sup>(١٩)</sup>. " وجامعاً للفضائل "<sup>(٢٠)</sup>، ولا شك في أنه كان لنشأته الأولى أثر كبير في ذلك، فقد شب في وسط أسرة تحلت بكل أوصاف الخلق

(١٣) أعيان العصر وأعيان النصر، ج ١، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

أمدّه بمعنى أعاقه بمدد. النظر: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٨٩٦.

(١٤) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٩٢٣.

(١٥) ابن شلكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٣، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٨؛ الشوكاني: البدر الطالع، ص ١٠٢.

- جمال الدين محمد بن نباتة هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي = ابن نباتة، الفارقي الأصل المصري المولد، ولد في زقاق القناديل بالفسطاط عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، ونشأ بالديار المصرية، وتعلم بها، ثم رحل إلى الشام حيث اتصل بملوكها خاصة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، وأخذ يتردد على حلب ودمشق وطرابلس، وفي آخر أيامه استقر بدمشق، توفي عام ٧٦٨هـ/١٣٦٧م بالقاهرة. انظر: ابن قاضي شهاب: تاريخه، تحقيق: عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، المجلد الثالث، الجزء الثاني، ص ٢٠٣-٢٠٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٣٣٩-٣٤٠؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ص ٩٣-١٠٦.

(١٦) الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤.

(١٧) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٨.

(١٨) الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٩.

(١٩) الذهبي: ذيل المعبر في خبر من غير، ج ٤، ص ١٩٣؛ ابن أبيك الصفي: الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٨؛ ابن سباط: صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط تحقيق: عمر عبدالسلام، بيروت ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٦٥١.

(٢٠) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٣.

القيوم<sup>(٥١)</sup>، وقد انعكس ذلك على كافة تصرفات عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أثناء فترة شبابه حيث كان أميراً بدمشق، فأحببه الجميع<sup>(٥٢)</sup>.

منذ عام ١٢٩٨هـ/١٢٩٩م بعد وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وخروج حماة عن يد ملوك البيت الأيوبي بتولية الأمير قره سنقر المنصوري حكمها<sup>(٥٣)</sup>، استقر الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بدمشق، حيث صار من جملة أمراء دمشق<sup>(٥٤)</sup>، وكان له من العمر في ذلك الوقت ستة وعشرون عاماً، حيث بلغ من النضج مبلغاً كبيراً وأثقله ما حصله من العلوم، ولذلك أخذ يشارك مشاركة فعالة في أحداث عصره.

شارك عماد الدين إسماعيل في صباه في الأحداث السياسية المعاصرة له، كما شارك في بعض المعارك، مثل مشاركته عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م - وكان عمره آنذاك اثني عشر سنة - في فتح حصن المرقب زمن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، ويقول أبو الفدا: " يقول العبد مؤلف هذا المختصر، إنني حضرت حصار الحصن المذكور وعمرى إذ ذاك اثني عشر سنة، وهذا أول قتال رأيته، وكنت مع والدي"<sup>(٥٥)</sup>.

كما شارك في مطلع شبابه في الكثير من المعارك، مثل مشاركته عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م في فتح عكا، وكان أن ذاك يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً حيث كان أمير عشرة<sup>(٥٦)</sup>.

(<sup>٥١</sup>) مدح المؤرخون معظم أفراد أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي حكام حماة. انظر: أحمد ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٩٨-٤٠٦، ص ٤٣٩-٤٤٥.

(<sup>٥٢</sup>) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٣.

(<sup>٥٣</sup>) أبو الفدا: المختصر، ج ٤، ص ٦١؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٣٧٩.

(<sup>٥٤</sup>) ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٣.

(<sup>٥٥</sup>) المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢١.

وعن فتح حصن المرقب، انظر: ابن بيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم: الدررة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص ٢٦٨-٢٧٠.

- المرقب: يقول ياقوت الحموي: " هو اسم بلدة وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام - البحر المتوسط - وعلى مدينة يَلْتُنَاس ". انظر: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠٨.

- المنصور قلاوون: هو السلطان المنصور قلاوون اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بألف دينار، ولذلك سمي بالكلبي، تولى السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٩٩م. واستمر في السلطنة إلى حين وفاته عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج ١٤، ص ٦٩٠-٦٩١.

(<sup>٥٦</sup>) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٢٤.

- أمير عشرة: مرتبة حربية خاصة بآرباب السيوف، يكون صاحبها مقدماً على عشرة

الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا مالك مملكة حماة ودمشق في الحضارة الإسلامية

كذلك مشاركته عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م وعمره تسعة عشر عاماً في الحصار الذي فرضه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) على قلعة الروم، يقول أبو الفدا: " وهذا الحصار أيضاً من جملة الحصارات التي شاهدها <sup>(٥٧)</sup> ". كذلك شارك عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، في الحملة التي توجهت إلى سيس فيقول: " وورد الأمر إلى زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماة أن يسير بالساكن إلى بلاد السيس فخرج كتبغا المذكور من حماة، وخرجنا صحبته في يوم السبت الخامس والعشرين من شوال من هذه السنة (٧٠١هـ) <sup>(٥٨)</sup> ". كما شارك في المناوشات والمعارك التي وقعت مع السلطان محمود غازان خان الدولة الإلخانية <sup>(٥٩)</sup>.

والمعروف أنه في تلك الفترة كان السلطان الناصر محمد يمر بضائقة شديدة، حيث وقع فريسة صراع مرير بين أمراء المماليك، رغبة منهم في الاستئثار بالسلطنة، وذلك لصغر سنه حيث كان يبلغ من العمر آنذاك اثني عشر عاماً، ووصل الأمر بهؤلاء الأمراء أن حجروا وضيقوا عليه، الأمر الذي دفعه إلى الهروب من مصر عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فتظاهر بالذهاب إلى الحج وتوجه إلى حصن الكرك، فما كان من أمراء المماليك إلا أن خلعوه من السلطنة، ولوا مكانه الأمير سلاار الذي اعتذر وعرضها على الأمير بيبرس الجاشنكير <sup>(٦٠)</sup>.

فرسان، وربما كان له عشرون، لكن بعد في أمراء العشرات. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٤، ص ٩٥.

(<sup>٥٧</sup>) المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢٧.

- قلعة الروم: قلعة حصينة تقع غربي الفرات، مقابل البيرة، بينها وبين سميساط انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٩٠.

(<sup>٥٨</sup>) المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٤٣.

- سيس: يقول أبو الفدا: " بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل، ولها بساكن وشهر صغير وهي قاعدة الثغور الشعلية ". تقويم البلدان، ص ٢٩٢ انظر أيضاً: كي لمسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وأخرون، بيروت ١٩٨٥م، ص ١٧٣.

(<sup>٥٩</sup>) الإلخانيون: يرجع إطلاق اسم الإلخانيين على هذه الدولة إلى كلمة " أيل المغولية "، بمعنى المطيع للخان. انظر فواد عبدالمطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين، ص ٢٨ حامد زيان: المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص ٧١.

- السلطان محمود غازان: تولى حكم المغول بفراس عام ٦٩٤هـ/١٢٦٤م. ثم اعتنق الإسلام وتسمى باسم محمود، وجعل الإسلام ديناً رسمياً لدولة مغول فارس، واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م. البرزالي: المقتضي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام، بيروت ٢٠٠٦م، ج ٢، ص ٢٠٧-٢٢١ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتحارب النافعة، ص ٥٢٢.

(<sup>٦٠</sup>) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٤٣-٤٥ انظر أيضاً: حامد زيان: المماليك، التاريخ

رفض الكثير من الأمراء ما آل إليه مصير السلطان محمد وخلعه من السلطنة، وتولية بيبرس الجاشنكير سلطنة المماليك في مصر والشام، فآثر الكثير منهم معاضدته والذهاب إليه في الكرك، وكان من بين هؤلاء الأمير عماد الدين إسماعيل أبو القدا، الذي أظهر إخلاصاً شديداً له وقدم إليه خدمات جليلة<sup>(١)</sup>.

وهكذا ارتبط الأمير عماد الدين إسماعيل أبو القدا برباط المحبة والصداقة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وخاصة أثناء إقامة الأخير بالكرك، في الفترة الواقعة بين شهر شوال عام ٧٠٨هـ/ مارس ١٣٠٩م وشهر شعبان عام ٧٠٩هـ/ يناير

السياسي، ص ٤٠٠-٣٩٩.

- الناصر محمد : هو السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، تولى السلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م وله من العمر تسع سنوات، مما جعله العوبة في أيدي أمراء المماليك، ولذلك عزل أكثر من مرة، وقد تولى الناصر محمد السلطنة ثلاث مرات الأولى بين عامي (٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٥م)، والثانية بين عامي (٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٨-١٣٠٨م)، والثالثة بين عامي (٧٠٩-٧١٠هـ/ ١٣٠٩-١٣١٠م). انظر: ابن أبيك الدوداري : الدرر الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ٣٥٢-٤٠٠؛ الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٦٩-٩٨.

- حصن الكرك : قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القلزم - البحر الأحمر - وبيت المقدس. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥٣.

- الأمير سلاز : هو الأمير سيف الدين سلاز بن عبدالله المنصوري، تركي الجنس، كان أبوه أحد الأمراء عند صاحب الروم ووقع في أسر الظاهر بيبرس في موقعة الإبلستين عام ٦٧٠هـ/ ١٢٧٧م، ثم اشتراه قلاوون، وترقى وصار من أعيان السلطنة المملوكية، وتولى العديد من الوظائف، توفي عام ٧١٠هـ/ ١٣١٠م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج ٦، ص ١٣٠-١٣١.

- بيبرس الجاشنكير : هو بيبرس البرجي العماني الجاشنكير، من مماليك المنصور قلاوون، ترقى إلى أن قرره قلاوون جاشنكير - أي الأمين على تذوق الأطعمة والمشروبات - تولى السلطنة عام ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م، وتلقب بالمظفر ثم تركها على إثر عودة الناصر محمد عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، حيث تم القبض عليه، وانتهى أمره بالقتل في نفس العام. انظر : البرزالي : المغتني على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، ج ٣، ص ٤٠٣-٤٤٨؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٢، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(١) ابن أبيك الدوداري : الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ١٥٦-١٧٢؛ (الشوكتي : البدر الطالع، ص ١٠٩-١٠٢).

## الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا مالك مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

١٣١٠م<sup>(١٠)</sup>. وخلال تلك الفترة توثقت علاقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بالسلطان الناصر محمد، حيث قام على خدمته خير قيام، لدرجة أن المؤرخ الصفدي يقول "وبالغ في ذلك"<sup>(١١)</sup>.

وكان نتيجة إخلاص عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في خدمة السلطان الناصر محمد، أن وعده بحكم حماة<sup>(١٢)</sup>، وكما سبقت الإشارة فإن حكم حماة خرج عن يد أبناء تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، منذ وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود عام ٦٩٨هـ/١٣٩٩م.

وفي عام ٧١٠هـ/١٣١٠م وفي السلطان محمد بو عده لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا، حيث أُنعم عليه بحكم حماة، فقد أرسل إلى أبي الفدا أثناء إقامته بدمشق تقليداً بنبابة حماة، وصدر هذا التقليد بتاريخ ١٨ جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر ١٣١٠م<sup>(١٣)</sup>. فتوجه أبو الفدا في نفس اليوم إلى حماة لتولي أمرها بدلاً من الأمير سيف الدين استنمر<sup>(١٤)</sup>. غير

(١٠) الشوكاني : البدر الطالع يحاسن من بعد القرن السابع، ص ١٠١-١٠٢، ابن أبيه : الواداري : الدر الفخر في سيرة الملك الناصر، ص ١٥٦-١٧٢.

خلال هذه الفترة تم عزل الناصر محمد عن سلطنة المماليك، وأقيم مكانه بيبرس الجاشنكير سلطاناً على مصر والشام. انظر : حامد زيان، المماليك، ص ٤٠.

(١١) الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤. انظر أيضاً : ابن حجر الصقلاني، الدر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٦؛ انظر أيضاً : الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م، ج ١، ص ٦٨.

(١٢) ابن أبيه الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤؛ ابن حجر الصقلاني : الدر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٦.

(١٣) النويري : نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٦٥؛ ابن سباط : ج ٢، ص ٦٠٥.

(١٤) أبو الفدا : المختصر، ج ٣، ص ١٦٠؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ) أبو ظبي، تحقيق : حمزة عباس، ج ٧، ص ١٣٢٣؛ لبرزالي : المقتلى على كتاب الروضتين، ج ٣، ص ٤٧٤.

- الأمير سيف الدين استنمر: عُرف في التاريخ بأنه كان جباناً سفاكاً للدماء، كما عُرف بحبه للكل، كما كان يحب الفضلاء، تأمر بدمشق، ثم تولى نيابة طرابلس عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ثم تولى نيابة حماة بعد خروج الناصر من حصن الكرك عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، لكن حدث خلاف بينه وبين الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا وهو أمير آل فضل والعرب بالشام، مما دفع الأخير إلى الشكوى منه للسلطان الناصر محمد، فأمر السلطان بنقل استنمر إلى طرابلس وعهد بحكم حماة للملك عماد الدين، فرفض استنمر مغادرة حماة، إلا أن وفاة الأمير سيف الدين قبجي المنصوري نائب حلب، خلّت المشكلة، حيث غادر حماة متوجّهاً إلى حلب رغماً عن السلطان الناصر، فوافق الناصر، لكنه اضمر له شراً، حيث تم قتله في ذي القعدة عام ٧٢١هـ/ نوفمبر ١٢٢١م. انظر: ابن أبيه الصفدي: اعيان العصر وأعيان النصر، ج ١، ص ٣٢٢-٣٢٣؛ ابن حجر الصقلاني: الدر الكامنة، ج ١، ص ٤١٤-٤١٥؛ النويري :

أن عماد الدين لم يستطع الدخول إلى حماة إلا بعد أن غادرها الأمير استعمر الذي توجه إلى حلب، ليتولى حكمها بدلاً من الأمير سيف الدين قبيق المنصوري الذي وافاه الأجل لوفائق السلطان محمد على ذلك، ومن ثم دخل عماد الدين إسماعيل حماة في أواخر جمادي الآخرة من نفس العام وتولى حكمها<sup>(١٧)</sup>.

وبذلك عادت حماة إلى حكم بيت تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، أو كما يقول أبو الفدا " عودها إلى البيت التقيوي "<sup>(١٨)</sup>.

ازدادت العلاقة الطيبة بين عماد الدين إسماعيل أبو الفدا والسلطان الناصر محمد، وأخذ أبو الفدا يتردد على السلطان في القاهرة، فيزوره كل عام حاملاً معه مختلف الهدايا<sup>(١٩)</sup>. وقد ازدادت محبة السلطان له بسبب ما تحلى به أبو الفدا من أدب وفضائل<sup>(٢٠)</sup>، مما أدى إلى أن يكرمه السلطان ويعظمه<sup>(٢١)</sup>.

ولما أتم السلطان بأبي الفدا أثر أن يصطحبه معه أثناء حجه عام ٧١٩هـ/ ١٣٢٠م<sup>(٢٢)</sup>. وخلال هذه الصحبة ازداد تعلق السلطان الناصر محمد بأبي الفدا، لما نسمه

نهاية الأرب، ج ٣٢، تحقيق: فهد شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٦٥.

(١٧) النويري: : نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٦٥.

- سيف الدين قبيق: هو سيف الدين قبيق المنصوري، أصله من المغول، وقبيل أسير في يد الظاهر بيبرس عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، أثناء غارة المغول على مدينة الإبلستين، فأعطاه للمنصور قلاوون، وخشي المنصور قلاوون أن ينحاز إلى المغول، فكان يرفض خروجه إلى الشام. وبعد وفاة المنصور أخذت تملو مكائته، إلى أن تولى نيابة الشام عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م أثناء سلطنة لاجين ثم حدث خلاف بينه وبين لاجين فر على أثره قبيق إلى بلاد محمد غازان المغولي عام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، واستمر في خدمة غازان، حتى انتصر غازان في موقعة الخازندار على جيوش المماليك، فعهد إليه غازان بنيابة الشام، ثم عاد إلى رشدته وانضم إلى أمراء المماليك، وحارب إلى جانبهم ضد غازان في موقعة شقحب، وولاه الناصر محمد نيابة حلب في شوال عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م واستمر بها حتى وفاته في أواخر جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ أكتوبر ١٣١٠م. انظر: ابن حجر الصقلاني: الدرر، ج ٣، ص ٣٢٥-٣٢٧، ابن أبيك الصلبي: أعوان العصر وأعوان النصر، ج ٣، ص ١٤١٦-١٤٢١، ابن القطبي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص ٥٣٩.

(١٨) المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٦٠.

(١٩) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٤، ابن أبيك الدوادري: الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٢٤٤.

(٢٠) البرزالي: المعقضي على كتاب الروستين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، ج ٢، ص ٢٢٨، ابن تقي بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٣.

(٢١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٥٨.

(٢٢) ابن دقماق: النحلة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت



## الملك عماد الدين إسماعيل أو الفدا حاكم مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

من كرم وطيب أخلاق ومودة " وعظم في عين السلطان "، على حد قول ابن حجر الصقلاني<sup>(٧٧)</sup>. ونتيجة ذلك أنعم عليه السلطان - في شهر صفر عام ٧٢٠هـ/ مارس ١٣٢٠م، بعد عودتهما من رحلة الحج وأثناء تواجده بالقاهرة - بلقب المؤيد، وأذن له بأن يخطب له بحماة وأعمالها، وأن يخطب بالمقام العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، المؤيدي<sup>(٧٨)</sup>.

وهي نفس الألقاب التي كانت لعمه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي. وتؤكد معظم المصادر أن السلطان الناصر محمد، لم يكتف بأن يمنح عماد الدين إسماعيل حكم حماة، ويجعله مثل سائر النواب حكام مختلف نيايات السلطنة، وإنما " جعله سلطاناً يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره، ليس لأحد في الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم " <sup>(٧٩)</sup>. وهذا لم يتسن لأحد من الأمراء غيره، مما يدل على تلك المكانة العالية التي وصل إليها عماد الدين إسماعيل عند السلطان الناصر محمد.

فما كان من عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلا أن ركب بشعار السلطنة، أثناء وجوده بالقاهرة ومشى من المدرسة المنصورية بين القصرين، حتى صعد إلى القلعة وبين يديه جميع خواص القاضي وسائر الناس، ومشى السلحدار بالسلاح والدويدار الكبير بالدواة والغاشية والعصايب، وجميع دست السلطنة بين يديه<sup>(٨٠)</sup>. حيث قدم فروض الطاعة

١٩٩٩م، ص ١٢٦، المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م، ص ١٠٢، ابن أبيك الدواداري : الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٢٩٥.

(٧٧) الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٧.  
(٧٨) البرزالي : المغتني على كتاب الروضتين، ج ٤، ص ١٤١٥ الشوكاتي : البدر الطالع، ص ١٠٢؛ ابن سباط : صدق الأخبار المعروف باسم تاريخ ابن سباط، ج ٢، ص ٦٣٧.

- يقول القلقشندي أن لقب " المقام " من الألقاب الخاصة بالملوك، صبح الاعشى، ج ٥، ص ٤٩٣ وتذكر المصادر أن السلطان الناصر محمد لقب بعماد الدين إسماعيل أبو الفدا أولاً بلقب الملك الصالح، ثم لقبه بعد ذلك بلقب الملك المؤيد. ابن أبيك الصغد : أعيان العصر وأحوال النصر، ج ١، ص ٣٠٣.

(٧٩) ابن شاذكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١١٨٣ ابن أبيك الصغد: أعيان العصر، ج ١، ص ٣٠٣.  
(٨٠) ابن حجر الصقلاني : الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٣٩٧ الشوكاتي : البدر الطالع، ص ١٠٢.

- السلحدارية : لفظ مكون من مقطعين الأول عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار بمعنى المعسك، فيكون المعنى حامل السلاح ويحمل مقدمهم لقب أمير سلاح، وموضوعها حمل السلاح للسلطان في مختلف المجامع، انظر : القلقشندي : صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٨.

- الدودار : لفظ مركب من مقطعين الأول عربي وهو دواة، والثاني فارسي وهو دار بمعنى معسك أو حامل الدواة، يتولى هذه الوظيفة عدد من الأمراء، على أن يكون مقدم ألف ويختص صاحب هذه الوظيفة بحمل دواة السلطان أو الأمير، بالإضافة إلى تبليغ الرسائل

والولاء والشكر للسلطان، وبعدها عاد إلى حماة، بعد أن جهز السلطان سائر ما يحتاج إليه<sup>(٧٧)</sup>، ويقول معاصره البرزالي: " فدخل حماة في أبهة السلطنة، وتلقاه الناس وخطب له<sup>(٧٨)</sup> ".

وقد أشار القلقشندي<sup>(٧٩)</sup> إلى أن طبيعة حكم عماد الدين إسماعيل لحماة اختلفت عن سائر الحكام الآخرين؛ الذين حكموا مختلف البلاد التابعة لسلطنة المماليك، وقد اعتمد في ذلك على ما ذكره أحد الكتاب المعاصرين له وهو: شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، الذي أشار إلى أن حاكم حماة، ويقصد بذلك معاصره عماد الدين إسماعيل: " كان مستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات، وتولية القضاة والوزراء، وكتاب السر وكل الوظائف، ويكتب المنشور والتوقيع من جهته<sup>(٨٠)</sup> ". وقد أكد على ذلك القلقشندي عندما تحدث عن حماة فقال: " إنها كانت بيد بقايا بني أيوب، يطلق عليهم لفظ السلطنة<sup>(٨١)</sup> ". وعلى هذا النحو كان عماد الدين إسماعيل سلطاناً مستقلاً يقوم بتولية من يراه صالحاً للإمارة والإقطاعات، ويولي القضاة والوزراء وكتاب السر، وسائر الوظائف الكبيرة، دون أن يعود في ذلك إلى مقر السلطنة في القاهرة، النهم إلا في الأمور

---

عن السلطان، وتقديم القصص والبريد إليه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩.  
- الغاشية: قطعة مصنوعة من الجلد موشاة بالذهب، بحيث يظن الناظر إليها أنها كلها ذهباً، يلقيها حاملها أمام السلطان أو الأمير يميناً وشمالاً. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٣.

- العصايب: هي غطاء للرأس، عبارة عن قطعة من القماش، كالعمامة. انظر: ولیم مایر: الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيبني، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٢٦.  
- نسبت السلطنة: يقول القلقشندي أنها وظيفة من أجل الوظائف وأرقاها قدراً وموضوعها أن يجلس أصحابها بدار العدل أيام الموابك خلف كاتب السر، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة وكاتب السر ويكتبون عليها بما تقضيه الحال، وكانوا في البداية ثلاثة أشخاص، ثم ازدادوا إلى العشرين. انظر: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٠٤.

(٧٧) الذهبي: ذيل العر في خبر من غير، ج ٤، ص ٥٥، ١٩١ المقرئزي: الملوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ١، ص ١٢٠٢ ابن أبيك الدوداري: الدر الناصر في سيرة الملك الناصر، ص ٢٩٧م.

(٧٨) المقتفى على كتاب الروضتين، ج ٤، ص ١٤١٥ انظر أيضاً: ابن حجر الصقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٧، المقرئزي: الملوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٠٢.

(٧٩) صبح الأعشى، ج ١٠، ص ١٨٢-١٨٣.

(٨٠) العمري: مسائلك الأمصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٥م، ص ٦٦.

(٨١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٧، ص ١٧٧.

## الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا مالك مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

الكبيرة التي يشاور فيها السلطان<sup>(٨٦)</sup>. وهكذا علا شأن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، لدرجة أن الأمراء الكبار كانوا يخاطبونه بلقب "المقام العالي" ويكتبون إليه "يقبل الأرض" مثل الأمير سيف الدين تنكز<sup>(٨٧)</sup>، وهو من الأمراء الذين كانت لهم هبة عظيمة بدولة المماليك، فكان يكتب إليه: "يقبل الأرض المقام الشريف العالي المولوي السلطاني المالكي المؤيدي العمادي"<sup>(٨٨)</sup>. كذلك كان السلطان الناصر محمد يكتب إليه "أشاه محمد بن قلاوون، أعز الله أتصاره المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي"<sup>(٨٩)</sup>. وعلى هذا النحو بلغ صاحبنا مكانة عالية في دولة المماليك، فقد احترمه السلطان الناصر محمد احتراما زائدا، ونال لديه حظوة كبيرة<sup>(٩٠)</sup>، كذلك كان حاله مع معظم أمراء المماليك الذين تولوا حكم نيابات الشام، الذين أمر السلطان أن يخاطبوه كما كانوا يخاطبون السلطان ويقدمون إليه الاحترام اللازم. واستمر ذلك إلى حين وفاته عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م<sup>(٩١)</sup>. وفي نفس هذا المعنى يقول ابن حجر الصقلاني أن عماد الدين إسماعيل "عظم في عين السلطان لما راه من أدابه وفضائله"<sup>(٩٢)</sup>. بالإضافة إلى ذلك شارك عماد الدين إسماعيل في أمور السياسة والحرب، فكتنزا ما انضم إلى الجيوش التي أرسلها **الملك الناصر محمد** لمحاربة الخارجين عن السلطنة

(٨٦) المعري: ممالك الأبيصار، ص ٦٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ١٨٢-١٨٣.

(٨٧) ابن أبيك الصفي: الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤.

- الأمير سيف الدين تنكز: هو الأمير تنكز بن عبدالله الحسامي الناصري، تدرج في مختلف الوظائف حتى صار نائب الشام، وعلا شأنه عند السلطان الناصر محمد، وتزوج الناصر من ابنته، وزوج أولاد تنكز من بناته، وكان يسمي في خدمته الأمراء من المماليك، والبقايا من أولاد ملوك بني أيوب، وفي عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م غضب عليه السلطان الناصر، فاعتقله في سجن الإسكندرية، ثم قتله عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وصار ممتلكاته. انظر: ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان وأبناؤه، تحقيق: عمر عبدالسلام تكمري، بيروت ١٩٨٨م، ج ٢، ص ١٠٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج ٤، ص ١٥٦-١٥٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م، ج ١، ص ١٤٧٨؛ ابن أبيك الصفي: أعوان العصر، ج ١، ص ٥٣١-٥٣٢.

(٨٨) ابن أبيك الصفي: الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٤.

(٨٩) ابن أبيك الصفي: أعيان العصر، ج ١، ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٩٠) ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٣؛ ابن حجر الصقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٣.

(٩١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧، ص ١١٣٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٣.

(٩٢) الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٧.

المملوكية ببلاد الشام ومحاربة الأرمن<sup>(٨١)</sup>.

ومما سبق يتضح إخلاص عماد الدين إسماعيل للسلطان الناصر محمد إخلاصاً تاماً، وفي المقابل قدر الناصر محمد هذا الإخلاص، فقابلته بالإععام، وقد عبر عن ذلك خير تعبير معاصره المؤرخ ابن أبيبك الخوداري بقوله: " فوصل - أي عماد الدين - بحسن عقله ودينه، وخدمته، إلى ما وصل، أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة، فإنه مستحق لذلك "<sup>(٨٢)</sup>.

وعلى هذا النحو يقر ابن أبيبك وغيره من المؤرخين أن ما تمتع به عماد الدين إسماعيل من حسن عقله وأدابه وفضائله ودينه، وإخلاصه في خدمة السلطان الناصر محمد، هو الذي جعل الناصر محمد يأمن إليه، على الرغم مما اشتهر عنه من تخوفه ممن يصل من الأمراء إلى مكانة كبيرة، فكان لا يتردد في التخلص منهم، بعد أن ثبت لديه أنهم ائتمروا ذنباً<sup>(٨٣)</sup>.

ويبلغ تقدير السلطان الناصر محمد لعماد الدين إسماعيل أبو الفداء أنه بعد وفاة الأخير رعى السلطان الناصر معزته وتقديره، فعهد إلى ابنه الملك الأفضل محمد بحكم حماة، وأقر ما كان سائداً أيام أبيه الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفداء<sup>(٨٤)</sup>. وبعد عزل الأفضل محمد عن حكم حماة عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، لم يعهد السلطان المملوكي إلى أحد من بني أيوب بحكمها، فخرج حكمها عنهم. حيث صارت نيابة يتداول حكمها نائب بعد نائب على حد قول القلقشندي<sup>(٨٥)</sup>.

لم تشغل أمور السياسة والحكم عماد الدين إسماعيل أبو الفداء عن ممارسة هوايته وميوله الطبيعية وحبه وشغفه بالتعلم والدرس، فقد أحب العلماء وقربهم إليه، كما انغمس في تأليف الكثير من المؤلفات العلمية، كما سبقت الإشارة.

وسوف يقتصر حديثنا عن مؤلفين فقط من مؤلفاته: الأول في التاريخ وهو " المختصر في أخبار البشر "، والثاني في الجغرافيا وهو " تقويم البلدان "، أما كتابه المختصر في أخبار البشر، فقد تناول فيه تاريخ البشرية منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، وحتى نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م، واعتمد أبو الفداء في جمع مادته العلمية في الفترة السابقة عليه، على مجموعة كبيرة من المؤرخين المشهود لهم بالصدق

(٨١) ابن تغري بردي : التجوم، ج ٩، ص ٢٤.

(٨٢) الدر المفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٣٦٥.

(٨٣) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٤-٥٣٤.

(٨٤) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٤٢٢؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٧، ص ١٣٩.

(٨٥) صبح الأعشى : ج ٧، ص ١٧٧.

- تولى نيابة حماة الأمير سيف الدين طغرتمش الذي كان مملوك عماد الدين إسماعيل أبو الفداء. انظر : ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج ٧، ص ٤٧٣.

## الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ملك مملكة حماة ومرونة في الحضارة الإنسانية

والأمانة، مثل كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه، والتاريخ المظفري لابن أبي الدم الحموي، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب تاريخ اليمن لصاروة اليماني، وكتاب المغرب في أخبار أهل المغرب لابن سعيد، وكتاب الكامل لابن الأثير، وكتاب مفرج الكروب لابن واصل وغيرهم<sup>(١١)</sup>. أما الفترة التي عاصرها، فيعتبر ما سجله أبو الفدا في كتابه المختصر في أخبار البشر، وثيقة تاريخية هامة، حيث أنه كان شاهد عيان لها.

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا فقد أشار هو إليه حيث قسمه إلى قسمين رئيسيين، بالإضافة إلى مقدمة اشتملت على ثلاثة محاور، تحدث فيها عن أمور عامة وهامة لدارس التاريخ : المحور الأول يشير إلى ما يحيط بالتاريخ القديم من اختلافات، والمحور الثاني تحدث فيه عن نسخ التوراة، والمحور الثالث وضعه في صورة جدول يوضح المدد الزمنية بين التواريخ المشهورة، سواء كانت ميلادية أم هجرية، أم غيرها من التواريخ<sup>(١٢)</sup>.

أما القسم الأول فقد تناول التاريخ القديم، والقسم الثاني يتناول التاريخ الإسلامي، أما القسم الأول الذي يتناول التاريخ القديم، فقد جاء في خمسة فصول، حمل الفصل الأول عنوان : " في عهود التواريخ القديمة وذكر الأنبياء على الترتيب "، والفصل الثاني بعنوان : " في ذكر ملوك الفرس وهم أربعة طبقات "، والفصل الثالث بعنوان : " في ذكر فراعنة مصر "، والفصل الرابع بعنوان : " في ملوك العرب قبل الإسلام "، أما الفصل الخامس فجاء بعنوان : " في ذكر الأمم " <sup>(١٣)</sup>. أما القسم الثاني، وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد رتبته على السنين وفق كتاب الكامل لابن الأثير، أي اتبع أسلوب الكتب الحولية، وهو الأسلوب الذي اتبعه كثير من سيقه من المؤرخين<sup>(١٤)</sup>.

وقد تميز كتاب المختصر في أخبار البشر بعدة ميزات أهمها كونه مختصراً لحوادث التاريخ، فالكثير من سيقه من المؤرخين جاءت كتبهم في عشرات المجلدات، مما شكل صعوبة كبيرة أمام قارئ التاريخ، فعلى سبيل المثال جاءت الفصول الخمسة التي تناولها التاريخ القديم في حوالي مائتي صفحة فقط، شكلت نصف الجزء الأول فقط في كتاب المختصر في أخبار البشر، مما يسهل على القارئ الإلمام بالتاريخ القديم في سهولة ويسر.

أما القسم الثاني وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد بدأه بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم تناول بعده تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم تاريخ الدول التي تعاقبت على حكم العالم الإسلامي وفق السنوات كما سبقت الإشارة، أما الأسلوب الذي اتبعه في

(١١) أبو الفدا : المختصر، ج ١، ص ٣.

(١٢) المختصر، ج ١، ص ٣-٧.

(١٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ٨-١٠٩.

(١٤) أبو الفدا : المختصر، ج ١، ص ١٣ انظر أيضاً : صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ

والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م، ص ١٣-٣٨.

عرضه للأحداث فتميز بالاختصار لما وقع من أحداث خلال السنة، ثم يعرض بعد ذلك لأهم الشخصيات التي توفت في هذه السنة، دون أن يعد إلى الإطالة ولا إلى الاستطراد، وكما هي عادة مؤرخي الحواريات، فإنه عندما لا يجد في إحدى السنوات ما يستحق تدوينه من أحداث، فكان يهمل ذكر أحداثها، كما فعل في عام ٧٢٩هـ عندما قال: "وكانت غرة المحرم من هذه السنة يوم الجمعة رابع تشرين الثاني، ولم يبلغني في أوائلها ما يليق أن يؤرخ والله أعلم" (٩٨). وتوقف تاريخ أبو الفدا عند نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م.

وكما سبق الإشارة قد استقى أبو الفدا مادته العلمية ممن سبقه من المؤرخين، وهنا نجد أنفسنا أمام ملاحظتين: الأولى أنه اعتمد على مجموعة من المؤرخين النفاة أمثال ابن الأثير، وابن مسكويه، وعمارة اليميني، وابن خلدون، وابن أبي الدم الحموي وغيرهم، والملاحظة الثانية أنه لم يكتف بالنقل فقط، وإنما قام بتقيد بعض الروايات التي رأى أنها لا تستقيم مع سائر الأحداث التاريخية.

أما الفترة التي عاصرها فيعتبر تسجيل أبو الفدا لأحداثها وثيقة تاريخية هامة، حيث سجل أحداثها من واقع مشاهداته ورويته، وهي رؤية مؤرخ وسياسي، كما أنه شارك مشاركة فعالة في أحداثها، مما جعله ملغيا بالكثير من خبايا الأمور.

فتوال هذه الفترة كان داسم القول، فسرنا، .... بعد وصولي .... ، فعدنا ... ، ورد كتابه يطلبنا .... ، ثم عدنا إلى حماة .... (٩٩). أي أنه كان شاهد عيان على أحداث هذه الفترة.

كذلك فإن إقامة أبو الفدا ببلاد الشام سواء بدمشق أو بحماة، جعله قريب من البلاد التي وضع المغول أيديهم عليها، سواء في العراق أم في إيران، مما جعله على قدر كبير من معرفة أخبارهم، مما زاد من أهمية تاريخه، حيث روى لنا بعض الأحداث التي لم ترو عند غيره من المؤرخين.

ونتيجة ذلك؛ يمثل تاريخ المختصر في أخبار البشر أهمية كبيرة من بين كتب التاريخ الإسلامي، لذلك نجد أن الكثير ممن جاء بعده من الكتاب يعتمد عليه اعتماداً كبيراً، فعلى سبيل المثال من بين أولئك الكتاب المشهورين الذين اعتمدوا على تاريخ أبو الفدا كان، الكاتب أبو العباس أحمد القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى"، وبإحصاء عدد من أشار إليه القلقشندي صراحة في اعتماده على تاريخ المختصر لأبي الفدا، فكان أكثر من اثنين وأربعين موضعاً، وأخذ عنه الكثير من الآراء التي انفرد بها عماد الدين إسماعيل دون غيره من المؤرخين، مما يؤكد لنا أن أبي الفدا كانت له رؤية تاريخية خاصة به، توصل إليها عن طريق اطلاعاته العديدة، وقراءاته المتبحرة في كثير من العلوم.

في البداية نجده يقرر أن لفظ "تاريخ"، محدث في لغة العرب، فهو معرب من

(٩٨) المختصر، ج ٤، ص ٩٩.

(٩٩) المختصر، ج ٤، ص ٤١٠-٤١١.

الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا مالك مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

الكلمة الفارسية "ماه روز" (١٠٠) وهو بمعنى "يوم الشهر" وهو ما قرره الكثير من المؤرخين والمُؤَلِّف (١٠١).

وهذا مما يدل على أن عماد الدين إسماعيل تمتع بنظرة ثاقبة في أمور الحياة، ونتيجة قراءاته ووعيه التاريخي، فأشار إلى حقيقة هامة وهي: أن السلطة والحكم لا يدوم، لذلك نجده يوجه خلال كتابه المختصر الكثير من المواعظ والجُحُم، ومن أمثلتها تلك التي قالها عقب سقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. حيث قال: "وهذا داب الدنيا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتممرت، ولم تصف إلا وتكدرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر".

كذلك فُتِه عندما يتحدث عن مصر، وتاريخها الطويل، يقرر حقيقة واقعه بقوله: "وكان أهل مصر أهل ملك عظيم في الدهور الخالية، والأزمان السالفة، ما بين قبطي ويوناني وعملقي" (١٠٢).

وعندما يتحدث عن ذي القرنين، وهو الذي ورد في القرآن الكريم، وما أثر حول علاقته بالإسكندر الأكبر، يقول: "والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن منه ذلك - أي صفات ذي القرنين - بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن وهو ملك قديم كان على زمن إبراهيم الخليل عليه السلام"، ويؤكد عماد الدين حديثه، بأن لفظ "ذو"، عربية محضة و"ذو القرنين" لقب من ألقاب العرب ملوك اليمن (١٠٣).

كما كانت له رؤية واضحة في طبيعة الكثير من الأمم والشعوب، ومثال ذلك ما ذكره عن اليهود عندما قال: "أمة اليهود اعم من بني إسرائيل، لأن كثيرًا من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهودًا، ولم يكونوا من بني إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل هم الأصل في هذه الأمة وغيرهم دخيل فيها" (١٠٤).

كذلك يقول عن عنصر الجراكسة: "وهم على بحر نيطن من شرقه، وهم في شتلف من العيش" (١٠٥).

(١٠١) المختصر، ج ١، ص ١٢٣ انظر أيضًا: قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١٦-١٧ روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد الطي، بيروت ١٩٨٣م، ص ٢٨٠-١٦.

(١٠٢) المختصر، ج ٣، ص ٥١.

يرى بعض المؤرخين أن أصل كلمة "تاريخ" عربي من كلمة "الارخ"، وهو ولد البقرة الصغير، أي أنه حدث كما يحدث الولد. انظر: السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، غني بنشره القنسي، بيروت ١٩٧٩م، ص ١٦ حامد زيان: علم التاريخ، القاهرة دت، ص ٧.

(١٠٣) المختصر، ج ٣، ص ٤٠٧.

(١٠٤) المختصر، ج ١، ص ٤٥.

(١٠٥) المختصر، ج ١، ص ١٨٧ انظر أيضًا: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٥٣.

(١٠٥) المختصر، ج ١، ص ١٩٢ انظر أيضًا: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٤١٦.

أما رايه في الجلالة فيمثل في قوله : " وهم أمة يغلب عليهم الجهل والجفاء، ومن زعيمهم أنهم لا يقبلون ثيابهم، بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى، ويدخل أحدهم دار الآخر بدون استئذان، وهم كالبهائم، ولهم بلاد كثيرة في شمال الأندلس" (١٠٠).

ومما يوضح مدى دقة عماد الدين إسماعيل ما ذكره من أن أول من حمل لقب ملك من الوزراء الفاطميين في مصر هو : " الملك الأفضل وزير الخليفة الحافظ" (١٠١).

ومما يدل على تمتع عماد الدين بالدقة في تسجيل حوادث التاريخ: تصحيحه لتلك المعلومة الواردة في كتب التاريخ من أن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام ابن نوح، هو التاسع من ملوك اليمن، غير أن عماد الدين أثبت أن قحطان هو أول ملوك اليمن (١٠٢).

كذلك قرر عماد الدين إسماعيل أن أول من ملك اليمن من بني رسول، هو علي بن رسول، وهذا على عكس من سبقه من المؤرخين الذين ذكروا أن أول ملوك اليمن من بني رسول هو المنصور عمر، وهو ابن علي بن رسول سابق الذكر. وقد أيد ابن خلدون رأي عماد الدين إسماعيل أبو القدا، وشايعه في ذلك عدد من المؤرخين (١٠٣).

كما ذكر عماد الدين إسماعيل أن الفاطميين قاموا بكسوة الكعبة المشرفة بالبياض عام ٩٩١/٢٨١م، وكان ذلك في إمارة أبي الحسن جعفر (من السليمانيين)، على الرغم من أن الكسوة بالبياض قد انتهت بعد أن قام العباسيون بكسوتها بالسواد (١٠٤).

ويبدو لنا أن عماد الدين إسماعيل أبو القدا بصفته من سلالة ملوك بني أيوب؛ اهتم اهتماماً خاصاً بالكثير من حياة ملوك الأيوبيين الأوائل، فعلى سبيل المثال يقول إن جده الأكبر صلاح الدين الأيوبي كان يتبرك بأحد الأشراف أمراء المدينة المنورة، وهو القاسم بن مهنا الذي ينتمي نسبه إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، حيث كان يصحبه في فتوحاته " يتبرك به، ويتمن بصحبته، ويرجع إلى قوله" (١٠٥).

من ذلك أيضاً ما ذكره عماد الدين إسماعيل عن ظهور الدين طغتكين الأيوبي حاكم اليمن (١٠٦)، من أنه تميز بالبخل والشح الشديد، وكيف كان يتحارب على التجار لأخذ ما لديهم من تجارة، ثم يبيعها بعد ذلك بالأسعار التي يريد، وفي ذلك يقول أبو القدا :

(١٠٠) المختصر، ج ١، ص ٩٣؛ انظر أيضاً : القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤١٤.

(١٠١) المختصر، ج ٣، ص ١٦٠؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٩، ص ٤٠٣.

(١٠٢) المختصر : ج ١، ص ٦٦؛ انظر أيضاً : القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٩.

(١٠٣) المختصر، ج ٣، ص ١٤٢؛ انظر أيضاً : القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٧، ص ٣٢٩.

(١٠٤) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨٠-٢٨١.

(١٠٥) المختصر، ج ٣، ص ١٧٥؛ انظر أيضاً : القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٠.

- يذكر زامباور أن القاسم بن مهنا كان مصاحباً لصلاح الدين الأيوبي منذ أن تولى حكم المدينة المنورة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وحتى وفاته عام ٦٠٠هـ/٢٠١٤م. انظر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج ١، ص ١٧٧.

(١٠٦) هو الملك العزيز سيف الإسلام ظهور الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب، حكم اليمن بين سنتي ٥٧٧-٥٩٣هـ/١١٨١-١١٩٧م. انظر : زامباور : معجم الأسرات، ج ٣، ص ١٥٢.



الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ماكم مملكة حماة ودورة من الحضارة الإنسانية

"وكان شديد السيرة مضيئاً على رعيته يشترى أموال التجار لنفسه، ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال مالاً لا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره"<sup>(١١٣)</sup>.

ويستفاد من النص السابق ذكره أن صاحبنا اتبع الموضوعية التاريخية في تاريخه، فلم ينجح إلى جانب أبناء البيت الأيوبي، ويصفح عما قاموا به من أعمال سيئة، ولكننا نجده يذكر مساوئ سيف الدين طغتكين وشحه وشدته على رعيته، وذلك على الرغم مما كان لسيف الدين طغتكين من دور كبير في توطيد النفوذ الأيوبي باليمن، فلم يشفع له ذلك عند أبي الفدا، وإنما أراد أن يبرئ ساحته كمؤرخ، ويذكر ما اتصف به من صفات سيئة. ونفس الشيء يتكرر مرة أخرى، عندما يصف عماد الدين إسماعيل، أحد حكام أبناء البيت الأيوبي باليمن "بالبهوج"، فعندما تحدث عن الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين<sup>(١١٤)</sup>، قال عنه: "كان به هوج"، ويستطرد أبو الفدا في تحليل شخصية الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين فيقول: إنه ادعى أنه من نسل أمية، وسيرا على هذا الادعاء كان يلبس نفس الثياب التي كان يلبسها خلفاء بني أمية، فيذكر أبو الفدا أنه: "ليس ثياب الخلافة في ذلك الزمان، وكان طول الكم نحو عشرين شبراً"<sup>(١١٥)</sup>.

وقد أجمعت المصادر على أن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين لم يكتف بذلك، وإنما سمى نفسه "المعز لدين الله"، وذلك على نفس اسم الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله الفاطمي، وخطب نفسه بالخلافة في اليمن، وكان ذلك في أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، فلما بلغ ذلك الملك العادل، أنكره إنكاراً شديداً، وقال: "لقد كذب إسماعيل، ما نحن من بني أمية أصلاً"<sup>(١١٦)</sup>.

وحديث عماد الدين إسماعيل أبو الفدا يفيد تأكيده على عدم اتصال نسب الأيوبيين ببني أمية، وهي قضية حاول البعض في بداية العصر الأيوبي إثارتها، غير أن السلطان صلاح الدين الأيوبي حسمها بقوله "ليس لهذا أصل أصلاً"، وذلك وفق ما ذكره ابن خلكان عما سمعه من شيخه بهاء الدين بن شداد<sup>(١١٧)</sup>.

(١١٣) المختصر، ج ٣، ص ٩٣.

(١١٤) هو معز الدين إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين أبو القوارس طغتكين بن أيوب، تولى حكم اليمن بين عامي ٥٩٣-٥٩٨ هـ/١١٩٧-١٢٠٢ م. انظر: زامباور: معجم الأنساب، ج ١، ص ١٥٢.

(١١٥) المختصر، ج ٣، ص ١٠٢.

(١١٦) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧ م، ج ١، ص ١٤؛ الحنطلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٧١-٢٧٢؛ ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧ المعروف باسم الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٢ م، ص ٦.

(١١٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٧، ص ١٤١.

أما كتاب تقويم البلدان: فقد ألّفه عماد الدين إسماعيل بعد أن اطلع على ما سبقه من كتب الجغرافيا والبلدان، ولم يجد فيها غرضه في تحقيق الأسماء وذكر الأطوال والعروض، وصفات المدن. لذلك قام بتأليف كتاب "تقويم البلدان"، وقد اتبع أبو الفدا في تأليفه لكتاب تقويم البلدان منهجاً لم يسبقه إليه أحد. وقد أشار في مقدمته أنه سمي هذا الكتاب بـ "تقويم البلدان"، وجعله على نمط كتاب "تقويم الأبدان" لابن جزلة الطبيب<sup>(١١٤)</sup>، كما أنه سار على نفس طريقة ابن جزلة من وضع جداول، ولذلك هو أول من أدخل نظام الجداول في علم الجغرافيا<sup>(١١٥)</sup>.

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا في تأليف كتاب "تقويم البلدان" فقد بدأه بالحديث عن الأرض والأقاليم السبعة، ثم تحدث عن البحار والأنهار والجبال، ثم تحدث بعد ذلك عن البلدان بادئاً حديثه بجزيرة العرب.

اتبع أبو الفدا منهجاً خاصاً به في الحديث عن البلدان، لم يأخذه عن أحد من قبله، يتلخص في الحديث عن أهم أماكن البلد الذي تحدث عنه، ثم ذكر المسافات بين مختلف مدن هذا البلد، ثم يرسم جدولاً يوضح فيه اسم البلد، والمصدر الذي استقى منه معلوماته عن هذه المدينة، ثم ذكر طولها وعرضها، وموقعها في أي إقليم هي، ثم يذكر اسمها مضبوطاً، ثم يستأنف حديثه عن مدن هذا البلد بذكر الأوصاف والأخبار الهامة عن هذه المدينة، ثم بعد ذلك ينتقل إلى بلد آخر ويتحدث عن مدينة مدينة<sup>(١١٦)</sup>.

ومن الملاحظات الهامة أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، زيادة في الدقة، وحتى تكون أوصافه للبلاد والمدن التي ذكرها في كتاب "تقويم البلدان" صحيحة، استعان في بعض الأحيان ببعض أهل تلك البلاد، مثلما ورد عند حديثه عن جنوة، فيقول أبو الفدا واصفاً جنوة اعتماداً على مشاهدات بعض أهلها: "وعن بعض أهلها أن جنوة في ذيل جبل عظيم، وهي على حافة البحر، ولها ميناء عليها سور، وهي مدينة كبيرة إلى الغاية، ولها بساتين فيها أنواع الفواكه، ودور أهلها عظيمة، كل دار بمنزلة قلعة، ولذلك اغتوا عن عمل سور على جنوة. ولها عيون ماء منها شربهم وشرب بساتينهم"<sup>(١١٧)</sup>.

(١١٤) أبو الفدا: تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٦.  
- ابن جزلة هو يحيى بن عباس بن علي بن جزلة، كان في أيام الخليفة المقتدر العباسي (٢١٥-٢٢٠هـ/٩٣٢-٩٣٨م) من المشهورين في علم الطب، صنف كتاب "تقويم الأبدان" للخليفة المقتدر بأمر الله وكان نصرانياً وأسلم عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٦٠.  
(١١٥) كراشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م، ج ١، ص ٣٩٣.

(١١٦) انظر أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ١٢٢-٥.  
(١١٧) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٣٥؛ انظر أيضاً: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٦.

## الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم مملكة حماة ودوره نحو الحضارة الإنسانية

كذلك اعتمد على المشاهدات الحية، في وصفه لطبيعة العمران بمختلف البلدان التي وصفها، ولم يكتف بالنقل عن سبقه عن الجغرافيين، وخاصة في وصفه لعبارة البلاد، فقد أدرك أبو الفدا إدراكاً تاماً أن يد التعجير تؤدي بالضرورة إلى تغيير صورة البلد وتنقلها من حال إلى حال، لذلك رفض الاعتماد على الصور الوصفية لعبارة البلدان التي رصدها من سبقه من الجغرافيين السابقين.

وسيراً على ذلك عندما تحدث عن مدينة بَزْدَعَة، وكانت في القرن الرابع الهجري عاصمة إقليم " أَران " المجاور لإقليم أذربيجان<sup>(١١٦)</sup>، ولذلك جاءت أوصاف ابن حوقل لها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ثم عما تعج به هذه المدينة من مظاهر الحضارة، على الرغم مما قام به الكُرج من إغارات عليها، إذ يقول عن إحدى مواضعها: " مشتبكة البساتين، والعمارات طيبة المنتزهات، ولها فواكه كثيرة وغلات خطيرة، ومتاجر عظيمة "<sup>(١١٧)</sup>.

غير أن أبي الفدا لم يقل أن ينقل هذه الأوصاف عن ابن حوقل، لعلمه عما حدث من تطورات عمرانية لمدينة بَزْدَعَة في عصره. وفي ذلك يقول: " هذا لما كانت بَرْدَعَة في زمان ابن حوقل فإنه متقدم التاريخ .. وأما في زماننا فأخبرني من رآها فقال: خربت ولم يبق منها معموراً إلا دور المعرة في القدر .. "<sup>(١١٨)</sup>.

هذا مع ملاحظة أن أبي الفدا اعتمد أن ينقل وصفه عن بَزْدَعَة من أحد شهود العيان بقوله: " أخبرني من رآها "، وهو في نفس الوقت لم يقل وصف ابن حوقل، حيث أنه متقدم وفي زمن غير زمنه. هذا أن كل شيء قائماً يدل على منهج أبو الفدا القائم على تحري الدقة.

وعلى هذا النحو فإن كتاب تقويم البلدان لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل؛ يعتبر من أهم الكتب الجغرافية، لأنه اشتمل على تحديد دقيق للكثير من البلدان، ووصفها بدقة متناهية، كما ذكر أطوالها وعرضها، كل ذلك بصورة مختصرة وغير مطولة، مما جعل الكثير ممن كتب عن البلدان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً، ومن الأمثلة على ذلك: فإن أبي العباس أحمد القلقشندي، وهو من الكتاب المشهورين في القرن التاسع الهجري /

(١١٦) بَزْدَعَة : يقول عنها ياقوت الحموي بلدة في أقصى أذربيجان، ولفظ بَرْدَعَة أصلها فارسي من كلمة بَرْدَة دار، وتعني موضع السبي. انظر : معجم البلدان، نشر : دار صادر، بيروت ١٩٩٨م، ج ١، ص ٣٧٩-٣٨٠.

(١١٧) ابن حوقل : صورة الأرض، نشر مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م، ص ٢٩٠.  
- الكُرج : سكن الكُرج كرجستان وعاصمتها نَقْلِس، وتقع بين بلاد الروم وأرمينية، وهم شعب دان بالمسيحية على المذهب الملكاني، ويصف القلقشندي بلادهم " أنها بلاد جبلية ومملكتهم فخمة، كانت لهم علاقات ومراسلات مع دولة المماليك ". انظر : صبح الأعشى، ج ١، ص ٣٦٩، ج ٤، ص ٣٦٢، ج ٨، ص ٢٧.

(١١٨) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٤٦٢.

الخامس عشر الميلادي، اعتمد عليه اعتماداً كبيراً عندما تحدث عن البلدان في موسوعته الشهيرة "صبح الأعشى"، وبإحصاء عدد الإحالات التي أحالها القلقشندي إلى كتاب "تقويم البلدان" نجدها بلغت مائتين وثمانين إحالة، خلال أجزاءه المختلفة<sup>(١٢٤)</sup>، مما يؤكد على أهمية كتاب تقويم البلدان في خدمة علم الجغرافيا على مر التاريخ.

وقد امتدح الكثير من الكتاب والجغرافيين كتاب تقويم البلدان، فعلى سبيل المثال يقول معاصريه ابن أبيك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) وابن شاكر الكنتي (ت ٧٦٤هـ): "وله كتاب تقويم البلدان، هذبه وجدوله وأجاد ما شاء"<sup>(١٢٥)</sup>، ويقول ابن الوردي: "وله كتاب تقويم البلدان، وهو حسن في بابه"<sup>(١٢٦)</sup>.

ويذكر المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أن كتاب أبو الفدا "تقويم البلدان" عرفته أوروبا مع بداية نهضتها في القرن السادس عشر الميلادي، وترجم إلى اللغة اللاتينية والفرنسية، وكان أساساً للكثير من الدراسات في علم الجغرافيا في مختلف أنحاء أوروبا بعد ذلك<sup>(١٢٧)</sup>.

ومن العرض السابق يتضح لنا أهمية كل من كتاب المختصر في أخبار البشر، وكتاب تقويم البلدان، لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل، حيث أصبح لهما دور كبير في خدمة الحضارة الإنسانية على مر العصور<sup>(١٢٨)</sup>، كما أن شخصية عماد الدين هي الأخرى، بما تمتع به من خلق طيب وحب وتقدير للعلم والطماء، وعدل وإخلاص لأهل مملكته، وإخلاص وتغاف في خدمة مليكه وسلطانه "السلطان الناصر محمد"، كل ذلك جعله تيراساً لمن أتى بعده من الملوك والحكام، لدرجة أن بعض المؤرخين قالوا: أنه لم يتول حكم العالم الإسلامي بعد الخليفة المأمون العباسي أفضل منه<sup>(١٢٩)</sup>.

وفي ٢٣ شهر المحرم عام ٧٣٢هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٣٣١م، وافى الأجل الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم حماة فجأة، أثناء وجوده بمملكته حماة<sup>(١٣٠)</sup>، فحزن عليه السلطان الناصر محمد حزناً شديداً، وعلى الرغم من تطلع العديد من أمراء المماليك لتولي حكم حماة، إلا أن السلطان الناصر، ونتيجة حبه لأبي الفدا، أثار أن يولي ابنه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن إسماعيل - حكم حماة، وأصدر في شهر ربيع الآخر من نفس

(١٢٤) محمد قنديل البقلي: فهرس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٦٤٠-٦٤١.

(١٢٥) الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٠٤: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٨٤.

(١٢٦) تنمة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٤٢٣.

(١٢٧) تاريخ الأدب الجغرافي، ج ١، ص ٣٩٤.

(١٢٨) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج ٤، بيروت ١٩٩٣م، ص ٤٠-٤٢.

(١٢٩) ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٤٢٣.

(١٣٠) الذهبي: ذيل العبر في خبر من غير، ج ٤، ص ٩٢: ابن تغري بردي: لنجوم الزاهرة،

ج ٩، ص ٢٩٢: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٩٩.

الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ملكه حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

العام تقليداً بذلك<sup>(١٢٢)</sup>. ويعلق ابن أبيك الدوداري على ذلك بقوله: " وحضر ولده ناصر الدين محمد بن الملك عماد الدين وحصل له من الجبر والصدقة ما هو فوق ما كان في أمه "<sup>(١٢٣)</sup>. وهذا بالطبع رد من السلطان الناصر محمد، لما كان يكنه لأبيه عماد الدين من محبة وإعزاز.

وقد حفظ القلقشندي نص هذا التقليد، وهو يوضح مدى اعتزاز السلطان الناصر محمد بصداقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، ومما جاء في هذا التقليد: "فوجدنا من الخزن عليه ما أبكى كل سيف دما، وإن كل رمح يقرع سنه ندماً، وتأسفنا على ملك كاد يكون من الممالك، وأخ كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه في ثغور الممالك"<sup>(١٢٤)</sup>.

وهنا يؤكد أن الناصر محمد كان يعتبر عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أخاً له أو أعز، وبالفعل كان يكتبه كما أشار الصفدي بكلمات " أخوه محمد بن قلاوون "<sup>(١٢٥)</sup>.

وقد ذُفِن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في المقبرة التي أعدها لنفسه عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، أي قبل وفاته بخمسة أعوام، وذلك قرب مسجد " الحيايا " بمدينة حماة، الذي بناه أيضاً في ذلك التاريخ، وما زال هذا المسجد وتلك المقبرة حتى يومنا هذا موجودة بحماة<sup>(١٢٦)</sup>.

وهكذا كان حال صاحبه عماد الدين إسماعيل أبو الفدا: الملك العالم في حياته مكرماً، وبعد مماته اضاء الطريق بمؤلفاته أمام الباحثين والمؤرخين والجغرافيين، جعلها الله في ميزان حسناته، ورحمه الله رحمة واسعة.

(١٢٢) الذهبى : ذبيل العبر، ج ٤، ص ١٩١ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٢.

(١٢٣) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(١٢٤) القلقشندي : صبح الاعشى، ج ١٠، ص ١٨٥.

(١٢٥) فوات الوفيات، ج ٩، ص ١٠٤.

(١٢٦) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج ١، ص ٣٩١.

## المصادر والمراجع

### أولاً . المصادر

- ابن الاخوة : محمد بن محمد القرشي (ت ٧٢٩هـ) :
- معلم القرية في أحكام الحسبة، تصحيح روين ليوي، كمبردج ١٩٣٧م.
- ابن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ) :
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٨١م.
- ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ) :
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م.
- ابن أبيك الدوادري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٩٣٠هـ) :
- كنز الدرر وجامع الغرر :
- الجزء السابع، المعروف باسم : الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٠م.
- الجزء الثامن، المعروف باسم: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م.
- الجزء التاسع، المعروف باسم : الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هاتن روبرت رايغر، القاهرة ٢٠٠١م.
- ابن أبيك الصفي : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ) :
- اعيان العصر واعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد اليكور، بيروت ١٩٩٨م.
- الوافي بالوفيات، تحقيق : أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م.
- البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٧٣٩هـ) :
- المقتلي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٩م.
- ابن تقي بردي : جمال الدين يوسف أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) :
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية د.ت.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أحمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م.
- ابن الأثير : علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ) :
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.
- الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.
- ابن الجزري : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٨هـ) :
- تاريخ حوادث الزمان وأنبأته، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٨٨م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :

الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم مملكة حماة ودوره في النهضة الإنسانية

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م.
- ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ):
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جلال الحق، القاهرة ١٩٦٦م.
- الحنبلي: أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ):
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م.
- صورة الأرض، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ):
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م.
- خواند مير: غياث الدين بن هشام الدين (ت ٩٤٢هـ):
- دستور الوزراء، تحقيق: حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م.
- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ):
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٣١٠هـ.
- النخبة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٩م.
- الذهبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ):
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت ١٩٨٤م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م.
- رشيد الدين الهمداني: فضل الله أبو الخير (ت ٧١٨هـ):
- جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م.
- ابن سباط: حمزة بن أحمد (ت بعد ٩٢٦هـ):
- صدق الأخبار المعروف باسم: تاريخ ابن سباط، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٣م.
- سبط بن الجوزي: شمس الدين يوسف بن قزواغلي (ت ٦٥٤هـ):
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد - الهند ١٩٥١م.
- المسقاوي: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ):
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، غني بئشره القاسمي، بيروت ١٩٧٩م.
- الممحاوي: شمس الدين أحمد (ت ٨٦٨هـ):
- الثغر الباسم في صناعة الكتب والكلام، المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشأ للخالدي، تحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة ٢٠٠٩م.
- ابن شاكر الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ):

- قوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.
- أبو شامة : عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) :
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم: الذيل على الروضتين، نشر عزت العطار الحسيني، بيروت ١٩٤٧م.
- ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ) :
- النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية، المعروف باسم: سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م.
- الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) :
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع هوامشه: محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م.
- ابن عريشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٨٥٤هـ) :
- عجائب المفثور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨١م.
- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحق (ت ١٠٨٩هـ) :
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت د.ت.
- العماد الكاتب الأصفهاني : أبو عبدالله محمد (ت ٥٩٧هـ) :
- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م.
- العمري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٤٩هـ) :
- مسالك الأيصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٨٥م.
- ابن العميد : الشيخ جرجس (ت ٦٧٢هـ) :
- أخبار الأيوبيين، نشر كلود كاهن Cloud Cahen في :  
Bulletin d'etudes Orientales, Paris 1955-1957.
- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :
- تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري) :
- كتاب الحوادث، المعروف باسم: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م. [يتشكك محقق الكتاب في نسبته لابن الفوطي].
- ابن قاضي شهبه : أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ) :
- تاريخه، تحقيق: عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م.
- القرملي : أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩م) :
- أخبار الدول وأثار الأول، تحقيق: أحمد حطوط، بيروت ١٩٩٢م.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :



- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر دار الكتب المصرية، دت.
- محمد تقي الدين شاهنشاه : محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧هـ) :
- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م.
- المرتضى الزبيدي : أبو الفيض محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ) :
- ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م.
- مفضل بن أبي الفضائل : (توفي بعد عام ٧٥٩هـ) :
- النهج السديد والدر الغريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر Blochet في : Patrologia Orientales, Paris 1920, Tom 14.
- المقرئزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٢٧٠هـ.
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م.
- التميمي : عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ) :
- الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م.
- النويري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٣٣هـ) :
- نهاية الأرب في فنون الأدب :
- الجزء ٣١، تحقيق: السيد الباز العربي، القاهرة ١٩٩٢م.
- الجزء ٣٢، تحقيق: فهد شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م.
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ) :
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب :
- الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م.
- الجزء الخامس، تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٧م.
- ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ) :
- تنمية المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم : تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت ١٩٧٠م.
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ) :
- معجم الأدياء، نشر دار أحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م.
- معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٩٩٨م.
- اليوتيني : أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ) :
- ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٧١-٦٧٧)، نشر وزارة التحقيقات، حيدر أباد - الهند ١٩٦٠م.

• ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ)، تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م.

ثاقبنا : المراجع :

- أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م.
- أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م.
- أمال حامد زيان :

The role of Endowments to The scintific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, International Research Journal of social Sciences, vol I, September 2012.

~ حامد زيان :

- الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م.
- المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م.
- علم التاريخ، القاهرة د.ت.
- زامبور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م.
- سعد عاشور : الأيوبيون والمماليك، القاهرة ١٩٧٠م.
- شاكرك مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت ١٩٩٣م.
- صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م.
- عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م.
- كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م.
- محمد قنديل البقلي : فهارس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٥م.
- محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م.
- المعجم الوسيط : نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م.
- الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م.
- وليم ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة ١٩٧٢م.



## التعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس المملوكية في ضوء وثائق الحرم القدسي\*

د محمد نصر عبد الرحمن

أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة عين شمس

تعد وثائق الحرم القدسي الشريف<sup>١</sup> واحدة من أهم مصادرنا عن تاريخ مدينة القدس خلال العصر المملوكي ، لأنها تعتبر شواهد حية تتعلق بشؤون سكان هذه المدينة من مسلمين وأهل ذمة، وهي بذلك تغطي حقبة تاريخية هامة من تاريخ هذه المدينة. وتكتسب أهميتها من أن الوثائق الخاصة بمدينة القدس خلال العصر المملوكي قليلة، فوثائق دير الفرنسيسكان قليلة ومحدودة، وتتناول العلاقة بين السلطة المملوكية

(١) ألقيت المصودة الأولى لهذا البحث في المؤتمر الدولي: (دراسة الوثائق الشرعية: المقاربات الحديثة المتعلقة بطرم البرديات والوثائق العربية) ، الذي عقد بكنية فرنسا بباريس فرسا عام ٢٠١٣:

Colloque international : « L'étude des documents légaux : nouvelles approches de la papyrologie et de la diplomatique arabes », Collège de France, Paris (France) - 2013.

(٢) هي مجموعة من الوثائق الخاصة بمدينة القدس في العصر المملوكي. عثرت عليها نالبة مدير المتحف الإسلامي بالقدس أمل أبو الحاج في أحد خزانته في الفترة بين عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٦ م ، وهي حوالي ٩٠٠ وثيقة تغطي الفترة من ٦٠٤ هـ / ١٢٠٤ م إلى ٨٦٦ هـ / ١٤٦٧ م . انظر: محمد عيسى صالحية ، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٩٠.

Linda S. Northrup and Amal A. Abul-Hajj, "A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Haram al- Sharif ", Arabica 25 (1979), pp.282-91; Little, D., "The Significance of the Haram Documents for the Study of Medieval Islamic History," Der Islam 57 (1980), pp.189-217.

وتجدر الإشارة إلى أن العدد الإجمالي لهذه الوثائق مصور على ميكروفيلم توجد منه حالياً أربع نسخ: نسخة في المتحف الإسلامي في القدس ، ونسخة أخرى لدى مكتبة الجامعة الأردنية ، ونسخة ثالثة لدى معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجيل McGill بكندا ، والنسخة الرابعة بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس ، انظر: علي السيد علي ، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي ، مجلة الدرية ، العدد ٦-٧ ، ١٩٩٩ ، ص ٣٤٩.

والمسيحيين اللاتين ، كما أن سجلات محكمة القدس الشرعية، التي وصلت إلينا، ترجع للعصر العثماني ولا تغطي عصر المماليك<sup>(٧)</sup>.

وتغطي هذه الوثائق العديد من الموضوعات الخاصة بسكان القدس خلال هذا العصر<sup>(٨)</sup>. وسوف نتناول هذه الدراسة أحد هذه الموضوعات وهو: التعاملات القضائية لأهل الذمة. وبرغم أن هناك دراسة سابقة، قام بها ثقل Little، عن اليهود في القدس من خلال هذه الوثائق<sup>(٩)</sup>، إلا أنها كما يظهر من عنوانها ركزت على اليهود فقط، وتحديدًا نشر الوثائق الخاصة بهم، وإثبات تواجدهم في القدس خلال تلك الفترة. ولن تهتم دراستنا بتناول طبيعة إجراءات التقاضي في الحالات التي سنتناولها، فهو أمر تتاولته الدراسات التي قام بها كريستيان مولر Christian Müller عن القضاء وإجراءاته<sup>(١٠)</sup>، ولكن ستركز على رصد التعايش في هذه المدينة بين أهل الذمة من اليهود والمسيحيين من ناحية، والمسلمين من ناحية أخرى، تحت رعاية سلطة المماليك، وذلك من خلال التعاملات

ARCHIVE

(٧) كامل جميل الصلبي، "وثائق مقدسية تاريخية"، المجلد الأول، عمان ١٩٨٣، ص ٥٩.

(٨) وقد قام دونالد ثقل Donald P. Little بتصنيف هذه الوثائق وترتيبها، وعمل وصف لها في كتابه: Little, D., *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Haram a Sharif in Jerusalem* (Beirut, 1984).

(٩) انظر:

Little, D., "Haram documents related to the Jews of late fourteenth century Jerusalem", *JSS* 30 (1985), pp.327-370.

(١٠) انظر على سبيل المثال:

Müller, C., "A legal Instrument in the Service of People and Institutions: Endowments in Mamluk Jerusalem as Mirrored in the Haram Documents", *MSR* 12(2008), pp.173-191; idem, *Der Kadi und seine Zeugen Studie der mamlükischen Dokumente des Haram Šarif. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes*, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden 2013.

القضائية لأهل الذمة في القدس في ضوء هذه الوثائق. كما سنقوم بنشر وثيقة من وثائق الحرم القدسي المتعلقة بأهل الذمة لم تنشر من قبل<sup>١</sup>.

والمعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس، من خلال هذه الوثائق، متنوعة، وتشمل: حالات حصر أعيان بفرض الإرث، وحصر موجودات، وعقود بيع، وعقود زواج وطلاق، وبعض الشكاوى الخاصة. وهي بذلك تغطي جانباً كبيراً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل الذمة في القدس خلال تلك الفترة، وتوضح لنا إلى أي مدى كان تعايشهم مع المجتمع الإسلامي هناك. ومن المعروف أن اليهود والمسيحيين شاركوا المسلمين في القدس حياتهم، سواء من حيث العادات والتقاليد، أو من حيث مساهمتهم في النشاط الاجتماعي والاقتصادي.

ومن خلال هذه المعاملات القضائية، يظهر لنا أنهم كانوا يتعاملون مع المسلمين وأحكام الشريعة الإسلامية بشكل عادي، دون الشكوى منها غالباً، ونحن نطمح أن أهل الذمة، من اليهود والمسيحيين، خضعوا لأحكام الشريعة الإسلامية فيما يخص نظام الميراث، منذ أوائل القرن الثاني الهجري، فصاروا يقسمون موارثهم وفق التشريع الإسلامي<sup>٢</sup>. ولا يبدو الأمر نوعاً من فرض الشريعة الإسلامية على أهل الذمة، بقدر ما هو محاولة لحل بعض المشكلات الخاصة بالميراث بينهم، حيث أن الكتاب المقدس لا يقدم حلاً كافياً لمثل هذه الأمور<sup>٣</sup>.

(١) يسعدني أن أقدم بخالص الشكر والتقدير للبروفيسور كريستيان مولر، مسئول القسم العربي بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس، على منحني صوراً من هذه الوثائق من المجموعة الميكروفيلمية الخاصة بالمعهد، وتصريحه لي بنشرها.

(٢) ابن تيمية، معجم الأئمة في أخبار مصر والقاهرة، ١٤٠٠، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٩٢-٢٩١، سيدة الكاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٢٥.

(٣) يخلو العهد الجديد من أية إشارة عن طريقة تقسيم الميراث، أما العهد القديم فالآيات الخاصة بالميراث الواردة في سفر العدد والتثنية قليلة وغير محددة لتصيب كل فرد، وتحجب الميراث عن البنت في حالة وجود وريث ذكر، كما تعطي الحق لثلاثين البكر في نصيب مضاعف من الميراث. انظر: سفر العدد ٢٧ / ٨ : ١١، سفر التثنية ٢١ / ١٥ : ١٧.

وقد سار أهل الذمة في القدس على نفس المنوال من الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في تقسيم إرثهم ، ومن ذلك ما جاء بالوثيقة رقم (٥٥٠) بتاريخ ٢ جمادى الثاني ٧٩٦هـ / ٤ أبريل ١٣٩٤م ، وموضوعها حصر إرث<sup>٢١</sup> ، وهي خاصة بتركة رجل مسيحي من سكان القدس ، يدعى يوسف بن سعد بن جرجس البنا ، وكان يسكن داراً بحارة صهيون بالقدس ، والوثيقة خاصة بتحديد ورثة الشخص المذكور ، وبعد أن تم تحديد التركة من قبل بيت المال ، حدد فيها يوسف من ميرته وهم : زوجته ستيتة بنت سمعان النصرانية ، وابن عميه الغالبيين سلمان وسالم . وتمت الوثيقة في حضور وكيل بيت المال ، ويتصريح من قاضي القدس .

وتبدو تلك الوثيقة مشابهة لوثائق الإرث الإسلامية ، وعدم تحديد نصيب كل فرد من قيمة التركة ، مع وجود وكيل بيت المال بالقدس ، يوحى بأن تقسيم التركة سوف يكون وفقاً للشريعة الإسلامية ، لأنها محددة ومعروفة للجميع ، مع ذهاب جزء منها لبيت المال ، لأن الورثة وفقاً للشريعة الإسلامية لا يستحقون الميراث كله .

وكانت تركة من يموت من أهل الذمة دون وريث<sup>٢٢</sup> ترد على أهل ملته ، منذ أمر بذلك الخليفة العباسي المقتدر بالله عام ٣١١هـ / ٩٢٣م<sup>٢٣</sup> ، لكن الأمر تبدل خلال عصر المالكي وتم إدراجهم ضمن ديوان الموارث الحشرية<sup>٢٤</sup> ، وذلك بعد المرسوم الذي أصدره السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون ، عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م ، بمعاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين ، وضمهم إلى هذا الديوان ، حيث نص المرسوم على : " أن كل

(٢١) انظر وصف هذه الوثيقة في :

Little, A Catalogue of the Islamic Documents, p.141.

(٢٢) الجهشباري ، الوزراء والكتاب ، تحقيق : إبراهيم الإبراهيم ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٤٨ .

(٢٣) كان هذا الديوان مخصصاً للأموال التي لا يعلم لها مستحق كالثقلية ، ومال من يموت وليس له وارث ، أو إذا ترك المتوفى وارثاً لا يستحق كل الميراث حسب الشرع . انظر : ابن معاتى ، كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق : عزيز موزيل عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٣١٩ أحمد عبد الرزاق ، الحضرة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ١٤٧ .

من مات من اليهود والنصارى والسامرة ، الذكور والإناث منهم ، يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحشرية بالديار المصرية وأعمالها ، وسائر البلاد الإسلامية المحروسة ، إلى أن تثبت ورثته ما يستحقونه من ميراثه بمقتضى الشرع الشريف ، وإذا أثبتوا ما يستحقونه يعطونه بمقتضاه ، ويحمل ما فضل بعد ذلك لبيت المال المعمور ، ومن مات منهم ولا وارث له يستوعب إرثه ، حمل موجودة لبيت المال المعمور ، ويجرون في الحوطة على موتاهم من دواوين المواريث ، وكلاء بيت المال المعمور ، مجرى من يموت من المسلمين إلى أن تثبت مواريتهم<sup>١٢٠</sup>.

وتؤكد الوثيقة رقم (٣٣٠) ، بتاريخ ١٣٩٣/٥٧٩٥ م على هذا الأمر ، حيث تذكر أن أحد المسيحيين ويدعى يعقوب النصراني؛ قد توفي دون أن يكون له وريث ، وترك داراً بحارة النصارى بالقدس ، وقد آلت ملكية هذه الدار لبيت المال ، بعد توثيق الأمر لدى القاضي شرف الدين الشافعي. وسوف نقوم بنشر هذه الوثيقة والتعليق عليها بالتفصيل لمزيد من الإيضاح حول طبيعة هذا الأمر ،

(الوصف الشكلي للوثيقة)

- رقم الوثيقة: ٣٣٠

- مصدر الوثيقة: صورة ميكروفيلم بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس عن النسخة الأصلية بمتحف الإسلامي في القدس.

- مادة الوثيقة: الورق ومكتوبة بالخط العربي.

- أبعاد الوثيقة: ٢٨.٢ × ٢٩.٣ سم.

- حالة الوثيقة: الوثيقة بحالة جيدة.

(الوصف الموضوعي)

- التاريخ: ١٣٩٣/٥٧٩٥ م.

(١٢) الفلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ١٣ ، القاهرة ١٩١٨ ، ص ٣٨٤-٣٨٥



- موضوع الوثيقة: الوثيقة مزدوجة ، تحمل على وجهها شهادة بنقل ملكية متوفى إلى بيت المال ، وعلى ظهرها إشهاد بصحة الشهادة الموجودة على الوجه.  
(الوجه)<sup>١٣</sup>

- بتاريخ: العشر الأول من شعبان ٧٩٥هـ/ ١٢-٢١ يونيو ١٣٩٣م.

- موضوعها: شهادة بنقل ملكية متوفى.

- يوجد بأعلى الوثيقة علامة للقاضي ، وتسعة أسطر هي نص الوثيقة ، وشهادة سبعة شهود بجانب توقيعين للقاضي في الحاشية اليمنى للوثيقة.

(الظهر)<sup>١٤</sup>

- بتاريخ: ٢٢ صفر سنة ٧٩٦هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٣٩٣م.

- موضوعها: إشهاد من القاضي بصحة الشهادة.

- يوجد بأعلى الوثيقة من اليسار علامة للقاضي، وعارة خاصة بالمحضر أعلى اليمين، وثمانية أسطر هي نص الوثيقة، وشهادة ثلاثة شهود.

(نص الوثيقة)

(الوجه)

(الرأس)

الحمد لله وأسأله التوفيق

(الحاشية اليمنى)

ليشهد بثبوته، والله المستعان، المولى الشيخ شرف الدين

(النص الرئيسي)

١- بنيم الله الرحمن الرحيم

<sup>(١٣)</sup> انظر النوحة رقم: (١).

<sup>(١٤)</sup> انظر النوحة رقم: (٢).

- ٢- شهد ووضع خطه آخره ومن يكتب عنه بإذنه وهم من أهل العلم والخبرة التامة النافية للجهالة بما يشهدون من شهادة
- ٣- هم بها عالمون ولها محققون لا يشكون في شأ منها ولا يرتابون أنهم يعرفون جميع الدار الكائنة بالقدس الشريف بحارة
- ٤- النصارى<sup>١</sup> بحارة صهيون<sup>٢</sup> المشتملة على سفلى وعلو ومنافع ومرافق وحدها بكمالها من القبلة حاكورة<sup>٣</sup> المدرة بيد ورثة المرحوم صارم
- ٥- الدين الهدباني وتعامه حانوت معد للنسخ بيد الورثة المذكورين ومن الشرق الدرب السالك وفيه بابها ومن الشمال ورثة شمويل اليهودي
- ٦- ومن الغرب الزدقي<sup>٤</sup> ملكا من أملاك بيت المال المعمور بالقدس الشريف بحكم أنها كانت ملكا ليعقوب الزهاوى النصراني المالك قبل تاريخه عن غير وارث
- ٧- شرعي سوى بيت المال المعمور بالقدس الشريف علم شهوده ذلك وحقوقه يقينا وسطر ذلك حسب الاثن<sup>٥</sup> الكريم العالي
- ٨- سيدنا ومولانا قاضى المسلمين شيخ الشيوخ أبى الروح عيسى الشرفي الحاكم الشافعي الحاكم بالقدس الشريف وأعمالها ومضافاتها أدام الله تعالى
- ٩- تأييده وأجزل من فضله مزیده بتاريخ العشر الأول من شهر شعبان المكرم سنة خمس وتسعين وسبعمائة

(١)

١٠- شهد بمضمونه الحاج

(١) كانت تقع في الربع الغربي لكتيبة القيامة ، انظر: مجير الدين الحنبلي ، الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ، النجف ١٩٩٦ ، ص ٥٣ .

(٢) كانت تقع في الجهة الجنوبية من القدس انظر: مجير الدين ، المصدر نفسه ، ص ١١١ .

(٣) هي أرض تحبس لزروع الأشجار قرب الدور ، والمقصود بها هنا الفناء الخلفى للبيت . انظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط ٤ ، القاهرة ٢٠٠٤ ، ص ١٨٩ .

(٤) يقصد بالزدق العشور السنوية التى كانت تدفعها الإبراشيات لبطريرك القدس ، وربما يقصد بها هنا المبنى المخصص لذلك .

١١- علي بن عبد الكريم عُرِف بالبصري

١٢- كُتِبَ عنه بإذنه وحضوره

١٣- شهد عندي

(ب)

١٠- شهد بمضمونه

١١- عمر بن يحيى بن حص المالكي

١٢- وكتب عنه بإذنه

١٣- شهد عندي

(ج)

١٠- شهد بمضمونه

١١- كُتِبَ علي بن داود بن محمد

١٢- شهد

(د)

١٠- شهد بمضمونه

١١- كُتِبَ صالح بن عثمان

١٢- شهد عندي

(هـ)

١٣- شهد بمضمونه

١٤- علي بن حسن بن سعيد بن يحيى

١٥- كتب عنه بإذنه وحضوره

١٦- شهد

(ى)

١٦- شهد بمضمونه

١٧- أحمد عطاء الله المقدسي

١٨- كتب عنه بإذنه وحضوره

١٩- شهد عندي

(الظهر)

(الرأس)

(اليمين)

١- -----

٢- محضر

٣- تركة يعقوب الرهاوى

(اليسار)

١- أشهد بصحته

(النص الرئيسي)

١- الحمد لله تعالى اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وسلم

٢- أشهدهني سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى قاضى المسلمين شرف الدين صدر

المدرسين مفتى المسلمين قدوة العارفين مربي المريين شيخ الشيوخ أبو الروح عيسى

بن سيدنا

٣- العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ برهام العالم العلامة جمال الدين مربي المريين شيخ

الشيوخ أبى الجود غانم الأنصاري الخزرجى الشافعي الحاكم بالقدس الشريف

التعاملات القضائية للأهل الذمة في القدس المملوكية في ضوء وثائق الحرم القدس

- ٤- وأعمالها بالولاية الصحيحة الشرعية وشيخ الشيوخ وناظر الأوقاف المبرورة أدام الله تعالى تأييده وأجزل في فضله مزيدة على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى
- ٥- وهو في مجلس حكمه ومحل ولايته نافذ القضاء والحكم ماضيها أنه ثبت عنده وصح رأيه بعد تقدم الدعوة الشرعية المسموعة
- ٦- وما ترتب عليها شرعاً شهادة من أعلمهم ..... عنهم شهادتهم آخر ذيل المسطور باطنه عرفهم وقبل شهادتهم مضمون المحضر المسطور باطنه
- ٧- على الوجه المقرر المشروح باطنه حسبما قامت به البينة باطناً ثبوتاً شرعياً معتبراً مرضياً مستوفياً شرايط الشرعية
- ٨- وواجباته المرعية وأعتبار ما يجب اعتباره شرعاً وشهد على ذلك في الثاني والعشرين من صفر الميمون سنة ست وتسعين وسبعائة
- ٩- وكتب
- ١٠- محمد بن أحمد البرلمسي
- ١١- كذلك أشهدني لطف الله لي وله فشهدت على ذلك في تاريخه كتب عبد الله بن سليمان المالكي
- ١٢- كذلك أشهدني سيدنا الحاكم المشار إليه أعلاه أيده الله تعالى فشهدت على ذلك
- ١٣- كتب -----

(التعليق)

بوجه عام تؤكد هذه الوثيقة على تطبيق المرسوم الذي أصدره السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م بمعاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين وضمهم لهذا لندوان الموارث الحشرية ، وأن من كان يموت من أهل الذمة بدون وريث ، يتم ضم تركته إلى بيت المال بالقدس. كما يؤكد الإشهاد الملحق بها على حرص السلطة المملوكية على استيفاء كافة الإجراءات القانونية المتبعة ، حتى تضمن إقرار العدل مع كافة الرعية من المسلمين أو أهل الذمة.

(الوجه)

(الرأس والحاشية)

تبدأ الوثيقة بعبارة (الحمد لله وأسأله التوفيق)<sup>(١)</sup>، وهي تعرف بعلامة القاضي التي كان يكتبها بعد الانتهاء من كتابة الوثيقة، وكانت تكتب بخط كبير إلى يسار البسملة، وكان لكل قاض علامة أو تأشيرة يعرف بها ولا يغيرها، وهي تبدأ بـ "الحمد لله" أو "أحمد الله

وفي الحاشية اليمنى من الوثيقة نجد توقيع القاضي الذي يؤكد تمام الشهادة (ليشهد بشوته والله المستعان) وهي من علامات الدعوى إذا قامت البيئة عليها<sup>(٢)</sup>، وجزء من اسمه وهو شرف الدين. وهذا جزء من اسم القاضي شرف الدين عيسى بن جمال الدين غانم بن شرف الدين عيسى (ت ٧٩٧هـ/١٣٩٥م)، وقد عمل نائباً لقاضي نابلس في الفترة من ٧٨١-٧٨٥هـ / ١٣٨٠-١٣٨٣م، ثم قاضياً للقدس عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م، ثم قاضياً للقضاة في الفترة من ٧٩٥هـ/١٣٩٢-١٣٩٥م<sup>(٣)</sup>.

(النص)

<sup>(١)</sup> وهذه العبارة إحدى العلامات المشهورة لهذا القاضي، وظهرت في عدد من الوثائق المنشورة أو التي لم تنشر بعد، راجع نماذج لهذه العلامة في بعض الوثائق عند:

Little, D., "Two Fourteenth Century Court Records from Jerusalem Concerning the Disposition of Slaves by Minors," *Arabica* 29 (1982), pp.17-28; Idem, "Documents related to the estates of a merchant and his wife in late Fourteenth Century Jerusalem", *MSR* 2(1998), p.105.

<sup>(٢)</sup> الأسيوطى، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، ج ٢، نشر: محمد سرور الصبان، القاهرة ١٩٥٥، ص ٣٧٦؛ العسلى، وثائق مقدسية، ج ٢، ص ٢٢. وللمزيد من التفاصيل عن استخدام القضاة للعلامات في العصر المملوكى المتأخر وبداية العصر العثماني انظر:

Vesely, R., "Die richterlichen Beglaubigungsmittel: Ein Beitrag zur Diplomatik arabischer Gerichtsurkunden", *Orientalia Pragensia* 8 (1971), pp.12-18.

<sup>(٣)</sup> الأسيوطى، المصدر نفسه، ص ٣٧٦.

<sup>(٤)</sup> مجير الدين، الأئس الجليل، ج ٢، ص ١٢٧.

Little, A Catalogue of the Islamic Documents, p.9-10.

- ١- يبدأ النص هنا بداية تقليدية بالبسملة كما العادة في معظم الكتابات المملوكية<sup>(١)</sup> ووثائق الحرم القدسي ، وإن كان بعضها لا يبدأ بالبسملة<sup>(٢)</sup>.
- ٢- يتحدث هذا السطر عن طبيعة ثقافة الشهود ، ونعرف منه أن بعضهم كان يجيد الكتابة وقد وصفهم (وضع خطه آخره) ، أي كتبوا شهادتهم على الوثيقة بأنفسهم ، والبعض الآخر لم يكن يجيد الكتابه (يكتب عنه بإذنه) ، لذلك قام كاتب الوثيقة بالكتابة نيابة عنه، مع الحرص على إثبات أن جميع الشهود يدركون قيمة ومعنى شهادتهم.
- ٣- هنا يتم التأكيد على وعى الشهود بقيمة شهادتهم ومعرفتهم الكاملة بالدار التي سوف تؤول ملكيتها لبيت المال.
- ٤-٥: في هذين السطرين يتم تحديد موضع البيت بدقة ، وحدوده من الجهات الأربع ، وهو أمر معتاد في الوثائق الخاصة ببيع وشراء وملكية العقارات والأراضي ، وذلك من أجل مراعاة حقوق الملاك أو المستأجرين<sup>(٣)</sup>. وقد ذكر هنا أن هذه الدار بحارة النصراري ، وقد يبدو من الاسم أن هذه المنطقة خاصة بسكنى المسيحيين فقط ، لكن الواقع أن المسلمين كان لهم في هذه الحارة بعض البيوت كما ظهر لنا في بعض ووثائق الحرم القدسي<sup>(٤)</sup>.
- ٦- نص هذا السطر صراحة على انتقال ملكية البيت من يعقوب النصراني إلى بيت المال لأنه مات دون وريث ، وهذا يؤكد على ما سبق ذكره من معاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين في شئون الموارث الحشرية.

(١) الأسبوطي ، جواهر العقود ، ج ١ ، ص ٢٥.

(٢) انظر على سبيل المثال الوثائق رقم : ٤٦٧ ، ٥٠٣ ، ٥٥٤.

(٣) ابن أبي الدم الحموي ، أدب القاضي ، تحقيق : محي الدين السرحان ، بغداد ١٩٨٤ ، ص ٥٤٥.

(٤) راجع هذه الوثائق في : كامل جميل الصليبي : وثائق مقدسية ، ج ١ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٨.

٧- يمثل هذا السطر التتظير القانوني للشهادة ، حيث يضم المالك الجديد وهو بيت المال ، والشهود المقربين بصحة نقل الملكية ، وإذن القاضي ، مما يمنح الشهادة الشرعية القانونية.

٨- عبارة " سيدنا ومولانا " المذكورة هنا كانت تطلق على قاضي قضاة الشافعية ، حيث كان قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية ورفقته الثلاثة يطلق عليهم : " سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام ، العالم العلامة .... ، ويكتب للقضاة القضاة الأربع بالشام ما يكتب للأربعة بمصر"<sup>٧٧</sup>. أما عبارة شيخ الشيوخ فكانت تطلق عادة على شيخ الصوفية ، أو المتولي الإشراف على الخانقاوات الصوفية<sup>٧٨</sup> ، ويبدو أنه حمل هذا اللقب لأنه كان يشرف على الخانقاه الصلاحية<sup>٧٩</sup> بجانب عمله بالقضاء<sup>٨٠</sup>.

٩- نلاحظ هنا أن الكاتب لم يحدد يوماً بعينه تمت فيه الشهادة ، بل حدد التاريخ بالعشر الأول من شهر شعبان ، ومصطلح (الأول ، الأوسط ، الآخر) تعبير دارج في المصادر التاريخية المملوكية ، ونجده في بعض وثائق الحرم القدسي ، وهو عادة يستخدم حينما لا يعرف اليوم الذي تم فيه الحدث تحديداً ، لكن ربما هنا نتوقع أن تجهيز هذه الشهادة استغرق أكثر من يوم ، ربما لحضور الشهود أو غيرها من الإجراءات ، لذلك فضل الكاتب إجمال الفترة كلها دون تحديد يوم بعينه.

١٠-١٩: وقد ذيل العقد بتوقيع سبعة من الشهود ، وقع اثنان منهما بخطهما لأنهما يجيدا الكتابة ، بينما وقع الكاتب عن الخمسة الآخرين لعدم اجادتهما الكتابة بعد أخذ إئتهم في ذلك. وهي إحدى شروط صحة الشهادة ، حيث يقول الماوردي<sup>٨١</sup> وعلى

(١) انظر: الأسبوطي ، جواهر العقود ، ج ٢ ، ص ٩٩٣-٩٩٤.

(٢) انظر: القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٧.

(٣) هو بناء أوقفه السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية بمدينة القدس عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م . وكان شيخ الخانقاه يعين من السلطان بمرسوم ، ويكون ورثاً في عائلته. انظر: القلقشندي ، المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٠٥-١٠٦.

(٤) مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٢٧.



الشاهدين من الاحتياط في الشهادة به أن يوقعا فيه خطهما ويختماه بختمهما ، ليكون ذلك علامة لهما في نفى الارتياب عنهما ، ويكون ختمهما في داخل الكتاب وختم القاضي على ظهره معطوفاً . فإن اقتصر الشاهدان على الخط دون الختم جاز ذلك ..<sup>(٢١)</sup> . ونلاحظ بعد كتابة الشهود السبعة كلمة شهد عند ثلاثة منهم ، وعبارة شهد عندي عند أربعة منهم ، وهذه العبارة تتعلق بطبيعة الشهود ، وهل هم شهود عدول<sup>(٢٢)</sup> أم لا ، فإذا كان القاضي يعرف الشاهد وتم تزكيته عنده كتب (شهد عندي بذلك) ، أما الشاهد الذي لم يزكى عنده فيكتب شهد فقط<sup>(٢٣)</sup> . وعليه فهناك أربعة من الشهود عدول تم تزكيتهم لدى القاضي وإن اكتفى هنا معهم بعبارة (شهد عندي) ، والثلاثة الآخرين لم تتم تزكيتهم عند القاضي. وكان على القاضي ألا يسجل حكمه إلا بحضور شاهدي عدل على أقل تقدير ليشهدوا ويكتبوا خطوطهم بالشهادة<sup>(٢٤)</sup>.

(الظهر)

(الرأس)

نجد في الحاشية اليمنى عبارة تشير إلى طبيعة الوثيقة ، وأنها استكمال لمحضّر تركة المتوفى ، وفي الحاشية اليسرى من الوثيقة نجد توقيع القاضي الذي يؤكد تمام الشهادة (أشهد بصحته) وهي من علامات الدعوى إذا قامت البينة عليها كما سبق أن ذكرنا. (النص)

١- البداية التقليدية للوثائق وهي نكر عبارات الحمد والصلاة على الرسول ﷺ ، وهي بداية مشتركة في أغلب الوثائق.

(٢١) الماوردي ، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي ، ج ١٦ ، بيروت ١٩٩٩ ، ص ٢٢٨.

(٢٢) شاهد العدل: هي وظيفة قضائية يتولاها طائفة من الشهود خصوصاً بالعدالة دون سواهم ، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم أو عليهم. انظر: الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٦٦ ، محمد أمين ، الشاهد العدل في القضاء الإسلامي ، دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك ، حوليات إسلامية ، العدد ١٨ ، ١٩٨٢ ، ص ٥.

(٢٣) الأسبوطي ، جواهر العقود ، ج ٢ ، ص ٣٧٢.

(٢٤) محمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٩.

٢- تدل عبارة (أشهدني سيدنا القاضي) على أن الشاهد كبير القدر ، مثل أن يكون قاضياً أو قريباً منه ، لأن الشاهد العادي يكتب (أشهد على المقر)<sup>٢١</sup>، لكن يبدو أنه كان أكبر قدراً من أصحابه فبدأ الشهادة بنفسه. والعبارة نفسها دلالة على أن القاضي قد طلب منه الشهادة مع استجابة الشاهد لطلبه.

٣-٢: يحتوي هذين السطرين على بعض الألقاب الخاصة بالقاضي شرف الدين ، وكذلك ذكر اسمه واسم أبيه واسم جده ، وذلك حتى تكتمل صورة الإشهاد على الحاكم على طريقة الشاميين ، وهذه الصيغة تدل على أن القاضي هنا لم يكن قاضياً للقضاة بل نائباً فقط، وفقاً لصورة الإشهاد التي ذكرها الأسيوطي<sup>٢٢</sup>.

٤- يقصد بناظر الأوقاف ، الأوقاف الخاصة بالخانقاة الصالحية التي كان يديرها القاضي ، وهي الأوقاف التي خصصها صلاح الدين الأيوبي للإنفاق على الخانقاه<sup>٢٣</sup>. والمبرورة من الألقاب التي كانت تجري مجرى التفاؤل ، تيمناً بالبر الذي سيناله صاحبها<sup>٢٤</sup>.

٥- يقصد بالدعوة الشرعية المسموعة ، قيام القاضي بالاستماع للدعوى من المشاركين فيها، لأن أول شرط يحتاجه القاضي، فيما يثبته أو يحكم بموجبه أو صحته ، هو تصحيح الدعوى في ذلك كله وسماعها<sup>٢٥</sup>.

٦-٨: يذكر القاضي هنا ثقته في شهادة الشهود الواردين في الشهادة السابقة ، كما يؤكد على سلامة كافة الإجراءات المتبعة في الشهادة ، وهو بذلك يحدد للشهود الجدد، على هذا الإشهاد، سلامة الشهادة حتى يضعو شهادتهم دون ريبة أو خوف.

(٢١) الأسيوطي ، جواهر العقود ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥٢ .

(٢٣) مجير الدين ، الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٢٤) انظر: الفقهشندي، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ١٦٨ : صالحية ، من وثائق الحرم القدسي . ص ٤٤ .

(٢٥) الأسيوطي ، المصدر السابق ، ص ٣٧٣ .

٩-١١: أسماء الشهود ، ويظهر أولهم صاحب الأهمية، ثم يتبعه الشاهدان الآخران في الإقرار بصحة الإثهاد، من أجل تعزيز صحة الشهادة السابقة.

وتشير الوثائق إلى الجزس الشديد، من أهل الذمة، عندما يشعرون بمرض قد يخشى منه الموت، على أن يتركوا لنسائهم وبناتهم ، وأهشاتهم وأخواتهم، ما يُضمنون لهم به حياة كريمة ، خصوصا إذا كان الزوج لم ينجب من زوجته ، أو يكون بلا وريث من الأبناء ، وإذا لم يستغرق الورثة الإرث كله؛ فإن بيت المال والتمثيل في ديوان الموارث الحشرية؛ كان سيحصل على نصيب أكبر من التركة ، فكان الرجل منهم إما أن يعمل حصرا بموجوداته، قبل الوفاة، على يد أحد قضاة الشرع والشهود ، ويثبت أن تركته متينة لزوجته ، وأن لها في ذمته مبلغ كذا، كمؤخر صدق ، أو أن يقوم ببيع كل ممتلكاته لها، أو وقفها عليها ، أو على أخته أو أمه ، أو ابنته أو جاريته.

ومن أمثلة حرص أهل الذمة على ترك وصاياهم الخاصة بالميراث لدى القاضي الشرعي: الوثيقة رقم (٥٠٤) بتاريخ ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م، وموضوعها حضر أعيان بقصد الإرث ، فقد جاء فيها ما يلي:

حصل الوقوف على رجل يُسمى راشد ابن هارون بن سماعيل النصراني الشوبكي ، بدير العامود بالقدس الشريف ، والذي أقر أن موجوده ومستحق إرثه زوجته مريم بنت فريح ابن شند ، النصرانية الشوبكية، وبناته ست الأهل ، المرأة الكامل ، وست النظر الرضيعة ، وشقيقه غانم الغائب بالشوبك. وأقر أن في ذمته صداق زوجته مريم ، من الذهب بسنة وثلاثون دينارا<sup>(١)</sup>.

وتبدو تلك الوصية مشابهة للوصايا الإسلامية، وعدم تحديد نصيب كل فرد من الوصية؛ يوحي بأنها سوف تكون وفق الشريعة الإسلامية، لأنها معروفة للجميع. وتدل هذه الوثيقة على أمرين : الأول ، ثقة أهل الذمة في السلطة الحاكمة، التي يمثلها

(١) صالحة ، من وثائق الحرم القدسي ، ص ١٠٥ .

Little, A Catalogue of the Islamic Documents, p.131.

القاضي، في الحفاظ على حقوقهم ، والثاني هو قبول أهل الذمة للشريعة الإسلامية في تنظيم بعض شئون حياتهم ، وخاصة التي لم ترد فيها نصوص في كتبهم المقدسة ، مما يوحى بالثقة المتبادلة بين الطرفين.

كما كان أهل الذمة أحياناً يقدمون طلباً لديوان المواريث الحشرية ، ويقوم أحد رجال الديوان بحصر الممتلكات وتسليمها للمستحقين للإرث. وفي الوثيقة رقم (١٩٧) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهي تتعلق بأحد اليهود، نجد عملية حصر لممتلكاته ، ثم تحديد من يستحق أرثه ، حيث جاء فيها ما يلي:

“ وقف على رجل ضعيف يهودي يسمى “ اسحق بن شمويل بن يوسف “ بحارة اليهود بالقدس الشريف .. ، أقر أنه فرض لزوجته “ سمحة ابنة يهودا الإفريقية “ ، ومؤخر صداقها ستين أفلورى ذهب ، ومستحق إرثه زوجته المذكورة ووالدته “ نوسا بنت سلتين الإفريقية “<sup>(١)</sup>.

ولم يقف هذا الأمر على الرجال فقط ، بل شمل النساء أيضاً ، حيث كن يقدمن طلباً أيضاً لحصر تركتهن وتحديد من يرثنه. ومثال ذلك الوثيقة رقم (٣٨٤) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهي تتعلق بسيدة مسيحية تدعى “ أفروشيا بنت التاج اسحق النصرانية “ ، وقد حددت فيها تركتها ، وكذلك وريثتها وتدعى “ فخر النساء بنت سالم “ . وكذلك الوثيقة رقم (٥١١) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهي تتعلق بامرأة مسيحية تدعى “ ستوت بنت أشعيا النصرانية “ ، وفيها تحدد هذه المرأة أن وريثتها هما أخويها “ يوحنا وفرج الله “<sup>(٢)</sup>.

ولا يبدو ما قام به بعض أهل الذمة، في الوثائق السابقة، غريباً أو شاذاً عن تقاليد المجتمع وقتها ، لأن المسلمين كانوا يقومون به أيضاً لضمان حفظ حقوق أسرهم. ففي الحالة الأولى الخاصة براشد بن هارون ، نجد أنه كان يعلم أن عدم وجود وريث ذكر

(١) الصلى ، وثائق مقدسية ، ج ٢ ، ص ٤٢.

(٢) راجع ملخص هاتين الوثيقتين في:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, p.133.

له يعنى أن الثروة كلها لن تؤول لعائلته، بل سيذهب جزء منها لبيت المال ، لذلك حرص على أن يذكر أنه ما زال مديناً لزوجته بصداقها البالغ ٣٦ ديناراً، حتى تحتفظ أسرته بالإرث كاملاً ، وظهر ذلك في بداية الوثيقة نفسها، والتي حددت الورثة دون أن تذكر بيت المال من ضمن الورثة ، على الرغم من أن الورثة لا يستحقون الميراث بأكمله. وقد رأينا في وثائق أخرى أن بيت المال كان يتم ذكره حين يكون الورثة لا يستغرقون كل التركة ، كما في الوثيقة رقم (١٦٣) بتاريخ ٧٩٣هـ/١٣٩١م ، الخاصة بحصر أعيان بغرض الإرث ، حيث ذكر بجوار عبارة الوارثون ( زوجها ، محمد بن محمد السمنودي ، وبيت المال المعمور )<sup>(١)</sup>.

أما الحالة الثانية فكانت أمراً معتاداً من أجل التسجيل الرسمي للإرث ، حفاظاً على حقوق الورثة، ومنعاً لأي تعبد عليها ، ويبدو فيها ثقة أهل الذمة في رجال السلطة القضائية ، ومراعاتهم للحقوق. سواء للمسلمين أو لغيرهم من أهل الذمة ، حتى لو كان الورثة من اليهود الغربيين. ورغم أن لتل<sup>(٢)</sup> افترض أنهم ربما يكونون من زوار القدس، نظراً لأن اسحق لم يكن يملك الدار التي يسكنها ، وكذلك لأن زوجته وأمه كانتا أوريينتين. إلا أن هذا لا يبدو صحيحاً، لأن الوثيقة لم تذكر ذلك صراحة. وقد اعتدنا في وثائق الحرم القدسي أن يذكر بلد الرجال والنساء المذكورين فيها؛ لو كانا من منطقة أخرى غير القدس.

لكن ذلك لم يكن يعنى أن ليس هناك بعض التجاوزات؛ التي وقعت ضد بعض أهل الذمة من جانب موظفي السلطة المملوكية ، ومن ذلك ما ورد في الوثيقة رقم (٣٣٥) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهي عبارة عن تحقيق في شكوى كان قد تقدم بها شيخ

(١) انظر نص هذه الوثيقة في: صالحية ، من وثائق الحرم القدسي ، ص ٨٤.

(٢) See: Little, Haram documents related to the Jews, p.242.

المغاربية في القدس، ويدعى محمد بن عبد الوارث المالكي، إلى نائب السلطنة في دمشق<sup>(٩)</sup>، وهو المسئول عن أمور القدس. وقد نكر في الشكوى أن أحد اليهود ويدعى إبراهيم الأمتى توفي وترك وصية لأحد أقاربه، لكن الموصى له كان في السجن، وهنا قام متولي المدينة<sup>(١٠)</sup> بمصادرة أمواله لبيت المال، دون النظر للوصية، ولم يستجب لشكاوى اليهود هناك. وهنا لجأ اليهود إلى أحد كبار المشايخ المسلمين، وهو محمد المالكي، الذي حاول إنشاء الوالي عن قراره لكنه فشل في ذلك، فكتب شكوى إلى نائب السلطنة في دمشق يوضح له ظلم الوالي وتصرفه، ويطلب منه التدخل وتنفيذ الوصية. وقد استجاب النائب للشكوى وأمر بالتحقيق فيها<sup>(١١)</sup>.

ومن خلال تلك الوثيقة يمكننا الوقوف على بعض الملاحظات؛ أولها أن هذه الوثيقة تؤكد على العلاقة الطيبة بين المسلمين واليهود في القدس، وهو ما دفع اليهود للتوسط لدى شيخ مسلم لاستعادة حقوق واحد منهم، وترجيح الشيخ بذلك، وتنفيذ الأمر لكي تعود إليهم حقوقهم. كما تشير إلى حرص السلطات المملوكية على تحقيق العدالة، وحماية حقوق أهل الذمة في أراضيها، وهو أمر معروف عن المماليك في علاقتهم بأهل الذمة من رعيته.

ومن المعاملات القضائية الأخرى الخاصة بأهل الذمة في القدس: حالات الزواج والطلاق أو الخلع<sup>(١٢)</sup>. ومثال ذلك الوثيقة رقم (٣٠٢) بتاريخ ٧٩٤هـ/١٣٩٢م وهي وثيقة

(٩) هو لقب لل مقام مقام السلطان المملوكي في عامة أموره أو أغلبها، وكانت الشام منقسمة إلى عدة نابات أهمها دمشق، وكان يقال لنائبها كافل السلطنة. انظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق ١٩٩٠، ص ١٤٩.

(١٠) لقب يطلق على من يستند إليه القيام أو الإشراف على عمل من الأعمال أو من يتقلد منصباً من المناصب أو ولاية من الولايات. انظر: حسن الباشا، القنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج ٣، دار النهضة العربية، ص ٩٩٦.

(١١) انظر نص هذه الوثيقة في: صالحية، من وثائق الحرم القدسي، ص ٩٢-٩٣.

Little, Haram documents related to the Jews, pp. 244-245.

(١٢) الخلع في اللغة هو: أن تطلب المرأة من زوجها أن يطلقها مقابل فدية من مالها، وفي الاصطلاح هو: فرقة بين الزوجين يعرض مقصود نجهة الزوج بلفظ (طلاق) أو (خلع). انظر: شمس الدين

مزدوجة؛ تحمل على وجهها عقد زواج خاص برجل مسلم (عبد الله بن منصور) وامرأة مسيحية (سعيدة بنت تواكيل) يثبت الزواج بينهما، وقيمة الصداق المدفوع من الزوج لزوجته ، وعلى ظهرها عقد الخلع الخاص بهما، بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م. حيث تطلب الزوجة من زوجها الخلع مقابل رد صداقه ، مع قبول الزوج لذلك دون مشاكل. ومن خلال هذه الوثيقة نلاحظ وجود بعض حالات للزواج بين المسلمين وأهل الذمة ، وهو أمر ليس بجديد ، إذ كان أمراً معتاداً في المجتمع الاسلامي ، حيث تُجل الشريعة الإسلامية زواج المسلم من نساء أهل الكتاب من اليهود والنصارى<sup>(١)</sup> ، ويكون للكتابية نفس حقوق المسلمة في النفقة والقسم والطلاق<sup>(٢)</sup>.

كما نلاحظ أن الزواج تم وفق الشريعة الإسلامية وفق المذهب الشافعي ، وهو المذهب الذي كان سائداً وقتها في مصر وبلاد الشام<sup>(٣)</sup>. وعلى هذا الأساس استطلت الزوجة المسيحية ذلك في طلب الخلع من زوجها، مع رد ما دفعه من صداق لها، وفق الشريعة الإسلامية. ويؤكد ذلك على حالة الانسجام والتعايش مع أهل الذمة في مجتمع القدس الإسلامي.

ولم تقتصر المعاملات القضائية لأهل الذمة على النواحي الاجتماعية فقط ، بل شملت بعض الأحوال الاقتصادية ، مثل: عقود بيع وشراء ، وقروض ، وإقرارات بحظر العمل ببعض الأنشطة الاقتصادية. ومن هذه النماذج الوثيقة رقم (١٥) بتاريخ ٧٤٣هـ/١٣٤٣م<sup>(٤)</sup>، وهي عقد بيع لدار بحارة النصارى لأحد المسيحيين، ويدعى رزق الله

الأنصارى ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، ج ٦ ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٣هـ ، ص ٣٩٣ ، المعجم الوسيط ص ٢٥٠.

(١) وذلك وفق قوله تعالى: (وَمِمَّا يُغْنِي عَنْكَ اللَّهُ الْكُفْرَ، أَفَتَأْتُونَ الْكُفْرَ مِنْ بَعْدِ مَا أَنْقَضَ اللَّهُ مِنْكُمْ الْكُفْرَ؟ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاسِينَ) سورة المائدة ، الشافعي ، الأم ، ج ٥ ، دار المعرفة ، ١٩٩٠ ، ص ٧.

(٢) الماوردي ، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي ، ج ٩ ، بيروت ١٩٩٩ ، ص ٢٢٠.

(٣) علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٢٢.

(٤) انظر وصف هذه الوثيقة في:

بن بولس النصراني ، والبائع هنا هو بيت المال بالقدس، وهو شخص اعتباري، لذلك كان النائب عنه وكيل بيت المال، ويبدو أن هذه الدار كانت مما يؤول لبيت المال من الموتى دون وريث.

ونحن نعلم أن حارة النصارى، برغم اسمها، كان للمسلمين فيها بعض البيوت كما سبق أن ذكرنا ، كما كان للمسلمين أيضاً بعض البيوت في حارة اليهود<sup>(٣)</sup>. وعليه لم يجد بيت المال غضاضة في بيع أحد البيوت التابعة له لبعض أهل الذمة ، ولم يخص المسلمين بها ، مما يوحي بالعدالة في المعاملة من جانب السلطة المملوكية.

ومن الوثائق الأخرى في هذا المجال: الوثيقة رقم (٨٧١) ، بتاريخ ٧١١هـ/١٣١١م<sup>(٤)</sup>، وهي إقرار دين يخص رجلاً مسيحياً يدعى بايدوس بن ماثويل النصراني وابنه ايفانوس ، أقر باستلام قرض قيمته ٢١٠٠ دينار ذهبي، من أحد الأمراء القرس، عن طريق نائب له يبدو أنه كان يتولى شؤونه المالية ، وفي الإقرار يلتزم بايدوس بدفع القرض بعد عام من تاريخ الإقرار.

كذلك هناك من ضمن المعاملات القضائية: بعض المعاملات التي كانت بمثابة عقوبة للمخالفين من أهل الذمة، حين يخرقون القانون ، ومن ذلك الوثيقة رقم (٦٣٦) ، بتاريخ ٧٩٦هـ/١٣٩٤م<sup>(٥)</sup>، وموضوعها تعهد بعدم مزاوله مهنة الجزارة .. وتنص على تعهد ثلاثة من يهود القدس (هلال بن موسى - زكري بن باروخ - داود بن اشمويل) بعدم ممارسة مهنة الجزارة، سواء للمسلمين أو غيرهم، نتيجة إخلالهم بشروط الذبح ، وفرض غرامة قدرها ١٠ آلاف درهم في حال مخالفة هذا التعهد.

(٣) Little, Haram documents related to the Jews, p.231.

(٤) انظر وصف هذه الوثيقة في:

Little, A Catalogue of the Islamic Documents, pp.380-381.

(٥) انظر وصف هذه الوثيقة في: صالحية ، من وثائق الحرم القدسي ، ص ٧٧.



ونلاحظ على هذه الوثيقة أنها كانت نوعاً من الحصبة ، حيث كان من مهام المحتسب مراقبة الأسواق والحرف المختلفة ، لضمان عدم الإخلال بشروط كل حرفة<sup>(١)</sup> ، ويبدو أن المحتسب قد كشف إخلال هؤلاء الجزارين بشروط الذبح ، فقرر عقابهم بمنع مزاوله المهنة.

ولا يبدو في الأمر تصف ضد اليهود ، بمنعهم من الذبح للمسلمين ، لأن الإسلام لم ينه عن ذلك ، لأنه اعتبر أن طعام أهل الكتاب حل للمسلمين<sup>(٢)</sup> . بل يبدو الأمر معاقبة عادية لمخالفة مهنية ، ويبدو أنها تكررت حتى وصلت لدرجة المنع .. ولم يعترض اليهود على ذلك بل أقروا باعتماد العقوبة وتقبلها دون إجبار.

ولم تصلنا من خلال الوثائق الخاصة بأهل الذمة أية إشارات لتدخل رؤساء كل طائفة في أي تعامل قضائي ، سواء بشكل رسمي أو شخصي ، باستثناء إشارة واحدة نادرة وردت في الوثيقة رقم (٥٥٤) ، بتاريخ ٧٩٣هـ / ١٣٩١م ، وموضوعها حصر إرث لرجل يهودي من سكان القدس يدعى يعقوب بن شمويل ، حيث ورد بهذه الوثيقة أن من بين من حضروا حصر الإرث (رؤساء اليهود الرئيس) ، والمقصود بالرئيس هنا هو رئيس اليهود الذي يحكم عليهم ويقضى بينهم وفق شريعتهم<sup>(٣)</sup> ، ويسمى في العبرية ناقد ، وهو منصب مشابه لمنصب البطريرك المسيحي<sup>(٤)</sup>.

وبرغم أن الوثيقة لم توضح أي دور للرئيس اليهودي في هذا الإجراء ، باستثناء حضوره أثناء حصر الإرث الذي كان ربما كان حضوراً عادياً ، إلا أن لتل<sup>(٥)</sup> رأى أن

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٤١-٢٤٢ ؛ أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ص ١١٦ .

(٢) مصداقاً لقوله تعالى : " وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ " ، سورة المائدة - آية ٥ .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٨٥ .

(٤) Bosworthm C. , " Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria " , *IJMES*, 3 (1972), pp.70-71; Goitein, D. , " The title and office of Nagid: a re-examina- tio " , *JQR*, vol. LIII (1962-3), pp. 93-119.

(٥) Little, *Haram documents related to the Jews*, p.238.

القاضي المسلم ربما قصد حضوره للتأكيد على حسم المسألة، أو أنه سعى لإثبات معرفة الرئيس بسلطة القاضي على هذا الإقرار. ويبدو أن لقل بني الافتراضه على أساس تخوف القاضي المسلم من تدخل الرئيس، بعد ذلك، في مسألة الإقرار، ورغبته في إثبات قبوله الرسمي لما جاء في الإقرار، ولكن يبدو هذا الافتراض ضعيفاً ، إذ لم نصادف فيما وصلنا من إقرارات خاصة بأهل الذمة، سواء كانوا يهوداً أو مسيحيين، أي إشارة لرئيس أي طائفة منهم ، كما لم تصلنا أي إشارة عن شكوى من تدخل رؤساء الطوائف في المواريث، بعد إقرارها رسمياً لدى القاضي. وأغلب الظن أن الرئيس كان على علاقة شخصية بصاحب الإرث، فكان حضوره أمراً عادياً.

**صفحة القول :** من خلال التعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس، في ضوء وثائق الحرم القدسي ، يمكننا أن نرصد التعايش في هذه المدينة بين أهل الذمة من اليهود والمسيحيين من ناحية ، والمسلمين من ناحية أخرى، تحت رعاية سلطة المماليك. وقد أوضحت لنا هذه الوثائق مدى تعايشهم مع المجتمع الإسلامي هناك. حيث شارك اليهود والمسيحيون المسلمين في القدس حياتهم ، سواء من حيث العادات والتقاليد ، أو من حيث مساهمتهم في النشاط الاجتماعي والاقتصادي. ومن خلال هذه المعاملات القضائية؛ يظهر لنا أنهم كانوا يتعاملون مع المسلمين، وأحكام الشريعة الإسلامية، بشكل عادي دون الشكوى منها غالباً.

## ال لوحات

### لوحة (١)





### أولاً المصادر والمراجع العربية

- أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٩ .
- الأسبوطي ، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ، نشر: محمد سرور الصبان ، القاهرة ١٩٥٥ .
- أنستاس الكرمل ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ابن تقي برز ، المجموع الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٩٢ .
- الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٣٨ .
- أبو الحسن الستولى ، البهجة في شرح التحفة ، بيروت ١٤١٢هـ .
- حسن الياسا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ،
- ابن أبى الدم الحموي ، أدب القاضي ، تحقيق : محي الدين السرحان ، بغداد ١٩٨٤ .
- السخاوى ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام بن حجر ، تحقيق: إبراهيم عبد المجيد ، بيروت ١٩٩٩ .
- سيدة المكاشف ، مصر الإسلامية وأهل ذمتها ، القاهرة ١٩٩٣ .
- الشافعي، الأم، دار المعرفة ١٩٩٠ .
- شمس الدين الأنصاري ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٣هـ .
- عامر الزبياري ، أحكام الخلع في الشريعة الإسلامية ، بيروت ١٩٩٧ .
- ابن عربي ، أحكام القرآن ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، بيروت ١٤٠٨هـ .
- على السيد على ، القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٨٦ .
- ----- ، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي ، مجلة الدرعية ، العدد ٦-٧ ، ١٩٩٩ .
- ابن فرحون ، تبصرة الحكام في أصول القضية ومناهج الأحكام ، تحقيق: جمال مرشلي ، الرياض ١٤٢٣هـ .
- ابن قدامة ، المغنى ، دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥ .
- القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٨ .
- كامل جميل الصلبي ، "وثائق مقدسية تاريخية" ، عمان ١٩٨٣ .
- العاوري ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ----- ، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي ، بيروت ١٩٩٩ .
- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط ٤ ، القاهرة ٢٠٠٤ .

- مجير الدين الحنبلي ، الأئمة الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف ١٩٦٦.
- محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دمشق ١٩٩٠.
- محمد عمارة ، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية .
- محمد عيسى صالحية ، ' من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية ' ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- محمد محمد أمين ، الشاهد العدل في القضاء الإسلامي ، دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسهال عدالة من عصر سلاطين المماليك ، حوليات إسلامية ، العدد ١٩٨٢ ، ١٨٠.
- ابن ممتى ، كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣.
- المناوي ، النقود والمكايل والموازين ، تحقيق: رجاء السامرائي ، بغداد ١٩٨١.
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف (ب.ت).
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، بيروت ١٩٧٧.
- ابن يوسف الحكيم ، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق: حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، م ٦ ، العدد ١-٢ ، ١٩٥٨.

#### ثانياً: المراجع الأوربية

- 'Abd ar-Raziq, A., *La Femme au temps des Mamlouks en Égypte*. Cairo: Institut Francais D'Archeologie Orientale du Caire, 1973.
- Bosworth, C., " Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria", *IJMES*, 3 (1972), pp.59-74.
- Little, D., "The Significance of the Harem Documents for the Study of Medieval Islamic History," *Der Islam* 57 (1980), pp. 189-217.
- ———, "Two Fourteenth Century Court Records from Jerusalem Concerning the Disposition of Slaves by Minors," *Arabica* 29 (1982), pp. 17-28.
- ———, *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Haram a Šarīf in Jerusalem* (Beirut, 1984).
- ———, " Harem documents related to the Jews of late fourteenth century Jerusalem ", *JSS* 30 (1985), pp.327-370.
- ———, " Documents related to the estates of a merchant and his wife in late Fourteenth Century Jerusalem ", *MSR* 2(1998),pp.

- Goitein, D., " The title and office of Nagid: a re-examination ", *JQR*, vol. LIII (1962-3), pp. 93-119.
- Linda S. Northrup and Amal A. Abul-Hajj, "A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Ḥaram al- Šarīf " *Arabica* 25 (1979), pp.282-91.
- Lowry, C., Marriage and divorce in late Fourteenth Century Jerusalem, Master diss., (Portland State University) 2007.
- Müller, C., "A legal Instrument in the Service of People and Institutions: Endowments in Mamluk Jerusalem as Mirrored in the Ḥaram Documents", *MSR* 12 (2008), p.173-191.
- , Der Kadi und seine Zeugen Studie der mamlūkischen Dokumente des Ḥaram Šarīf. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden 2013.
- Rapoport, Y., *Marriage, money and divorce in medieval Islamic society*. Cambridge : Cambridge Univ. Press, 2005.
- Vesely, R., "Die richterlichen Beglaubigungsmittel: Ein Beitrag zur Diplomatik arabischer Gerichtsurkunden", *Orientalia Pragensia* 8 (1971), pp.12-18.

## سفارات السلام بين دولة المماليك ومغول فارس زمن السلطان المنصور قلاوون

د أحمد هاشم بدرشيني

أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة طيبة المدينة المنورة

منذ مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، شهد العالم الإسلامي هجوماً شرساً قامت به جموع وثنية غفيرة، جاءت من أواسط الصين، وبالتحديد من هضبة منغوليا، هذه الجموع هي التي أطلق عليها المغول أو التتار، واتسمت هذه الهجمة بالتخريب والتدمير، وزاد من خطورة هذه الجموع أنها لم تدن يدين سماعوي، وإنما كانت وثنية لم تحترم عهوداً ولا أماناً، فمالوا إلى الوحشية والقسوة في معاملاتهم<sup>(١)</sup>.

وفي فترة وجيزة استطاعت هذه الجموع غزو معظم بلاد العالم الإسلامي، حيث حطموا الدولة الخوارزمية<sup>(٢)</sup>، ثم أتوا على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م)<sup>(٣)</sup>، ثم تابعوا زحفهم في اتجاه

(١) عرفت عقيدة المغول الوثنية بالشامانية، وتنسب إلى لفظ شامان وهو لقب لرجل الدين في هذه الأماكن، ويقوم بعدة وظائف فهو رجل دولة وساحر وطبيب ومشرع سياسي، وانتشرت هذه الديانة بصحراء سيبيريا. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، طبعة بيروت ١٩٦٦م، ج ١٢، ص ٣٦٠؛ رشيد الدين الهمداني: جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م، المجلد الثاني، ج ٢، ص ١٢٢٠؛ الفلكنسكي: صبح الاعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية دت، ج ٤، ص ٣١٠.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ احمد حمدي، القاهرة ١٩٥٣م، ص ١١٠٦-١١٠٧؛ الجويني: جهان كشاي، تاريخ فتح العالم، ترجمة السباعي محمد السباعي، القاهرة ٢٠٠٧م، ج ١، ص ١٤٠-١٥١؛ انظر أيضاً: محمد أسد الله صفا: جنكيزخان، بيروت ١٩٨٨م، ص ٢١٥-٢٢٢؛ محمد دير سيالي: السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ، ترجمة: أحمد الخولي: القاهرة ٢٠٠٩م، ص ٤١-٦٨.

(٣) الهمداني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص ٢٨٥؛ أبو الفدا: المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥هـ، ج ٣، ص ١٩٤؛ خاندنير: دستور الوزراء، ترجمة



بلاد الشام، حيث دانت لهم معظم مدنه، سواء بالاستسلام أو بقوة السلاح<sup>(١)</sup>، مما جعل كثيرا من المؤرخين المعاصرين يتعجبون من هذه الانتصارات السريعة، التي أحرزها المغول في تلك الفترة الوجيزة.

غير أن الله سبحانه وتعالى كتب لأمة الإسلام أن تنتصر على هذه الجموع الوثنية، فقام السلطان المظفر قطز، سلطان دولة المماليك في مصر والشام (٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠م) بالتصدي لهم في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وأحرز انتصارا كبيرا عليهم<sup>(٢)</sup>، مما جعلهم يرتدون إلى إيران، حيث أقاموا بها دولة لهم أطلق عليها اسم 'الدولة الإيلخانية'، وضع أساسها هولاكوخان<sup>(٣)</sup>.

هربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م، ص ٢٠٨، انظر أيضا: حامد زيان: سقوط بغداد، مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - فرع بني سويف، العدد الخامس، أكتوبر ٢٠٠٣م، ص ٥٠. ٢٦: ابن أبي الصبية: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٨١م، ج ٣، ص ٣١١.

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، نشر Cahen في

Bulletin d'etudes Orientales, Paris Tom xv, p.

اليوناني: ذيل مرأة للزمان، حيدر اباد - الهند ١٩٦٠م، ج ١، ص ٣٤٤.

(٢) أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، نشر السيد عزت الطاهر، بيروت ١٩٧٤م، ص ٢٠٧؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م، ج ١، ص ٢٠٢؛ ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية دزت، ج ٧، ص ٩١؛ انظر أيضا: حامد زيان: المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص ٦٠٥٢.

- عين جالوت: بلدة بين بيسان وتلبس من أحصاء فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٩٥٧م، ج ٤، ص ١٧٧.

(٣) الهمداني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، للجزء الثاني، ص ٩-١١٨٩؛ ابن خلدون: المعبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق - مصر ١٢٨٤هـ، ج ٥، ص ٥٤٢-٥٤٦؛ انظر أيضا: فؤاد = عبدالمعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م، ص ٢٧-٣٠.

- الإيلخانيون: أطلق على هذه الدولة هذا الاسم، نسبة إلى كلمة "إيل" المغولية التي تعني خاضع أو مطيع، فيكون المعنى المطيع للخان. انظر: خليل آدم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة، ترجمة احمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٧٢م، ج ٣، ص ٤٨٠.

وإذا كان هولاكو خان قد توفي عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، فإن خلفاءه من خانات مغول فارس تابعوا الإغارة على الممتلكات الإسلامية المجاورة لهم، مما أدخلهم في صراع مرير مع سلاطين المماليك أصحاب القوة العسكرية النامية في تلك الفترة<sup>(٧)</sup>.

وفي محاولة من مغول فارس من أجل الوقوف أمام قوة المماليك العسكرية، حاولوا التحالف مع بعض القوى الأوروبية، وقوة الدولة البيزنطية، وقد رأى الأوروبيون، في شخص المغول، عاملاً مساعداً لهم في توجيه حملة صليبية مغولية إلى بلاد الشام، لانتزاع بيت المقدس من يد المماليك، غير أن هذه المشاريع الحربية العدائية لم تلبث أن فشلت<sup>(٨)</sup>.

إزاء ذلك فشل اضطر خان المغول آياقاخان إلى طلب الصلح من السلطان الظاهر بيبرس، غير أن بيبرس رفض مد يده إلى من تلطخت يده بدماء المسلمين<sup>(٩)</sup>.

تابع السلطان الظاهر بيبرس كفاحه ضد مغول فارس وأنزل بهم عدة هزائم<sup>(١٠)</sup>، كما واصل السلطان المنصور قلاوون (٦٧٩-٦٨٩هـ/١٢٨٠-١٢٩٠م) سياسة الظاهر بيبرس في محاربة مغول فارس، وأنزل بهم هزائم متتالية، كان أشهرها معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، التي توفي على أثرها أبقا خان غناً وكمداً على هذه

(٧) المقرئبي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٤؛ الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ٤٠٠-٣٣.

(٨) المقرئبي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٤؛ انظر أيضاً :  
Howorth : History of the Mongols, London , pp.

سعيد عاشور : الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٨٩.  
(٩) ابن أبيك الدوداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم الدرر الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص ١٣٩-١٤٠؛ ابن كثير : البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف ببيروت ١٩٨٥م، ج ١٣، ص ٢٥٤؛ انظر أيضاً : سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م، ص ٤٣-٤٥.

(١٠) اليوناني : نيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ١٣٠-١٣١؛ المقرئبي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٦-٦٠٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص ١٥٩، ١٦٨.

الهزيمة<sup>(١١)</sup>.

غير أن هذه السياسة العدائية التي سيطرت على علاقة مغول فارس بسلطنة المماليك، في مصر والشام، لم تلبث أن تغيرت بعد أن تولى السلطان أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس عام ٦٨١هـ<sup>(١٢)</sup>.

أما تكودار هذا فهو الابن السابع لهولاكو خان، أمه هي قوتى خاتون<sup>(١٣)</sup>، التي دانت بالمسيحية، لذلك أثرت على ابنها تكودار وهو في طفولته، مما جعله يدين بالمسيحية وتسمى باسم "نيقولا"، وذلك على الرغم من أن والده هولاكو خان، كان وثنياً على العقيدة البوذية<sup>(١٤)</sup>.

ولم يلبث تكودار أن اعتنق الدين الإسلامي وهو في مطلع شبابه، أثناء حياة والده هولاكو خان أيضاً<sup>(١٥)</sup>، وذلك بعد أن تعرف على هذا الدين من الشيخ كمال الدين

(١١) يقول اليرزالي الذي كان معاصراً لهذه المعركة: " فلما تحقق - أي إيف خان - الكسرة رجع على عقبه إلى همدان، فمات بها غم " انظر: المقتفى في كتاب الروستين المعروف بتاريخ اليرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٥٤٨. وعن هذه المعركة انظر أيضاً: محي الدين بن عبدالظاهر: تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٣ ابن حبيب: تذكرة النبیه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م، ج ١، ص ٦٢-٦٣.

(١٢) تولى أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس في يوم الأحد ١٣ ربيع الأول عام ٦٨١هـ/ ٢٢ يونيو ١٢٨٢م. انظر: الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص ٩٢.

(١٣) الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص ٨٨. يذكره المؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر باسم: " قوتوخاتون "، راجع: تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٤.

(١٤) الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ١٢١.  
- يرفض أحد الباحثين المحدثين تدين تكودار بالمسيحية، ويعتمد في ذلك على أن الذي أورد تلك المعلومات هو أحد المؤرخين المسيحيين الأرمن، الذي حاول تصوير المغول على أنهم مثو إلى المسيحية. انظر: رجب محمد عبدالحليم: انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٧٨.

(١٥) ابن تفردي يردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج، ص ٣١٠.

عبدالرحمن، الذي كان له تأثير كبير على تكودار وعلى عدد كبير من أسرته<sup>(١١)</sup>.

وعلى هذا النحو اعتنق تكودار الإسلام وهو في سن الصبا، ومما يؤكد اعتناق تكودار للإسلام، وهو في مطلع شبابه، هو اعترافه بذلك، وإقراره أنه اعتنق الإسلام " في عفوان الصبا، وريغان الحداثة "، في الرسالة التي أرسلها إلى السلطان المنصور قلاوون والتي سيأتي شرحها بإذن الله<sup>(١٢)</sup>. ولذلك لا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن تكودار أعلن إسلامه بعد ولايته حكم مغول فارس<sup>(١٣)</sup>.

كذلك تشير بعض المصادر أنه بعد إسلامه غُيِّرَ اسمه، حيث كان اسمه " أغا تكودار "، فتسمى باسم أحمد تكودار<sup>(١٤)</sup>. ويضيف ابن تغري بردي أنه تسمى باسم أحمد في حياة والده هولكو<sup>(١٥)</sup>، ويروي الشيخ الذهبي أن سبب هذه التسمية يعود إلى ما

(<sup>١١</sup>) محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الأيام والعصور، ص ٤٨.

ويذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن يعود أصله إلى الموصل. وكان يعرف بعبدالرحمن النجار، وهو في الأصل كان مملوكاً. انظر : تشریف الأيام والعصور، ص ٤٨. ويذكر ابن الغوطي أن والده كان مملوكاً رومياً للحليفة المستعصم بالله، ونشأ عبدالرحمن في بيت الخلافة وعمل كاحد انفرشين، وعند هجوم المغول على بغداد وقع في أسرهم، وحملوه معهم إلى مصرهم (الأردن) ثم أظهر الزهد حتى عُرف فيهم بالشيخ، ثم تنقل بين البلاد حتى ذهب إلى الموصل، حيث اتصل بعز الدين أبيك بن عبدالله المعروف بالطويل الذي كان مولفاً بعلم الكيمياء، فعلمه بعضاً من ذلك العلم، ثم أنه بعد اتصاله بختات مغول فارس اخذ بوجههم بمعرفة بالغيب، ويقوم ببعض الاعمال التي جعلتهم يعتقدون فيه. انظر: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق : بشار عواد والخرن، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٤٦٨-٤٦٩ (ملحوظة يشكك محقق كتاب الحوادث الجامعة في نسبته إلى ابن الغوطي).

(<sup>١٢</sup>) محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الأيام والعصور، ص ٦.

(<sup>١٣</sup>) بييرس الدودار : زيد الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : زبيدة عطاء، القاهرة د.ت، ج ٩، ص ٢٠٢. أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ١٦، ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر المعروف باسم تاريخ ابن الوردي، تحقيق : أحمد رفعت، بيروت ١٩٧٠م، ج ٢، ص ٣٢٨. انظر أيضاً : السيد البلاز العريضي : المغول، بيروت ١٩٨١م، ص ٣٠٢.

(<sup>١٤</sup>) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الثامن، تحقيق : قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت د.ت، ص ٤.

(<sup>١٥</sup>) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٤م، ج ٣، ص ٢٥٥.

حدث من الفقهاء الصوفية الأحمدية الذين دخلوا به في النار بين يدي هولاكو، فوهبه لهم وسماه أحمد<sup>(٢١)</sup>.

وتخلص من ذلك إلى أن تكودار أسلم وهو في مطلع شبابه، وأنه تسمى باسم أحمد، كل ذلك حدث قبل توليه حكم المغول، ويؤكد على ذلك مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني بقوله: "ولما كان - أي تكودار - معتقاً للإسلام، فقد لُقّب بالسلطان أحمد"<sup>(٢٢)</sup>، أي أنه لم يتخذ لقب خان، وهو اللقب الفارسي الذي كان يتلقب به حكام دولة مغول فارس، وإنما أثر أن يتخذ لقباً من ألقاب الحكام المسلمين.

وثمة إشارة ذات أهمية، يجب التوقف عندها، وهي ما أشار إليها الكاتب والمؤرخ محي الدين بن عبد الظاهر من قوله: أن الشيخ كمال الدين عبد الرحمن أشار على تكودار باعتراف الإسلام "خديعة ومكرًا"، وذلك حتى يقيم سلاتنا مع السلطان المنصور قلاوون، ويكتفي أمر حكام مصر والشام ويأمن جانبهم "ويتفرغ لقتال قومه وأقاربه وإخوته وولد أخيه أرغون"<sup>(٢٣)</sup>. ومعنى ذلك أن محي الدين بن عبد الظاهر يتشكك في إخلاص تكودار للإسلام، وأنه إنما أعلن إسلامه لأهداف سياسية بحتة!! غير أننا لا نستطيع أن نشابع ابن عبد الظاهر في هذا الرأي، خاصة وأن المصادر امتدحت أحمد تكودار وإخلاصه للإسلام والمسلمين<sup>(٢٤)</sup>، كما أنه بذل قصارى جهده في حث قومه من المغول على الإسلام، لدرجة أن عزله عن الحكم وما ناله من القتل، بعد ذلك، إنما يعود لهذا السبب، ولغيره من الأسباب<sup>(٢٥)</sup>.

(٢١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج ١٤، ص ٥٧٧.

(٢٢) جامع التواريخ، المجلد الثاني، ص ٩٢.

(٢٣) تشریف الأيام والعصور، ص ١٤٨، وانظر كذلك: ابن أبيك الدوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم: الدرّة الزکویة فی أخبار الدولة التترکية، ص ٢٤٨.

(٢٤) ابن تغري بردي: التلجؤ الزاهرة، ج ٧، ص ٣١٠.

(٢٥) يقول أبو الفدا: "كانت خواطر الفغل قد تغيرت على أحمد بسبب إسلامه والزامه لهم بالإسلام، فاتفقوا على قتله". المختصر في أخبار البشر، ج ٧، ص ١١٧ ويقول ابن أبيك الدوداري: "هذا

سارع أحمد تكودار بعد جلوسه على عرش مغول فارس إلى الكتابة إلى أهل بغداد يخبرهم فيها بإسلامه<sup>(٢٦)</sup>، ويبحث في قلوبهم الطمأنينة، وأنه سوف يرعى ما ببغداد من مساجد ومدارس، وسوف يقرر لها الأوقاف اللازمة للإنفاق عليها، كما كان الحال أيام الخلفاء العباسيين، وأنه بما من الله عليه بالإسلام، وشهادته بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، مؤمن تمام الإيمان بأن يكون المسلمون ومنهم أهل بغداد، من الثقة المنتصرة الظافرة كما قال النبي (ﷺ). وفي ختام الرسالة يطلب من أهل بغداد أن يرسلوا نسخاً من هذه الرسالة إلى كافة الجهات حتى تطمئن القلوب<sup>(٢٧)</sup>.

ويتبادر إلى الذهن سؤال، ما هي الأسباب التي دفعت أحمد تكودار للكتابة إلى أهل بغداد دون غيرهم من أهل البلاد الإسلامية التي تخضع لحكم مغول فارس؟ والمعروف أن مغول فارس بسطوا نفوذهم على كل من العراق وخراسان وآذربيجان والجزيرة، وبعضى من بلاد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى<sup>(٢٨)</sup>.

إن الذي دفع أحمد تكودار للكتابة إلى أهل بغداد بهذه الرسالة، هو علمه بما قام به جده هولاكو من تخريب وتدمير لما ببغداد من مساجد ومدارس، وقتله للعديد من علمائها وفقهاءها<sup>(٢٩)</sup>، لذلك أراد أن يزيل عنهم آثار هذه الاعتداءات، ومن ناحية أخرى أراد أن يخبرهم

عسى أحمد أحماد قد أسلم، وغير ما أسسه جنكزخان". الدرر الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ٢٦٤؛ ويقول بيبرس الدوداري: "قتل السلطان أحمد لأسباب منها إسماعته إلى أكابرهم ومنها إلزامه إياهم بالدخول في الإسلام طوعاً أو كرهاً". انظر: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، ص ٢٢١؛ وانظر أيضاً تحقيق دونالد س. رنشاردز، بيروت ١٩٩٨م، ص ١٢٣٧ ويذكر أيضاً ابن خلدون: أن أهل مصر كاتوا ينقمون عليه إسلامه، فثاروا عليه وقتلوا ناتبه ثم قتلوه". انظر: العبر وديوان المبدأ والخبر، بولاق مصر ١٢٨٤هـ، ج ٥، ص ٥٤٦.

(<sup>٢٦</sup>) انظر نص هذه الرسالة ضد محي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٥، ومنحق رقم {١}.

(<sup>٢٧</sup>) محي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٥؛ بيبرس الدوداري: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(<sup>٢٨</sup>) انظر: الأذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج ١٤، ص ٥٧٧.

(<sup>٢٩</sup>) عما قام به هولاكو من أعمال تدمير وتخريب وقتل ببغداد انظر: رشيد الدين الهمداني: جامع التواريخ.

أنه لن يقوم بالإغارة على بغداد ونهبها، كما فعل أسلافه من حكام دولة مغول فارس السابقين، بل على العكس، سيوف تنعم بغداد في عهده بالأمن والطمأنينة<sup>(٣٠)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك فإن الكاتب والمؤرخ محي الدين بن عبد الظاهر ذكر نصاً ذا أهمية كبيرة في هذا الشأن، ويفسر هذا النص أيضاً تحركات مغول فارس بعد ذلك، يقول ابن عبد الظاهر: "ولما جرى ذلك - يقصد تنصيب أحمد تكودار على عرش المغول - تحدثوا فيما بينهم في أن قنرتهم قد ضعفت، ورجالهم قُتلت، وأن المسلمين كلما راحوا في قوة، وأنه لا حيلة في هذا الوقت أتم من إظهار الإسلام"<sup>(٣١)</sup>.

يفهم من هذا النص أن من أهم الأسباب التي دفعت أحمد تكودار إلى الكتابة لأهل بغداد، ثم مراسلة السلطان المنصور قلاوون بعد ذلك، هو كما ذكر محي الدين ابن عبد الظاهر؛ للتقرب إلى المسلمين الذين أصبحوا في قوة، بينما بدأ الضعف ينتاب دولة مغول فارس.

وسيؤا على السياسة الجديدة لدولة مغول فارس (الدولة الإيلخانية) في التقرب إلى المسلمين، فكر السلطان أحمد تكودار في إنهاء حالة الحرب القائمة مع دولة المماليك في مصر والشام<sup>(٣٢)</sup>، تلك الحرب التي لم تهدأ منذ أن أسس جدّه هولاكو هذه الدولة، واستمرت مشتعلة بعد وفاته أثناء حكم أبنائه من بعده، وازدادت اشتعالاً أيام أباقا خان الذي توفي على إثر إصابته بالغم والتكد، عقب هزيمته أمام المماليك في معركة حمص الثانية، عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، كما سبقت الإشارة.

المجلد الثاني، الجزء الأول، ص ٢٩١؛ أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروفين بالذليل على الروضتين، ص ١٩٨-١٩٩؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٦٦؛ خواندمير: دستور الوزراء، ص ٢٠٩.

(٣٠) وعن الإغارات المتتالية التي قام بها حكام مغول فارس على بغداد، انظر: المقرئزي: السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٧، ٥١٠، ٥١١.

(٣١) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٤.

(٣٢) ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، غني بتصحيحه الأب انطون اليسوعي، لبنان ١٩٨٣م، ص ٥٠٦.

وتتقيذا لسياسة إقامة هذه العلاقات الطيبة؛ يادر أحمد تكودار في شهر شعبان عام ٦٨١هـ/ نوفمبر ١٢٨٢م بإرسال سفارة إلى الديار المصرية، برئاسة الشيخ قطب الدين محمود بن مصلح الشيرازي قاضي سيواس، وعضوية الأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرع الدين بن التيتي وزير ماردين<sup>(٣٢)</sup>، وفي صحبتهم كما يقول محي الدين بن عبد الظاهر " جماعة كبيرة من أتباع وأشياخ وعلماء وممالك وخواص وتجمال عظيم"<sup>(٣٣)</sup>. وذلك لمقابلة السلطان المنصور قلاوون، وأداء الرسالة التي وجهها إليه أحمد تكودار، ومخاطبته شفها في إقامة سلام بين الدولتين<sup>(٣٤)</sup>.

أما الذي دفع السلطان أحمد تكودار إلى التقرب من السلطان المنصور قلاوون

- (٣٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص ٤٦٢، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٠٧، ويذكر رشيد الدين الهمذاني " اختيار هذا الوجه كان بمشورة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. انظر : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص ٩٠.
- سيواس : مدينة بآسيا الصغرى من املاك سلاجقة الروم، وقد استولى عليها مغول فارس. انظر : القزويني : أثار البلاد واخبار العباد، نشر دار بيروت للطباعة، بيروت ١٩٧٩م، ص ٥٣٧، زامباور : معجم الأسساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة : زكي محمد حسن واخرون، القاهرة ١٩٧٢م، ج ٢، ص ٢٣٢.
- ماردين : مدينة بها قلعة مشهورة، تقع على جبل مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٨-٣٩.
- الصاحب : لقب حملة التوراء، أول من حملته كافي الكفاة إسماعيل بن عباد. وكان السبب في ذلك انه كان يصحب الأستاذ ابن العميد، فكانوا يقولون صاحب ابن العميد، ثم قلب عليه هذا اللقب. انظر : القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ج ١، ص ٤١٧.
- (٣٣) تشريف الأيام والصور في سيرة الملك المنصور، ص ٥٠، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٦.
- (٣٤) محي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والصور، ص ٦.
- على الرغم من ان المؤرخ بيبرس الدوادار كان معاصرا لتلك السفارة، الا انه لم يشر اليها، واشار فقط الى السفارة الثانية التي جاء على راسها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. انظر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ص ٢٢٣-٢٢٤.



فهو، كما يقول المؤرخ الإنجليزي هورث Howorth، أن قلاوون كان في تلك الفترة زعيماً للعالم الإسلامي، وتصبوا إليه معظم القوى في تلك الفترة<sup>(٣٦)</sup>، ويصدق حديث هورث إلى حد كبير، فقد وصلت دولة المماليك في تلك الفترة إلى درجة كبيرة من القوة جعلتها تتزعم العالم الإسلامي، حيث نظر حكام جميع الدولة الإسلامية إلى سلطنة المماليك نظرة كلها احترام وتبجيل<sup>(٣٧)</sup>.

ومن جهة ثانية يفهم من كتابات المؤرخين المعاصرين أن وراء هذه السفارة دافعا سياسيا هاما، وهو إقامة علاقات الود مع سلاطين المماليك، حتى يأمن السلطان أحمد تكودار من جانبهم، ويتفرغ لمواجهة الخلافات الداخلية خاصة من جانب ابن أخيه أرغون<sup>(٣٨)</sup>، ويؤكد ذلك ما سبق الإشارة إليه؛ عما ذكره محي الدين بن عبد الظاهر من إشارة مستشاري أحمد تكودار عليه بأن يقيم سلافاً مع السلطان قلاوون، حتى يتفرغ " لقتال قومه وأقاربه وأخوته وولد أخيه أرغون "<sup>(٣٩)</sup>.

ومن ناحية ثالثة، فإن ما بدأ يتتاب دولة مغول فارس من ضعف، وما واكبه من ازدياد قوة دولة المماليك في مصر والشام، كان دافعا أساسيا وراء تلك السفارة، وهو ما أشار إليه المؤرخ محي الدين بن عبد الظاهر بقوله " التقرب إلى مراضي مولانا السلطان - أي قلاوون - واكتفاء بأسه "<sup>(٤٠)</sup>.

على كل حال، تحركت تلك السفارة من معسكر السلطان أحمد تكودار " الأرو " قاصدة سلطنة المماليك، ولما كانت العلاقات متوترة بين أهالي بلاد الشام ومصر وبين

(٣٦) The Mongols, vol ١, p.

(٣٧) وعن سياسة المماليك الخارجية، وموقف سائر الدول الإسلامية، انظر : علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٦٨-١٧٩؛ حامد زيان : المماليك، التاريخ السياسي، ص ١١٥-١٢٥.

(٣٨) شافع بن علي : الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق : عمر عبدالسلام، بيروت ١٩٩٨م، ص ٩٣.

(٣٩) تشریف الأيام والعصور، ص ٤٨.

(٤٠) تشریف الأيام والعصور، ص ٤٨.

مغول فارس، فقد خشي السلطان المنصور قلاوون من قيام الأمراء والأهالي بالفتك بهؤلاء السفراء، وذلك لمبايق قيام المغول بأعمال وحشية من قتل وسبي للمسلمين، لذلك ما أن علم السلطان المنصور قلاوون بمسير هذه السفارة إليه، إلا وأصدر قراراً بتأمينها، وبالفعل ما أن وصلت هذه السفارة إلى مدينة البيرة، إلا وجدوا في استقبالهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كيك، وذلك للقيام بمهمة تأمين سفارة السلطان أحمد تكودار<sup>(١١)</sup>.

وثمة إشارة وردت في بعض المصادر الإسلامية يجب التوقف عندها، وهي أن السلطان المنصور قلاوون " احترز عليهم - أي على أعضاء هذه السفارة - ولم يمكن أحداً من الاجتماع بهم "، " وأن أحداً من خلق الله لا يراهم، ولا يجتمع بهم، ولا يتحدث معهم بكلمة "<sup>(١٢)</sup>. فما هي الأسباب التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى اتخاذ قرار الاحتراز على هؤلاء الرُسل؟ وإلى الحرص على ألا يجتمع بهم ولا يكلمهم أحد على الإطلاق.

(١١) المقرئبي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٠٧.

- البيرة: بلد قرب سمساط بين حلب والثغور الرومية. انظر: بالقات الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٦.

- حسام الدين لاجين: أصله مملوك المنصور قلاوون اشتراه ورباه واعتقه ورقاه إلى أن جعله من جملة مماليكه، ثم أمره، وتولى عدة وظائف منها نيابة دمشق ونيابة حماه ونيابة حلب ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، لكن لم تطل مدة حكمه فقد قُتل في ربيع الأول عام ٦٩٨هـ/يناير ١٢٩٧م. انظر: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٠٩-٣١٠ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٨٥-٩١.

- الأمير سيف الدين كيك: هو الأمير سيف الدين كيك أو قبيق المنصوري، كان من مماليك السلطان المنصور قلاوون، وترقى وتولى عدة وظائف منها نيابة دمشق ونيابة حماه ونيابة حلب، توفي في آخر جمادى الأولى عام ٧١٠هـ/أكتوبر ١٣١٠م. انظر: البونيني: ذيل مرآة الزمان، سنوات ٦٩٧-٧١١هـ تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ١٣٥٩-١٣٥٧ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢١٦.

(١٢) محي الدين بن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ١٦ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٣٢٨ ابن الوردي: نعمة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٣٢٨.

إن من أهم الأسباب التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى الاحتراز على هؤلاء السفراء هو الحرص على حياتهم، فأصدر أمره بإخفائهم عن العيون، وأن تكون تحركاتهم في الليل، وأن يتوجهوا بهم مباشرة إلى الديار المصرية، دون الدخول إلى بلد من البلدان<sup>(١٣)</sup>، وذلك خشية قيام أحد بالاعتداء عليهم من أهالي البلاد، وذلك لسابق قيام المغول بالأعمال الوحشية.

ومن جهة أخرى فقد ضمت هذه السفارة جماعة من رجال المغول؛ كانت مهمتهم القيام بدور التجسس على أحوال دولة المماليك، وهو أمر اشتهر به المغول، فكثيراً ما قامت السفارات التي أرسلها المغول إلى الدول التي جاورتهم بهذا الدور، مثلما حدث مع الدولة الخوارزمية<sup>(١٤)</sup>، وقد أشار العيني "صراحة إلى هؤلاء الجواسيس الذين كانوا في صحبة السفارة الثانية، التي أرسلها أحمد تكودار إلى المنصور قلاوون، والتي سوف يأتي شرحها فيما بعد"<sup>(١٥)</sup>.

كذلك من بين تلك الأسباب ما اتصف به المغول من مكر ودهاء، والحيل التي استخدموها في تمزيق شمل البلاد والعبد، وإتساعة النفوضى داخل البلد الذي يريدون السيطرة عليه، لذلك حشي السلطان المنصور قلاوون أن يقوم سفراء المغول بالاتصال بكبار قادة وأمراء المماليك، وسحولة شرايهم بالمال والمناصب، حتى يقفوا إلى جوارهم، خاصة أن مغول فارس فشلوا في استخدام القوة مع دولة المماليك.

إن للمغول سوابق كثيرة في هذا المضمار، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما قام به جندهم الأكبر جنكيز خان من الاتصال بوالدة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه، واتفق معها على ألا تقف إلى جوار ابنها علاء الدين، في مقابل ألا يقترب من ممتلكاتها ويتركها وشأنها<sup>(١٦)</sup>!!

(١٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص ٦٤٢.

(١٤) النموي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٨٧.

(١٥) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد عبد أمين، القاهرة ٢٠١٠م، ج ٢، ص ٢٩٦.

(١٦) النموي : سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٩٢-٩٣ عباس أقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة

كذلك اتفاق هولاء مع الوزير بدر الدين محمد بن العلقمي وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله، من أجل العمل على تسليمه بغداد وشخص الخليفة وآل بيته<sup>(١٧)</sup>، ومن بين ما قام به المغول من مكر وخداع؛ اتفاقهم سرًا مع زين الدين الحافظي، الذي نال قدرًا ومكانة كبيرة عند الملك الناصر صلاح الدين الثاني حاكم دمشق، وكان ذا تأثير كبير عليه، فانتهاز هولاء ثقة الملك الناصر فيه، واتفق معه على خيانة سيده الملك الناصر، وتسليم دمشق للمغول<sup>(١٨)</sup>.

وعلى هذا النحو؛ كان السلطان المنصور قلاوون محققًا في الاحتراز على هؤلاء الرسل، وفي العمل على عدم اتصالهم بأحد من أمراء المماليك، حتى لا يقوموا بإغراء أحد من ضعاف النفوس، أو من أولئك الذين يكونون حقًا وكرهاً للسلطان المنصور قلاوون، فيقوموا بخيانتته، وتسهيل مهمة المغول في تحقيق أهدافهم، وبسط نفوذهم على بلاد الشام ومصر. ومن ناحية أخرى، عمل على ألا يُطْلَع من صحب هؤلاء السفراء من

محمد علاء منصور، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٣٦٤.

(١٧) ابن الفوطي : للحوادث لجامعة، ص ٣٥٩-٣٦٠؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، تحقيق : احسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م، ج ٣، ص ٢٥٢-٢٥٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٠.

- بدر الدين محمد بن العلقمي : هو محمد بن علي أبو طالب مؤيد الدين ابن العلقمي، تولى الوزارة للخليفة المستعصم بالله العباسي أربع عشرة سنة، عُرف عنه التشيع، ثم خدم هولاء بعد استيلائه على بغداد، لكنهم أهانوه واحتفروه لما قام به من خيانة الخليفة العباسي، واستمر في غم ونكد إلى حين وفاته في أوائل عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م. انظر : الكتبي : فوات الوفيات، ج ٣، ص ٢٥٢-٢٥٣؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق : محمد عبد امين، القاهرة ٢٠١٠م، ج ١، ص ١٧٠-١٧٢؛ خولد مير: دستور الوزراء، ص ٢٠٩.

(١٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٣١٠-٣١١؛ اليونيني: ذيل سراء الزمان، ج ٢، ص ١٢٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الادب، ج ١٦، تحقيق : محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٣٨٦.

- زين الدين الحافظي : هو سليمان بن المؤيد بن عامر البعرياني، توفي عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٤٤؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٣.

جواسيس على أحوال المملكة.

وزيادة في الحيلة جُعلَ هؤلاء السفراء لا يسرون أثناء النهار، وإنما أمرهم بالمسير أثناء الليل، حتى لا يراهم أحد، وحتى لا يطلعوا هم ومن معهم من الجواسيس على أحوال الدولة، واستمر ذلك حتى وصلوا إلى الديار المصرية، فاستقبلهم السلطان المنصور قلاوون في مقر حكمه بقلعة الجبل، في شهر رجب من نفس العام (٦٨١هـ/١٢٨٢م)<sup>(٩١)</sup>.

وقد وصف شاهد عيان هذه الفترة، المؤرخ شافع بن علي، الهيئة التي كان عليها السلطان المنصور قلاوون أثناء استقباله لهذه السفارة، فقد أحاط نفسه بما له من الهيبة والاحترام، وذلك حتى يبيت الخوف والرعب في نفوس هؤلاء السفراء، الذين سوف ينقلون هذه المشاهد لخان المغول السلطان أحمد تكودار. ويضيف شافع بن علي أن المنصور قلاوون "جلس على منبر منكه في أحسن الهيئات، وأحسن الصور الحسنات، وقد لبس من المجوهر ما يأخذ الأبصار"<sup>(٩٢)</sup>.

لم يثبت أن مثل هؤلاء السفراء في حصرة السلطان المنصور قلاوون، حيث أدوا إليه الرسالة التي أرسلها إليه السلطان أحمد تكودار<sup>(٩٣)</sup>، والتي كُتبت في منتصف شهر جمادي الأول عام ٦٨١هـ/ أغسطس ١٢٨٢م<sup>(٩٤)</sup>، كما أمرهم السلطان أحمد تكودار بمحاذنة السلطان المنصور قلاوون شفاة في أمر الصلح بين الدولتين<sup>(٩٥)</sup>.

(٩١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص ٤٦٢.

- مفضل بن أبي الفضائل : التهج السديد والدر الثريد فيما بعد تاريخ ابن العبد، نشر بولشيه :

Blochet (E.) : Putrologia Orientalis, Tom , Paris , p.

(٩٢) الفضل الماور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١٠١.

(٩٣) ابن أبيك الدوداري : الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية، ص ٢٤٩.

(٩٤) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٠٨.

(٩٥) محي الدين بن عبد الظاهر : تشریف الايام والعصور، ص ٦؛ الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد

الثاني، الجزء الثاني، ص ٩٧.

بدأ السلطان أحمد تكودار رسالته<sup>(١٠١)</sup> بشرح تلك الهداية التي هداه الله - جلّ جلاله - له، وإقراره بوحانيته وربوبيته وذلك منذ صباه، وشهادته بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويؤكد أنه انشرح صدره بالإسلام، وأنه مال إلى إعلاء كلمة الدين الإسلامي الحنيف، وإصلاح أمور المسلمين.

ونوه السلطان أحمد تكودار في رسالته إلى ما حدث في اجتماع القوريلتاي<sup>(١٠٢)</sup> من الموافقة على قرار الخان الراحل أباقا خان، من جمع جيوش المغول ذات الأعداد الغفيرة، التي مالت الأرض رعباً لبطشها الشديد، وتوجيهها صوب ممتلكات دولة المماليك، إلا أنه - أي السلطان أحمد تكودار - شعر بأن هذا العمل يخالف تماماً ما يجول بخاطره من ضرورة أن يعم السلام والخير للجميع. ذلك الخير الذي يعتبر من أهم ما يقوي شعائر الإسلام، ورأى أنه لا يمكن أن يصدر عنه أمر إلا بما يوجب حقّ الدماء، ونشر الأمن والطمأنينة حتى يستريح المسلمون في سائر البلدان، وتحمد نار الفتى، ويعلو ويعظم أمر الله سبحانه وتعالى.

أشار السلطان أحمد تكودار أيضاً في رسالته إلى أن الذي هداه إلى الإسلام هو الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، حيث يعتبره نعم العون في أمور الدين، كما أشار أيضاً إلى أنه لغرط ثقته في كل من القاضي قطب الدين الشيرازي، والأتابك بهاء الدين، عهد إليهم بإداء هذه الرسالة.

أكد السلطان أحمد تكودار إلى ما تصبو إليه همته من إعلاء شأن الدين الإسلامي، وإقامة شعائره، وتعظيم أحكامه والعمل بها، وشرح ما قام به من أعمال لكي يدخل السرور

(١٠١) انظر نص هذه الرسالة عند كل من : محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الايام والعصور، ص ٦٠، ١٠٠، مفضل بن أبي الفضال : النهج السديد، ص ٥٠٠-٥١٠، وملحق رقم ٢.

(١٠٢) القوريلتاي : كلمة مغولية تعني مجلس السلطنة، الذي يجتمع فيه جميع رؤساء المغول لاتخاذ القرارات المهمة مثل اختيار الحكام أو إقرار حرب، وغيرها من المسائل الخطيرة التي لا يريد الخان أن يتفرد بها. انظر : محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الايام والعصور، ص ٦، هامش ١١ المعريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٣، هامش ٢.

على قلوب المسلمين، فعفا عن كل سيئة أو جرم، وقام بإصلاح ما تهدم من المدارس والمساجد والمشاهد، وأوقف الأوقاف العديدة للإنفاق منها على تلك المنشآت، وعمل على أن يصل ريع تلك الأوقاف إلى مستحقيها حسب شروط الواقف، وألغى كل ما استحدث على تلك الأوقاف. وذكر ما قام به من تأمين قوافل الحجيج، وعمل على تسيير تلك القوافل لأداء فريضة الحج. ووضح ما قام به من تسهيل مهمة التجار، فأطلق لهم حرية التنقل بين البلاد في أمن وسلام، ومنع كافة الجنود وحراس الطرق من التعرض لهم بالأذى، وحفظ أموالهم وأرواحهم.

تطرق السلطان أحمد تكودار، بعد ذلك، للحديث عن أولئك الجواسيس الذين كانوا يرتدون زي الصوفية (الفقراء)، والذين شاهدتهم جنود المغول، مما جعلهم يسيؤون الظن بطائفة الصوفية وأهل الصلاح، فقاموا بقتل الكثير منهم. وإغلاق الطرق أمامهم، غير أن السلطان أحمد تكودار ذكر أنه أمر بفتح هذه الطرق لسالكها، سواء أمام التجار أو غيرهم.

وقرر السلطان أحمد تكودار في رسالته أنه يعمل الآن بما يرضي الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، ويعمر أيضاً على جمع كلمة المسلمين، وإزالة الخلافات بينهم، حتى يأمن الجميع، وناشد السلطان أحمد تكودار سلطان مصر - المنصور قلاوون - بأن يتمسك بالعروة الوثقى، ويمسك الطريق المثلى، ويعمل على اتحاد الكلمة، وتسكين الفتنة، حتى نعم السكينة والطمأنينة.

وفي ختام الرسالة وضح السلطان أحمد تكودار: أنه يدعو ويسعى لإقرار السلام بدلاً من الحرب، وأن الله - سبحانه وتعالى - يشكره على تلك المساعي.

وإلى جانب تلك الرسالة، قام أعضاء هذه السفارة بالتحدث مع السلطان المنصور قلاوون مشافهةً في أمر إقرار السلام بين الدولتين.

وبعد أن قرأ السلطان المنصور قلاوون رسالة السلطان أحمد تكودار، واستوعب ما جاء بها، ووقف على ما عند رؤساء وأعضاء هذه السفارة من حديث، أمر رئيس ديوان

الإشياء الكاتب محي الدين بن عبدالظاهر بأن يكتب ردًا على تلك الرسالة<sup>(٢٦)</sup>، وقد احتوى رد السلطان المنصور على عدة أشياء هي<sup>(٢٧)</sup> :

**أولاً :** بدأ السلطان المنصور قلاوون رسالته بحمد الله الذي أظهر الحق، وجاء بالنصر، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله (ﷺ)، وأشار إلى علمه بأخبار السلطان أحمد تكودار ودخوله في الإسلام من الخطاب الذي وصل إليه، ودعا له بأن يثبت الله - عز وجل - على هذا الدين القويم، كما أنه قد انشرح صدره لما علمه من اعتناق أحمد تكودار للإسلام منذ صباه، وما حدث بعد ذلك من توليه عرش دولة مغول فارس، لأن الله يصطفى من يوليه العرش من بين أوليائه وعباده الصالحين.

**ثانيًا :** أشار السلطان المنصور قلاوون إلى قرار القوريلتاي من توجيه جيوش المغول لمهاجمة أراضي دولة المماليك، ثم عدم انصياع أحمد تكودار لهذا القرار، وقال له إن هذا تصرف العقلاء الذين يفكرون في عواقب الأمور، لأنهم لو فعلوا ذلك لدارت الدائرة عليهم. وذلك إشارة إلى القوة التي تتمتع بها دولة المماليك، وأن جيوش المماليك سوف ترد على أي هجوم يقوم به المعتدين.

**ثالثًا :** صرح السلطان المنصور قلاوون بأنه ما دام دخل أحمد تكودار في الإسلام، فقد ذهبت الأحقاد، ولم يعد بينهما حقد ولا عدا، لأن الإيمان كالبنيان يشد بعضه بعضًا. **رابعًا :** تحدث السلطان المنصور قلاوون عن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن الذي ببركته وكراماته شمل الإسلام كل دار، ودعا بأن يعود الحق إلى أصحابه ببركته، كما أثنى على السفراء الذين حملوا هذه الرسالة، وأنهم قاموا بمهمتهم على أحسن وجه.

(٢٦) كان محي الدين بن عبدالظاهر هو رئيس ديوان الإشياء في زمن المنصور قلاوون في تلك الفترة، وهو الذي تولى كتابة الرد على رسالة أحمد تكودار. انظر : شافع بن علي : الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١٠٢.

(٢٧) انظر نص رسالة السلطان المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد تكودار عند كل من : محي = الدين عبدالظاهر : نشريف الأيام والعصور، ص ١٠٦-١٠٧، مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد، ص ٥١١-٥٢٥، وملحق رقم ٣.



**خاصة :** مدح السلطان المنصور قلاوون الإصلاحات التي قام بها أحمد تكودار في مختلف المدارس والمساجد، وقيامه بتأمين الطرق خاصة أمام الحجيج، وأشار إلى أن هذه الأعمال من شأنها أن تؤدي إلى دوام الملك، وهي من الواجبات المنقاة على عاتق الحكام، ولا يقتخر أحد بالقيام بها، أما الذي يحق أن يفخر به هو قيام الحكام برد الممتلكات التي استولوا عليها إلى أصحابها، ويضرب بذلك مثلاً في قيام والد أحمد تكودار باغتصاب بعض ممتلكات السلاجقة وغيرهم، والواجب على من يرى حقاً مقتصباً أن يردّه إلى أصحابه، وبذلك تقوى مملكته.

**سادساً :** أوضح السلطان المنصور قلاوون أنه بمجرد أن علم بإصدار أحمد تكودار أوامره للجنود وحراس الطرق بعدم التعرض لعابري الطرق، إلا وأصدر هو الآخر قراراً بمثل ذلك، حيث أمر نوابه، ومقدمو المسكر، خاصة في المناطق القريبة من حدود دولة مغول فارس، بحراسة الطرق وعدم التعرض لسالكها.

**سابعاً :** غُتِبَ السلطان المنصور قلاوون على حديث أحمد تكودار عن الجاسوس الذي ارتدى زي الصوفية، وأدى هذا إلى قتل جماعة من هؤلاء الصلحاء، فأشار المنصور قلاوون إلى أن هذا حدث مراراً، وكثيراً ما أرسل المغول جواسيس للاطلاع على بواطن الأمور بدولة المماليك، وتم القبض عليهم، لكن لم يقتلوا وأطلق سراحهم وعفى عنهم.

**خاصة :** أوضح السلطان المنصور قلاوون ردّاً على ما أبداه أحمد تكودار من رغبته في إقامة صلح وسلام مع دولة المماليك، أن من يمد يده لإقرار الصلح، لا يستطيع أحد أن يرفضه، ولكن هذا الصلح وهذا السلام لا بد أن يقام على قواعد وأسس ثابتة، حيث يتم عن طريق مواصلة السفراء والرسائل، ثم عاتب أحمد تكودار على الاستشهاد ببعض آيات القرآن الكريم التي أتى بها في غير موضعها، وعاتبه أيضاً على منّه باعتناق الإسلام، واستشهد بقوله تعالى: { قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ }<sup>(٥٦)</sup>.

(٥٦) سورة الحجرات، آية ١٦.

**تاسعاً :** تطرق السلطان المنصور قلاوون لتلك المشافهة التي جرت بينه وبين سفراء أحمد تكودار، حيث أوضحوا أن الله سبحانه وتعالى وشَّع على سلطان مغول فارس، وأنه يحكم بلاداً متمسكة ذات خيرات وفيرة، ويذكر السلطان المنصور أنه إذا كان الأمر على ذلك؛ فلماذا ينظر إلى ما في يد غيره من ممتلكات، ويجب الاتفاق أولاً على عدم التطلع إلى أملاك الآخرين، ويعلن السلطان المنصور قلاوون أنه إذا تم الاتفاق على ذلك، يمكن إقامة سلام بين الدولتين، ويؤكد أيضاً على أن الصديق في كثير من الأحيان يكون أقرب من الأب أو الأخ، ويضرب مثلاً بذلك من التاريخ الإسلامي، حيث استقر الدين الإسلامي بفضل الصحابة وليس بسبب الأقرباء.

وقبل أن يختم السلطان قلاوون رسالته؛ أكد على أحمد تكودار أن عليه ألا يعتدي على أراضي المسلمين، ويقوم بأذيتهم، ومتى كفَّ عن ذلك سكنت الفتنة، وخفقت الدماء، ومن المفروض عليه ألا ينهي عن شيء ويأتي بمثله، ويخبره بأنه توجد بعض أراضي سلاجقة الروم المسلمين مازالت بأيدي المغول، الذين استولوا على خيراتها، وسفكوا دماء أهلها، وسبوا وهتكوا أعراضها.

وفي ختام الرسالة؛ أشار المنصور قلاوون إلى ما حدث أثناء حديثه مع السفراء؛ حول ضرورة إيقاف الإغارات التي يقوم بها المغول على أراضي دولة المماليك، ووجد منهم إصراراً على متابعة تلك الإغارات في حالة عدم إتمام الصلح المنشود<sup>(٩٩)</sup>. ولذلك دعا السلطان المنصور قلاوون، بدلاً من تلك الإغارات والمناوشات، أن يتم تحديد موعداً ومكانٍ للقاء عسكري، وسيكون النصر فيه لمن كتب الله له النصر، وما النصر إلا من عند الله.

يتضح من هذه الرسالة أن السلطان المنصور قلاوون كان لا يثق في مغول فارس،

(٩٩) أشار ابن الفوطي إلى ذلك التهديد، وجاء على لسان السفراء : " فإن أردت المودعة، فنحن نكف عسكرياً عن قصد بلادك، ونفسح للتجار في السفر كيف شاءوا آمين، فإن فعلت ذلك والا فعين للقتال موضعاً، واعلم أن الله يطالبك بما يملك بيننا من الدماء ". انظر : الجواث الجامعة، ص ٤٦٢.

فهم يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر، ولذلك كان رده واضحاً، وهو إذا كان السلطان أحمد تكودار جازاً في طلبه من إقامة سلام وصلاح بين الدولتين، فعليه أولاً إعادة الأراضي التي اغتصبها أسلافه خانات المغول، وخاصة ممتلكات سلاجقة الروم، كما يتعهد بعدم الإغارة بعد ذلك على أراضي جيرانه، وإلا فالحرب هي الوسيلة الوحيدة لردع مثل تلك الاعتداءات، وبذلك أظهر السلطان المنصور قلاوون عدم تخوفه من الحرب مع مغول فارس، كما أظهر أيضاً عدم تلهفه على إقامة الصلح معهم.

وبنفس الطريقة التي استقبلت بها دولة المماليك سفارة أحمد تكودار، منذ أن وطأت أقدامهم أراضيها من الاحتراز، والعمل على عدم احتكاكهم بأحد من الأمراء أو الأهالي، ثم تسفيرهم وإعادتهم إلى بلادهم. حيث اصطحبهم الحاجبان الأمير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كيك، وساروا بهم ليلاً حيث خرجوا بهم من قلعة الجبل، في ليلة السبت ثاني رمضان عام ٦٨١هـ / ٥ ديسمبر ١٢٨٢م، حيث وصلوا إلى حلب في سادس شوال من نفس العام. ومن حلب توجهوا إلى بلادهم<sup>(٦٠)</sup>.

لم ييأس السلطان أحمد تكودار من إقامة سلام مع السلطان المنصور قلاوون، فبادر بإرسال سفارة أخرى إلى مصر، على رأسها هذه المرة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. و يفهم من المصادر المعاصرة أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هو الذي بادر بأن يتولى رئاسة هذه السفارة ويذهب إلى الديار المصرية لمقابلة السلطان المنصور قلاوون، فقد ذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن ' أفهم الملك أحمد أنه يُصلح له مولانا السلطان<sup>(٦١)</sup>، كما يذكر ابن الفرات أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن ' قلن أنه إذا حضر إلى الملك المنصور، تمكن منه، ويتم له في هذه المملكة - أي مملكة سلاطين المماليك في مصر والشام - ما تم له بالعراق<sup>(٦٢)</sup>. كما يشير ابن الفرات إلى أن السلطان

(٦٠) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٠٨.

(٦١) تشریف الأيام والعصور، ص ٩٢.

(٦٢) تاريخ ابن الفرات، الجزء السابع، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت دت، ص ٢٧٩.

المنصور قلاوون هو الذي طلب حضور الشيخ كمال الدين عبدالرحمن إلى سلطنة المماليك، وإتمام عقد اتفاقية السلام المنشودة، وقال للسفراء شفاهة : "إنني لا أثق إلا بكلام الشيخ عبدالرحمن، لما أعدم من دينه، وأن حكمه على الملك أغا سلطان وعلى وزيره صاحب ماردين" (١٣٠).

والمعروف أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن نال قدراً كبيراً من الاحترام في الدولة الإيلخانية، حيث حظي بمكانة كبيرة عندهم، وقدموه على أنفسهم، وخاصة والده أحمد تكودار التي اعتقدت في كراماته، وعهدت له بابها تكودار في صفه ليقوم برعايته (١٣١). ويذكر المؤرخ ابن الفرات أنه بعد أن تولى أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس، ازدادت مكانة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، وأصدر أحمد تكودار أوامره بأن يركب الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وعلى رأسه الجتر، والسلاحدارية والجمدارية تحيط بموكبه، تشبهها بالملوك "في سائر بلاد العراق والعجم" (١٣٢). كما يشير محي الدين بن عبدالظاهر إلى أن

(١٣٠) تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٩.

(١٣١) ابن الفرات : تاريخه، ج ٢، ص ٢٧٨.

سبقت الإشارة إلى أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن كان هو الذي أشار على تكودار بالاسلام، كما أشار إلى ذلك أحمد تكودار في رسالته إلى المنصور قلاوون.

(١٣٢) تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٨.

- الجتر : لفظ فارسي بمعنى المظلة، وهو قبة من الحرير الأصفر، تحمل على رأس الملك على رأس رمح بيد أمير يكون راكباً بجوار الملك، يقلعه بها من الشمس في المواكب والاحتفالات، يقول عنها العامة "القبة" أو "الطبر"، انظر: القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٢، ص ١٣٣.

- السلاحدارية : لفظ مكون من مقطعين الأول عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار بمعنى ممسك، فيكون المعنى حامل السلاح أو ممسك السلاح، يقول القلقشندي أن موضوعها هو حمل السلاح للسلطان أو الأمير في مختلف المجامع. انظر : صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٤، ص ١٨.

- الجمدارية : لفظ مركب من كلمتين فارسيين، "جاما" بمعنى الثوب، و"دار" بمعنى ممسك، فيكون المعنى ممسك الثوب، أطلق اللفظ على الشخص الذي يقوم باللباس السلطان أو الأمير ملابس. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٥، ص ١٥٩.

الشيخ كمال الدين عبدالرحمن تحكم في بلاد مغول فارس، وأشرف على الأوقاف في كل أنحاء البلاد، وكانت له سطوة كبيرة، لدرجة أن أحمد تكودار كان يقف بين يديه هو وعشيرته، ويستمع إلى نصائحه، ويطيعه الجميع<sup>(١٦)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن هذه السفارة ضمت، إلى جانب الشيخ كمال عبدالرحمن، أحد كبار أمراء المغول وهو المسمى "صمداغو"، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين التتي، والوزير زين الدين صاحب مازدين، وفي صحبتهم مائة وخمسون رجلاً من رجال المغول<sup>(١٧)</sup>.

ولاشك في أن السلطان المنصور قلاوون كان على علم تام بما يدور في دولة مغول فارس، وذلك عن طريق الجواسيس والعيون التي كانت ترصد ما يدور داخل تلك الدولة؛ التي ناصب حكامها العداء للمسلمين في كل الأنحاء.

وكان من بين ما وقف عليه السلطان المنصور قلاوون تلك المكانة الكبيرة التي تمتع بها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن في دولة مغول فارس، وتشبّهه بالملوك، وركوبه وعلى رأسه الجتر، وحوله السنحدارية والجمدارية، وبأنه سوف يأتي إلى دولة المماليك وهو على هذه الحالة، كما علم أيضاً بأنه صلب معه أعداد من رجال المغول، نحو مائة وخمسين، يندس بينهم بطبيعة الحال جماعة كبيرة من الجواسيس، لرصد ما يدور داخل دولة المماليك<sup>(١٨)</sup>. لذلك أخذ في تتبع أخبار هذه السفارة. وكما يقول محي الدين بن عبدالظاهر: 'صارت أخباره تصل إلى مولانا السلطان منزلة بمنزلة، ومرحلة بمرحلة'<sup>(١٩)</sup>.

وحتى تظهر دولة المماليك بمظهر القوة، وتحافظ على هيبتها، وهيبة حكامها، أصدر السلطان المنصور قلاوون أوامره بألا تقام مثل هذه المواقب، التي تصاحب الشيخ

(١٦) تشریف الايام والصور، ص ٤٨-٤٩.

(١٧) محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الايام والصور، ص ٤٩، ابن الفرات : تاريخه، ج ٧، ص ٢٧٩، المقرئی : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٢٣.

(١٨) بدر الدين العيني : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمن، ج ٢، ص ٢٩٦.

(١٩) تشریف الايام والصور، ص ٤٩.

كمال الدين عبدالرحمن في داخل دولة المماليك، وكما يقول المؤرخ شافع بن علي المعاصر لتلك الأحداث : " برزت مراسم مولانا السلطان بالكتابة إلى الأمير جمال الدين أقوش الفارس، أحد الأمراء الكبار القديمي الهجرة، المعروفين بالشجاعة في كل أمر وإمرة، بأن يركب لتلقيه من البيرة، وأنه إذا عدى يمنعه من الركوب بالجت. ويقول له: قد صرت في بلاد مولانا السلطان ولا يركب فيها أحد بالجت غير<sup>(٧١)</sup>.  
وبتحليل النص السابق يتضح:

أولاً : أن اختيار السلطان المنصور قلاوون للأمير جمال الدين أقوش للقيام بمهمة استقبال سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن لم يأت من فراغ، فقد عُرف عن هذا الأمير القوة والبطش، لدرجة أن المصادر لقبته بـ " قتال السباع<sup>(٧٢)</sup>.

ثانياً : أن السلطان المنصور قلاوون أمر بالآلا يركب الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بالجت ولا يحاط بالسلاحدارية والجمدارية داخل حدود مملكته، لأن ذلك من شعار الملك، وقد أورد القلقشندي عندما تحدث عن الجت. أنه من شعارات الملك<sup>(٧٣)</sup>، كذلك فإن السلاحدارية والجمدارية هما من شعار السلطنة المملوكية، ولا يجوز لأحد أن يتخذهما إلا بإذن السلطان<sup>(٧٤)</sup>.

(٧١) الفضل الماثور من سيرة السلطان المنصور، ص ١١٤.

- الأمير جمال الدين أقوش بن عبدالله المنصوري، أصله من ممالك المنصور قلاوون، ترقى إلى أن صار من أعيان الأمراء، وتولى عدة وظائف، وكانت له مجموعة من الآثار بالديار المصرية، توفي عام ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، القاهرة ١٩٨٥م، الجزء الثالث، ص ٢٦؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، القاهرة دت، ج ١، ص ٤٢٧.

(٧٢) ابن تغري بردي : انجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٩، ص ٢١٦؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : فهمي شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م، ج ١، ص ١٤٥؛ بدر الدين العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٥، ص ٢٣٤.

(٧٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٢، ص ١٣٣.

(٧٤) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٤، ص ٤٤، ج ٥، ص ٤٥٩.

وما أن علم الشيخ كمال الدين بكل هذه التطورات، وما أقدم عليه رجال السلطان المنصور قلاوون من الاحتراز على هذه السفارة، وعلى مراقبة تلك الجموع التي جاءت بصحبته، إلا وحاول الرجوع من حيث أتى، لكن رجال السلطان المنصور قلاوون منعوه من ذلك، وعلى حد قول مفضل بن أبي الفضائل : " لم يمكنوه من ذلك، وأغلظوا عليه في القول <sup>(٧١)</sup> ".

ومن الواضح أن السبب الذي دفع الشيخ كمال الدين عبدالرحمن إلى التفكير في الرجوع وعدم إتمام سفارته، هو قيام رجال السلطان المنصور قلاوون بالتضييق عليه، وعلى أعضاء سفارته، وعدم عزم اليقين أنه لن يستطيع القيام بما أراد القيام به، خاصة وأن هيبته وهينته التي اعتاد عليها، لم تعد موجودة في ظل الإجراءات التي قام بها رجال السلطان المنصور قلاوون، وذلك لن يؤثر على أحد في دولة المماليك، وخاصة بعد قيام رجال السلطان بعزله تمامًا عن سائر أهالي البلاد، وعدم تمكيه من الاتصال بأحد أو التحدث مع أحد.

كذلك من بين الإجراءات التي قام بها الأمير جمال الدين أقوش: فصل وعزل رؤساء هذه السفارة عن سائر الجموع التي رافقتهم، كما منع تلك الجموع من القيام بأي ضجيج أو هرج ولا مرج <sup>(٧٢)</sup>. كما حرص الأمير جمال الدين أقوش على ألا يعلم أحد من أهالي بلاد الشام بوصول هذه السفارة، على الرغم مما ضمته من جموع كبيرة. وذلك وفقًا لأوامر السلطان المنصور قلاوون، لذلك توجه بهم مباشرة بعد وصولهم إلى البصرة، إلى قلعة حلب، حيث وصلوا إليها في ٢٦ شوال عام ٦٨٢هـ/ ٣٠ يناير ١٢٨٣م، دون أن يشعر بهم أحد، وذلك لأنهم ساروا ليلاً والناس نيام، كما أنهم سلكوا بعض الطرق الغير مأهولة بالسكان ولا المارة <sup>(٧٣)</sup>.

(٧١) النهج السديد وادرك الفريد فيم بعد تاريخ ابن العميد، ص ٥٢٧.

(٧٢) محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الايام والعصور، ص ٤٩.

(٧٣) محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الايام والعصور، ص ٤٩.

وعلى هذا النحو كانت أوامر السلطان المنصور قلاوون واضحة تماماً، وخاصة في عدم احتكاك أعضاء هذه السفارة، ولا المصاحبين لها، بأحد من أهالي دولة المماليك في الشام ومصر، وذلك مثلما حدث في السفارة السابقة، وإن كان الأمر مختلف كثير الاختلاف في هذه السفارة، فقد خشي السلطان المنصور قلاوون قيام الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بفتنة أحد من أمراء المماليك، وذلك لما ملكه ذلك الشيخ من قوة التأثير، وما يقوم من حيل. وكان السلطان المنصور قلاوون محققاً في هذا التخوف، فقد عُرف الشيخ عبدالرحمن بقوة تأثيره، وما يقوم به من أعمال، ويشير ابن الفرط إلى أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن اشتغل بعلم السيمياء، ومنك به عقول مغول فارس، فتمسكو به<sup>(٧٧)</sup>

كذلك من بين الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاوون: أن هذه السفارة ضمت عدداً كبيراً من الجواسيس الذين حضروا ليقنوا صورة كاملة لما عليه حال دولة المماليك. وقد أشار إلى ذلك صراحة المؤرخ بدر الدين العيني بقوله: " ولم يمكن أحد من الاجتماع بهم، بل كانوا في دار رضوان، وغلما نهم وجواسيسهم بمعزل عنهم<sup>(٧٨)</sup>، ولذلك قام الأمير جمال الدين أقوش بعزل هؤلاء الجواسيس، ومن معهم من الظمان وبقية الحاشية، بعيداً عن قيادة السفارة، كما قام بمراقبتهم، وحُرم عليهم التنقل داخل البلاد، والاحتكاك بالأهالي، حتى لا يحصلوا على ما يريدون من معلومات عن أحوال دولة المماليك.

وزيادة في الحيلة، وحتى لا يتقابل أعضاء هذه السفارة ولا الحاشية المرافقة لها أثناء نزولهم بقلعة حلب، صدرت الأوامر لنائب حلب، الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري، بإخلاء بعض قاعات قلعة حلب لتنزل بها هذه السفارة. كما منَعوا تماماً من الخروج من هذه القاعات والاحتكاك بأحد، وذلك كما يقول شافعي بن علي: احترازاً من تحيل<sup>(٧٩)</sup>، وأجريت عليهم النفقات اللازمة، وعين لهم من الخدم من يقوم على خدمتهم<sup>(٨٠)</sup>.

(٧٧) تاريخ ابن الفرط، ج ٧، ص ٢٧٨.

(٧٨) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٧٩) الفضل الماور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٤.

- الأمير شمس الدين قرا سنقر: هو الأمير الكبير شمس الدين أبو محمد الجوكندار =



وبعد أن استراحوا بقلعة حلب وقضوا بها عدة أشهر، توجهوا إلى دمشق، حيث اصطحبهم الأمير جمال الدين آقوش ليلاً، وسلك بهم عدة طرق خالية من المارة والسكان، حتى وصلوا إلى قلعة دمشق في ليلة الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة عام ٦٨٢هـ/ ٥ مارس ١٢٨٤م<sup>(٨٠)</sup>، حيث أنزلوا بقاعة دار الرضوان، وأغدق عليهم بكثير من النفقات من مأكّل ومشرب. ويذكر ابن الفرات أن مبلغ نفقاتهم كانت في اليوم الواحد ألف درهم نفقة، وألف درهم أخرى للأطعمة والحلوى والفاكهة<sup>(٨١)</sup>. كما تم رعاية خيولهم وما معهم من دواب وآلات<sup>(٨٢)</sup>.

ومثلما حدث لهذه السفارة، أثناء وجوهم في قلعة حلب، حدث لهم أيضاً في قلعة دمشق، حيث تم الفصل بين رؤسائها وبقية من معها من غلمان وحاشية، فأقام كل فريق منهم في ناحية في قلعة دمشق، وعلى حد تعبير محي الدين بن عبد الظاهر 'في أماكن محفوظة'<sup>(٨٣)</sup>، كما صدرت الأوامر أيضاً بالآلا يتصل بهم أحد ولا يتحدث معهم، ولا يسمع ما يقولون، ولا يردون عليهم جواباً<sup>(٨٤)</sup>.

وفي تلك الأثناء اجتمع السلطان المنصور قلاوون ببعض أمرائه، وأجرى معهم المشاورات من أجل اتخاذ قرار بشأن هذه السفارة، وهو ما عبّر عنه شافع بن علي بقوله: 'فإن مشورة انعقد مع غلّاء أمرائه، وشيوخ أمرائه'، فتقرر أن يكون مقابلة هذه السفارة

٨٠ المنصوري، من أكبر واجل مماليك البيت المنصوري، اشتراه الملك المنصور في زمان الإمارة، ثم أخذ يترقى، وتولى عدد من الوظائف، وصفه الصفيدي بقوله: "وكان من رجالات العلم ودهاتهم... كثير العزم، كبير الحزم"، توفي عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: خليل بن أبيك الصفيدي: أعيان العصر وأعيان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م، ج ٣، ص ١٤٣-١٤٧ ابن حجر الصقلاني: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٣٠-٣٣٢.

(٨١) محي الدين بن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ١٥ ابن الفرات: تاريخه، ج ٧، ص ٢٧٩.

(٨٢) تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٩.

(٨٣) محي الدين بن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٥٠.

(٨٤) تشریف الأيام والعصور، ص ٥٠.

(٨٥) محي الدين بن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٥٠.

بدمشق<sup>(٨٥)</sup>.

ولما كان السلطان المنصور قلاوون مشغولاً ببعض المهام داخل القاهرة، لذلك تقرر تأجيل لقاء هذه السفارة إلى العام التالي (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)<sup>(٨٦)</sup>، وبالفعل في عام ٦٨٣هـ، توجه السلطان المنصور إلى دمشق، خصيصاً لمقابلة سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن<sup>(٨٧)</sup>، حيث وصل إليها في يوم السبت ١٢ جمادى الآخرة عام ٦٨٣هـ/ ٢٨ أغسطس ١٢٨٤م<sup>(٨٨)</sup>.

يذكر المؤرخ ابن الفرات أنه في نفس اليوم الذي وصل فيه السلطان المنصور قلاوون إلى قلعة دمشق، جاءته الأخبار بأن السلطان أحمد تكودار قُتل، وتولى بدلاً منه ابن أخيه أرغون بن أباخان بن هولاكو<sup>(٨٩)</sup>، وذلك دون أن يعلم بهذه التطورات الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته<sup>(٩٠)</sup>.

وبعد أن استراح السلطان المنصور قلاوون ثلاثة أيام، تم استدعاء الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته للمقابلة أمام السلطان المنصور قلاوون<sup>(٩١)</sup>.

اهتم السلطان المنصور قلاوون بهذه المقابلة اهتماماً كبيراً، فقد أراد أن تكون رسالة إلى مغول فارس تعبر عن قوة دولة المماليك في مصر والشام، فيشير المؤرخون

(٨٥) الفضل المائور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٤-١١٥.

(٨٦) ابن الفرات : تاريخه، ج ٧، ص ٢٧٩.

(٨٧) يقول التويري : " وكان جُلُّ توجهه إلى الشام، بسبب رسل السلطان أحمد "، انظر : نهاية الأرب في فنون العرب، الجزء ٣١، تحقيق: البلاز العريضي، القاهرة ١٩٩٢م، ص ١١٩.

(٨٨) البرزالي : المغتني على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، ج ٢، ص ١٤٥ المقريزي : السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٢٢.

(٨٩) تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٠٥.

(٩٠) يذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن السلطان قلاوون علم بوفاة أحمد تكودار، عند وصوله إلى غزة وهو في طريقه إلى دمشق. انظر : تشريف الأيام والعصور، ص ٦٨.

(٩١) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص ٦٨.

(٩٢) شافع بن علي : الفضل المائور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٥.

إلى أنه ألبس ألفاً وخمسمائة من مماليكه أقبية أطلس خمر مطرزة، وكلفتها زركش، وحوادث ذهب، وأشعل بين يديه ألف وخمسمائة شمعة خمل كل مغولك شمعة<sup>(٩٦)</sup>. ثم أمر بإدخال سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هو ورفاقه<sup>(٩٧)</sup>.

ويصف الكاتب والمؤرخ المعاصر لتلك السفارة شافع بن علي، هذه المقابلة بقوله : جلس مولانا السلطان على كرسي سلطانه في صورة لا شك أنها أحسن صورة، وهيئة تدهش ذوي النظر، وقد تجملت خواص مماليكه بأحسن مدخرها من الملابس<sup>(٩٨)</sup>. كما وصف شافع بن علي أيضاً هيئة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن عند مقابلته السلطان المنصور قلاوون، فقال : وبخل هذا الشيخ في هيئة الفقراء، معمنا بقوطة مرخاة، لها عذبة بلقي، طوى كُميه وجمجم<sup>(٩٩)</sup>.

ويبدو أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن اعتقد أنه بارتداء هذه الملابس، وبهذه الهيئة سيجعل السلطان المنصور قلاوون ومن حوله من حاشية يعتقدون في كراماته، وعلى حد قول محي الدين بن عبدالظاهر فإنه يستخف عقولاً مثل تلك العقول<sup>(١٠٠)</sup>. وفي نفس الوقت فإنه أراد ألا يتبع ما كان معمولاً به في مثل تلك الحالات، ويقدم للسلطان المنصور قلاوون ما يستحقه من الاحترام والتقدير، ويقول محي الدين بن عبدالظاهر، الذي كان حاضراً تلك المقابلة : فرسم له بتقبييل الأرض، فأبى كبراً منه

(٩٦) ابن الفرات : تاريخه، ج ٨، ص ١٠٦، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣١، ص ١٠٠.

(٩٧) المقرئبي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٢٢-٧٢٣.

- أقبية : جمع قباء، وهو ثوب ذو اكمام ضيقة، اختلفت أشكاله حسب طبيعة الأماكن والبلاد التي استعملته. انظر : ماير : الملابس المملوكية، ترجمة : صالح الشيباني، القاهرة، د.ت، ص ٢٥.

- كلفتاه : هي القنطرة. انظر : ماير : الملابس المملوكية، ص ٣٠-٣١.

حوادث : المفرد حياصة، وهي ما يشد في الوسط القلقشندي؛ صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٤.

(٩٨) الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٥.

(٩٩) الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٥.

(١٠٠) تشریف الأيام والعصور، ص ٦٩.

وزهوًا<sup>(٩٧)</sup>، فما كان من ممالك السلطان المنصور قلاوون إلا أن " أهوى به إلى الأرض حتى كادت أعضائه تتفسخ عضوًا عضوًا "، ونفس الشيء جرى مع أعضاء الوفد<sup>(٩٨)</sup>. لم يؤثر هذا الفعل الذي قام به الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته على السلطان المنصور قلاوون، فلم يعر ذلك اهتمامًا، ورحب بالشيخ ترحيبًا كبيرًا، وأمر بإجلاسه تعظيمًا لقدره<sup>(٩٩)</sup>. وسمح له بالحديث هو ورفيقه: الأمير صداغر وشمس الدين بن الصاحب<sup>(١٠٠)</sup>.

وخلال هذه المقابلة قُدم الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هدية إلى السلطان المنصور قلاوون، ويصفها شافع بن علي بأنها عبارة عن " صندوق لطيف مقفل، وحين فتحه السلطان وجد به دواة من فولاذ موشاة بالجواهر، ذات إطار من ذهب "، ويضيف شافع بن علي أن السلطان المنصور بعد أن وقف على ما بداخل الصندوق استحقر هذه الهدية، وأنعم بها على الفور على أحد أمرائه<sup>(١٠١)</sup>.

ويبدو أن الهدية السابقة قدمها الشيخ كمال الدين من جنده، أما هدية السلطان أحمد تكودار، التي قدمها بعد ذلك الشيخ كمال الدين فكانت: تحفًا منها نحو ستين حبل لؤلؤ كبيرًا، وحجر ياقوت أصفر زنته ما ينيف على مائتي مثقال، وحجر ياقوت أحمر، وقطعة بخلش زنتها اثنتان وعشرون درهما<sup>(١٠٢)</sup>.

وبعد أن تم تقديم الهدايا، قُدم الشيخ كمال الدين عبدالرحمن للسلطان المنصور قلاوون الرسالة التي حملها من السلطان أحمد تكودار، ثم سمح له السلطان المنصور بالتحدث، وأنصت له جيدًا، ثم سمع لأعضاء السفارة بالعودة إلى مقر إقامتهم بقاعة

(٩٧) تشریف الأيام والعصور، ص ٦٩.

(٩٨) محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الأيام والعصور، ص ٦٩.

(٩٩) شافع بن علي : الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٥.

(١٠٠) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٢، ص ٢٩٧.

(١٠١) الفضل الماثور من سيرة السلطان المنصور، ص ١١٦.

(١٠٢) المقرئزي : الملوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٢٣.

الرضوان<sup>(١٠٣)</sup>.

وتعتبر رسالة أحمد تكودار التي حملها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هي الرسالة الثانية<sup>(١٠٤)</sup>، مؤرخة في شهر ربيع الأول عام ٦٨٢هـ/ يونيه ١٢٨٣م في مدينة تبريز، ويوضح تكودار في هذه الرسالة تمسكه بالإسلام، وما يدعو إليه هذا الدين من خلق جميل، وأهم ما فيه هو الدعوة إلى السلام، ونشر الطمأنينة بين البشر، خاصة بين الطائفة الإسلامية، على حد تعبير أحمد تكودار، وتشير الرسالة إلى أن مملكة جنكزخان أوشكت على الضياع والسقوط، وزوال البهجة، وذلك بسبب الخلاف والنزاع الذي حدث بينهم وبين جيرانهم، ولذلك فإن السلطان أحمد تكودار يريد أن يستبدل بذلك النزاع الوئام والاتفاق، ويمحو الأحقاد بإقامة السلام، وأن النزاع القديم لا محل له، لذلك أرسل رساله الذي عبر عنهم بالفارسية بـ الإلينية<sup>(١٠٥)</sup>، لإقامة هذا السلام، وذلك حتى تسكن القن وتزال الخلافات، حقاً لدماء المسلمين.

كما ذكر أحمد تكودار في رسالته، أنه أرسل سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بناءً على طلب السلطان المنصور قلاوون، وذلك على الرغم من أنه لا يحتمل بعد الشيخ كمال الدين عنه، لما يقدمه له من استشارات، والاستعانة به في كافة الأمور، وعلى حد تعبير أحمد تكودار : ' هو لنا في أمور الدين نعم العون، ... وأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى '، كما تحمل الرسالة أيضاً تحذير أحمد تكودار للسلطان المنصور قلاوون، من الانقياد وراء أهل الشقاق الذين لا يريدون إقامة سلام بين الدولتين فيقول : ' فالواجب ألا تسمع أقوالهم، وتترك أفعالهم، أولئك الذين حبطت أعمالهم '، ويتمنى أحمد تكودار في ختام رسالته، ألا يتخذ السلطان المنصور قلاوون قراراً بعكس إرادة أحمد تكودار، الذي يخطب وده، ويريد إقامة السلام بين الجانبين<sup>(١٠٦)</sup>.

(١٠٣) شافع بن علي : الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٦.

(١٠٤) راجع نص هذه الرسالة عند محي الدين عبدالظاهر : تشریف الايام والعصور، ص ٦٩-٧١، المعني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٢، ص ٢٩٧-٣٠٠، الملحق رقم ٤.

(١٠٥) محي الدين بن عبدالظاهر : تشریف الايام والعصور، ص ٦٩-٧١.

وقد استدعى السلطان المنصور قلاوون الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، هو وأعضاء السفارة، لمقابلته والتحدث معه مرة أخرى، ثم مرة ثالثة، حتى استوعب ما عندهم من أخبار، وما وردوا به من الرسائل، على حد قول ابن الغرات<sup>(١٠٦)</sup>. وفي اللقاء الثالث أخبر السلطان المنصور قلاوون الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بمقتل تكودار، وتولية أرغون بن أباقا خان عرش دولة مغول فارس<sup>(١٠٧)</sup>.

كان لخبر مقتل السلطان أحمد تكودار وقع سيء على أسماع أعضاء السفارة، وخاصة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، لدرجة أن شافع بن علي يقول: "فأسقط في يديه، وأغشى عند سماع هذا الخبر عليه"<sup>(١٠٨)</sup>. وهذا بطبيعة الحال لعلمه بأن دولة سطرانه قد ولت بمقتل أحمد تكودار.

كما أن السلطان المنصور قلاوون أصدر أوامره بأن ينقل الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، وأعضاء سفارته، من قاعة الرضوان بقنعة دمشق، إلى بعض قاعات القلعة الأخرى، ويتم التحفظ عليهم، وتقتل النفقات المحصنة لهم، بحيث جعل لهم فقط ما يكفيهم، كذلك أصدر أوامره، بأن يتسلم رجاله كل ما معهم من ذهب، وما عساه من هدايا يكون قد أرسلها أحمد تكودار ولم يسلموها له. وقرن السلطان المنصور القول بالفعل، فأرسل لهم الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الاستادار، الذي اشتهر بالصرامة والقسوة، لتنفيذ تلك التعليمات<sup>(١٠٩)</sup>.

(١٠٦) تاريخ ابن الغرات، ج ٨، ص ٩.

(١٠٧) ابن الغرات: تاريخه، ج ٨، ص ٩.

قتل أحمد تكودار في ليلة الخميس ٢٦ جمادى الأولى عام ٦٨٣هـ/ ٢٣ أغسطس ١٢٨٣م. وعن ظروف قتله، انظر: التهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص ١١٨-١٢١ ابن هبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج ١، ص ٧٢.

(١٠٨) الفضل الماثور من سيرة الملك المنصور، ص ١١٦.

(١٠٩) ابن الغرات: تاريخه، ج ٨، ص ٩.

- الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، كان مملوك عز الدين أيمن الظاهري نائب الشام، ثم صار إلى المنصور قلاوون، تولى نيابة الإسكندرية ثم شد الدواوين بدمشق، ثم تقلد عدة مناصب أخرى

وبالفعل توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعصر إلى مقر إقامتهم بقلعة دمشق بقاعة الرضوان، وأمرهم بجمع حوائجهم وأمتعتهم للانتقال إلى قاعات أخرى، وعند انتقائهم أصدر أمراً بتفتيشهم تفتيشاً دقيقاً، فعثر معهم على مجموعة كبيرة من قطع الذهب واللؤلؤ، وغير ذلك من المجوهرات، فأخذت منهم، وكان من بين الذي وجدوه سبحة لؤلؤ تزيد قيمتها عن مائة ألف درهم كانت في يد الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، فأخذت منه<sup>(١١٠)</sup>.

لم يكتف السلطان المنصور قلاوون بذلك، وإنما تبع ذلك بأن أصدر أمره باعتقال أعضاء هذه السفارة، غير أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن لم يحتمل تلك الصدمات التي حدثت له، من مقتل السلطان أحمد تكودار، ثم اعتقاله بدمشق، وأخذ كل ما كان معه من مجوهرات، فلم يلبث أن مات في يوم الجمعة ٢٨ رمضان عام ٦٨٣هـ/٩ ديسمبر ١٢٨٤م<sup>(١١١)</sup>. فما كان من السلطان المنصور قلاوون إلا أن أصدر أمره، بمواراة جثمانه، ودفنه بمقابر الصوفية بدمشق<sup>(١١٢)</sup>.

أما أعضاء السفارة ومن معهم من الحاشية والغلمان، فنقرر اعتقالهم مدة، ثم أطلق سراحهم بعد ذلك، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم<sup>(١١٣)</sup>. فيما عدا الأمير شمس الدين محمد بن صاحب، فقد نقل إلى قلعة الحبيل بمصر، حيث اعتقل بها مدة ثم أفرج عنه، وتولى

---

بعد وفاة المنصور قلاوون، وصفه ابن حجر الصقلاني " بأنه كان مهلباً ذو صرامة ". توفي عام ٦٨٣هـ/٩ ديسمبر ١٣٠٩م. انظر : ابن حجر الصقلاني : الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، ج ٢، ص ٢٧٤-٢٧٣.

- الأستاذار : إحدى وفلائف عصر المماليك، يكون شاعراً من أرباب السيوف، ويتولى = يتحدث في أمر بيوت السلطان من المطابخ والشراب خذاه والحاشية والغلمان. انظر : القلقشندي : صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠.

(١١٠) ابن القرات : تاريخه، ج ٨، ص ٦.

(١١١) شافع بن علي : الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٦-١١٧.

(١١٢) البرزالي : المغتلي على كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٥٤.

(١١٣) شافع بن علي : الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١١٧.

بعد تلك نيابة دار العدل بالديار المصرية<sup>(١١١)</sup>.

لم يلبث السلطان المنصور قلاوون أن غادر دمشق عائداً إلى الديار المصرية، بعد أن قضى بها ثلاثة أيام فقط، حيث لم تطل إقامته بها، لأنه لم يحضر هذه المرة إلى دمشق إلا لمقابلة سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تلك السفارة التي لم تحقق شيئاً من النجاح، وانتهت بالفشل<sup>(١١٢)</sup>.



(١١١) ابن الفرات: تاريخه، ج ٨، ص ١٧؛ المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٢٣.  
- يقول عنه ابن تغري بردي: "الامير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين اسماعيل بن ابي سعيد بن التيتي الأمدي، احد الأمراء، ونائب دار العدل بقلعة الجبل، كان ريساً فاضلاً"، توفي عام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م. النظر: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢١٧.  
(١١٢) ابن الفرات: تاريخه، ج ٨، ص ١٤؛ العوني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٣٢٢.



### خاتمة

ويتضح من العرض السابق أن: السياسة العدائية التي اتبعتها الدولة الإيلخانية مع دولة المماليك أخذت تتغير، بعد أن اعتنق السلطان أحمد تكودار الإسلام، وحاول إقامة سلام مع السلطان المنصور قلاوون، إلا أن شك الأخير في نوايا مغول فارس أدى إلى عدم عقد ذلك السلام. وأن هذا الشك جعله يتخوف من سفارات السلطان تكودار، مما دفعه إلى أن يتخذ الحيطة والحذر ما يساعد على عدم وقوف هذه السفارات على أحوال دولة المماليك، وعدم احتكاكهم بأحد من أمراء وأهالي مصر والشام.

وفي نفس الوقت؛ فإن السلطان المنصور قلاوون حاول إظهار قوة دولته، وأنه سوف يرد الصاع صاعين، إذا فكر مغول فارس في الاعتداء على معتكات المماليك المجاورة لهم. كما أنه أظهر قوة وأنه سلطنة المماليك لسفراء السلطان أحمد تكودار حتى ينقل هؤلاء السفراء ما تتمتع به دولة المماليك من قوة، وذلك حتى لا يفكر قادتهم في الإغارة على أراضي سلطنة المماليك.

كما أوضحت هذه السفارة ما قام به السلطان أحمد تكودار. خان مغول فارس، من إصلاح لمختلف المساجد والمدارس التي خربت ببغداد، والإنفاق عليها بسخاء، واستعداده للقيام بالأعمال التي تخدم الإسلام والمسلمين في كل الأنحاء، وأنه يعمل من أجل نشر الأمن والأمان والسلام الذي يدعو إليه الإسلام.

غير أن وفاة السلطان أحمد تكودار أدت إلى فشل هذه السفارات، وعدم تحقيق السلام المنشود.

### الملحق الأول

#### رسالة السلطان أحمد تكودار إلى أهالي بغداد<sup>(١٦)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وإننا جلسنا على كرسي الملك، ونحن مسلمون. فيتلقون أهل بغداد هذه البشارة، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد في أيام الخلفاء العباسيين. ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية. وأنتم يا أهل بغداد مسلمون. وسمعا عن النبي ﷺ أنه قال : لا تبرح هذه العضابة الإسلامية مستظهرة إلى يوم القيامة. وقد عرفنا أن هذا الخبر خير صحيح، ورسول صحيح. وريت واحد أخذ فزد ضعد. فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها.

ARCHIVE

(١٦) محي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأمام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٥.

## الملحق الثاني

### الرسالة الأولى للسلطان أحمد تكدار إلى السلطان المنصور قلاوون<sup>(١١٧)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بقوة الله تعالى، بإقبال قَا أَنْ، فرمان أحمد إلى سلطان مصر:  
أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته، ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان  
الضبا وربعان الحداثة، إلى الأقرار بربوبيته، والاعتراف بوحدانيته، والشهادة بمحمد عليه  
أفضل الصلوات السلام، بصدق نبوته، وحسن الاعتماد في أوليائه الصالحين من عباده  
في بريته. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة  
الدين، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أفضى بعد أبينا الجيد وأخينا الكبير نوبة  
الملك إلينا، فأفاض علينا من جلايب أنطافه ولطائفه، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه  
وعوارفه. وجلا هذي المملكة عينا. وأهدي عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريلتاي  
المبارك - وهو المجمع الذي تنقدح فيه الآراء - جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار،  
ومقدموا الساكر وزعماء البلاد. واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير،  
في إنفاذ الجَمِّ الفغير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وملأت الأرض  
رُعباً لعظيم صولتها، وشديد بطشتهم إلى تلك الجهة، بهمة تخضع لها شَمُّ الأطواد وعُزْمة  
تلين لها صَمُّ الصلاد. ففكرنا فيما تمحضت زُبْدَة عزائهم عنه. واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم  
عليه. فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام، الذي هو عبارة عن  
تقوية شعار الإسلام. وألا يصدر عن أوامرنا - ما أمكننا - إلا ما يوجب حقن الدماء،  
وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار رخاء نسالم الأمن والأمان، ويستريح به  
المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان، تعظيماً لأمر الله، وشفقة على  
خلق الله. فأنهنا الله - تعالى - إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن النائرة. وإعلام من أشار  
بذلك الرأي بما أرشدنا إليه : من تقديم ما يُرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء. وتأخير  
ما يجب أن يكون آخر الدواء، وأنتا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال، إلا بعد

(١١٧) محي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ١٠٠-٩.

إيضاح المحجة، ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة. وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح. وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح. إذ كاز شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين، عبدالرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين. فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه. ونقمة على من أعرض عنه وعصاه. وإنفذنا أقصى القضاة قطب العلة والدين، والآتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة / الزاهرة، ليعرفاهم طريقتنا. ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا. وبيئنا لهم أننا من الله على بصيرة، وأن الإسلام يُحِبُّ ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن ننبئ الحق وأهله. ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعائنا إليه: من تقديم أسباب الإحسان، ولا يحرموها بالنظر إلى سائف الأحوال فكل يوم هو في شأن. فإن تطعنت نفوسهم إلى دليل تستحكم بمسببه دواعي الاعتماد، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من مآثرنا، مما اشتهر خبره، وعم أثره، فإننا ابتدأنا - بتوفيق الله تعالى - بإعلام أعلام الدين وإظهاره، في إيراد كل أمر وإصداره تقديمنا. وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدى إجلالاً وتعظيماً. وأدخنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف، وقابناه بالصفح وقبنا عفا الله عما سلف. وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع البر والزُبط الدوارس، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها لشروط واقفيها، ومنعنا أن يلمس شيء مما استحدث عليها، وألا يغير أحد ما قُرّر أولاً فيها. وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها وتسيير قوافلها. وإننا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وخرمنا على العساكر والقراغول والشحاني في الأطراف التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم. وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في ري الفقراء كان سبيل مثله أن يُهلك، فلم يُهزق منه نخزمة ما حرّمه الله تعالى، وأعدناه إليهم. ولا يخفى عنهم ما كان في إنقاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين. فإن عساكرنا طالما رأوهم في ري الفقراء والنسك وأهل الصلاح

فساءت ظنونهم في تلك الطوائف، فقتلوا منهم من قتلوا، وفعلوا بهم ما فعلوا، وارتفعت الحاجة بحمد الله تعالى إلى ذلك بما صدر إنذنا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم. فإذا أمعنوا الفكر في هذ الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية. وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة، فإنها كانت بطريق الدين، والذب عن حوزة المسلمين : فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين. وإن كانت لما سبق من الأسباب فمن تحرى الآن طريق الصواب، فإن له عندنا الزلفى وحسن مآب. وقد رفعنا الحجاب، وأثينا بفصل الخطاب وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها، وحزمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها، لنرضي بها الله والرسول، وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول. وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغشنة. فتسكن في سابغ ظلها البوادي والحواسر، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر، ويعفي عن سائف الهنات والجرائر، فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم، وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسك بالغروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلّى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنعم تلك الممالك والبلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحل الكافة أرض الهويني وروض الهدن، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون. وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عُدُننا، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا، والله الموفق للرشاد والسداد، وهو المهيم على البلاد والعباد، وحسبنا الله وحده.

### الملحق الثالث

#### رسالة السلطان المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد تكودار

##### رداً على رسالته الأولى<sup>(١١٨)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بقوة الله تعالى بإقبال دولة السلطان الملك المنصور:  
كلام قلاوون إلى السلطان أحمد:

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للحق منهاجا، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا. والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي، نُجى به أمته، وعلى كل نبي ناجى، صلاة تنير ما دجا وتُدير من داجى. فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقى بالتكريم، المشتغل على الغيا العظيم: من دخوله في الدين، وخروجه عن خلف من العشرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخير للمعلم والمعلم. والحديث الذي صحح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصح الحديث ما روى عن مسلم. وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت، وأن ينبت حب حُب هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أحسن المنابت.

وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول العمر، وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية، ودخوله في العلة المحمية، بالقول والعمل والنية. فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقام والمقام، وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهد وجهاد تنزلزله دونه الأقدام. وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه التكبير إليه، وإفاضة جلايب هذه المواهب العظيمة عليه، وتوقله الأسرة التي طهرها إيمانه، وأظهرها سلطانه، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباد، وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وغباده.

(١١٨) محي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام والنصور في سيرة الملك المنصور، ص ١٦٠-١٦١.

وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قور ينتاي الذي تتقدح فيه زبدة الآراء، وأن كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب، وأنه فُكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم، وانتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفا لما في ضميره؛ إذ قصده الصلاح، ورأيه الإصلاح، وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك النائرة فهذا فعل الملك المتقي، المشفق من قومه على من بقي، المفكر في العواقب، بالرأي الثاقب، وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم الغرّة، لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة. لكن هو كمن خاف مقام ربه نهى النفس عن الهوى، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى. وأما القول منه: إنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة، وتركيب الحجة، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المترتبة، على من غدت طواعيته عن سلوك هذه الحجة منتكبة. فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة، وجهادنا واجتهادنا، إنما هو على الحقيقة لله. وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الدخول، وبارتفاع المناقرة، تحصل المضافرة. فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ومن أقام مناره فله أهل بآهل في كل مكان، وجيران بجيران في كل أرض، وأما ترتيب هذه القواعد الجمة على إذكار شيخ الإسلام، قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن - أعاد الله من بركاته - فلم تُر لولي قبله كرامة كهذه الكرامة، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة، حتى تتم شرائط الإيمان، ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن مما كان. ولا يُنكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود، أن كل حق ببركته إلى نصابه يعود.

وأما إنفاذ أقصى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالي أحواله وخطرات خاطره ومنظرات ناظره. ومن كل ما يُشكر ويحمد، ويعنن حديثهما فيه عن مسند أحمد.

وأما الإشارة إلى النفوس إن كانت لها تطلع إلى إقامة دليل، تستحكم بسببه دواعي الود الجميل فلينظر إلى ما ظهر من مآثره، في موارد الأمر ومصادره، ومن العدل

والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسهيل السبل للحج إلى غير ذلك. فهذه صفات من يريد لملكه الدوام. فلما ملك عدل، ولم يل إلى لؤم من عدا ولا لؤم من عدل. على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة، والمثوبات التي تستتق بالدعاء الألسنة، فهي واجبات تؤدي، وقربات بمثلها يبدى، وهو أكبر من أنه بإجراء أجر غيره يفخر أو عليه يقتصر، أو له يدخر. بل إنما تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها، ونظمها على ما كانت عليه في سلوكها. وقد كان والده فعل شيئاً مع الملوك المسلجوية وغيرهم وما كان أحد منهم يدينه بدين، ولا دخل معه في دين. وأقرهم في ملكهم، وما زحزحهم عن ملكهم ويجب عليه ألا يرى حقاً مقتصاً وبأبى إلا رده، ولا باعاً ممتداً بالظلم ويرضى إلا صدّه. حتى إن أسباب ملكه تقوى، وأيامه تنزّل بأفعال التقوى.

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشعاني بالأطراف التعرض إلى أحد بالأذى وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضاً بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعنتاب، وإلى مقدّمي العساكر بأطراف تلك الممالك وإذ اتحد الإيمان واستعدت الأيمان تحتم هذا الإحكام، وترتب عليه جمع الأحكام.

وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق، أن بسبب من يتزيا من الجواسيس بري الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه، وزند من ذلك الطرف كان قدحه. وكم من متري بفقير من ذلك الجانب سيّروه، وإلى الاطلاع على الأمور سيّروه. وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرقع عنهم السيف، ولم يكشف ما غطوه بخرقه الفقر بلم ولا كيف. وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف، وتدرّ بها الخيرات الأخلاق، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنّح إلى السلم وما حاد ولا حاد. ومن ثني عانته عن المكافحة، كان كمن مذّ يذ المصالحاة للمصافحة. والصلح وإن كان سيد الأحكام فلا بدّ من أمور تبني عليه قواعده، ويعلم من مدلوله فوائده. فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات



لازمة يعمر بها كل معنى ومطم، إن تهيأ صلح أو لم. وثم أمور لابد وأن تحكم، وفي سلكها عقود العهود تنظم. قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس. وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله [ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ] فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على السبيل ينهج. بل لفضل المتقدم في الدين ونصره عهود ترعى، وإفادات تستدعى. وما برج الفضل للأولوية وإن تناهي العدد للواحد الأول، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروي وتأول :

وعندما انتهينا إلى جواب ما لطف به الجواب من فصول الكتاب، سمعنا المشافهة التي على لسان أفضى القضاة قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب : من دخوله في الدين. وانتظام عقده بسلك المؤمنين، وما بسطه من معدلة وإحسان، مشكورة بلسان كل إنسان فالمنة الله عليه في ذلك فلا ينهها منه بامتنان. وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه : [ قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ].

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء، ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل. فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة، ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا، وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا. فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة، وما تم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة. فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحسن الوداد، وجميل الاعتضاد، وكبت الأعداء والأضداد، والاستناد إلى من يشتد المر به عند الاستناد فالرأي إليه في ذلك.

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود. فالجواب عن ذلك أنه

كف كف العدوان وترك المسلمين وما لهم من مماك سكنت الدهماء، وحقنت الدماء وما أحقه بالأنهي عن خلق ويأتي مثله، ولا يأمر ببر وينسى فعله، وقنفر طاي بالروم، وهي بلاد في أيديكم وخراجها يجبي إليكم، وقد سفك فيها دماءكم، وسبي وهدمك، وباع الأحرار، وأبى إلا التماسي على الإضرار والإصرار.

ومن المشافهة أنه حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ولا تفتقر عن هذه الإثارات، فيعين مكاناً يكون فيه اللقاء، ويعطي الله النصر لمن يشاء. فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة ومرة قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم. فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قذر. ولا نحن ممن ينتظر فلتة، ولا من له إلى غير ذلك لفلة. وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بفتة. والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة.

ARCHIVE

### الملحق الرابع

#### الرسالة الثانية للسلطان أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاوون<sup>(١١٩)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بقوة الله تعالى بإقبال قا آن. فرمان أحمد. إلى سلطان مصر. أما بعد فالذي يجب عل العاقل بذل الجهد : وترك الإهمال والتواني، واستنفاد الوسع في اقتناء الذكر الباقي الذي هو العمر الثاني، وقد انحصر الشاء الجميل والشواب الجزيل في التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، واستعمال العدل والنصفة المندوب إليها. وأي عدل ونصفة أعظم قدراً، وأعنى ذكراً في سائر الأصقاع والممالك، من إنقاذ الأنفس بجريعة الذقن من المهالك وإطفاء سائرة أكباد حرى، وقنوب جرحى، ومن أحيائها فكانما أحياء. ولما لم يكن لنا بفضل الله العظيم، وإحسانه الجسيم افتقار ولا بُغية، ولم يبق في ضميرنا إرادة ولا منية، سوى رفاهية العالم، وطمانينة بني آدم، خصوصاً الطائفة الإسلامية، وأهل الملة الحنيفية أبعدنا الألجية إلى إخواننا : ثوقاي آقا وتودامتكو وغيرهما، ونبهناهم على أن الملك العظيم الذي ادخره لنا جدُّنا جنكيزخان وآباؤنا الكرام بعد الصبر على المشقة في تحصينه والمقاساة، وتحمل أعباء الشدائد والمعاناة، بمجرد النزاع والخصام، وخلاف الوفاق واختلاف الكلام قد أشرف على شحوب بهجته وبهائه، وتكدير رونق صفاء مائه. والآن آن أن نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح، ونتعوِّض عن غييب ليلة النغار والنفار بتأشير الصبح، ونغمد السيوف البواتر التي اسلَّت من الأغعاد، ويعفى أثر الهرج والمرج ونعرض عن الأغراض والأحقاد ويتفق الجميع على القيام بواجب كوج قان وخدمته، والالتزام بواجب طاعته، والاشتغال على ما ينوط بمصلحته. وحيث تأملوا ذلك بعين البصيرة، ورأى من حنكه دوران الفلك والتجربة تبين لهم أن هذا الرأي محض شور لا يشوبه غش ولا مدهانة، وخالص تنبيه لا يغادره سوى زبدة المناصحة. فقالوا: إن الذي وقع من الخلاف كان بين من قد قضى نحبه من الآباء والأسلاف ولم تجر بيننا

(١١٩) محي الدين بن عبد الظاهر : تشریف الایم والمنصور في سيرة الملک المنصور. ص ٦٩-٧١

مخاشنة، ولا وقع خلف ولا مشاحنة، فعدنا إلى ما كان عليه آباؤنا القديما الكرام، من الاتفاق والائتلاف وحفظ العهد والذمام. والتزمنا ألا ينحل عقد هذا النظام. والله الموفق للرشاد والهادي إلى السداد. ولما يفرغ البال من إصلاح ذات البين، واستحكمت مرائر الائتلاف بين الجهتين، أنفذنا الأليجية بعد النية الخالصة لله وللرسول تسكيناً للفتن الشائرة، وإطفاء للهبب تلك الشائرة، وحققنا لدماء المسلمين، وسد لثمة الدين. فكانت خلاصة جوابه وزيدة خطابه عند وقوفه على ما كتب به إليه أنه : لو أنفذ أبونا شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن لكنت أسكن إلى أمانته وأخذ إلى ديانتته وأسمع منه ما لم يحتمل إبداعه الكتب وأشافه بما عندي من المصالح وأخاطبه بما ينطوي عليه ضميري للمسلمين من النصائح. هذا وغير خاف أنه يعز علينا بعباده، ويوحشنا بينه وفراقه. وربما اتص به ما نستفيده من حسن معاشرته، وجميل مصاحبته. وحيث كان التماسه موجبا لإشاعة الخير العام، وإذاعة شعار الإسلام، رضينا بتوجيهه إلى جهته، إسعافا لمقترحه، وجعلناه في اتخاذ العهد واليمين، بدلا عن شمالنا واليمين، ولم يكن بين كلامنا وكلامه بون، إذ هو لنا في أمور الدين نعم الغوث والتزمنا بكل ما عساه يسنده إلينا، وبما يرى ثقة بأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى، وربما شردمة من الجهال (من الجهتين) من أهل الشقاق والنفاق لا تجتمع كلمتهم على الوفاق، تنافى طبائعهم الصلح والاتفاق، يريدون ليظفونوا نور الله بأفواههم والله متم نوره، لا اختلاف ملئهم، وطمعا في إدراك بغيتهم. فالواجب ألا تسمع أقوالهم، وتترك أفعالهم، أولئك الذين حبطت أعمالهم، ومن المعلوم أن كل أمر يمكن اعتماده على الوجه الجميل بحيث تنحسم فيه مواد القال والقليل، لا ينبغي أن تكون الحال فيه بالضد مخصوصا في الخطب الإيم، والأمر الجذ.

” الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ” وكتب في أوائل ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة. بمقام تبريز.  
والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

## المصادر والمراجع

### أولاً - المصادر

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير : علي بن محمد ( ت. ٦٣٠ هـ ) :
- الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٥ م.
- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد ( ت ٦٦٨ هـ ) :
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر دار الثقافة، بيروت ١٩٨١ م.
- ابن أبيك الدوداري : أبو بكر بن عبدالله ( ت ٧٣٦ هـ ) .
- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم : الذرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولخ هارمان، القاهرة ١٩٧١ م.
- ابن أبيك الصفدي : صلاح الدين خليل ( ت ٧٦٤ هـ ) :
- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق ، فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨ م.
- البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد ( ت ٧٣٩ هـ ) :
- المقتفي في كتاب الروضتين المعروف باسم : تاريخ البرزالي، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٦ م.
- بيبس الدوادار : ركن الدين بيبس المنصوري ( ت ٧٢٥ هـ ) :
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق : زبيدة عطا، القاهرة د.ت؛ تحقيق : دونالد ريتشاردز، بيروت ١٩٩٨ م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ( ت ٨٧٤ هـ ) :
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٥ م.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٨ م.

- الجويني : علاء الدين عطا ملك (ت ٦٨٠هـ) :
- تاريخ فاتح العالم، جهان كشاي، ترجمة : السباعي محمد السباعي، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م.
- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ) :
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، القاهرة د.ت.
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :
- العبر وديوان المبتدأ والخبر، نشر مطبعة جلاق مصر ١٢٨٤هـ.
- خواندمير : غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ) :
- دستور الوزراء، ترجمة: حريي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م.
- الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) :
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م.
- رشيد الدين الهمذاني : فضل الله أبو الخير بن موفق الدولة (ت ٧١٨هـ) :
- جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م.
- شافع بن علي : ناصر الدين شافع السعدي الرواحي (ت ٧٣٠هـ) :
- الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ) :
- فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.
- أبو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٠هـ) :
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم : الذيل على الروضتين،

نشر عزت العطار، بيروت ١٩٧٤م.

- ابن العربي : أبو الفرج بن هرون (ت ٦٨٥هـ) :

• تاريخ مختصر الدول، عني بتصحيحه الأب أنطون اليسوعي، لبنان ١٩٨٣م.

- ابن العميد : الشيخ جريس بن العميد (ت ٦٧٢هـ) :

• أخبار الأيوبيين نشر Claud Cahen في :

Bulletin d'etudes Orientales, Paris ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠.

- العيني : بدر الدين أبو محمد (ت ٨٥٥هـ) :

• عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠١٠م.

- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :

• المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ.

- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٧هـ) :

• تاريخ ابن الفرات، الجزء السابع، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت د.ت.

- القزويني : زكريا بن محمد (ت ٨٨٧هـ) :

• آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار صار، بيروت ١٩٧٩م.

- ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري) :

• الحوادث المعروفة باسم : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد،

بيروت ١٩٩٧م.

- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :

• صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.

- ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٧٤هـ) :

• البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٥م.

- مفضل بن أبي الفضائل : (توفي بعد عام ٧٥٩هـ) :

• النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشر بلوشيه Blochet في :

Patrologia Orientales, Paris □□□□.

- المقريري : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م.
- النسوي : محمد بن أحمد (من علماء القرن السابع الهجري) :
  - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق: حافظ أحمد حمدي، القاهرة ١٩٥٣م.
- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) :
  - نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء التاسع والعشرون، تحقيق : محمد ضياء الدين الرئيس، القاهرة ١٩٩٢م، الجزء الواحد والثلاثون، تحقيق: السيد الباز العريضي، القاهرة ١٩٩٢م.
- ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ) :
  - تنمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم: تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت ١٩٧٠م.
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ) :
  - معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- اليونيني :
  - نيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات بالهند - حيدر آباد ١٩٦٠م.
  - حوادث أعوام ٦٩٧-٧١١هـ، تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م.



## ثانياً المراجع

- السيد الباز العريني : المغول، بيروت ١٩٨١م.
- حامد زيان : سقوط بغداد، مقال منشور بمجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، فرع بني سويف، العدد الخامس، أكتوبر ٢٠٠٣م.
- خليل أدهم : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٧٢م.
- رجب محمد عبدالحليم : انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة ١٩٨٦م.
- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥٢م.
- سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م.
- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة: محمد علاء منصور، القاهرة ١٩٩٠م.
- علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٧م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م.
- ماير : الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، القاهرة د.ت.
- محمد أسد صفا : جنكزيخان، بيروت ١٩٨٨م.
- محمد دبر سياقي : السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ، ترجمة أحمد الخولي، القاهرة ٢٠٠٥م.
- Howarth : History of the Mongols, London ١٩٥٥.

## آل برهان ودورهم السياسي والعلمي في بخاري تحت حكم القراخطاي في القرنين (٦-٧هـ/١٢-١٣م)

د. الشيماء سيد كامل  
مدرس بكلية دار العلوم جامعة المنيا

آل برهان من الأسرات الحاكمة التي تبوأ مكان الصدارة في الحياة الدينية في بخاري<sup>(١)</sup>، فإليها ترجع رئاسة المدينة ورئاسة المذهب الحنفي<sup>(٢)</sup> فيها، ارتبطت تلك الأسرة في تاريخ المشرق بالدول الحاكمة التي توالى علي حكم بخاري، كالدولة القراخطائية<sup>(٣)</sup> التي يطلق علي حاكمها لقب الكورخان<sup>(٤)</sup> وأن لفظ كورخان لقب يطلق علي ملوكهم وليس من أسمائهم<sup>(٥)</sup>.

وهي الدولة الوثنية التي يعتنق حكامها المذهب المانوي، ويحكمون من مدينة برسخان<sup>(٦)</sup> علي حدود الصين، ثم حكموا من مدينة بلاساغون<sup>(٧)</sup>، وكذلك ارتبطت هذه الأسرة بملوك الدولة الخوارزمية الذين حكموا من إقليم خوارزم<sup>(٨)</sup>.

أطلق علي أسرة آل برهان في التاريخ اسم آل مازة، وهم يعدون من الأسر الكبيرة في بخاري، والظاهر أن أول أفراد هذه الأسرة التي اشتهرت به، وإليه تنسب هو: الأمام برهان الدين عبدالعزيز عمر بن من مازة البخاري الحنفي<sup>(٩)</sup>، الذي ظهر ببخاري في حدود سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، ولُقِبَ كل أفراد هذه الأسرة بلقب برهان الدين<sup>(١٠)</sup>، وقد اشتهرت هذه الأسرة بالبذل والجود والكرم والرياسة والمجد والعظمة، وصارت رئاسة بخاري منهم أبا عن جد، فكانوا يعدون ملوكها ورؤساءها، وخاصة في الفترة الأخيرة من حكم القراخطاي<sup>(١١)</sup>.

ويرجع القزويني<sup>(١٢)</sup> نسبهم إلي الخليفة عمر بن عبدالعزيز<sup>(١٣)</sup> وقد توارث أفراد هذه الأسرة العلم كابراً عن كابر، فكانت إليهم رئاسة جماعة الحنفية، التي تعتبر المذهب الرئيسي لأهالي بخاري، فكان يتبعهم من العلماء قرابة الأربعة آلاف فقيه<sup>(١٤)</sup>، وقد تميز آل

برهان بأنهم فحول الحنفية المشهورين بالفضل والنبيل، ولهم التقدم عند الملوك والسلطين<sup>(١٢٧)</sup>، وهم الذين اتخذوا لقب 'صدر جهان' لقباً لرؤسائهم، بمعنى صدر العالم<sup>(١٢٨)</sup>.

ولابد أن ننوه هنا بمكانة مدينة بخارى وكيفية فتح العرب لها، وما ترتب علي ذلك من نشر الدين الإسلامي بين ريوعها، فبخارى لها مكانة جغرافية مميزة لقربها من خراسان<sup>(١٢٩)</sup>، تقع على نهر جيحون، وهي علي شاطئ نهر زرفشان مباشرة، وهو ما يعرف بنهر الصغد<sup>(١٣٠)</sup> هذا وقد قيل إن نشأة بخارى جاء نتيجة لذوبان الثلوج من الجبال بناحية سمرقند<sup>(١٣١)</sup>، فكانت الماء الكثير الذي يحمل الطمي إلي ناحية - بتك وفتك - إلي أن طمر ذلك الموضع فتمهدت الأرض، وصارت يقال لها بخارى<sup>(١٣٢)</sup>، وبذلك تدفق الناس عليها من ناحية تركستان<sup>(١٣٣)</sup>، وهي ترجع من حيث النشأة إلي ما قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، وأن الإسكندر المقدوني عندما قصد الصغد أقام مدينتين هناك وربما تكون بخارى أحدهما، وقد أسس فيها ما يطلق عليه الرساتيق، وهي المواضع التي عرفت ببخارى، والتي كانت مقر أميرها وحاكمها<sup>(١٣٤)</sup>.

ويصف بعض المؤرخين<sup>(١٣٥)</sup> بخارى بأنها تمتاز دون سائر مدن ما وراء النهر بهوائها الجاف المتقلب، لقربها من المناطق الرملية المحيطة بها ذات هواء ساخن وشتاء لفترة قصيرة، الأمر الذي جعل أهلها ينتقلون إلي السهول والوديان القريبة التي تتوسطها المدينة نفسها.

#### أولاً انتشار الإسلام علي المذهب الحنفي في بخارى

انتشر الإسلام بين أهالي بخارى علي المذهب الحنفي بصفة خاصة، وبين أهالي ما وراء النهر بصفة عامة، ونستطيع القول: إن بداية انتشار الإسلام بدأت مع بداية الفتوحات الإسلامية<sup>(١٣٦)</sup> لمنطقة بخارى في عصر الدولة الأموية<sup>(١٣٧)</sup>، حيث أتم القائد قتيبة بن مسلم الباهلي فتوحاته، واستقرت القبائل العربية في ريوعها، وأسهم ذلك في خلق فرصة أمام هؤلاء البخاريين ليختلطوا بالمسلمين اختلاطاً مباشراً، فتعارف كل عنصر علي

تقاليد وعادات الآخرين، مما كان له أكبر الأثر في ولائهم للدين الإسلامي واعتناقهم له، فقد سلك الفاتحون سياسة التسامح التي اتبعوها مع حكام بخارى من الدهاقين<sup>(٢٢)</sup>، لكي يؤلفوا قلوبهم للدين الجديد، هؤلاء الدهاقنة كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة في بخارى قبل قدوم العرب، تلك الطبقة كانت قد ارتبطت بعلاقات ودية وتحالفات مع بلاد الصين، واستغلت الولاء للصين في كبح الحركات الشعبية، وثبتت نفوذهم وسلطانهم في بخارى، وبذلك انتقلت عن طريقهم العبادات الوثنية والأصنام التي كانوا يعتقدونها في تلك الآونة<sup>(٢٣)</sup>.

لذلك تمتعت هذه الطبقة بمكانة متميزة قبل الإسلام، سواء من ناحية الدين أو النواحي السياسية والحكم. وامتلاك الجيوش العسكرية، وارتفعت مكانتهم وانتشر سلطانهم، حتي صارت أسماؤهم تقرن باسم الإمارات والمدن القائمين فيها، فكان منهم دهقان البوزجان، ودهقان الفارياب، ودهقان مرو الروذ، ودهقان مرور<sup>(٢٤)</sup>، هذا بالإضافة إلي ما تمتعوا به من نفوذ وثروات في بخارى. لهذا فقد حرص القائد قتيبة بن مسلم علي نشر الدين الإسلامي بين تلك الطبقة الحاكمة، كما حرص علي إقامة الصلاة وبناء المساجد، مثل المسجد الجامع بالقرب من قلعة بخارى، إلي جانب مساجد صغيرة متعددة داخل نطاق المدينة<sup>(٢٥)</sup>، وقد أطلق علي المسجد الجامع اسم 'مسجد قتيبة'، كما خلف ببخارى جماعة من المسلمين لتعليم مبادئ الإسلام، كان منهم الضحاك بن مزاحم صاحب التفسير<sup>(٢٦)</sup>.

اتبع قتيبة سياسة جديدة في تعامله مع أهالي بخارى وهي: تسكين القبائل العربية بين أهالي البلاد، فقد قسم المدينة إلي عدة محال، منها محلة الوزير ومحلة القصر وغيرها، وبذلك يتاح للعرب أن يطلعوا علي أفعال وأعمال البخاريين الذين كانوا يدخلون الدين الإسلامي في الظاهر، ويعودون إلى ديانة الأوثان في الباطن<sup>(٢٧)</sup>، وبذلك نجح في جذب العديد من الأهالي إلي الدين الجديد، هذا العمل الذي صنعه قتيبة كان من الصواب، بحيث صار أمراً واقعاً، فيظل أهالي بخارى مسلمين بالضرورة، وشيئاً فشيئاً أظهر الكثير

منهم إسلامهم والتزموا بالأحكام الشرعية، وأزالوا آثار الكفر ورسم المجوسية، وانضم الكثير منهم للجيش العربي الفاتح لمناطق الترك<sup>(٣١)</sup>.

هذا إلي جانب نشر اللغة العربية ؛ التي صارت اللغة الرسمية والأدبية في بخارى<sup>(٣٢)</sup> والتي يكتب بها في الدواوين وينطق بها المثقفون والحكام، ولأنها لغة العبادة في الدين الإسلامي؛ فكان ضرورياً أن يتعلمها كل من دخل في الإسلام ليتعبدا بها أولاً، ويصل نفسه بحكامها ثانياً. ويلاحظ أنه بانتشار الإسلام في بخارى قد فشا فيها العلم، فصار كبار أهلها أئمة وعلماء محترفين، وأصبح فيهم أهل العلم والورع والزهد، من أمثال أبي حفص الكبير البخاري الحنفي، الذي كان يقيم بمحلة القصر، ورحل إلي بغداد وتلمذ علي يد الإمام محمد بن حسن الشيباني، وعليه فقد ظهرت في بخارى طبقة من الفقهاء الذين اعتنقوا الإسلام علي المذهب السني، وتبوأوا مكان الصدارة في الفترة اللاحقة، وصارت بخارى بفضل علمائها وفقهائها مقصداً لطلاب العلم، الذين أقاموا حلقات التدريس في شتي العلوم الشرعية والعلمية.

#### ثانياً أوضاع فقهاء الحنفية السياسي في بخارى قبل آل برهان

لم يكن فقهاء آل برهان هم أول من تدخل في الشؤون السياسية في بخارى، فقد برز دور الفقهاء في الحكم والإدارة، وكان لهم الدور المهم في تسيير شئون البلاد علي مدار تاريخ هذه المدينة، ومن أولي هذه المحاولات تدخل رجال الدين، من طبقة الحنفية، في الدولة السامانية<sup>(٣٣)</sup>، حيث ساندوا الأمير إسماعيل الساماني<sup>(٣٤)</sup> عندما أرسل الخليفة المعتمد علي الله العباسي (٢٥٦ هـ : ٢٧٩ هـ / ٨٦٩ م : ٨٩٢ م) رسولا بمنشور ولاية ما وراء النهر إلي الأمير نصر بن أحمد الساماني، هذا الأمير الذي أسند إلي أخيه إسماعيل حكم بخارى نائباً عنه، ومن هنا نري دوراً بارزاً لفقهاء الحنفية بوقوفهم إلي جانب هذا الأمير وتعضيده، واستقباله استقبالاً حافلاً، وبالفوا في الترحاب به، حتي نشروا الذهب والأموال بين يديه، وأقاموا الزينات والاحتفالات، حتي عدوا يوم دخوله بخارى من أعيادهم<sup>(٣٥)</sup>.

وفي حقيقة الأمر؛ فقد استجاب الأمير إسماعيل لمطالب الفقهاء بأن عمل علي إعلاء كلمة الدين الإسلامي ونشره خارج نطاق الدولة، فصار إلي بلده طراز<sup>(٣١)</sup> وفتحها، وقام بتحويل كنيسة هذه المدينة إلي مسجد جامع، وتليت أول خطبة جمعة في ذلك المسجد باسم الخليفة المعتضد بالله العباسي (٢٧٩هـ - ٢٨٨هـ / ٨٩٢م - ٩٠٠م)<sup>(٣٢)</sup>، وبذلك أصبح هذا العمل نصراً كبيراً للفقهاء الحنفية في بخارى.

هذا وقد ظهر دور الفقهاء في بخارى في الدولة السامانية أيضاً، وذلك بوقوفهم إلي جانب الأمير نصر بن أحمد برغم صغر سنه الذي لا يتعدى الثمانية أعوام، في سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م، حيث ساندته مشايخ بخارى وحشموها، ورفعوه علي الأعناق وبابيعوه بالحكم والإمارة<sup>(٣٣)</sup>، وبذلك استطاعوا بقوة مكانتهم التصدي لمحاولة عمه إسحاق، صاحب سمرقند، الوصول إلي الحكم<sup>(٣٤)</sup>.

ومع مرور الوقت بدأ الضعف يدب في كيان الدولة السامانية، حتي وصفهم فامبري<sup>(٣٥)</sup>، بأنهم صاروا مجرد دمي - إلا بقرأ قليلاً منهم -. وأصبحوا لا حيلة لهم بأيدي رجال دولتهم، وبذلك بدأ أهالي بخارى وبقالها يتطلعون إلي القضاء علي هذه الدولة العجوز، وبدأوا في الاستجداد بالعناصر الخارجية، ومن ثم استجاب لهم العنصر التركي المسمي القراخانيين<sup>(٣٦)</sup>، الذين استجابوا لمطالب ودعوة الدهاقنة المحليين في بخارى<sup>(٣٧)</sup>، وللحقيقة قد حاول السامانيون دفع رعاياهم للذود عن ممتلكاتهم ضد الزحف الخاني، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك، وذلك نتيجة لما أعلنه الفقهاء وافتوا به بأن الحرب لا تكون فرضاً إلا إذا أراد الكفار الاستيلاء علي بلد إسلامي<sup>(٣٨)</sup>، فكانت تلك الفتوي من الفقهاء من أهم الأسباب التي أدت إلي تشييط همة الرعية بعدم الوقوف في وجه جيش القراخانيين، وبذلك جنوا الفائدة مضاعفة، بعد أن تمت السيطرة للقراخانيين، حيث لم يتخذوا من بخارى أو سمرقند عاصمة لدولتهم، بل صارت هذه البلاد تابعة لحكمهم في بلاساغون، وأطلق بذلك يد الدهاقنة والفقهاء في الحكم والإمارة. فلم يستطع الأمير نوح بن منصور التصدي للزاحفين<sup>(٣٩)</sup>، واضطر إلي الفرار من أنظار بغراخان<sup>(٤٠)</sup>، فعبّر نهر جيحون إلي بلده آمل

الشيء<sup>(٤٤)</sup>. وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن السبب الرئيسي في عدم التصدي للقراخانيين، هو وجود فتنة داخلية في بخارى، قادها أمير الصفغانيان الأمير أبو علي سميجور، الذي قام بحث بغراخان علي مهاجمة ممتلكات السامانيين، وذلك نتيجة لعدم استجابة الأمير نوح لمطالبته بمنحه ولاية خراسان ليحكمها<sup>(٤٥)</sup>.

ولكن ما لبث أن توفي بغراخان، بعد أن أقام في بخارى نائباً له لحكمها، وهو أحد أمراء البيت الساماني ويسمي عبدالعزيز نوح بن نصر، ودفن بغراخان في المسجد المقام في آرتيش شمال كاشغر، وما زالت مقبرته مكاناً ومزاراً للمسافرين الأوربيين، ولم تصل إلينا أية عملة تحمل اسمه<sup>(٤٦)</sup>.

وفي حقيقة الأمر: فإن ممتلكات الدولة السامانية قد قسمت صلحاً بين الدولة القراخانية والدولة الغزنوية، في عهد السلطان محمود بن سبكتكين<sup>(٤٧)</sup>، وأصبح للقراخانيين الأقاليم الواقعة شمال نهر جيحون بما فيها بخارى، وللغزنويين الأقاليم التي تقع جنوب النهر، كخراسان وبلاد القور وخوارزم<sup>(٤٨)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بخارى استمرت في حوزة القراخانيين كولاية تابعة لحكمهم، يعين فيها حاكم تابع للخان، ويقام بها شحنة عسكرية لحماية المدينة من أي اعتداء، ولضبط الأمن بها<sup>(٤٩)</sup>، مثلما حدث في سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م، عندما عين أيلك خان أخاه جعفر تكين.

وقد استمر وضع بخارى علي ذلك حتي تغيرت التقسيمات الإدارية في الدولة القراخانية نفسها، حيث انقسمت الدولة بسبب إعلان أولاد قدرخان، وهما بغراخان ويوسف طغرل خان، الحرب علي الخان شمس الملك نصر، ونتج عن ذلك أن صارت ممتلكات الخانية، في التركستان وكاشغر وبلاساغون، من ممتلكات أولاد قدرخان، وأصبح الجزء الغربي، بما فيه ما وراء النهر، من ممتلكات شمس الملك نصر، الذي أقام في بخارى وجعلها عاصمة لمملكته<sup>(٥٠)</sup> وتعتبر فترة حكمه من أزهى العصور التاريخية في بخارى

حيث ساد العدل بين الرعية، وقام بتأسيس عدة منشأة ومبان معمارية<sup>(٥١)</sup> في بخارى، مما يدل علي اهتمامه ونهوضه بها في تلك الفترة.

وإذا انتقلنا إلي نقطة أخرى، في دور فقهاء بخارى السياسي قبل آل برهان، وهي فترة حكم السلطان ملكشاه السلجوقي، تلك الفترة التي تدخل فيها الفقهاء في الحياة السياسية من جديد، وقاموا بالاتصال بالسلطان لكي يتدخل في شئون بخارى الداخلية، وذلك عندما استاءوا من حاكمهم القراخاني أحمد خان وأفعاله وسيطرته السيئة بين رعاياه، لذا فقد كتب الفقهاء لملكشاه سرّاً يستغيثون به، ويسألونه القدوم لإصلاح أحوالهم، هذا بالإضافة إلي تسييرهم أحد الفقهاء المشهورين، وهو الفقيه أبوطاهر بن علي، لكي يحث السلطان علي الإسراع بالقدوم لنجدتهم، وقد وجدت أقوال هذا الفقيه أداتاً صاغية من السلطان، فسار بجيشه في سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م، تجاه بخارى، وأنزل الهزيمة بأحمد خان وقبض عليه<sup>(٥٢)</sup>، وبذلك فرض ملكشاه سيطرته علي بخارى، وصارت ولاية تابعة للحكم السلجوقي وخاضعة لتفوذهم.

لقد فتحت سيطرة ملكشاه علي بخارى شهيته، فتقدم إلي إقليم كاشغر لإخضاع حاكمه القراخاني، الذي أسرع لاسترضاء السلطان بإرسال رسول محمل بالهدايا والتحف، ملتصقاً منه السماح بإبقائه علي حكمه، عارضاً عليه أن يزوج إحدى بناته من أبناء السلطان، في مصاهرة سياسية تقرب بين الطرفين، وتقضي علي الصراع السياسي بينهما. قائلاً: '... فلا يضرّك إن بقي في الإقليم بيت من بيوت الملك القديم.. وإن اقتضي رأيك وزوجت بعض بنات مواليك لبعض أولادك، فنحن من مواليك وعبيدك..'<sup>(٥٣)</sup> ومن هنا فقد قبل حاكم كاشغر القراخاني الدخول في طاعة ملكشاه، وضرب السكة باسمه، وأقام الخطبة علي منابر جوامعه باسم السلطان، في مقابل إبقائه علي عرش كاشغر.

ولا ننسي أن نشير إلي أن أحمد خان صاحب بخارى الذي أسره السلطان ملكشاه، قد أطلق سراحه وأعيد إلي الحكم سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، بعد أن أخذ السلطان عليه العهود والمواثيق بالسير بالعدل بين الرعية، إلا أن فقهاء بخارى اعترضوا علي ذلك.



واتهموه بالزندقة وأفتوا بقتله، وذلك في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م، وبالفعل تم تنفيذ اتهاماتهم له وأعدموه، وقد زاد تدخل الفقهاء في تلك المرحلة بأن قاموا بتعيين أحد أفراد البيت القراخاني مكانه في الحكم، فقاموا بتولية ابن عمه المسمي مسعود خان<sup>(٥٤)</sup>، مما يوضح إلي أي مدي وصل نفوذ الفقهاء وتحكمهم في بخارى.

كذلك كان لفقهاء العلويين دور سياسي بارز في عهد السلطان سنجر السلجوقي، فقد عمل أحد فقهاء الشيعة، ويطلق عليه اسم الأشرف محمد بن أبي شجاع، بمساعدة رئيس البلدة فتنة ضد " محمد أرسلان خان حاكم بخارى<sup>(٥٥)</sup> القراخاني، الذي كان تحت يديه حكم ما وراء النهر كله، فأسند إلي ابنه نصر خان حكم سمرقند، وأقام هو في بخارى، وبالتالي عندما ثار هذا الفقيه قام بقتل هذا الابن، مما أجبر محمد أرسلان خان على الاستنجاد بالسلطان سنجر<sup>(٥٦)</sup> وذلك في سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م، فزحف السلطان علي رأس جيش كبير لنجدة الخان، ولكن ما لبث أن شعر محمد أرسلان خان بعدم الحاجة إلي السلطان، وأن ابنه الآخر الذي كان غائباً في التركستان، قد عاد مسرعاً وكفاه شر هذا الفقيه العلوي، بأن تمكن من قتله ومن القبض علي رئيس البلدة وسجنه، وبذلك انتهت الفتنة في بخارى، وبناء عليه فإن الخان طلب من السلطان سنجر -عن طريق الرسل- العودة بجيشه إلي خراسان<sup>(٥٧)</sup>، مما أدى إلي تفجير الموقف بينهما، حيث أسرع السلطان بالقبض علي الخان وأسره، وعين بدلاً منه في الحكم أحد أفراد الأسرة الخانية، وهو حسن تكين<sup>(٥٨)</sup>، ولكنه ما لبث أن رأى بالخان المعزول، فأرسله إلي ابنته معزراً مكرماً<sup>(٥٩)</sup>، وهي تعتبر من الأسرة السلجوقية، فإن هذا الخان يعتبر ابن أخت السلطان سنجر.

وصفوة القول: إن فقهاء بخارى، قبل ظهور آل برهان، كان لهم دور إيجابي في التدخل في سياسة البلاد، لدرجة أنهم استعانوا بالدول المجاورة علي حكامهم، وكانوا سبباً في تدخل سلاطين السلاجقة في شئون البلاد.

ثالثاً تصدي آل برهان للمراهطاي مع السلطان سنجر سنة ٥٢٦ هـ / ١١٤١ م

كان أول ما وصلنا من تاريخ آل برهان وتدخلهم في سياسة بخارى: الموقف الذي وقفه رئيس طائفة الحنفية حسام الدين عمر بن برهان الدين بن عبدالعزيز بن مازة، الذي تصدى للقراخطاي إلي جوار السلطان سنجر، تلك الأسرة التي عرفت بآل برهان أو آل مازة، وهم أسرة دينية بارزة تبوأوا مكانة عالية في النفوذ الديني، فظهروا في القرن السادس الهجري في حوالي ٥٣٥ هـ / ١١٤١ م، كوعاظ ورجال دين علي منابر بخارى<sup>(١٠٠)</sup>. أما عن القراخطاي فهم الأتراك الوثنيون القادمون من شمال الصين، والذين طردتهم أسرة كين الصينية في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تجاه الغرب<sup>(١٠١)</sup>، وفي بداية خروجهم من حدود الصين تجمعوا حول مملكة كاشغر في فترة حكم أبناء قدر خان يوسف، حيث صاروا تابعين للدولة القراخانية في قسمها الشرقي<sup>(١٠٢)</sup>، حتي تمكنوا من تكوين دولة لهم في حدود سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م، اتسعت فشملت المنطقة ما بين مملكة الخوارزمية في الغرب، ومساكن المغول في الشرق، فكان شاطئ نهر جيحون حداً فاصلاً بين مملكة القراخطائية وأقاليم الدولة الخوارزمية<sup>(١٠٣)</sup>، ولابد أن نشير إلي أن تجمع القراخطاي، في تلك المناطق، جاء نتيجة سماح مجد أرسلان القراخاني لبعض قبائل الأتراك الفارغلية، بالإقامة في حدود دولته، وإمدادهم بالأموال سنوياً، لكي يستقروا في الدروب بين بلاده وبين الصين، وانضمام العديد إليهم من القراخطاي.

وهذا وقد تمكن أحد ملوك الصين، ويطلق عليه اسم 'يي لوتاشي' من الاستقرار بين صفوف تلك القبائل، واستطاع أن يكون جيشاً كبيراً انقلب به علي الخان، فأنزل به الهزيمة<sup>(١٠٤)</sup>، ومن ثم نصب 'يي لوتاشي' نفسه حاكماً علي تلك القبائل، واتخذ لنفسه لقب كورخان أو غورخان، وبذلك ألغى الكورخان حكم القراخاني في بلاساغون، وتولي بنفسه الحكم<sup>(١٠٥)</sup> وعلي ذلك تزايد نفوذ الدولة القراخطائية وبسطت نفوذها في المنطقة.

أما عن الصراع الذي دار بين السلطان سنجر وجيوش الخطائية في سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م في موقعة قطوان<sup>(١٠٦)</sup> التي انتصر فيها القراخطائية، وقتل فيها ما يقرب من مائة ألف من عساكر المسلمين، منهم إثنا عشر ألفاً من أصحاب العمائم<sup>(١٠٧)</sup>، منهم شهيد آل

برهان حسام الدين المعروف بالصدر الشهيد، والمولود في سنة ٤٨٣ هـ/ سنة ١٠٩٠ م، وهو أصولي حنفي، بلغ مرتبة الاجتهاد حتي صار مشهوراً فيها، فأقر بفضله علي كثيرين، أخذ العلم عن والده ابن برهان الدين الكبير، وأخذ عنه العلم أبو محمد العقيلي والمرغنائي صاحب كتاب الهداية، ومن مؤلفاته الجامع في الفتاوي الصغرى والفتاوي الكبرى<sup>(٦٨)</sup> وغيرها.

وفي موقعة قتلوان: قد سار الكورخان قاصداً لقاء السلطان سنجر، في نحو سبعمئة ألف من أشد عساكره. فواجه السلطان السبعين ألف فارس، ولكن أمراء سنجر لم يكونوا علي كلمة واحدة، فكانوا غير متفقين، ودب الخلاف فيما بينهم، مما أدي إلي إنزال الهزيمة بجيشه<sup>(٦٩)</sup>، وبذلك سقطت بلاد ما وراء النهر في يد القراخطاي الكافر<sup>(٧٠)</sup>، علي الرغم من بقاء سنجر واقفاً في أعناق قليلة، محاولاً تجميع جنوده، حتي تم أسره، وأسر زوجته السيدة تركان خاتون بنت أرسلان خان، والأمير قماج وابنه، والأمير سنقر العزيزي، وقد فدي سنجر زوجته بخمسمئة ألف دينار، والأمير قماج وابنه فديا نفسيهما بمائة ألف دينار<sup>(٧١)</sup> ويؤكد الحسيني<sup>(٧٢)</sup> علي شدة وقع القتل في الرجال. واستشهد الأمير أياق والأمير سنقر العزيزي، وهو يشير إلي قتل رئيس الحنفية ببخارى الإمام الشهيد حسام الدين عمر بن برهان الدين عبدالعزيز، والسيد الإمام شرف الزمان الإبلاقي الحكيم السمرقندي بين يدي الكورخان، وأن الشيخ فخر الدين المالكي أنشد قصيدة<sup>(٧٣)</sup> في تلك الواقعة.

أراق دماءهم سيف اللثام

بوادي درغم شقيت كرائم

بأجفان موزقة المنام

بكيتهم وحق لهم بكائي

غذاه المزن أنيال الخيام

فتحسبها وقطر الدمع فيها

ولابد هنا أن نستفسر عن سؤال هام: هل حسام الدين بن برهان كان مصاحباً للسلطان سنجر في الواقعة، وأن الكورخان قتله في أثناء المعركة، فصار شهيداً، أم أنه كان في بخارى متصدياً لقوات الكورخان عند استيلائه علي بخارى، فأمر القراخطاي بقتله؟

وهنا يؤكد المؤرخ الذهبي<sup>(٧٤)</sup> على أن أبا حفص عمر بن مازة، عندما خرج للمعركة، كان يودع أصحابه وأولاده، داعياً أمامهم أن لا يرجع من القتال، طالباً للشهادة، لذا عندما قتل في درغم بقطوان في صفر سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م، كان له من العمر ثلاثة وخمسون عاماً فقط. هذا يدلنا على أنه كان مصاحباً للسلطان سنجر في المعركة، كذلك يؤكد بارتولد<sup>(٧٥)</sup> هذا الرأي بقوله : أنه عند غزو القراخطاي كان رئيس بخارى ابنا لعبدالعزیز ويدعي حسام الدين عمر آل برهان، ويبدو أن بخارى أبدت بعض المقاومة ضد الكفار لأن الصدر قتل وسقط في المعركة، ودفن بكلاباد من نواحي بخارى، وقد نتج عن هذه المعركة أن سقطت بلاد ما وراء النهر في يد الكورخان واستمرت خاضعة له قرابة تسعة وثمانين عاماً<sup>(٧٦)</sup>.

واستمراراً لسياسة الكورخان، وفرص سيطرته على بلاد ما وراء النهر، فإنه عين في سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م، أميراً من الأسرة الخانية هو جفري خان بن حسن تكين، وهو الذي أرسل إليه الكورخان بإجلاء الأتراك والقارغنية من أعمال بخارى إلى كاشغر، وأن يلزمهم بترك حمل السلاح وأن يعملوا في الزراعة، فامتنع الترك في البداية، ولذلك تدخل الفقيه محمد بن عمر بن برهان الدين عبدالعزيز ابن مازة رئيس بخارى، لئلا جفري خان لكي يتدخل ويحث الأتراك، قبل أن يعظم شرهم، وينهبوا البلاد، وقد انتهى الأمر بتردد الرسل بينهم، حتى تمكن آل برهان بمساعدة جفري خان من القضاء عليهم، ودفع شرهم عن بخارى<sup>(٧٧)</sup>.

#### رابعاً تغيير سياسة آل برهان تجاه القراخطاي

لقد تغيرت سياسة آل برهان تجاه دولة القراخطاي، وذلك نتيجة لاتباع الكورخان<sup>(٧٨)</sup> سياسة إدارية ونظام حكم مختلف فيما وقع بين يديه من ممتلكات، فقد اتبع مبدأ الحكم الذاتي على نطاق واسع في الإمارات الداخلية في مملكته، ولم يشذ عن ذلك إلا بلاساغون التي أسقط عنها حكم الخان القراخاني، واعتلى عرشها، وقد تمثل حكمه في الإمارات، كبخارى، في فرض الجزية على كل بيت ديناراً ذهباً، وكان ممثل الكورخان في

عواصم تلك الولايات المتمتعة بالحكم الذاتي، وكان هذا الممثل أو النائب عن الكورخان لا يذهب إلي مقر الحاكم إلا لأخذ الجزية، فإذا أخذها انصرف، وكان في بعض الأحيان يحفظي الخان صاحب سمرقند وبخارى بحق إحضار الجزية بنفسه إلي الكورخان، وكانت الجزية عند القراخطاي، وملوك الصين، تدفع عن كل بيت علي حدة، قطعة واحدة من الذهب - دينار<sup>(٧٩)</sup>.

أما بالنسبة لمدينة بخارى كولاية تابعة لسلطان الكورخان؛ فإنه قام بتعيين شخص من قبله والياً عليها، يطلق عليه اسم أتمتكين بن بيباتي<sup>(٨٠)</sup>، ولم تعدنا المصادر التي بين أيدينا عن شخصية أتمتكين هذا، هل هو من الخانيين أم هو من أمراء القراخطاي، وأن هناك من ينسبه إلي الأمير بيباتي وأنه ابن أخي أتمز ملك خوارزم. وإن كان النرشخي<sup>(٨١)</sup>، قد أطلق عليه اسم البتكين، وهو نفس الاسم الذي أطلقه عليه بارتولد<sup>(٨٢)</sup>.

وهذا بالإضافة إلي أنه أوصي بأسرة آل برهان للإشراف علي هذا النائب، فقد أسند إلي الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبدالعزيز بن مازة إمام بخارى وابن برهان الدين، وقد أمره أن يصدر في أعمالها كلها عن إشارته، ولا يعمل شيئاً بغير أمره ولا يتصرف في أمر إلا في حضوره<sup>(٨٣)</sup>، وعلي ذلك أصبح تاج أحمد بن مازة أول من تولي منصب الرئاسة من هذه الأسرة، في بخارى. تابعاً للقراخطاي وتلقب بلقب صدر جهان، وقد صار هذا اللقب علماً علي أفراد تلك الأسرة حتي القضاء علي دولة القراخطاي في بخارى، سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م<sup>(٨٤)</sup>.

ومن هنا يتضح تغيير موقف الأسرة البرهانية في بخارى، فقد أوكل إليهم الكورخان مهمة الإشراف علي نائبه في بخارى، مما يؤكد إلي مدى نفوذ الكورخان علي ما تحت يديه من ولايات، كبخارى التابعة لنفوذه، حتي يستعين بحاكم يفرض رأيه علي أهالي بخارى.

ولا يفوتنا أن نشير إلي أن الكورخان كان شديد الحرص علي استمرار تبعية بلاد ما وراء النهر لسلطانه، فقد وضع علي بخارى شحنة من العساكر لكي يدفع لهم الجزية

السنوية، وأوكل إليهم أيضاً حفظ الأمن والنظام في بخارى<sup>(٨٥)</sup>. فكان أمراء هذه الناحية يدفعون إلى شحنات الكورخان الخراج، وكانوا يحكمون تحت تبعيتهم بلقب الأمير، وقد سلكت أسرة آل برهان، المعروفين بآل صدرجهان، نفس هذا المسلك مع الشحنة، ونائب الكورخان أتمتكن في بخارى، وللحقيقة التاريخية فإن القراخطاي اضطروا إلى الاعتراف بالزعامة الدينية لأسرة آل برهان في بخارى، وأن يعمل أتمتكن في كل شيء بإشارة الإمام.

تجسد دور آل برهان في بخارى في التصدي إلي أتمتكن، الذي ظلم ائرية وشرع في مصادرة الأهالي، فعندما رأوا هذا الظلم ما لبثوا أن خاطبوا الكورخان في عاصمته بلاساغون، ورفعوا شكواهم إليه، ومن ثم كان تدخل الكورخان لوقف هذا الظلم. حيث كتب إلي أتمتكن رسالة، على طريقة أهل الإسلام، جاء فيها: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** : يعلم أتمتكن أنه إن تكن المسافة بيننا بعيدة فرضانا وسخطنا منه قريب، ليفعل أتمتكن ما يأمر به أحمد - يقصد به الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبدالعزيز - وليأمر أحمد بما أمر به محمد، والسلام<sup>(٨٦)</sup>. هذه الرسالة التي تتضمن عدل وإصاف الكورخان لرعيته ومحاسبته لهم، وعني قوة الكورخان في تلك الأونة. وأن كلمته تنفذ علي نائبه، هذا إلي جانب أن مضمون الرسالة يوضح كل الوضوح رغبته في نشر العدل، وإبقاء بخارى تحت سيطرته، والذود عنها وعدم تعرض رعيته لأي مكروه.

#### خامساً اتصال آل برهان بالخوارزمية

برغم انضواء الأسرة البرهانية تحت حكم القراخطاي الوثنيين في بخارى، وتبوءهم دور رؤساء البلدة وزعماء المذهب والفقهاء الحنفي فيها، فقد حاولوا، في بعض الأوقات، الاستئجار بالدولة الخوارزمية ضد نفوذ أهالي بخارى. ونتيجة لتذبذب موقف آل برهان من علاقتهم بالقراخطاي والخوارزميين؛ فقد فتح ذلك شهية سلاطين خوارزم علي مهاجمة بخارى، رغبة منهم في توسيع نفوذهم بالاستيلاء علي ما تحت يد الخطائين من بلدان وخاصة ما وراء النهر.

ولابد أن نشير في البداية إلي أن موقعة قطوان وإنزال الهزيمة بالسلطان سنجر السلجوقي: ترجع في الأساس إلي استنجد السلطان أئمز الخوارزمي بقبائل القرامطائيين، نتيجة قتل سنجر أحد أبنائه في إحدى المواقف الحربية<sup>(٨٧)</sup> بالرغم من أن دولة الخوارزميين منبثقة من الأسرة السلجوقية، وأن سنجر هو الذي أوكل إلي محمد بن نويشكين حكم ولاية خوارزم، في سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م<sup>(٨٨)</sup>، وبناء علي ذلك فقد رغب أئمز في توطيد علاقته بالقرامطاي في المشرق، محاولة منه للانتقام من السلطان سنجر، بهدف القضاء علي دولة السلاجقة في المشرق، وتأكيداً لذلك: تزوج السلطان أئمز من بنات الخطائية<sup>(٨٩)</sup>، بالإضافة إلي أن هناك إشارات من نظامي عروضي السمرقندي<sup>(٩٠)</sup> توضح أن أئمز كان نائب الخطائي، في بخارى، هو ابن أخت السلطان أئمز، وبذلك أصبح هناك تجاوب كبير بينهما.

ولكن هناك بعض الإشارات التي تدل علي خشية أئمز من القرامطاي وإقترابهم من ممتلكاته، فكان نهر جيحوب يعتبر حداً فاصلاً بينهم<sup>(٩١)</sup>، وقد حدثت مناوشات من أتباع الكورخان، في بخارى وما وراء النهر، تحت قيادة القائد أوتوز، حيث غزا خوارزم وأنزل بها ضربات شديدة، ثم عاد محملاً بالأسلاب والغنائم، لذا حاول السلطان أئمز غسل ذلك العار في سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م بالمسير بجيشه إلي جند<sup>(٩٢)</sup>، ولكن جهوده باءت بالفشل، فاضطر إلي أن يتعهد بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار - تلك الجزية التي لم يستطع أن يتخلص منها، فتركها عبئاً ثقيلاً علي كاهل خلفائه من بعده<sup>(٩٣)</sup> - هذا يفسر كيفية إسراع أئمز واهتمامه بعقد الصلح مع القرامطائية، وقد قيل إن هذه الجزية قدمت في البداية علي سبيل الهدية، للمساهمة<sup>(٩٤)</sup> في نفقات الجيش، طالما كان علي قيد الحياة، بالإضافة إلي إرسال الأغذية والمواشى في كل عام<sup>(٩٥)</sup>.

والجدير بالذكر إن أهالي بلاد ما وراء النهر قاموا بالاستنجد بالسلطان أيل أرسلان، الذي خلف أباه أئمز حوالي ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م، من ظلم أمير الكورخان، ومن تحكيمات رئيس البلدة من آل برهان، فأسرع الخوارزمشاه إلي نجدتهم، ففتح أهالي بخارى

أبواب مدينتهم دون أي قتال، وسلموها للخوارزميين، ولكن من الملاحظ أن أمير الكورخان وأل برهان استجدوا بالقراخطاي، وحشدوا جيشاً بأعداد كبيرة من الترك التركمان النازلين فيما بين قراقورم وجند، مما اضطر السلطان أيل أرسلان إلى العودة لخوارزم، دون أن يحقق أي انتصارات<sup>(١٧٦)</sup>، وقد أشار بارتولد<sup>(١٧٧)</sup>، إلى هذا الصلح الذي تم بين الطرفين وأن عماء بخارى وأتمتها قاموا بجهد مشكور في ذلك، لدرجة أنه لم تتم مواجهة بين الطرفين. كذلك ساند آل برهان الخطائين في زحفهم على خوارزم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وذلك بسبب امتناع السلطان أيل أرسلان الخوارزمي عن دفع الجزية السنوية المقررة عليهم للقراخطاي، وسرعان ما عبرت جيوش القراخطاي نهر جيحون، وحلت الهزيمة بالخوارزمية، وداهم المرض سلطانهم، فترك قيادة الجيش لأحد أمرائه، فحلقت الهزيمة بهم، وتم أسر عدد كبير منهم<sup>(١٧٨)</sup>.

ظهرت مطامع القراخطاي في ممتلكات الخوارزميين عند وفاة السلطان أيل أرسلان، الذي عهد إلى ابنه الأصغر سلطان شاه بالحكم من بعده، ولكن أخاه الأكبر المسمى تكش، حاكم جيد، طأنب بأحقية في الحكم بدلاً منه، لذا سارع إلى طلب العون من القراخطاي، فأمده الكورخان بجيش استطاع أن يحقق النصر به، وأن يطرد أخاه سلطان شاه وأمه من خوارزم دون قتال - إلى الأمير مؤيد أب إبه في خراسان في سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م<sup>(١٧٩)</sup>.

ولكن سرعان ما خالف السلطان تكش القراخطائين، وتملص من عبء دفع الجزية، فزحف عليه القراخطاي لقتاله، وحاصر خوارزم، ولكن تكش كان يخرج إليهم في كل ليلة مع مجموعة من جنوده ويفاوضهم، فكبد القراخطاي خسائر كبيرة في الأرواح، وبالتالي انسحب الباقون إلى بلادهم<sup>(١٨٠)</sup>، وقد زاد الأمر سوءاً بالنسبة للقراخطاي، فقد فقدوا سيطرتهم على مدينة بنغ<sup>(١٨١)</sup>، التي كان صاحبها المسمى "أرية" يحمل الجزية إليهم في كل عام، ومن ثم ظهر دور آل برهان بالوقوف إلى جانب عناصر القراخطاي، فقد جهز السلطان علاء الدين تكش قواته تجاه مدينة بخارى، في محاولة للسيطرة عليها<sup>(١٨٢)</sup>، لذلك



أعلن آل برهان وأهالي بخارى، عن بكرتهم، أن القراخاني أفضل وأحسن حالاً من وقوعهم تحت حكم الخوارزميين.

ومن النواذر الطريفة التي فعلها آل برهان: إحضارهم كلباً أعور وألبسوه قباءً ورموه بالمنجنيق علي الجيش الخوارزمي، صائحين بقولهم: " هذا سلطانكم " - وذلك لأن السلطان تكش كان أعور - ولكن الشيء الملاحظ أن تكش تمكن من اقتحام أبواب بخارى، إلا أنه لم يعاقب آل برهان ولا أهل بخارى بما فعلوه، بل وزع الأموال وأحسن إليهم<sup>(١٠٣)</sup>، ولم يأخذهم بجريرة ما فعلوه من الاستهزاء به.

ومن هنا نرى أن آل برهان وقفوا إلي جانب أهل البلاد وعناصر القراخانية، علي الرغم من أنه ملك بوذي الديانة، يطلق عليه أنه وثني كافر، ولم يرغبوا في الانحياز إلي جانب السلطان الخوارزمي، علي الرغم من معرفتهم التامة بأنه حاكم مسلم الديانة.

هذا ولا بد أن نشير إلي أن السلطان تكش، بعد عودته إلي خوارزم<sup>(١٠٤)</sup> أعاد تجديد علاقته بدولة القراخاني. وأقر علي نفسه دفع الجزية المفروضة علي أبيه سابقاً، سعياً منه لإرضاء الكورخان<sup>(١٠٥)</sup>، فهو بذلك يجعلهم سداً منيعاً لمن وراءهم من سلالات المغول القاطنين خلفهم في الناحية الشرقية.

ومن المواقف الإيجابية التي وقفها سلاطين الخوارزمية مع آل برهان: موقف السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م، إلي جانب آل برهان عند قيام أهالي بخارى بالثورة ضدهم، تلك الثورة الشعبية التي قامت ضد الأرستقراطية الحاكمة، متمثلة في أسرة آل برهان، وكان قائد هذه الثورة رئيس الصناعات ببخارى، ولم يصلنا اسم هذا الشخص.

ومما يلاحظ في ذلك فإنه بالرغم من مكانة آل برهان، وبرغم اعتمادهم في الحكم علي سلطنتهم الروحية الدينية، علي أساس أنهم رؤساء المذهب الحنفي في بخارى، وأنهم رؤساء البلدة، يسند إليهم مهمة جمع الضرائب وحملها إلي الكورخان في عاصمته بلاساغون، وأنه كان يعيش تحت كنفهم وإدارتهم ما يقارب ستة آلاف فقيه<sup>(١٠٦)</sup> فقد أسرع

آل برهان بمخاطبة الكورخان طالبين إرسال نجدات عسكرية لصد تلك الثورة، إلا أنه يلاحظ أن الكورخان، في ذلك الوقت، كان في مرحلة ضعف شديد، فاكتمفي بإصدار بعض فرمانات والأوامر<sup>(١٠٧)</sup> التي لم تؤت نتيجة، وعلي ذلك فإن استنجاد آل برهان بالسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي أنقذ الموقف بتقدمه تجاه بخارى، وقيامه بأسر رئيس الثورة وحمله معه أسيراً (إلى خوارزم<sup>(١٠٨)</sup>) مما ترتب عليه عودة بخارى إلى نفوذ وسيطرة آل برهان من جديد، وقد حفز ذلك السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه على محاولة القضاء علي القراخاني في المستقبل.

ولكن قبل أن نتكلم عن هجوم علاء الدين محمد خوارزمشاه علي قان قاتان، أي سلطان السلاطين عثمان خان القراخاني، صاحب سمرقند<sup>(١٠٩)</sup>، لابد أن نشير إلي أن أسرة آل برهان برغم قضاء الخوارم شاه علي ثورة رئيس الصناع في بخارى، إلا أنه ألقى القبض علي رأس الأسرة، وهو برهان الدين محمد بن أحمد بن عبدالعزيز البخاري المعروف بصدرجهان، رئيس الحنفية وخطيب بخارى، الذي كان من السادة المنوك، إذ كان من جملة من يعيش تحت كنفه ما يقارب ستة آلاف فقيه<sup>(١١٠)</sup>، وقد نقله السلطان خوارزمشاه، إلي خوارزم ممنوعاً عن الإصدار والإيراد مسلوب الإرادة<sup>(١١١)</sup>، وأقام بدلاً منه، في رئاسة الحنفية والخطابة في بخارى، مجد الدين مسعود بن صالح الغراوي، ومنحه لقب صدرجهان<sup>(١١٢)</sup> - وهو أخ لوزير سلطان خوارزم المسمى نظام الدين صدر الدين علي سعد الدين مسعود الذي تولي الوزارة منذ عهد السلطان تكش<sup>(١١٣)</sup> - وقد رتب مجد الدين في الخطابة، وقرر أن يخطب بنفسه عند حضور السلطان، ولكن نظام الملك الوزير الذي كان يبغضه بغضاً شديداً، ولا يختار أن يستقيم له حال، أو يقوم له جاء، لذا وضع من قام بالتشويش عليه في أثناء إلقائه خطبة الجمعة أمام السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه<sup>(١١٤)</sup>، فعادت بذلك الخطابة في بخارى إلى أفراد أسرة آل برهان.

**قضاء علاء الدين محمد خوارزمشاه علي الدولة القراخانية**

لقد تطلع السلطان علاء الدين خوارزمشاه إلى السيطرة على ممتلكات الدولة القراخانية، خاصة وأنه طالت أيامهم في التركستان وما وراء النهر، وثقلت وطأتهم على أهلها، وأن لهم في كل مدينة نائب يجبي الأموال، واتفق أن سلطان سمرقند الملقب بخان خانات، أي سلطان السلاطين، وهو من بقايا الدولة الخانية، المسمي عثمان خان، أنف وضجر من تحكمهم ككفار لا يدينون بالدين الإسلامي، فأرسل للسلطان يقول له : " إن الله عز وجل قد أوجب عليك وبما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم... ونحن نتفق معك علي محاربتهم، ونحمل إليك ما نحملة إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلي السكة<sup>(١١٦)</sup>، وزاد في الأمر أن سيّر للسلطان رهائن من أهله وفاء بعهده، فاستوثق خوارزمشاه منه<sup>(١١٧)</sup>.

ومن هنا وجد خوارزمشاه أن من العار أن تدفع دولته ومن ما وراء النهر الضرائب السنوية لحاكم كافر، لذا قام بإلقاء رسول الكورخان في نهر جيحون سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، وأغرقه، عندما جاء مطالباً بالجزية السنوية<sup>(١١٨)</sup>، كما أمر وجوه أهل خوارزم أن يقتلوا كل رجال القراخاني الذين ينزلون ضيوفاً في منازلهم، فقتل كل من كان في خوارزم من الختائيين<sup>(١١٩)</sup>، أما إذا نظرنا إلى سبب تغيير سياسة عثمان خان تجاه القراخاني؛ نجد أن الكورخان رفض طلبه بالزواج من إحدى بناته<sup>(١٢٠)</sup>.

لقد تجهز الكورخان بجيشه لمواجهة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، واستمر القتال بينهما حتي سقط خوارزمشاه في أسره، وبالتالي عمل الحيلة حتي خلص من هذا الأسر<sup>(١٢١)</sup>.

أعاد خوارزمشاه استعداداته في سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، بإمائه سلطان سمرقند، فدارت الدائرة علي الكورخان، وكان مقدمهم يسمي طايئكوه<sup>(١٢٢)</sup>، الذي مني بهزيمة كبيرة ووقع في أسر خوارزمشاه، فحمل إلي خوارزم، لكن السلطان وضعه موضع العناية والتكريم<sup>(١٢٣)</sup>، وقد بلغ عمره مائة عام، اتصف بحسن التدبير والأفعال، له خبرة ودراية بشئون الحكم والإدارة<sup>(١٢٤)</sup>.

وتأكيداً علي حسن النوايا بين علاء الدين محمد خوارزمشاه وسلطان سمرقند عثمان خان، فقد اصطحبه السلطان معه إلي خوارزم<sup>(١٢٢)</sup>، وزوجه من ابنته خان سلطان. وبقي في بلاطهم عاماً كاملاً، علي عادة الأتراك<sup>(١٢٣)</sup>، ولكن بمجرد أن عاد عثمان خان إلي سمرقند أرسل خوارزمشاه معه شحنة، علي غرار ما كان موجوداً سابقاً من القراخطاي، والملاحظ أن هؤلاء الشحنة عاثوا في سمرقند فساداً، وعجز السلطان عثمان خان عن كبح جماحهم وحماية الأهالي من اعتداءاتهم المتكررة، وبالتالي فقد خضع طاعة الخوارزمشاه، وطلب النجدة من الكور<sup>١</sup>. وتزوج من ابنته، وقد شرع في قتل الجنود الخوارزميين، بل زاد في الأمر بأن حاول أن يقتل زوجته الخوارزمية<sup>(١٢٤)</sup>، وزيادة في إذلالها فقد أجبرها علي أن تخدم في حفل زواجه من القراخطائية، مما تسبب في حقدتها وكراهيتها له<sup>(١٢٥)</sup>.

وبناء علي ذلك فقد سار خوارزمشاه في سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢م لمحاربة عثمان خان، وأمر بأن يقتل جميع الغرياء في حواريهم، فمنعته أمه تركان خاتون عن فعل ذلك، ولكنه تمكن من القضاء علي عثمان خان وقتله<sup>(١٢٦)</sup>، وبعد أن فتح سمرقند أطلق يد جنوده في ذبح أهلها ثلاثة أيام كاملة، ثم رفع يده عن فعله الشنيع، لشفاعة أئمة المدينة والسادات بها<sup>(١٢٧)</sup>، وبذلك قضى علي دولة القراخانيين في بلاد ما وراء النهر.

اتسعت شهية خوارزمشاه، في تلك الفترة، في التوسع في البلدان وإملاك العديد من المناطق، مثل هراء وإقليم الغور كله<sup>(١٢٨)</sup>، ولقب نفسه الأسكندر الثاني، وقل الله علي الأرض<sup>(١٢٩)</sup>. أما الخطوة التالية للسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه؛ فكانت اشتباكه مع الكورخان، ففي سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م، عند مدينة بناكت<sup>(١٣٠)</sup>، وقد قصد القراخطاي، في هذا الوقت، طائفة عظيمة من التتر خرجوا من حدود الصين، ونزلوا وراء بلاد تركستان، وعلي رأسهم ملكهم كشلي خان<sup>(١٣١)</sup> ويسميه الجويني<sup>(١٣٢)</sup> كوجنك، الذي اتفق مع خوارزمشاه علي محاربة القراخطاي.. وانتهت الواقعة بفناء القراخطائيين والقضاء علي دولتهم، التي كانت تعتبر سداً منيعاً ضد تقدم عناصر المغول علي البلدان الإسلامية.

وبالتالي أصبحت المواجهة الثانية بين الخوارزميين وبين جنكيزخان، زعيم هؤلاء المغول، في سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م، ونسى خوارزمشاه وصية أبيه "السلطان تكش" بعدم محاربة القراخاني والقضاء عليهم.

#### سادساً : دور آل برهان العلمي في بخارى

سبق أن ذكرنا أن آل برهان كانت لهم رئاسة المذهب الحنفي في بخارى، وأنهم كانوا يتوارثون رئاسة الخطابة على منابرها أبا عن جد، وقد صارت مدينة بخارى في عهدهم مجمع الفضلاء والفقهاء، كما صارت بيوتهم منجاً لأصحاب التيجان، وقد استمر أفراد هذه الأسرة في مراكزهم الدينية والسياسية، طوال فترة حكم القراخاني لهذه المنطقة، وكانوا يقومون برئاسة الحنفية حتي عهد السلطان أولحايو ( ٧٠٣ هـ : ٧١٦ هـ / ١٣٠٣ م : ١٣١٦ م ) ومنذ ذلك التاريخ لا يعلم أي شيء عنهم<sup>(١٣٠)</sup>.

ولقد تركز اهتمام آل برهان في الحياة العلمية في بخارى، وامتازوا بحبهم الشديد للعلم والعلماء وأهل الدين، وخاصة فقهاء المذهب الحنفي، كما اهتموا بالمراكز العلمية وإنشاء المدارس والمعاهد العلمية، وتشجيع الشعراء والإغداق عليهم بالهبات والعطايا، ومن أبرز مساهماتهم في مجال الحياة العلمية والثقافية: مؤلفاتهم العلمية البارزة وخاصة في الفقه، وأول من نسمع عنه من هذه الأسرة هو: محمد بن عمر بن عبدالعزيز بن مازة، أبو جعفر البخاري، الفقيه الحنفي، شيخ بخاري ورئيسها وابن شيخها، ولقبه شمس الدين، روي عن أبيه، وعنه أبو البركات محمد بن علي الأنصاري قاضي أسبوط في مشيخته، وسمع من ابن مازة ببغداد، وقد عاش خمسة وخمسين عاماً، وتوفي في سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م<sup>(١٣١)</sup>.

ومن مشاهير الفقه الحنفي: عمر بن عبدالعزيز بن مازة، برهان الأئمة، أبو محمد المعروف بالحسام الشهيد، تفقه علي أبيه، وصنف الفتاوي الصغرى والفتاوي الكبرى، والجامع الصغير والمطول، وهو أستاذ صاحب المحيط البرهاني، ولد في صفر سنة

١٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م، واستشهد في موقعة بادية قطوان بالقرب من سمرقند سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م<sup>(١٣٧)</sup>، وهو من مشاهير علماء المشرق وفقهائها.

وقد رافقه في دراسته كلٌّ من: شمس الأئمة الإمام العلامة شيخ الحنفية مفتي بخارى أبو الفضل بكر بن محمد بن علي بن الفضل الانصاري الخزرجي، والجابري وهو شيخ الحنفية نعمان الزمان القاضي عماد الدين أبو العلاء عمر بن العلامة شيخ المذهب البخاري الزربخري<sup>(١٣٨)</sup> المتوفي سنة ٥٨٤ هـ / ١١٩٤ م، وهما يعدان من أقرب الفقهاء إلى عمر بن عبدالعزيز الحسام الشهيد.

ومن آثار أفراد أسرة آل برهان: ما قام بتأليفه محمود بن أحمد بن الصدر الشهيد البخاري برهان الدين ابن مازة الفقيه، المتوفي في حوالي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، مؤلف كتاب المحيط البرهاني في الفقه الحنفي، والذخيرة البرهانية في الفتاوي، ونتيجة الفتاوي، وشرح الجامع الكبير<sup>(١٣٩)</sup> وكلها في شرح المذهب الحنفي.

كذلك مسعود بن أحمد بن مسعود بن مازة المحاربي أحد الفقهاء الحنفية الفضلاء، وله علم بالتفسير وعلم الحديث، قدم بغداد، وصحبه رسول التتار للحج، فحبس مدة سنتين، ثم أفرج عنه، فحج ثم عاد، فمات في بغداد<sup>(١٤٠)</sup>.

كذلك برع في التأليف من هذه الأسرة للمذهب الحنفي: محمود بن أحمد بن عبدالعزيز أبو المعالي، له كتاب "تتمة الفتاوي، وذكره عبدالقادر في مؤلفه المئين، وله كتاب، نصاب الفقهاء " في الفتاوي أيضاً<sup>(١٤١)</sup>، ويعتبر محمود هذا من أكابر فقهاء الحنفية، ومن المجتهدين في المسائل، وله خمسة أجزاء من كتاب ذخيرة الفتاوي، وتوفي في بخارى<sup>(١٤٢)</sup>.

ومن أفضل أفراد الأسرة البرهانية: محمود البخاري بن مازة المرغيناني، المولد سنة ٥٥١ هـ / سنة ١١٥٦ م، الذي توفي سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م<sup>(١٤٣)</sup> والذي ألف كتاب المحيط البرهاني في الفقه النعماني، حيث وضع الغريب في الألفاظ الواردة في كتاب الفقه النعماني، كذلك شرح المصطلحات الواردة اعتماداً على المعاجم اللغوية، وجمع فيه مسائل

الميسوط والجامعين والسير والزيادات، وألحق به مسائل النواذر والفتاوي والواقعات<sup>(١٤٤)</sup>، ومن تصانيفه أيضاً: "الوجيز فى الفتاوي"، وشرح الجامع الصغير للشيباني، وتتمتع الفتاوي وكلها فى فروع الفقه الحنفي<sup>(١٤٥)</sup>، وما يلفت النظر فى مؤلفاته أنه ضم إليها ما فى الكتب من المشكلات، واختار كل مسألة فيها روايات مختلفة، وأقاول متباينة، ما هو أشبه بالأصول، غير أنه لم يرتب المسائل ترتيباً، وبعد وفاته قام أحد المحدثين بترتيبها وتبويبها، وبني لها أساساً وجعلها أنواعاً، وأجناساً<sup>(١٤٦)</sup>.

ارتفعت مكانة صدرجهان المسمى برهان الدين محمد، وزادت ثروته المادية بدرجة عظيمة، لدرجة أنه إذا سمع السامع بأنه خطيب؛ بخارى يعتقد أنه كان مثلاً لسائر الخطباء فى ارتفاع قدره، واتساع الأملak والضياح، وامتطاء صهوة المجد والحكم، وليس الأمر كذلك، بل المذكور لا يقاس إلا بمرتوت السادات، وفروع الملوك، إذ كان من جملة من يعيش تحت كنفه، وإدارة سلفه، ما يقارب ستة آلاف فقيه، وكان كريماً عالى الهمة ذا مروءة<sup>(١٤٧)</sup>.

وقد حج صدرجهان برهان الدين محمد بن أحمد بن مازة محفوفاً بكثير من مظاهر الأبهة، محمولاً على محفة، ومتاعه محمول على أكثر من مائة بعير، وفي معيته كثير من رجال العلم والفقهاء، وقد استقبل فى بغداد بكثير فى الحفاوة والتكريم، وذلك سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦م، ولكن فى طريق عودته إلى بغداد؛ لم يلتفت إليه لسوء سيرته مع الحاج، فأطلقوا عليه مسمى صدر جهنم بدلاً من صدرجهان<sup>(١٤٨)</sup>.

هذا وقد أشير إلى أن آل برهان كانوا متعصبين تعصباً شديداً للمذهب الحنفي، وأنهم كانوا يتقربون إلى الله بما ينزلونه من إذلال بفقهاء الشافعية، وقد تكلوا بأصحابها بشتى أنواع البلاء فى جميع البلاد، وخصوصهم بالطرد والإبعاد، حتى حاولوا إخفاء مذهبهم خشية التنكيل بهم، وبذلك تكب رؤساء المذهب الشافعي فى بخارى، ولم يبق منهم على أحد، ومنهم أبو الفضائل بن المشاط، ومنهم بنو الخجندي، وقد دخل فى المذهب الحنفي

جماعة منهم طلباً للنجاة وخوفاً من أنصار الحنفية، ومن جعلتهم القاضي عمدة الدين الساساني<sup>(١١١)</sup> وغيره.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من الحياة العلمية لآل برهان في بخارى إلا أن نشير إلى: اهتمامهم ببذل الكثير من الأموال والعطايا لإحياء الكتب المؤلفة في الفترة السابقة لحكمهم، خاصة الكتب التي تتناول تاريخ بخارى، وبلاد ما وراء النهر، فقد قام برهان الدين بن عبد العزيز بن مازة بإصدار أوامره إلى محمد بن زفر بن عمر لإعادة ترجمة كتاب تاريخ بخارى، الذي ألفه: أبو عبد الله محمد بن أحمد البخاري الفنجاري المعروف بالنرخشي والذي تم كتابته في سنة ٣٢٢هـ/٩٤٣م، وقدمه إلى الأمير الحميد أبي محمد نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني<sup>(١١٢)</sup>.

وقد وضع النرخشي مؤلفه باللغة العربية، وأعاد محمد بن زفر ترجمة هذا الكتاب باللغة الفارسية، وأتم عمله هذا في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م. وقدمه إلى حاكم بخارى من آل برهان الإمام الأجل عبد العزيز بن مازة<sup>(١١٣)</sup>، فأجزل له العطايا، مما يوضح اهتمام أفراد أسرة آل برهان بإحياء تراث بخارى، وتشجيعهم للعلماء. والمؤرخين على إنتاج المؤلفات والكتب التاريخية.

وصفة القول: فإن آل برهان المعروفين ببني مازة، لعبوا دوراً بارزاً في العلاقات السياسية الخارجية للبلاد، كما كانوا يعتبرون رؤساء بلدة بخارى وحكامها؛ طوال فترة حكم القراخانيين، يجمعون لهم الضرائب ويرسلونها إلى الكورخان في عاصمته، وكذلك سيروا أمور البلاد، بالاستئجار في بعض الأحيان بالخوارزميين ضدهم، وكانت لهم رئاسة المذهب الحنفي والخطابة في بخارى، وألفوا وصنفوا العديد من المؤلفات القيمة في المذهب.



## المواضع

- ١- بخاري : من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر، يعبر إليها من أصل الشط بينها وبين نهر جيحون يومان، كثيرة البساتين، وتعتبر نزهة ما وراء النهر (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، سنة ١٩٩٠م، ص ٤١٩ : ٤٢٠) ؛ وقد أشار المؤرخون إلى أن بخاري أحسن مدينة وخارجها أفضل خراج (القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ص ٥٠٩)
- ٢- المذهب الحنفي : هو المذهب الذي ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفقيه الكوفي، الذي تأثر بمن قبله من علماء أهل الرأي، وكان لاتباع أبي حنيفة وتلاميذه المشهورين، مثل أبي يوسف محمد الشيباني وغيرهم دور في إثراء المذهب الحنفي وتوسيع مسائله ومجالات تطبيقه، وقد اتخذته الدول الشرقية، مثل السلاجقة وآل بويه مذهباً لهم في القضاء والعبادات (محمود البخاري بن مارة : المحيط البرهاني في الفقه النعماني، مكتبة مشكاة الإسلامية مقدمه، ص ٤ : [www.almeskhat.net/books](http://www.almeskhat.net/books))
- ٣- الدولة القرامطية : التي تنتمي إلى سلالة المعول، وكلمة قرّة لفظ تركي إضافة المعول إلى كلمة خطأ، ومعناه أسود، وربما يرجع ذلك إلى عداوتهم وكرهيتهم لهم (ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٥٨م، هامش ٣، ص ٢١٥) ؛ واتخذ حكامهم لقب كورخا، ومعناه خان خانات أي ملك الملوك أو سلطان السلاطين (النسوي : سيرة السلطان جلال الدين مبركتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، طبعة دار الفكر العربي، ١٩٥٣م، هامش ٤، ص ٤٣) ؛ ولقد بهرت القرامطاي الحضارة الصينية وما كانت عليه من بذخ وترف، فتأثروا بها تأثراً شديداً، الأمر الذي أفقدهم روحهم الحربية وجعل الضعف يتطرق إليهم تدريجياً، فانتشر جماعة كين الذين سكنوا منشوريا، فانتشرت دولتهم وقامت الدولة الخطائية في سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥م (غزاد عبدالمعطي الصياد : المعول في التاريخ، ج١، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٤) ؛ ولقد اتخذ الخطائيون من اللغة الصينية لغة رسمية في دولتهم (بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مراجعه إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م، ص ١٢٤).
- ٤- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، وعليه حواشي العلامة محمد بن عبدالله القزويني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩م، ص ١٠٧، ٢١.
- ٥- برسخان : مدينة في أقصى تركستان الشرقية على حدود ختن، وهي غير التي أشار إليها ياقوت الحموي بأنها قرية من قرى بخاري (نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر السابق، ص ١١٣ : معجم البلدان، ج٢، ص ٤٥٦).
- ٦- بلاساغون : بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريبة من كاشغر (ياقوت الحموي : نفس المصدر السابق، ج١، ص ٥٦٤).
- ٧- الدولة الخوارزمية : تنسب إلى نوشتكين التركي الأصل، الذي اشتراه أحد أمراء السلاجقة يطلق عليه بلنكبال من رجل من عرجستان، فسمي لذلك بأنوشتكين غرجه (الرواندي : راحة

الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، الإدارة العامة للثقافة القاهرة، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م، ص ٢٥٧؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٢٨٢؛ براون: تاريخ الأدب في إيران، مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٩٥٤م، ص ٣٨٣؛ كان نوشتكين يشغل وظيفة الساقى في بلاط ملكشاه السلجوقي، ثم تدرج في سلك الوظائف (النسوي: سيرة السلطان جلال الدين، هامش ٣، ص ٣٤)؛ وهناك إشارات إلى أنه كان يعمل في وظيفة الطشتدار وليس الساقى (النويزي: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٦، تحقيق فوزي العتيل، مراجعة محمد طه الحاجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، ص ١٩٧؛ خواندمير: دستور الوزراء، ترجمة حريي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٠م، ص ٣٠٨)؛ وأول من نبغ من الخوارزميين كان محمد بن نوشتكين، الذي أقره السلطان سنجر في الحكم في ولاية خوارزم، وظهرت كفايته السياسية، ودام حكمه حتى وفاته سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧م، فخلفه ابنه أتمز (النويزي: نفس المصدر السابق، الجزء والصفحة ١ خوارزم: ليس أسما لمدينة إنما هو اسم الناحية بجمعتها، فأما القصبة فيقال لها الجرجانية) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٩٥).

- ٨- نظامي عروضي السمرقندي: جهاز مقالة، ص ١٠٩
- ٩- زامباور: معجم الأساليب والأمثال الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرون، طبعة دار التراث العربي، بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م، ص ٣١٩.
- ١٠- نظامي عروضي السمرقندي: جهاز مقالة، ص ١٠٩.
- ١١- آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٠٥.
- ١٢- القزويني: نفس المصدر السابق والصفحة.
- ١٣- ابن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٢، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركى مصطفى، طبعة دار إحياء التراث، بيروت، سنة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م، ص ٣٦.
- ١٤- نصر الدين القرشي الحنفي: الجواهر المضيلة في طبقات الحنفية، ج ٢، الناشر مير محمد كتب خانة، كراتشي، ص ٣٧٥.
- ١٥- خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، أزدوار قصبة جوين وبهين، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وخراسان تشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٥٠).
- ١٦- سمرقند: بلد معروف مشهور، وهي قصبة الصفد مبنية على جنوبي وادي الصفد، وبها المسجد الجامع والقنهدنز ومسكن الحاكم (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٤٦: ٢٤٧).
- ١٧- الفرشخي: تاريخ بخاري، ترجمة أمين عبدالمجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٦٥م، ص ١٨: ١٩.
- ١٨- تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك، وأوسع بلاد الترك بلاد التفرغز، وحدهم الصين وال Tibet وأول حدهم من جهة المسلمين مدينة فاراب (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٥٦).



- ١٩- محمد أحمد محمد : بخاري في صدر الإسلام، دار الفكر العربي، ١٩٩٢م، ص ٨.
- ٢٠- محمد أحمد محمد : نفس المرجع السابق، ص ٩.
- ٢١- بدأت الحملات العسكرية لفتح بلاد المشرق الإسلامي منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فتمكن القائد جعدة بن هبيرة في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه من التوغل في تلك المناطق، فأسفرت حملته عن سقوط سيدتين من بنات الحكام فحملهن إلى الخليفة أسيرتين، أما الفتح الكامل لبخاري فكان في عصر الأمويين، ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان قاد القائد عبيد الله بن زياد أولي حملات الفتح التي تصدت لها حاكمة بخاري المسماة الخاتون وهي الوصية علي عرش ابنها طفشادة، والتي أجبرت علي طلب الصلح من العرب في مقابل مال تؤديه كجزية عن بلادها (الكرديري : زين الأخبار، ترجمة عقاف السيد زيدان، طبعة القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٦٦ : البلاذري : فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتاب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م، ص ٤٠١ : ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح، ج ٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد الدكن الهند، ١٢٩١ هـ / ١٩٧١م، ص ٧٦ : النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨ : لقد استجدت الخاتون بملوك الترك، ليقفوا أمام جيش العرب، حتي استبطنتهم فعمقت الصلح مع عبيد الله بن زياد، ولكن عندما وصلتها الإمدادات ندمت علي الصلح ونقضته فأنزل بها القائد العربي الهرمية، فاضطرت للمصالحة من جديد، ففرض عليها جزية ألف ألف درهم (الكرديري : زين الأخبار، ص ١٧٢ : هامري : تاريخ بخاري، ترجمة أحمد محمود الساداتي، رابعة يحيي الخطاب، القاهرة، ١٨٧٢م، ص ٥٧ : ٥٨).
- ٢٢- وقد توالى الحملات العسكرية علي بخاري، منها حملة القائد سعيد بن عثمان، وحملة سلم بن زياد، ولكن برغم ذلك لم يستقر العرب في بخاري إلا في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك علي يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي الذي قام بأربع محاولات لفتحها، فتمكن في سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م. وبناء عليه أعلن طفشادة دخول الدين الإسلامي، فأُسند إليه حكم البلاد، وقد نظم قتيبة الإدارة في بخاري، وعقد معاهدة الصلح علي دفع مبلغ مائتي ألف درهم سنوياً للخلافة الأموية، شريطة أن يساعد البخاريون العرب الفاتحين في محاولاتهم للتوجه إلى بلاد الصغانيان، وغزو الأتراك الشرقيين (البلاذري : نفس المصدر السابق، ص ٤٠١ : الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٤٢٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، طبعة دار المعارف المصرية، ١٩٧٩ م : ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح، ج ٤، ص ١٩٢، ٢٢٤ : النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٢٤٤).
- Gibb: The Arab Conquests in Centurial Asia, P.40. (London, 1923).
- ٢٣- الدهاقنة : هي الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في بخاري، وهي طبقة أصحاب الأراضي الزراعية والإقطاعات، وكانوا يحتلون مكانة اجتماعية لا نظير لها في بخاري ( النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٢١) : وكان كبار الدهاقين يقيمون في القرى المحصنة والقصور الفخمة، ومنها قلعة حصينة أطلق عليها اسم قلعة أرك، وتعتبر مقراً لملوكهم وأمرائهم وقادتهم، حيث وجد بها السجن ودواوين الدولة وبيت الحريم وخزان المال ( النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٤١ : ٤٢ : كي لسترنج : بندان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٥٠٤).

- ٢٤- النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٢١.
- ٢٥- الكرديزي : زين الأخبار، ص ١٦٨.
- ٢٦- كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٥ : ٥٠٦.
- ٢٧- البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١١.
- ٢٨- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨٠.
- ٢٩- البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١٩ : لقد اتبع المسلمون الفاتحون عدة وسائل لنشر الدين الإسلامي بين أهالي بخاري وجلب صغار الفلاحين والفقراء إليه. وذلك ببذل الأموال والمطابخ، فكان قتيبة يمنح درهمين لكل مصل في مسجده الجامع يوم الجمعة ( النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٧٤ ) وكذلك تم إرسال المعلمين والوعاظ إلى الأهالي الذين دخلوا الإسلام حديثاً لإزالة أي شك في قلوبهم من الدين الجديد وتعاليمه، كما تم إحراق الأصنام التي كان يعتقد صغار الفلاحين بأن من يقرب منها يسوء نصبه الولايات واللغات فلما أحرقت علي يد قتيبة ولم يصبه شيء دخل الإسلام عدد أكبر من البخاريين ( البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١٠ : ٤١١ ).
- ٣٠- يري المؤرخ الإيراني عباس إقبال أن اللغة العربية كانت شائعة في الوسط الثقافي الأعلى كلغة رسمية في البلاد. بينما عاسة أهل بخاري ينطقون اللغة الفارسية، مشيراً إلى أن سكان إيران لم يكونوا أبداً برغم اعتناقهم الدين الإسلامي - عن التحدث بالفارسية( تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٠ ).
- ٣١- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨٣ : فاميري : تاريخ بخاري، ص ١٠٥ : ١٠٦ : الدولة السامانية : تنتسب إلى سامان بن بهرام جور الفارسي الأصلي، الذي ظهر في خلافة المأمون العباسي ( ١٩٨ هـ : ٢١٨ هـ / ٨١٣ م : ٨٣٣ م ) وقد توارثت هذه الدولة حكم بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخاري وتبادل أمرانها هاتين المدينتين كعاصمة لملكهم ( ميرخواند : روضة الصفا، ترجمة أحمد عبدالقادر الشاذلي، مراجعة السباعي محمد السباعي، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٧٩ ).
- ٣٢- الأمير إسماعيل الساماني : ناب عن أخيه في حكم بخاري، ما بين سنتي ٢٧٩ هـ : ٢٩٥ هـ / ٨٩٢ م : ٩٠٧ م، وقد نقل العاصمة السامانية من سمرقند إلى بخاري، وعين عدداً كبيراً من أفراد الأسرة السامانية في المناصب الإدارية وعلي الولايات، حتي صار علي كل ولاية وال معين من قبله ( القزويني : تاريخ كزیده - ضمن رسالة ماجستير إعداد محمود محروس قشقة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٦٨ م، ص ١٤ : ميرخواند : روضة الصفا، ص ٨١ : عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٦٧ : Richard N. Frye: Bukhara the Medieval Achievement, P. 47 , (London, 1965).
- ٣٣- فاميري : تاريخ بخاري، ص ٩٥ : Frye : Ibid., P. 75
- ٣٤- طراز . في آخر الإقليم الخامس، طولها مائة درجة ونصف، وعرضها أربعون درجة وخمسين وعشرون دقيقة وهي بلدة قريبة من إسجباب من لغور الترك ( ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧ ).
- ٣٥- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ١١٧.

- ٣٦- الكرديري : زين الأخبار، ص ٢٣٩.
- ٣٧- ميرخواند : روضة الصفاء، ص ٨٦.
- ٣٨- تاريخ بخاري، ص ١١١.
- ٣٩- القراخانيون : هم من الشعوب التركية الذين أقاموا في تركستان، وكانت عاصمتهم كاشغر ثم بلاساغون، وشملت بلادهم شطراً من البلاد الواقعة بين الحوض الأدنى لنهر "أيلي" الذي يصب في بحيرة ولخشي والمجري الأدنى لنهر شو (ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٣٨٩؛ بارتولد : تاريخ الترك، ص ٧٣؛ Howorth: The Northern Frontagers of China, P. 467) ويعتبر "ساتوق بغراخان" أول حكامهم الذين اعتنقوا الإسلام، واتخذ لقباً إسلامياً خلّعه عليه دار الخلافة في بغداد، هو شهاب الدولة (نظامي عروضي السمرقندي: جهاز مقاله، ص ١٠٤).
- ٤٠- بارتولد : تاريخ الترك، ص ٨٢.
- ٤١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٩، دار صادر بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ٩٨.
- ٤٢- بارتولد : تاريخ الترك، ص ٨٢.
- ٤٣- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٠٠؛ ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٣٥٠.
- ٤٤- أمل الشط : أمل مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد إلى بخاري، ويقابلها شرقي جيحون، وبينها وبين شاطئ جيحون نحو ميل، ويقال لهذه أمل زم وأمل جيحون وأمل الشط وأمل المغارة (ابن العبري). مختصر تاريخ الدول، هامش ٤، ص ٢١٥).
- ٤٥- العتبي : تاريخ اليميني : المسمي الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي، ج ١، طبعة القاهرة ١٢٨٦ هـ، ص ١٦٣، القزويني : تاريخ كزیده، ص ٢٣.
- ٤٦- Howorth : The Northern Frontagers, P. 471.
- ٤٧- محمود بن سبكتكين . من سلاطين الدولة الغزنوية بل كان أول من تلقب بهذا اللقب (ميرخواند : روضة الصفاء، ص ١٣٥).
- Besworth : The titlature of the early Gchaznavich , Oruens , P. 223, (Ielden, 1962)
- وإذا لقبه الأمير منصور الساماني بلقب سيف الدولة ولقب والده سبكتكين بلقب ناصر الدولة.
- (Nazim : The Life and the time Mohamad of Gazna, P.24 , Canbridge, 1931).
- ارتبط بعلاقات ودية مع طغان خان، وتفرغ كل منهما للجهاد في سبيل الله فقام محمود بنشر الإسلام في الهند وطغان خان بنشره بين قبائل الترك الوثنيين (العتبي : تاريخ اليميني، ج ٢، ص ٢٢٤ : ٢٢٥).
- ٤٨- العتبي : نفس المصدر السابق، والجزء، ص ٢٧؛ الكرديري : زين الأخبار، ص ٢٨٨؛ القزويني : تاريخ كزیده، ص ٣٨؛ Howorth: The Northern , p. 478.
- ٤٩- Howorth : ibid , P. 478.
- ٥٠- العتبي : تاريخ اليميني، ج ١، ص ٢٣٤.

- ٥١- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٧٦ : من أهم المنشآت المعمارية في بخاري في عهد شمس الملك نصر المسجد الجامع الذي أقامه في سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م، وتم نقش منبره ومحرابه في سمرقند، لما تمتع به صناعها من مهارة وذوق عال في هذا الفن، كما خلد هذا الخان اسمه ببناء مدينة كاملة أطلق عليها اسم شمس آباد، حيث اشترى ضياعاً كثيرة بباب إبراهيم ببخاري وأقام فيها قصوراً وبساتين ومراعي، وجعل لها أسواراً محكمة، وبني الخورق لدوابة الخاصة وبرجا للحمام ( النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٤٩).
- ٥٢- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، اعتني بتصحيحه محمد إقبال طبعة لاهور، ١٩٣٣ هـ، ص ٦٦ ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ١٧١.
- ٥٣- الحسيني : نفس المصدر السابق، والصفحة.
- ٥٤- الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ص ٢٠٣ : Howorth: The Northern P.491
- ٥٥- قام السلطان سنجر بقتل قدرخان القراخاني وعين بدلاً منه ابنه محمد أرسلان في حكم ما وراء النهر، وأمه ابنة منكشاه. أي أن سنجر خال له، واستمر هذا الخان حتي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م في طاعة السلطان. وقد ظهر منه ظلم للرعية، فسار إليه سنجر، وانتهى الأمر بالمصالحة بينها علي ضفاف نهر جيحون (نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١٥٢، النوبري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٣٧٥ : ٣٧٥ : بارنولد : تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة الكويت سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، ص ٤٦٧) : لقد بدأت المصاهرات السياسية بين السلاجقة والقراخانيين منذ أن تمت المصاهرة بين السلطان منكشاه والسيدة تركان خاتون ابنة طمغاخ خان وابنة عم شمس الملك نصر حاكم بخاري، والتي أطلق عليها لقب خاتون الجلالية نسبة إلي لقب ملكشاه جلال الدين ( الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٠٧ : فاميري : تاريخ بخاري، ص ١٣٧).
- ٥٦- لقد بذل السلطان سنجر عدة مساعدات كبيرة لتثبيت أقدام محمد أرسلان خان في الحكم، من أهمها أنه قتل قدر خان جبرائيل صاحب ما وراء النهر ورفع مكانه في عرش الخانية ( الحسيني : زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ للنشر، بيروت، سنة ١٤٠٥ هـ، ص ١٨٠) : وعفا عنه عندما عامل الرعية بطريقة سيئة في سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، فسار إليه سنجر، فاستنجد محمد أرسلان خان بأمراء سنجر وعي رأسهم الأمير قماج الذي تعهد للسلطان بأن الخان سوف يسير سيرة حسنة بين أهالي بلاده ( ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٣٩٥).
- ( Howorth : The Northern , P. 495 ).
- ٥٧- ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٦٠١ : النوبري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٣٨٣.
- 58- Howorth : The Northern , P. 493.
- ٥٩- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٥٩.
- ٦٠- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١٠٩.

- ٦١- ابن العربي : مختصر تاريخ الدول، هامش ٣، ص ٢٣٥، فؤاد عبدالمعطي الصبياد : المغول، ج ١، ص ٢٢.
- ٦٢- ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٣٩٦.
- ٦٣- فؤاد عبدالمعطي الصبياد : المغول في التاريخ، ج ١، ص ٢٢ : ٢٣.
- ٦٤- ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٣٩٦.
- ٦٥- بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٥٧ : ١٥٨.
- ٦٦- بادية قطوان : قرية من قرى سمرقند علي خمسة فراسخ منها. وهناك عدة مواضع يطلق عليها اسم قطوان مثل قطوان بالكوفة وقطوان في مصر بالغربية ( ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧٥ : ٣٧٦).
- ٦٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١٠٧.
- ٦٨- لم تكن موقعة قطوان الأولى من هجمات القراخطاي علي بلاد ما وراء النهر، وإنما سبقتها محاولة من الإغ : في سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م عندما تصدي لهم ركن الدين محمود بمساعدة السلطان سجر الذين أجبروا الكورخان الخطائي إلي العودة سريعاً إلي عاصمته، خشية مساندة السلطان للخس في بلاد ما وراء النهر ( نصر الدين بن القرشي الحنفي : الجواهر المضئية، ج ٢، ص ٣٧٥).
- ٦٩- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٦٤ : ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٥٤.
- Howorth : The Northern , P. 497
- ٧٠- الحسيني : أخبار الدولة، ص ٩٣ - بارتولد : تركستان، ص ٤٧٦.
- ٧١- ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوقي - اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، الطبعة الثالثة، دار لافاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م، ص ١٧٩
- الحسيني : أخبار، ص ٩٣ - ٩٤ - القزويني : تاريخ كريد، ص ١٢٤.
- ٧٢- زبدة التواريخ، ص ١٨٧.
- ٧٣- الحسيني : نفس المصدر السابق والصفحة.
- ٧٤- سيرة أعلام النبلاء، ج ١٤، حققه وخرج أحاديثه خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر، ص ٥٥٥ : ٥٥٦.
- ٧٥- تركستان من الفتح العربي، ص ٤٧٧.
- ٧٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١٠٧.
- ٧٧- ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٣١٠ : ٣١١ : بارتولد : تركستان، ص ٤٨٥.
- ٧٨- لقد أعقب سقوط ما وراء النهر في يد الكورخان أوخان أن قتل هذا الحاكم، فتولت بدلا منه أخته من بعده حكم مملكة الخطائية فترة من الزمان ( ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوقي، ص ٢٥٤).
- ٧٩- بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٢٥ : لقد اتخذ نفوذ الكورخان في ممتلكاته بلاد ما وراء النهر، صورة جديدة وهي حرية امتلاك الأراضي الزراعية مع فرض الطاعة للكورخان عن طريق شد حزام به لوح من الفضة في وسطه، علامة الطاعة والولاء لهم ( ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوقي، ص ٢٥٣).
- ٨٠- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ٣١.

- ٨١- تاريخ بخاري، ص ٤٢.
- ٨٢- تركستان، ص ٤٧٧.
- ٨٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ٣١.
- ٨٤- بارتولد : تركستان، ص ٤٧٦ : ٤٧٧.
- ٨٥- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٣٤.
- ٨٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ٣١ : لقد أشار بعض المؤرخين بعنل الكورخان وحسن تدبيره ورقة أخلاقه، ولا يمكن مراجعته في شيء حيث ينقاد لأمره الجميع (نظامي عروضي : نفس المصدر السابق والصفحة).
- ٨٧- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٦٤ : الواقعة التي قتل فيها ابن السلطان أتمز الخوارزمي في ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ( براون : تاريخ الألب في إيران، ص ٣٨٤ ).
- ٨٨- التويري : نهاية الأرب في فنون الألب، ج ٢٦، ص ١٩٧.
- ٨٩- ابن العباد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوقي، ص ٢٥٤.
- ٩٠- جهاز مقاله، ص ٣١.
- ٩١- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج ١، ترجمه محمد أنطوي، طبعة دار الملاح للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٣٣١.
- ٩٢- جند : اسم مدينة عظيمة في بلاد التركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام، قريب من نهر سيحون، وأهلها مسلمون ينتحلون مذهب أبي حنيفة ( ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٨ ).
- ٩٣- فاميري : تاريخ بخاري، ص ١٤٨ : ١٤٩.
- ٩٤- القزويني : تاريخ كزیده، ص ١٨٤.
- ٩٥- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج ١، ص ٣٣١.
- ٩٦- الجويني : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٦٥، ٢٦٧.
- ٩٧- تركستان، ص ٤٨٥.
- ٩٨- ابن العربي : تاريخ مختصر الدول، ص ٣٧٤ : ابن خلدون : العبر، ج ٥، ص ٥١ : بارتولد تركستان، ص ٤٨٨.
- ٩٩- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٢٣ : لقد كان علي حكم القراخطاي في ذلك الوقت سيدة هي ابنة الكورخان التي يطلقون على زوجها اسم (فوما) بمعنى الصهر (ابن العربي : تاريخ مختصر، هامش ٣، ص ٣٧٥).
- ١٠٠- ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ١٣٥ : بارتولد : تركستان، ص ٤٩٨.
- ١٠١- بلخ : مدينة مشهورة بخراسان وهي في الإقليم الخامس، تحمل غلتها إلي جميع خراسان وإلي خوارزم ( ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ١، ص ٥٦٨ ) : كان بها معبد النوبهار وهو من أعظم بيوت النار، والفريس والترك تعظمه ( القزويني : آثار البلاد، ص ٣٣١ ).
- ١٠٢- ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٤٠٤.
- ١٠٣- ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ١٣٧ : ابن العربي : مختصر، ص ٣٩١.
- ١٠٤- توفي تكش في مدينة شهرستان بين نيسابور وخوارزم سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٦ م، وأرسل القادة إلي ابنه قطب الدين محمد يستدعونه، ولقب بعلاء الدين لقب أبيه، وأمر بحمل



- جشان أبيه ودفن في خوارزم في القرية التي لقامها في مدرسته، وكان عادلاً حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه علي مذهب أبي حنيفة ( ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٥٦ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٢٠٥ ).
- ١٠٥- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج ١، ص ٣٣١.
- ١٠٦- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٦٨ : ٦٩.
- ١٠٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١١٠؛ بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٥٠.
- ١٠٨- بارتولد : نفس المرجع السابق، ص ١٥١.
- ١٠٩- النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٢١٧.
- ١١٠- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، ص ٦٨ : ٦٩.
- ١١١- وقد استمر برهان الدين محمد في حبس خوارزم حتي سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م عندما أغار المغول وخرج علاء الدين محمد خوارزمشاه من خوارزم، حيث أمرت السيدة ترکان خاتون أم السلطان، بقتل جميع الملوك وأبناء الملوك المقبوض عليهم في السجون، ومنهم برهان الدين وأخواه افتخار جهان وابنيه ملك الإسلام وعزيز الإسلام ( النسوي : نفس المصدر السابق، ص ٩٤ ).
- ١١٢- النسوي : نفس المصدر السابق، ص ٦٩.
- ١١٣- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٣١٠.
- ١١٤- خواندمير : نفس المصدر السابق والصفحة.
- ١١٥- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، ص ٦٩ : ٧٠.
- ١١٦- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ص ٣١ : خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٥٩.
- ١١٧- النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٢١٨؛ ابن خلدون : العبر، ج ٥، ص ١٠٣.
- ١١٨- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٣٥.
- ١١٩- النويري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٢٠٣.
- ١٢٠- بارتولد : تركستان، ص ٥١٣؛ قامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.
- ١٢١- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٦٣؛ براون : تاريخ الألب في إيران، ص ٥٤٥.
- ١٢٢- ابن خلدون : العبر، ج ٥، ص ١٠٦؛ بارتولد : تركستان، ص ٥١٣؛
- Honorth : The Northern , P. 501.
- ١٢٣- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٦٧.
- ١٢٤- ابن الأثير : الكامل، ج ١٢، ص ٢٦٨.
- ١٢٥- نظام عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١٠٨.
- ١٢٦- بارتولد : تركستان، ص ٥٢٥.
- ١٢٧- لقد تعرضت السيدة خان سلطان لكثير من المواقف المذلة في سمرقند، حتي قدم والدها وأنقذها من أيدي عثمان خان، هذه السيدة هي التي اختصها دوش خان بن جنكيز خان لنفسه، بعد فتح خوارزم في سنة ٦١٧ هـ / ١٢١٠ م ( النسوي : سيرة السلطان، ص ٩٧ ).
- ١٢٨- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ص ٣٣٣؛ قامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.
- ١٢٩- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٢٦.
- ١٣٠- قامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.

- ١٣١- النويري : نهاية الأرب، ص ٢٧، ص ٢٣٧ : القزويني : تاريخ كزیده، ص ١٩٦ : بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٥١.
- ١٣٢- قامري : تاريخ بخاري، ص ١٥٤.
- ١٣٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٢٧٠ : خواتمير: دستور الوزراء، ص ٢٧٠.
- ١٣٤- تاريخ جهانكشاي، ج ٢، ص ٣٤.
- ١٣٥- النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧، هامش ٣، ص ٢٣٧.
- ١٣٦- الذهبي : تاريخ الإسلام وفيات المشاهير والأعلام، ج ١٢، ص ٣٥٥ : صلاح الدين الصلبي : الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ٣٦.
- ١٣٧- ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، دار القلم، دمشق - سوريا، سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ٢١٧ : ٢١٨.
- ١٣٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١١٠.
- ١٣٩- الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٣٩٠ : ٣٩١.
- ١٤٠- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، ج ١٢، ص ١٤٦ : ١٤٧.
- ١٤١- ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٣، دار الفكر، سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦م، ص ١٦٤.
- ١٤٢- ابن قطلوبغا : تاج التراجم، ص ٢٨٩.
- ١٤٣- الزركلي : الأعلام، ج ٥، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، مايو ٢٠٠٢م، ص ٢٥٦، ٥٣٨.
- ١٤٤- محمود البخاري بن مائة : المحيط البوهاني في الفقه النعماني، المقدمة، ص ٤.
- ١٤٥- عمر رضا كحالة : الأعلام، ج ١٢، ص ١٤٧.
- ١٤٦- حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، مكتبة المثنى، بغداد، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١م، ص ٣٤٤.
- ١٤٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهاز مقاله، ص ١١١.
- ١٤٨- نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر والصفحة.
- ١٤٩- ابن الصاد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٧٨.
- ١٥٠- الترشيحي : تاريخ بخاري، ص ٥.
- ١٥١- الترشيحي : المصدر السابق، ص ١٥ : ١٦.

### شجرة نسب آل برهان ( آل ہازہ )



## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً المصادر والمراجع العربية

- ١- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : عز الدين أبو الحسن علي بن أبو الكرم محمد الكامل في التاريخ، ج ٩، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- ٢- ابن أعثم الكوفي : (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) أبو محمد أحمد، كتاب الفتوح، ج ٤، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، طبعة دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.
- ٣- ابن أبيك الصفي (ت ٧١٤ هـ / ١٣١٢ م) : صلاح الدين خليل بن إيبك بن عبد الله الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ٧، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
- ٤- البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر، "فتوح البلدان"، عني بمراجعة رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.
- ٥- ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٠ م) : عبد الرحمن بن محمد الحصري المغربي : "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ج ٤، ص ٥، طبعة القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.
- ٦- حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م) : مصطفى بن عبد الله كاتب جنبي القسطنطيني كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، مكتبة المثني بغداد، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١ م.
- ٧- خير الدين الزركلي : الأعلام، ج ٥، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، مايو ٢٠٠٢ م.
- ٨- الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز "سير أعلام النبلاء"، ج ١٤، ص ١٥، حققه وأخرج أحاديثه خيري سعيد، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.
- ٩- الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير، "تاريخ الرسل والملوك"، ج ٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، طبعة دار المعارف، المصرية ١٩٧٩ م.
- ١٠- ابن العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) : عزيفوريوس أبو الفرح بن اهرن : "تاريخ مختصر الدول"، طبع في المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٥٨ م.
- ١١- عمر رضا كحالة : "معجم المؤلفين"، ج ١٢، الناشر مكتبة المشي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٢- فؤاد عبد المعطي الصبيح : "المغول في التاريخ"، ج ١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠ م.
- ١٣- القزويني (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) : زكريا بن محمد بن محمود : "آثار البلاد وأخبار العباد"، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

- ١٤- ابن قطلوبغا (ت ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م) : أبو الفداء زين الدين أبو العدل قاسم السوادي الحنفي، تاج التراجم في طبقات الحنفية، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الأولى، الناشر دار القلم، دمشق ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
- ١٥- ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) : أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري "البداية والنهاية"، ج ١٣، دار الفكر ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.
- ١٦- ابن مازة البخاري (ت ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م) : محمود البخاري "المحيط البرهاني في الفقه النعماني"، مكتبة مشكاة الإسلامية.

www. Almeshkat. net/ books.

- ١٧- محمد أحمد محمد : "بخاري في صدر الإسلام"، دار الفكر العربي، ١٩٩٢ م.
- ١٨- نصر الدين القرشي الحنفي (ت ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م) : عبد القادر بن محمد "الجواهر المضبية في طبقات الحنفية"، ج ٢، الناشر مير محمد كتب خاتبة كراتشي.
- ١٩- النويري (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م) : شهاب الدين أحمد عبد الوهاب : "نهاية الأرب في فنون الأدب"، ج ٢٦، تحقيق فوزي العنتيل، مراجعة، محمد طه الحاجري، ج ٢٧، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور. مراجعة محمد مصطفى زيادة وفؤاد عبدالمعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ٢٠- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الرومي، "معجم البلدان"، ٥ أجزاء، طبعة دار صادر، بيروت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

#### ثانياً. أسماء المصادر والمراجع الفارسية

- ٢١- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م) : غياث الدين بن همام : "دستور الوزراء"، ترجمة وتعليق حربي أمين سليمان، تقديم فؤاد عبدالمعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ م.
- ٢٢- الجويني (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) : علاء الدين عطاملق الجويني : "تاريخ جهات كشاي في تاريخ الخوارزميين والإسماعيليين والحشاشيين وفتح مدينة بغداد علي يد هولاكو"، ج ١، ص ١، نقله من اللغة الفارسية، محمد التويخي، الطبعة الأولى، طبعة دار الملاح للطباعة والنشر، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ٢٣- الحسيني (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) : صدر الدين أبو الحسن بن أبو التماس ناصر بن علي، أخبار الدولة السلجوقية، اعني بتصحيحه محمد إقبال، طبعة لاهور، ١٩٣٣ م.
- ٢٤- : "زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية" تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ٢٥- أرنوندي (ت ٥٩٩ هـ / ١٠١٩ م) : محمد بن علي بن سليمان "راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية"، نقله إلى اللغة العربية، إبراهيم أمين الشواربي، وعبد النعيم محمد حسنين، وفؤاد عبدالمعطي الصياد، مراجعة إبراهيم أمين الشواربي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م.

- ٢٦- عباس إقبال : " تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتي نهاية الدولة القاجارية ( ٢٠٥ هـ : ٨٢٠ هـ ) ترجمة من اللغة الفارسية محمد علاء الدين منصور، راجعه السباعي محمد السباعي، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة.
  - ٢٧- العنسي ( ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م ) : أبونصر محمد بن عبد الجبار " تاريخ اليميني المسمي بالفتح الوهبي علي تاريخ أبي نصر العنسي، ج ١، القاهرة، ١٢٨٦ هـ.
  - ٢٨- ابن العماد الأصفهاني ( ت ٥٩٧ هـ / ١٠١٧ م ) : محمد بن محمد بن حامد : " تاريخ دولة آل سلجوق "، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، الطبعة الثالثة، طبعة دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
  - ٢٩- القزويني ( ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م ) : حمد الله مستوفي، " تاريخ كزنده " المعروف بالتاريخ المختار، ضمن رسالة ماجستير، إعداد محمود محروس قشطه، بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٦٨ م.
  - ٣٠- الكنديزي ( ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥١ م ) : أبوسعيد عبد الحبي بن الضحاك محمود : " زين الأخبار "، ترجمته عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٢ م.
  - ٣١- ميرخواند ( ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٩ م ) : محمد بن خاوند شاه " روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء " ترجمة أحمد عبدالقادر الشاذلي، راجعه السباعي محمد السباعي، الدار المصرية للكتاب ١٩٨٨ م.
  - ٣٢- النرشخي ( ت ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م ) : أوبكر محمد من جعفر : " تاريخ بخاري "، ترجمة من اللغة الفارسية أمين عبدالمجيد بدوي ونصر الله ميسر الطرازي، طبعة دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٥ م.
  - ٣٣- النسوي ( ت في القرن ٧ هـ / ١٣ م ) : محمد بن أحمد النسوي " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي "، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، طبعة دار الفكر العربي، ١٩٥٣ م.
  - ٣٤- نظامي عروضي السمرقندي ( ت ٥٥٥ هـ / ١١٥٥ م ) : الحسن بن عمر " جهاز مقالة "، وعليه حواشي العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني، نقله إلي العربية عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.
- ثالثاً المراجع الأجنبية والعربية**
- ٣٥- أرمينوس قامبري : " تاريخ بخاري منذ أقدم العصور حتي العصر الحاضر " ترجمة من اللغة التركية أحمد محمود الساداتي، راجعه يحيى الخشاب، القاهرة ١٨٧٢ م.
  - ٣٦- بارتولد : " تاريخ الترك في آسيا الوسطي "، ترجمة أحمد السعيد سليمان، راجعه إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م.
  - ٣٧- \_\_\_\_\_ : " تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي "، نقله من اللغة الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة الكويت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
  - ٣٨- برون : " تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلي السعدي "، مطبعة السعادة، بالقاهرة، ١٩٥٤ م.

٣٩- زلمباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ترجمة زكى محمد حسن وحسن محمود حسن وآخرون، طبعة دار التراث العربى، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.

٤٠- كى نسترنج : " بلدان الخلافة الشرقىة "، ترجمة بشير فرنىس وكوركىس عواد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

41- Baswarth: The titulature of the Early Ghaznavich Oriens, (Leiden , 1962).

42- Gibb Sir Hamilton: The Arab Conquests in central Asia, (London, 1923).

43- Howorth: The Northern Frontagers of China, Journal of the Royal A.

44- Frye: Bukhara the Medieval Achievement, (London, 1965).

45- Nazim: The life and the time Mahamod of Gazna, (Cambridge, 1931).



## الطب والمطبيبون في شمال الجزيرة العربية علي ضوء كتابات الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر

د زكريا صادق الرفاعي

أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة المنصورة

### مقدمة

حظيت شبه الجزيرة العربية باهتمام كبير، خلال القرن التاسع عشر، بحكم موقعها الجغرافي من التجارة العالمية، فصارت جزءاً من معترك الصراع الدولي بين القوى الكبرى<sup>(١)</sup>، ومن ثم تدفق عليها الرحالة من كل حذب وصوب، على تباينهم في النوازع والأهداف<sup>(٢)</sup>.

وقد خلف هؤلاء الرحالة وراءهم تراثاً عريضاً من الكتابات؛ لم تتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية فحسب، بل طالت أيضاً الجوانب الجغرافية والعمرائية والأثرية، وإستطاعت، في الأغلب الأعم، تقديم لوحة حية وثرية لتطور التاريخ لشبه الجزيرة العربية، عبر الحقب والعصور التاريخية المختلفة، ليظل هذا التراث، في نهاية المطاف، بغض النظر عن جوانب الاتفاق والاختلاف حول قضاياها وإشكالاته - واقعاً ماثلاً دوماً، ليس يوسع أحد تجاهله بحال، كما يستظل له سطوته وحضوره في ظل غياب المصادر المحلية<sup>(٣)</sup>.

وتسعى هذه الدراسة الى رصد ما سجلته كتابات الرحالة حول الجوانب الصحية في شمال الجزيرة العربية، خلال القرن التاسع عشر، بهدف استخلاص ما يمكن تسميته بالمعالم الرئيسة للتاريخ الطبى للمنطقة، إن جاز التعبير. ومن الناحية الجغرافية: فإن المقصود بشمال الجزيرة العربية ذلك الجزء الممتد شمالاً لهضبة نجد، الواقع عند خط الطول ٣٠-٤١ شرقاً. وخط العرض ٣٣-٢٧ شمالاً. ومن الناحية الوصفية: فقد ذكر



البعض أن شمال الجزيرة العربية محصور بين النفوذ الكبير في الشمال، وواى الرمة في الجنوب، وبين جبال الحجاز في الغرب وصحراء الدهناء في الشرق، كما ربط آخرون حدودها بأسماء المناطق التي تحدها مثل: بادية الشام من الشمال، وجهات القصيم من الجنوب، والعراق والكويت شرقا، والمدينة المنورة غربا<sup>(١)</sup>.

وخلال القرن التاسع عشر؛ كانت الهيمنة السياسية، في شمال الجزيرة العربية لإمارة جبل شمر وعاصمتها حائل التي كانت تحت حكم آل على، ثم آل رشيد، وأخذت في المزيد من التوسع حتى صارت لها السيطرة والنفوذ على معظم الأجزاء الشمالية، فضلا عن وسط وغرب الجزيرة العربية<sup>(٢)</sup>، ولطبيعتها الاستراتيجية المتزايدة؛ غدت محطة رئيسة للرحلات منذ أربعينيات القرن التاسع عشر<sup>(٣)</sup>.

وقد حمل عنوان الدراسة في طياته العديد من التساؤلات، منها محاولة رصد الأمراض الأكثر ذيوعا وانتشارا، وأنواع وطبيعة الأدوية والعقاقير المستخدمة آنذاك، وأيضا مدى العلاقة بين البيئة الجغرافية، والصحة العامة للسكان، وكذلك طبيعة القالمن على العلاج الطبى، أى المطببون، ومدى خبرتهم فى هذا الصدد، إضافة الى منظومة القيم الدينية والاجتماعية التى صاحبت قناعات الناس ورؤيتهم للصحة والمرض؛ كظاهرة انسانية وواقع اجتماعى معاش.

وقد اعتمدت الدراسة على كتابات الرحالة الغربيين كمصدر رئيس فى المقام الأول، برغم أن رؤيتهم قد جاءت، بطبيعة الحال، من خلال إشارات متفرقة وبصورة عرضية، ضمن سياق الحديث عن جوانب مختلفة حتمتها طبيعة ظروف وأهداف رحلاتهم، كما بدت الدراسات السابقة فى هذا الصدد جد محدودة، وربما باستثناء دراسة وحيدة كانت من نصيب الرحالة داوتى؛ لم نعثر على اهتمامات أخرى مماثلة فيما نعلم<sup>(٤)</sup>، وقد عولت الدراسة على منهج تحليل المضمون لمختلف النصوص، مع مراعاة السياق التاريخى المصاحب لها، كما أفادت الدراسة بطبيعة الحال من الأدبيات التاريخية المتاحة على تنوعها<sup>(٥)</sup>.

### الطب والتطبيب بين النظرية والممارسة

منذ وجوده والإنسان في رحلة بحث دالمة لفهم ما يحدث له، و ما حوله من ظواهر وأحداث، ولعل ظاهرة المرض من أبرز تلك الظواهر التي ما فتىء الإنسان يجد في السعى، ما وسعه، لفهمها وكيفية التعامل معها، عبر الزمن، جيلا وراء جيل.

ومن الناحية اللغوية: يبدو الفارق في المعنى بين الطب والتطبيب، فالطَّبُّ مُثَلَّثَةٌ الطَّاءُ هُوَ عِلَاجُ الْجَنَمِ وَالنَّفْسِ وَاقْتِصَازٌ عَلَى الْكُسْرِ فِي الاسْتِعْمَالِ، الطَّبُّ بِمَعْنَى الرِّفْقِ، وَالتَّطْيِبُ الرِّفْقُ وَالطَّبُّ بِمَعْنَى الْبَخْرِ ١٠٠ وَقَالَ أَبُو عُثَيْبَةَ: إِنَّمَا سَمِيَ السِّخْرُ طَبًّا عَلَى التَّفَاوُلِ بِالْبَزْءِ<sup>(٩)</sup>.

وَالطَّبُّ: الْعَاهِرُ الْخَافِقُ الرِّفْقُ، وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ: الطَّبُّ: الْخَافِقُ مِنَ الرِّجَالِ الْعَاهِرِ بِعِلْمِهِ كَالطَّيِّبِ وَكُلُّ حَازِقٍ بِعِلْمِهِ طَبِيبٌ عِنْدَ الْعَرَبِ. وَيُقَالُ: فَلَانٌ طَبٌّ بِكَذَا أَيْ غَالِمٌ بِهِ... وَالْمُتَطَبِّبُ: مُتَعَاظِي عِلْمَ الطَّبِّ وَقَدْ تَطَبَّبَ. وَقَالُوا: تَطَبَّبَ لَهُ: سَأَلَ لَهُ الْأَطْبَاءَ، الْمُتَطَبَّبُ: الَّذِي يُعَانِي عِلْمَ الطَّبِّ وَلَا يَغْرِهُ مَعْرِفَةُ جَدِّهِ، قُلْتُ: أَيْ لَكُونَهُ مِنْ بَابِ التَّغَطُّلِ وَهُوَ لِلتَّخَلُّفِ غَالِيًا<sup>(١٠)</sup>.

ومن ثم فإن الطبيب physician هو: المؤهل والمتصدى لعلاج الناس بحكم علمه وخبرته، وإن كان يجب الإشارة الى أنه ليس كل من تلقى العلم نظريا قد مارسه بالفعل عمليا، فهناك كثير من العلماء درسوا الطب ووضعوا فيه مؤلفات، دون وجود ما يشير، بالضرورة، الى ممارستهم العملية للطب<sup>(١١)</sup>.

وفي كثير من الاحيان فان اعتبارات الواقع المعاش - وفي ظل غيبة أو ندرة وجود أطباء في العديد من الاماكن لسبب أو لآخر - قد حتمت وجود فئة صارت لها أهميتها في محيطها الاجتماعي، هم المَطْبِيبُونَ general practitioner، وهم وإن بدت معرفتهم النظرية بالطب محدودة، فلديهم خبرة عملية متوارثة لا تنكر، اكتسبوها عبر التجارب والممارسات الطويلة من الآباء والأجداد.

و الواقع أن قضية النظر للطب بوصفه علما تارة، وبوصفه مهنة تارة أخرى، قد حظيت بنصيب من الاهتمام في أدبيات التراث العربي. وقد تطرق ابن خلدون الى تلك القضية، فأشار الى الطب باعتباره علما يُعنى بمعرفة الاسباب المختلفة للأمراض، والوقوف على الطرق الفعالة لعلاجها فمن "فروع الطبيعيات صناعة الطب، وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة ... . . . . . ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب ... . . . . . وإن كان في موضع آخر عرض للطب كمهنة، شأنها شأن الحرف والصنائع المتداولة، والتي تتفاوت في أهميتها من مكان لآخر فتلك "الصناعة (أي الطب) ضرورة في المدن والامصار لما عرف من فائدتها ... . . . . . (١٢٠) على حين أن أهل البادية تقل حاجتهم للطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه، وما ذاك إلا للاستغناء عنه، إذ لو احتيج اليه لوجد" (١٢١)، كما اعتبر ابن خلدون، وفقا لتلك الرؤية، أن ما تقوم به القبيلة عند الولادة مهنة قائمة بذاتها (١٢٢)، كما وصف جملة الممارسات الطبية في البادية، بما لها من خصوصية بيئية واجتماعية، بقوله والبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ... . . . . . (١٢٣).

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر: ميز بعض الدارسين بين الطب كعلم يبحث عن سبب الأمراض وكيفية استعادة الجسم لقوته من جديد، وبين جوانب أخرى مرتبطة به، مثل الجراحة التي اعتبروها أقرب الى المهنة أو الحرفة منها الى العلم النظري، وتحتاج الى مهارة يدوية خاصة (١٢٤).

ويبدو أن الرؤية السابقة قد ظلت ماثلة في الأذهان وتركت صداها في كتابات بعض الرحالة، فأشار بالجريف (١٨٢٦-١٨٨٨) الى أن العرب لم يفرقوا بين الطب والجراحة من حيث النظرية والممارسة وأن أفضل علاج لديهم هو الكى، وهو يدخل في باب الجراحة، ثم ذكر أن بعض النباتات التي تنمو هنا لها بعض المزايا الطبية كمسكنات

ومتشطات، ويستخدمها من أن لآخر السكان اصحاب الخبرة والتجربة، كما أن استخدام الكمادات والأدوية الخارجية الأخرى، أو الملطفات، يدخل أيضا في إطار مهارتهم وخبرتهم، كما تعوض سرعة البديهة الفطرية، الى حد ما، أوجه القصور الناجمة عن جهلهم بالمعلومات النظرية<sup>(١٧)</sup>.

ومن الأهمية بمكان: التوقف عند ما أبداه بالجريف من آراء حول التراث الطبي للعرب والمسلمين بوجه عام، خاصة وأن الرجل كان من أبرز الرحالة اهتماما ورصدا للأحوال الاجتماعية<sup>(١٨)</sup> وفي مقدماتها الجوانب الصحية، وقد جمع على حد قوله معلومات هامة عن الحالة الصحية في جبل شمر، في الماضي والحاضر<sup>(١٩)</sup>، وفي تقديره أن العرب لا يعدون أن يكونوا أطفالا في مجال الشئون الطبية، وأضاف في موضع آخر أن القول بفهم العرب للطب وهم شعبي، وكل ما هنالك ترجمة عامية للطب الإغريقي، وعاد مضيفا أن ومضات العرب في الطب سرعان ما خبت، بسبب جمود الإسلام<sup>(٢٠)</sup>، وجهلهم بالعلوم الكيماوية والأدوية، فظلوا على هذا الحال من الجهل<sup>(٢١)</sup>.

والواقع أن الأحكام السابقة، التي أطلقها بالجريف، قد انطوت على ظلم واجحاف كبيرين بالتراث الطبي للعرب، الذين عرفوا الطب قبل الإسلام، وإن كان قد غلب عليه الطابع البدائي، وتناقله الناس مشافهة في غير نظام، فكان في الواقع طبيا فكلوريا، إن جاز التعبير، وبرغم ذلك برز منهم أطباء معروفون مثل الحارث بن كلة وغيره، ومن جراحي العرب بن أبي رمثة، ومن بيطريهم العاص بن وائل<sup>(٢٢)</sup>.

وكانت المعالجات تعتمد عادة على بعض النباتات، وبالصصل وحده أو مع مواد أخرى شربا تارة، أو على صورة عجائن ولصقات تارة أخرى، وفي كثير من الأحيان: تم الاعتماد على الحجامة والفصد والكي، وبتر الاعضاء بالشفرة المحممة بالنار، وفي بعض الحالات تمت معالجة الجراح المتعفنة والدماويل بمواد ضد العفونة، كما استخدم الحجر

(١٧) هذا رأيه غير المنصف، وانظر ص ١٢ التالية.

الصحة والقتال في تضמיד الجراح. وكان شائعا لجوء البعض، آنذاك، الى استخدام الرقي والعزائم والانتكار، لطرد الجن والأرواح الشريرة.

على انه في فترة الدولة العباسية، وخاصة عهد الخليفة المأمون، كما هو معروف، بدأ الحرص على الترجمة في الطب والعلوم من اليونانية مباشرة، وكان على رأس هؤلاء المترجمين: حنين بن إسحاق، وسرعان ما تعرف العرب على أعمال أبقراط وجالينوس وغيرهم، ومع الوقت صار علم الطب فيهم أصيلا، فتناولوه بالشرح والنقد، فضلا عن ممارسته عمليا<sup>(٢٢)</sup>.

ولم يمنع اعجاب العلماء العرب بالطب الإغريقي؛ انتقاده في بعض الأحيان، على نحو ما فعل الرازي، فلم يقر بصحة ما توصل اليه جالينوس وأبقراط في بعض القضايا الطبية. وصفوة القول: أنه لم يكن في العلم المتحضر، في ما بين منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) و القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) علم طبي يعتقد به الا ما كان منه عند العرب. كما لم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب؛ علما وصيلا وتنظيما<sup>(٢٣)</sup>.

ومن العثير للانتباه: أن بالجريف قد ربط تأخر العرب والمسلمين، في مجال الطب، بما أسماه بجمود الإسلام، ولم يوضح أي جمود يقصد؟ لاسيما وأن الإسلام من أكثر الديانات السماوية حثا على طلب العلم والمعرفة، وإعلاء لمكانة العلماء، واعترافا بفضلهم، وليس معروفا الأسباب التي دعت بالجريف لتبني هذا الزعم والإفتئات، وإن كان مشيرا للانتباه أن ما ذكره بالجريف هو نفس ما سبق وإن أبداه الطبيب والمستشرق المعروف كورنيليوس فان ديك **Cornelius Van Dyck** عضو الإرسالية الأمريكية، الذي استقر في بيروت منذ عام ١٨٣٦، واستمرت خدمته بها لمدة ستين عاما، و قد كتب ديك عام ١٨٤٨ مقالة عن الأحوال الحالية لمهنة الطب في سوريا، أوضح فيها أن الطب العربي في حالة من الضعف والجمود، وربما تأثر بالجريف بما كتبه ديك إبان وجوده في بيروت عام ١٨٦٠<sup>(٢٤)</sup>.

ويجب التنويه إلى أن التهجيم على الإسلام كان دأبا لبعض من نخبة العصر الفيكيتوري، فكثيرا ما زعموا أن "الإسلام بمكوناته الذاتية غير قابل للإصلاح والتغيير"، بل إنه وفق رؤيتهم عاجز حتى عن توجيه الحياة الإنسانية لأصحابه<sup>(٢٥)</sup>، بل إن بالجريف ذهب، في موضع آخر، إلى مدى أكبر في زعمه، وبدا أكثر حنقا على الإسلام حين ربط بغربة فجأة، وغير مبررة، بين "إمكانية تقدم العرب في العلوم المادية والتطبيقية" من جهة، شريطة زوال الإسلام واختفاء مكة؟ من جهة أخرى<sup>(٢٦)</sup>.

ويبدو أن مهنة الطب كانت تحظى بالتقدير والقبول من مختلف الطبقات الاجتماعية، ولعل ذلك كان دافعا لاختيار أغلبية الرحالة الظهور بمظهر الأطباء، وقد أشار بعضهم إلى أن مظهرنا التجارى قد سبب لنا بعض المضايقات، ولكن مظهرنا الطبى جنبنا الهزيمة الكاملة<sup>(٢٧)</sup>، كما كانت هناك، على حد قول البعض، قناعة سائدة بين الناس أن "الطبيب لديه قوة مقدسة أو خارقة للطبيعية وهو إحساس مفيد للطبيب"<sup>(٢٨)</sup>.

وقد أجل الرحالة "فالين" (١٨١١-١٨٥٢) رحلته لمدة عام، حتى يتسنى له دراسة برنامج طبى يمكنه من القيام ببعض الممارسات العلاجية، باعتباره طبيباً في المستقبل<sup>(٢٩)</sup>، وأطلق في بعض الأحيان على الطبيب اسم "الحكيم" و"المداوى" وهو ما حدث مع الرحالة "داوتى" (١٨٢٣-١٩٢٦) حيث عرف باسم الحكيم خليل، وأطلق عليه بعض المزارعين الداوى، وهو نفس الاسم الذى أطلقه عليه بعض سكان البادية<sup>(٣٠)</sup>.

#### سلطة التقيد الاجتماعى

لم تكن الخدمات الطبية متاحة في شمال الجزيرة العربية، بل ربما كانت معدومة بالكلية، خلال فترة الدراسة<sup>(٣١)</sup>، وثبتت هناك أية إشارة إلى وجود مستشفيات عامة يهرع إليها الناس حال مرضهم، بل كان العثور على طبيب أمرا صعب المنال في كثير من الأحيان، وأشارت المصادر إلى أن الإمام عبد الله بن فيصل بن تركي (ت. ١٨٩١) خلال إقامته بحائل، تعذر وجود طبيب لمعالجته من مرضه، إلى أن تم العثور على طبيب مع مرور وفد الحج الفارسى الذى قرر، في حينه، أن مرضه خطير<sup>(٣٢)</sup>.

ويبدو أن الاعتماد على الأطباء الفرس واستدعاءهم، من آن لآخر، كان أمرا شائعا، فقد استعان الأمير طلال بن رشيد<sup>(١٨٦٩)</sup> بأحدهم لتحديد مرضه<sup>(٣٣)</sup>، كما تم قدوم طبيب فارسي أيضا لاستئصال طئقة استقرت في القدم، أصيب بها الأسير محمد بن رشيد<sup>(٣٤)</sup> (ت. ١٨٩٧) منذ وقت بعيد، أثناء حصاره للجوف<sup>(٣٥)</sup>.

والشاهد أن ظهور أطباء متجولين، على فترات متقطعة، كان حدثا بارزا، وقد أشار بالجريف الى تدفق الكثيرين عليه في حائل ومن مختلف الأعمار، وكان هناك من طلبه للذهاب معه لمنزله للكشف على أحد أقاربه، وأشار الى أنه تجنب، منذ البداية، التعامل مع النساء والأطفال، لقلة خبرتهم الطبية، وتجنبا للفشل<sup>(٣٦)</sup>، كما ذكر الرحالة داوتي<sup>(٣٧)</sup> أنه مارس التطعيم والعلاج نظير استضافته من جانب بعض القبائل، طوال إقامته<sup>(٣٨)</sup>.

والمج داوتي الى أن الناس قد زادوا إقبالا عليه بعد الوثوق به، وأنهم كانوا على معرفة سابقة بالتطعيم. فلم يكن أول من مارس ذلك، وذكروا له وجود شخص من نصارى الشام يدعى أبو فارس، كان يدرس التطعيم لهم ضد الجدري، ثم جاء بعده شخص آخر يدعى سليمان، إلا أن السكان اظنقوا عليه اسم أبو فارس لممارسته نفس المهنة، وصار لديهم اعتقاد أن التطعيم يأتي من النصارى فقط من الشمال<sup>(٣٩)</sup>، كما أشار في موضع آخر الى تجمع الناس طلبا للدواء لدرجة الاستجداء<sup>(٤٠)</sup>، بل كان هناك إصرار من جانب البعض على أخذ أي علاج مهما كان نوعه<sup>(٤١)</sup>.

وكان المزين (الحلاق) له دوره داخل كل قبيلة، فكان يعهد اليه بمسئولية ختان الصبية، وبحسب إفادة داوتي؛ فإن ذلك يتم عادة بعد تجاوز عمر الصبي ثلاث سنوات، وقد تؤجل الجراحة في حال القيام برحلة، أو في ظل وجود طقس عاصف<sup>(٤٢)</sup>.

و قد بدت خطوات أو إجراءات الكشف على المرضى مألوقة ومسألة إخراج المريض لسانه للفحص، ومد يده لمعرفة النبض، أمرا شائعا، كما ان لهم اعتقادا في ضرورة فحص الرسغين كل على حدة<sup>(٤٣)</sup>، و ذكر داوتي أن البعض قد طلب منه قياس

الضغط له، مضيفاً أن العرب يعطون أهمية كبيرة على هذا الإجراء، للاطمئنان على أنفسهم<sup>(١٢)</sup>.

وقد اختلفت آراء الرحالة حول قضية وجوب عزل المريض عن زيارة الناس له، فأشار بالجريف إلى أن هذا الأمر "غير معروف هنا. ويعتبرون أن من الواجب زيارة المريض وتشجيعه"<sup>(١٣)</sup> على حين أوضح داوتى أن الناس لديهم "قدر من الثقافة والتجربة، فهم مثلاً يعزلون المريض بالجدرى وحده، ويجعلون من سبق له الشفاء من المرض التعامل معه، لأنه صار في نظرهم محصناً، كما أنهم لا يعطون المريض دواءً خشية الإصابة بالعمى، كما أشار إلى استغراب الناس لأنه (داوتى) يأخذ الحيطه والحذر من العدوى، لأنهم يعتقدون أن من يأخذ التطعيم لا يصاب بالمرض"<sup>(١٤)</sup>.

ووفقاً للمصادر المحلية: فإن إحدى الطرق المتوارثة للوقاية من مرض الجدرى: تعرف باسم الذواقة بتشديد الذال وفتح القاف، وخلصتها القيام بطهي طعام يحتوى على أجزاء من أنواع مختلفة من اللحوم، كالغنم والبقر والحمل، على شكل قطع صغيرة من كل نوع، ويضاف إليها أنواع الخضروات السائدة، ثم يطهى ذلك كله في قدر، ويعطى المريض منه في الأيام الأولى من إصابته، لاعتقادهم أن المريض سيكون بمنأى عن أية مضاعفات للمرض لاحقاً، من خلال ذلك الإجراء<sup>(١٥)</sup>.

ومن بين القضايا التي أبرزها الرحالة: عدم التزام كثير من المرضى بتعليمات الأطباء، وخاصة الانتظام في تعاطى الدواء، وربما ساهم التقليد الاجتماعى والثقافى السائد في ذلك السلوك، فالكثيرون قد يعتبرون أن الأنوية التى يطلبونها أو يبتقونها أقل من الرقى والتعاويذ التى ينتقلون منها أن تحدث، فى الحال، تغييراً مادياً محسوساً، دون التزام منهم... وإذا حدث ولم يشف المريض بعد يوم أو يومين أو يتحسن تحسناً كبيراً... يقولون لم يحدث الدواء أى تقدم، ويتخلون بعدها عن الطباية والطبيب<sup>(١٦)</sup>.

ووصف بالجريف حالة أحد البدو بقوله وهذا بدوى آخر يعانى من عيب جسمانى تفشل فى علاجه كليات لندن وباريس مجتمعه، مثل اليد الضامرة، والعين العمياء تماماً،



يطلب دواء يتوقع بعد أن يستعمله مباشرة، أن يستعيد به كامل عافيته وصحته وسلامته<sup>(١٧)</sup>.

وكان منطقيا - في ظل غياب أي رعاية طبية، فضلا عن قلة الوعي، بل ربما انعدامه - لجوء بعض الناس الى بدائل أخرى، فكان ما أشار اليه داوتى من تعليق الأحجية والتمايم، ولاحظ أنها رائجة، فيندر ان ترى طفلا دون تميمية او حجاب، بل هذا يشمل الحيوان أيضا، للوقاية من الحسد، و أضاف أن الناس تفضل الأحجية عن الطبيب، بل ويدفعون له دون تردد وعن طيب خاطر، ولو كان آخر ما معهم من نقود، كما ذكر أن الأحجية أنواع، منها ما أسماء أحجية الناس المشهورين، أي التي كتبها شيوخ مشهورين، وهي مكلفة جدا. والحصول عليها نادر<sup>(١٨)</sup>.

كما رصد داوتى المروجين للتمايم والأحجية، فأوضح أن بعض المغاربة يقومون، في طريقهم للحج، وبعضهم في المدينة بكتابة الأحجية، بحيث صاروا أفضل من يقوم بذلك في تلك المناطق، وخاصة على طريق الحج، وأشار الى الاعتقاد القوي فيها من الناس، وأنها تقيهم من أشد الأخطار، بل إن تفشى تلك الظاهرة دفع داوتى الى مقارنة ذلك بما كان سائدا في أوربا، في العصور الوسطى، حيث كان الأمر شائعا، وكان القائمون عليه بعض اليهود<sup>(١٩)</sup>. وأشار الى أنه برغم معرفة الناس أنه نصراني، فإن البعض كان يطالبه بكتابة أحجية لهم، وكانوا مستعدين للدفع لها أكثر من العقاقير الطبية، وأنه كان بوسعه تحقيق ثروة من وراء ذلك<sup>(٢٠)</sup>.

ولعل ما ذكره داوتى هو ما كان شائعا بين البعض من ارتداء ما اطلقت عليه المصادر المحلية 'بالحجاب' أو 'الجامعة' و يبدو أنها سميت كذلك باعتبار أن الشخص يشدها الى عضده أو صدره؛ لتقيه شر الشياطين وتحميه، وتسهل له كل أمر صعب، بحسب الاعتقاد السائد آنذاك<sup>(٢١)</sup>، كما حرصت أيضا كثير من النساء البدويات على ارتداء أنواع من القلائد من الخرز، إذ يعتقدن في نجاعة تأثيرها في دفع الأمراض و الوقاية منها<sup>(٢٢)</sup>.

والواقع أنه برغم سعي الرحالة الحثيث لرصد الجوانب الاجتماعية في كثير من الأحيان، إلا أنهم قد جانبهم الصواب في أحيان أخرى، مثل اتهامهم للعرب بالتواكل والكسل والمماطلة في دفع أجورهم، دون دليل، وكرر بالجريف أنه خلال فحصه لرجل، وكلما سألته عن سبب مرضه أجاب الرجل مرارا وتكرارا "السبب يا دكتور هو الله" (٥٣)، كما ردد داوتى عبارات البعض في مثل تلك المناسبات - اتكأنا على الله، الحكيم والشافى هو الله - بصورة تهكمية دون إدراك أن ذلك لا يعد تواكلا بقدر ما هو تجسيد لإيمانهم العميق، والرضا بالقضاء والقدر في كل احواله، دون التفريط أو الإهمال بالأخذ بالأسباب ومنها اللجوء الى الأطباء (٥٤)، وقد ناقض بالجريف نفسه، فتارة يقول "إن العرب لا يدفعون مطلقا، أو يدفعون بعد الشفاء، وإن عاد ليقول إنه، فى بعض الحالات، يتم الاتفاق على دفع مبلغ معين ويتم الوفاء به" (٥٥).

كما أن داوتى قد بالغ بدوره فى اتهام الناس بالمخل، وقد تغافل كثيرا عن ذكر ما دفعوه له، سواء نقدا أو عينا، وخاصة استضافته، ويجب ألا ننسى أن إسباغ الحماية وتوفير الأمن أمر له أهميته فى هذا الصدد، فضلا عن تجاهله لندرة النقود بين الناس، وحالة الفقر بوجه عام. وفى بعض المرات لم يجد رجل شيئا يعطيه للحكيم سوى أن يخلع له ثوبه ثمنا له، فسامحه على الدواء (٥٦).

### الصحة والبيئة

حظيت العلاقة بين الصحة والبيئة باهتمام الرحالة على تنوعهم، وكانت قاسما مشتركا في نصوصهم، فأفاض معظمهم في الربط بين البيئة السائدة وأثرها الوثيق على الصحة العامة للسكان، فطلق الرحالة فالين على أثر الظروف المناخية بقوله "فالأجزاء الغربية من شبه الجزيرة مناخها جيد صحى، وجميع السكان يقولون إن المدينة وجبل شعر والجوف مناطق صحية جدا، فى حين يشكو من سوء المناخ فى الرياض والمحلات الشرقية بنجد، وتتفشى الحميات أكثر أيام السنة" (٥٧)، كما لاحظ أن ارتفاع الرطوبة يصاحبه عادة أمراض صدرية، وهى أمراض نادرة فى الداخل (٥٨).

كما نوه بدور الهواء النقي في توفير بيئة صحية ومساهمة المناخ الجاف في القضاء على الفضلات والمخلفات<sup>(٩٩)</sup>. وعند وصفه للحالة العامة التي بدا عليها أهالي مدينة "جبة"، إحدى المدن التابعة لإمارة حائل، أوضح فالين أن بشرتهم تبدو سقيمة وأجسامهم ضعيفة وفي بلدتهم امراض عديدة تتفشى، وقد يكون هذا سببه ملوحة الماء، والتمر غير الجيد الذي هو الغذاء الرئيس للمكان<sup>(١٠٠)</sup>.

وعلى نفس المنوال وصف بالجريف البدو، خلال قدومه من الجوف متجها الى حائل، أن وجوههم هزيلة يشع منها الجوع، وبشرتهم سوداء بفعل الأتثار والأوساخ الناجمة عن رداء الطقس<sup>(١٠١)</sup>. كما عزا "بالجريف" التهاب غشاء المعدة المخاطي المزمن. بل قرحة المعدة المعيبة التي تنتشر بشكل ملحوظ بين عرب المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية - الى استمرار اتخاذهم التمر غذاء لهم<sup>(١٠٢)</sup>. وفي موضع آخر، وعلى تقيض ما سبق، امتدح بالجريف بسة سكان الجوف وتمتعهم بالصحة والنشاط، حتى في سن متأخرة، وقد يشترك بعض الشيوخ في السبعين في المعارك، وهم طوال القامة وأجسامهم متناسقة<sup>(١٠٣)</sup>.

وعند دخولها مدينة حائل. عبرت "آن بلنت" عن انبهارها الشديد بنظافة شوارع المدينة على نحو غير مألوف<sup>(١٠٤)</sup>. بينما وصف "هوبير" حالة السكان بقرية العيون، في طريقه من حائل الى القصيم. في صورة قاتمة بقوله: "فالرجال بشكل خاص لم يكتمل نموهم، وهم قصيرو القامة، قبيحون هزيلون، ووجوههم باهتة وضامرة"<sup>(١٠٥)</sup>. وتساءل في موضع آخر عن الأسباب التي أدت الى خلو بعض البلدان من السكان، رغم توافر الماء والغذاء بها، مرجحا أن يكون ذلك "بتأثير الهواء المتخم بالهوام المنبعثة من المياه الراكدة"<sup>(١٠٦)</sup>.

كما حفلت نصوص الرحالة بإشارات كثيرة حول الأنماط والعادات الغذائية السائدة، فنوه بالجريف بالفوائد الصحية للتمر، وإقبال البدو والحضر عليه، حيث يقوم لديهم مقام الخبز<sup>(١٠٧)</sup> كما أشار كثيرون الى استخدام نبات السمح كغذاء يحظى بالقبول<sup>(١٠٨)</sup>. والاعتماد



على الرمان باعتباره علاجاً ناجعاً لأمراض الكبد<sup>(٧١)</sup>، كما وصف "قالين" أنه بالقرب من تبوك يوجد تبات حريف طعمه لذيذ جداً، وله بعض الشبه بنبات الرشاد الذي ينمو في بلادنا ... وعرب المدن يجففونه ويستعملونه في الهضم ويدعوونه رشاداً<sup>(٧٢)</sup>. وتكررت الإشارات إلى الأهمية الغذائية لحليب النياق، وثمره "المصاع"<sup>(٧٣)</sup>، وبالمقابل حذر البدو من "حليب الغنم لأنه يؤدي إلى السمعة أكثر مما يقوى البدن، وقد يسبب أمراض القولون، ويجب معالجته قبل أن يكون صالحاً للشرب"<sup>(٧٤)</sup>، وأشار داوتى إلى اعتقاد الأعراب أن لحم الذئب جيد جداً من الناحية الطبية، ومفيد من أجل آلام السيقان الشائعة جداً، لأن الأغلبية يمشون حفاة الأقدام وعراة السيقان، في جميع فصول السنة<sup>(٧٥)</sup>.

وعلى صعيد آخر، تطرق كثير من الرحالة إلى رصد الأوبئة التي حلت بالبلاد من وقت لآخر، فأشار بالجريف إلى انتشار وباء الكوليرا في الجزيرة العربية عام ١٨٥٥<sup>(٧٦)</sup> كما نقل دواتى عن مرافقيه لقائلة من الحجيج حديثهم عن اجتياح وباء الكوليرا، وهلاك الكثيرين من الحجاج، وسميت بسنة الكوليرا، حتى أنه كان يدفن مائة شخص في يوم واحد، دون توافر أية رعاية طبية<sup>(٧٧)</sup>.

ومن الأوبئة الأكثر انتشاراً: وباء الجدري، وكان منتشرًا بين الكبار والأطفال، وإن كان انتشاره بين الأطفال أكثر، وربما أدى إلى فقد عين واحدة أو الاثنين، ويترك تشوهات بالوجه نتيجة البثور، وقد صادف وجود الجدري، في عنيزة، خلال تواجد دواتى بها عام ١٨٧٨، بعد أن انقطع، كما أشار الناس، سبع سنوات، وفسر انتشار الوباء بوجود بعض القوافل العائدة من الحج<sup>(٧٨)</sup> وكان بها بعض الرقيق، في طريقه إلى القصيم ثم نقله إلى العراق، فكان ذلك سبباً في انتشار العدوى<sup>(٧٩)</sup>، وبنبذة أشبه بالرباء تطرق داوتى إلى النتائج الوخيمة لوباء الجدري بقوله: "تأكد لى الآن أن الجدري قد انتشر بين الحجيج، وهذا المرض المرعب، وحسى الكوليرا، هما سبب فناء الجزيرة العربية البدوية، لأن أجسامهم سيئة التغذية، ولا توجد سوى مقاومة ضئيلة"<sup>(٨٠)</sup>.

وفي تقرير آخر، نكر الرحالة "أوتينج" أن سكان بلدة 'موق' إحدى القرى التابعة لإمارة حائل، كان يتراوح في السابق ما بين خمسة آلاف وسبعة آلاف نسمة، ولكنهم اضطروا بسبب الطاعون والكوليرا إلى الهجرة، فلم يبق منهم الآن سوى ألف أو ألف ومائتين نسمة على أقصى تقدير<sup>(٧٩)</sup>، ولا يمكن بالطبع التكهن بمدى صحة التقدير السابق، وربما كان مبالغاً فيه، في ظل عدم وجود إحصاءات موثوقة، لكنه يظل مؤشراً على فداحة الأثر الاجتماعي للأوبئة والأمراض<sup>(٨٠)</sup>.

وقد وصف داوتى ذات القرية بأنها صارت خرائب، وكذلك القرى المجاورة لها مثل 'قفار'، كما هلك 'بواسط' نحو ثلاثمائة شخص، أما في حائل فقد هلك شخص أو اثنان من كل أسرة ٠٠٠ وأن البدو الذين زاروا حائل في زمن الطاعون قد هلكوا بأسرع من أهل البلدة، مع أن العدوى كانت أخف في الصحراء، ولم تنتشر في منازلهم كمرض قاتل ٠٠٠ كان المرض يصيب الرأس والأعضاء، البعض مات في اليوم نفسه، والبعض ظل لفترة أطول، والعلامات المرضية لدى المصاب بالطاعون هي بقعة سوداء تظهر على الأنف، وتغير لون الأنفازر والآلام هي تقريبا نفس الآم الكوليرا ٠٠٠ ثم نزلت بالبلاد بعد ذلك حمى خبيثة لمدة عامين<sup>(٨١)</sup>.

والى جانب الأوبئة والأمراض، كانت هناك أيضا كوارث أخرى لا تقل أثرا في فداحتها، مثل سنوات القحط والمجاعة، وعدم سقوط الأمطار، وقد عرض أوتينج الى حديث بعض النساء معه عن عام المجاعة حيث لم يثمر النخيل واضطر الناس الى ذبح الأبل<sup>(٨٢)</sup>، وخلال طريقه الى حائل نقل داوتى عن مرافقه قوله 'أن الماشية قد نفقت لعدم سقوط المطر، وهناك بعض الناس من جردى البقر، وأن تلك الكوارث ليست غريبة على أطراف الجزيرة العربية'<sup>(٨٣)</sup>.

وبطبيعة الحال ألقت الأوبئة والأمراض التي كانت تحدث بصفة دورية، فضلا عن الكوارث الطبيعية على تنوعها، بظلالها على مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية

لشمال الجزيرة العربية<sup>(٨٤)</sup> وربما كان في مقدمتها ببطء النمو السكاني لانعدام الرعاية الصحية<sup>(٨٥)</sup>.

### المرأة والتطبيب

كانت مساهمات النساء موضع ثناء كثير من الرحالة، بل أوضح "جورمانى" أن دورهن لم يكن محصوراً في نطاق الظروف العادية فحسب، وإنما كان لهن دور أثناء المعارك الحربية، فكان يقمن "بوقف نزيف الدماء بالرمال والذرور، وتضميد الجراح بالعصائب"<sup>(٨٦)</sup>.

وأشار دواتى إلى أنه عندما تم "العثور على نبتة جديدة غير معروفة، حملوها إلى النساء لفحصها، لأن من صفات ربة المنزل بينهم أن تكون بارعة في العقاقير والنباتات الطبية"<sup>(٨٧)</sup>.

ولعل الفقرة الأخيرة تشير بوضوح إلى أن التطبيب ليس ترفاً، وإنما هو جزء رئيس من الأعباء الملقة على عاتق النساء، وطوال رحلته من حائل إلى خيبر، وصف دواتى الإقبال المتزايد عليه من النساء، عندما علمن أننى مداوى، ويحمنن الأقط أو قطع اللبن الجاف<sup>(٨٨)</sup> لشراء الأدوية ٠٠٠ وأضاف أن إحداهن أخبرته أن أخيها مصاب بالريح أو الملاريا، وأنها اتحنت بشكل متعمد لتتفحص عقاقيرى باليديين المتمرستين لامرأة حكيمة بالنباتات الطبية<sup>(٨٩)</sup>.

وقد قص جورمانى تجربته في العلاج، عقب إصابته بالتسمم بعد أن شرب ماء ملوثاً في إحدى المغارات، حيث أصيب بالتقيؤ وصداع شديد، وهبوط عام في قواه الجسدية، ولم ينقذه سوى نقله سريعاً إلى خيمة قريبة لأفراد من قبيلة الصلب، ووجد نفسه محاطاً ببعض النساء "يفرك بالسمن ويسقى من حليب النوق، وامرأتان تقومان بتدليك عموده الفقري بالسمن، وتدليكه تحت إبطه وفي صدره، حتى استرد وعيه"<sup>(٩٠)</sup>.

ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي عرض فيها جورمانى لتصدى النساء لعلاج المرضى، فقد أشار إلى قيام امرأة عجوز بعلاج مرافقه من رمد قوى بمداوته بالكحل، ثم

بعد ذلك بمغلي رؤوس الماعز وقوائمها التي تغلى بوبرها، وهذا العلاج يعد عاما في الصحراء لأجل جميع أمراض العيون وخاصة للكمه (عشى الأبصار)، وينبغي أن يمكث المريض، وهو مغطى بعباءتين، فوق القدر بعد رفعه عن النار، الى ان يتوقف تصاعد البخار<sup>(٩١)</sup>.

ولم تكن الحجامة مهنة قاصرة على الرجال فحسب، وإنما أشار داوتى الى أن بعض النساء اتخذنها أيضا حرفة لهن، كما أن النساء أيضا هن الأكثر استخداما للأعشاب والعقاقير، وهن المنوط بهن البيع والشراء للنباتات الطبية، مثل الحلثيت والصمغ لعلاج التشنج، والحبة السوداء وأنواع العلك، ومما أثار دهشتهن تفاعل بعض المركبات وغلطاتها دون نار<sup>(٩٢)</sup>.

وبطبيعة الحال، كان داوتى محقا في ملاحظته الثابتة من أن النساء يقمن بالتطبيب أكثر من الرجال، ولم يقدم تفسيراً لذلك "على حين ذهب البعض الى أن ذلك يعود الى طبيعة البيئة والحياة البدوية، أكثر من المدن التي يفسح فيها المجال للنساء في التجارة، وخاصة على طرق الحج، وإنشغال الرجال بصد غارات القبائل أو الخروج للغزو<sup>(٩٣)</sup>.

وكانت أدوات الزينة ووسائل النظافة محل اهتمام النساء، كاستخدام الحناء لصيغ الشعر، واستخدام بول الإبل (العص) لفصل شعورهن به، لتأثيره الفعال في تقوية الشعر ونظافته. وقد وصف الرحالة شعورهن بالسواد والكثافة نتيجة استخدامهن لزيت لحاء النخيل، والدهن المصفى من ذنب الشاة لا رائحة له، ولا يسبب أية اضطراب<sup>(٩٤)</sup>، كما أشار داوتى الى شيوع استخدام الرجال والنساء للكحل، سواء في البادية أو الحضر، لاعتقادهم القاطع في فائدته للنظر<sup>(٩٥)</sup>.

وبطبيعة الحال، لم يكن أمام الناس خلال فترة الدراسة بدائل علاجية، فاضطروا الى استخدام المتاح لهم من بيناتهم، والذي بدا في بعض الأحيان مفيدا، وفي أحيان أخرى

غير مفيد، كما رسخ لدى البعض لأسباب مختلفة: قناعة بأن هناك بعض الأمراض لا يجدى معها سوى ممارسات الطب الشعبي<sup>(٩١)</sup>.

وقد لفت انتباه "بالجريف" أن النباتات الطبية الشائع استخدامها هي تباتا السنا والحنظل ... وهما الدواءان اللذان لا يعرف أهل الجزيرة سواهما، ويشيع بين البدو اللذين يصابون بالإمساك استخدام جرعة مستخلصة من مملكة زهرة الكاميلية، وهم يتناولونها دون تخفيفها بالماء<sup>(٩٢)</sup>، كما ذكر استخدام نبات "الداتورا" أو "تفاحة الشوك"، وهو من النباتات السامة، في أعمال الدجل والشعوذة<sup>(٩٣)</sup>، ولم يفت بالجريف الإشارة، بناقب نظره، إلى وجود مدعين للطب من المغاربة والبلوخ المتجولين، لم يحققوا في رأيه نجاحا، وليسوا موضع ثناء من أحد<sup>(٩٤)</sup>.

ومن الطريف والمثير للانتباه معا، حديث داوتي عن معرفة الناس لبعض أدوات العلاج الحديثة، مثل "مقرب العين" وإن كانوا لا يعلقون عليه أملا، ربما لأنهم لم يجربوه وأنه لا زال جديدا، كما أشار إلى علمهم بوجود مراهم موضعية للعين، ويبدو أن غسيل العين لم يكن معروفا، لأنهم كانوا يتزاحمون على بابها طلبا لهذا العلاج الذي كان يوزعه، على حد قوله، مجانا<sup>(٩٥)</sup>.

ومن الأهمية بمكان؛ الإشارة إلى توافر بعض الأدوية الإنجليزية بين أيدي الناس، وكانت تأتي مع قوافل التجارة التي تجلب معها العديد من البضائع والسلع، ومنها الأدوية من الهند، وقد عبر داوتي عن دهشته حينما وصف دواء لرجل، وكان يظن عدم وجوده بالأسواق لحدثاته، ولكنه فوجئ بحصوله عليه في نفس اليوم، كما حرص الكثيرون من أفراد الطبقات العليا، من الوجهاء والتجار، على جلب التلطيعات المختلفة من الخارج، صعبة القوافل التجارية العائدة، لاستعمالهم الخاص هم وذويهم<sup>(٩٦)</sup>.

### الأمراض الشائعة وطرق العلاج

يمكن القول بأن الأمراض التي غلبت على سكان شمال الجزيرة العربية، بحسب ما رصده الرحالة، هي على النحو الآتي :



**أولاً:** أمراض العيون، وقد احتلت المرتبة الأولى، وقد قدر البعض أن شخصا من كل ثلاثة مصاب بالعمى، مما يدل على مدى تفشى أمراض العيون بين السكان<sup>(١٠٠)</sup>، وقد لاحظ داوتى وجود الكثير من العميان اللذين أصيبوا في وقت لاحق، وليس منذ ولادتهم، كما أشار إلى انتشار الكمه، أي العمى الليلي، محذرا من تفاقم ذلك المرض، إذا ما كان متزامنا مع الجدري، فيؤدي حينئذ إلى العمى الكامل<sup>(١٠١)</sup>، وكان من أنواع الرمد، الشائعة آنذاك، ما أطلق عليه العامة اسم "أبو أطييق"<sup>(١٠٢)</sup>.

والعلاج المستخدم لأمراض العيون عادة هو الكحل، وأيضا كما سبقت الإشارة، التبخير بمغلى رؤوس الماعز وقوائمها<sup>(١٠٣)</sup>.

**ثانياً:** الأمراض الوبائية، مثل الحدرى والكوليرا، وقد سبقت الإشارة إلى توالى تلك الأمراض بصفة دورية من آن لآخر، وتركت تأثيرا فادحا على التركيبة السكانية، وخاصة في البادية<sup>(١٠٤)</sup>.

**ثالثاً:** أمراض الكبد، والمستخدم في علاجها الزمان على نحو ما قد سبق، ومن بين طرق العلاج أيضا، بحسب ما أشار البعض إليه، هو قطع ذيل النعجة بالكامل وهي حية، ثم يقسم إلى قسمين: مسطحا ويلف به المريض على محل الكبد، بحيث يبقى الطرف الخارجى من الذيل ذى الشعر فى الخارج، وذلك لمدة أربع وعشرين ساعة، ثم يرفع الذيل من على المريض، ويظهر على جسمه بقع سوداء، فيتم كي أطراف هذه البقع بإبر احمرت في النار، ثم يأخذ المريض بالحمية الشديدة لمدة اسبوع، كما تعالج آثار الكى بالمراهم<sup>(١٠٥)</sup>.

**رابعاً:** أمراض ارتبطت بمناطق بعينها، على نحو ما ذكر بالجريف عن قرحة المعدة، وهى أكثر شيوعا بين عرب شمال ووسط الجزيرة العربية، بسبب الاعتماد على التمر كوجبة غذائية، موضحا أن الإطراط في تناوله يؤدي إلى التهاب غشاء المعدة المخاطي المزمن، بل قرحة المعدة المميتة، على حد قوله. وعلى نفس الشاكلة لشار

الرحالة فالتين الى انتشار مرض الزهري في بلدة سكاكا، إحدى القرى على طريق حائل - من الدرجتين الثانية والثالثة، ونوه داوتى بشكوى أهل تيماء من أمراض الكلى<sup>(١٠٨)</sup>.

**خامساً:** أمراض الحكة والحساسية، وصداع الرأس النصفى والذي قد يؤدي الى العمى اذا ما اقترن بأمراض العيون، والحميات بفعل المياه الراكدة، والروماتيزم المزمن، إضافة الى الرشح والزكام الشائع بين الأطفال<sup>(١٠٩)</sup>. وقد أشار داوتى الى بعض الأمراض النادرة، مثل معالجته لسيدة كانت تشكو من ألم في عصب الوجه، وربما هو ما أطلق العامة عليه إبا الوجيه، وينتج عنه ميلان بسيط في الوجه<sup>(١١٠)</sup>.

**سادساً:** أمراض مجهولة، وعادة ما أطلق عليها السكان المحليون **السكنى** بالجان، والنفس والسحر، والريح أو الارياح، والعلاج المستخدم في تلك الحالات: هو الرقية، وهي قراءة بعض آيات القرآن الكريم، ويتبع نفس الإجراء أيضا عند الإصابة بلسعات العقرب<sup>(١١١)</sup>، كما يسمى عادة الشخص الممدوخ بالقريص أو المقروص، وهم يسهرون حوله طوال الليل حتى لا ينام، لاعتقادهم أنه إذا نام الشخص فإن السم يسرى في جسده ويختلط بدمه، ومن ثم يموت، ولا يسمحون له بالنوم الا في وقت معين من الصباح الباكر، لاعتقادهم ان الافعى التي لدغته تكون هي الأخرى في حالة نوم، ويسمونها بالصفرة<sup>(١١٢)</sup>.

ومن أساليب العلاج التي اجمع الرحالة على شيوعها: "العلاج بالكلى ويتحمله الناس بصبر يستلثير الدهشة والعجب"<sup>(١١٣)</sup>، وأوضح البعض أنه تم "علاج أمراض التيفوس وأمراض الحمى، وكافة أمراض الرأس، بعملية كى ما يسمى بالمخمس، وهي مجمع العروق وهي الحفرة الواقعة في الرأس، وفي الحد المشترك بين عظم الجمجمة والجبين، والشريان الواقع خلف الأذنين، وأيضا خلف قمة الرأس قليلا"<sup>(١١٤)</sup>.

وقد برعت قبائل بعينها في الطب والتطبيب، فأتى كثير من الرحالة على قبيلة الصليبية ونبوغ شهرتها في الممارسات الطبية، فهم "متميزون عن غيرهم من القبائل، وهم يعملون فقط بصيد النعام والغزال، ويحكى عنهم الكثير، ومنه: أنهم أجروا جراحات في

البزل واستخراج الحصى، وهي تحتاج الى مهارة دقيقة، كما يعالجون الكثير من الأمراض المعقدة<sup>(١١٥)</sup>.

ولا شك أن أحد الإشكاليات المطروحة بالضرورة هو: الى أي مدى نجح الرحالة الغربيون في رصد الأحوال الصحية، في شمال الجزيرة العربية، خلال فترة الدراسة؟ والواقع أنه من الصعوبة بمكان الجزم بأنه قد تم رصد الجوانب الصحية برمتها، فمن جهة أولى لم تكن نظرة الرحالة وهواجسهم واحدة، ومن جهة ثانية؛ فإن سياق وملابس الرحلة لم يكن نمطا موحدا لدى الجميع، وفيما يبدو؛ فقد تركت موجات الشعور بالدهشة والإعجاب والترحيب تارة، والخوف والهلع وربما السخط والغضب تارة أخرى - أثرا باقيا على مجمل تجربتهم وروايتهم.

وبرغم النظرات الثاقبة ودقة الملاحظة التي بدت، على نحو خاص، في كتابات 'بالجريرف وداوتي'، فإن بعض الأمراض وطرق علاجها لم يتم رصدها، وقد ورد في بعض المصادر التراثية أمثلة مختلفة منها: "الوشرة" وهو مرض يصيب الرأس، ويعالج من خلال وضع عجينة من الطحين على رأس المريض، ثم ينتظرون بعض الوقت، حيث يتم كى المكان الذي يجف أولا، لاعتقادهم أن الموضع الذي جف بسرعة هو موضع الإصابة<sup>(١١٦)</sup>.

وكذلك مرض "البلش"، وهذا المرض يظهر على هيئة قروح على جسم المريض تشد وتتضاعف، والسبب الرئيس له هو الشرب، أو الاعتسال من المياه الآسنة، ويعتمد في علاجه على شجيرة تسمى "العلفة" وهي نبتة برية تخرج في الربيع، فيشرب المريض من منقوعها ويغتسل به<sup>(١١٧)</sup>.

ويمكن القول أخيرا بأن كتابات الرحالة قد أضاءت، الى حد كبير، أحد الجوانب الاجتماعية الهامة، وقدمت لمحات هامة عن الجوانب الصحية التي سادت شمال الجزيرة العربية، خلال القرن التاسع عشر، في ظل ندرة المصادر المحلية.

## خاتمة

كان شمال الجزيرة العربية موضع اهتمام الرحالة الغربيين، طوال القرن التاسع عشر، فوفد اليه الكثيرون لأغراض مختلفة، وارتدى الأغلب الأعم منهم مسوح الاطباء، بهدف تأمين أوضاعهم الاجتماعية في المقام الأول، فصاروا موضع قبول وترحيب، كما أتاح لهم ذلك سبر أغوار الأحوال الاجتماعية بعد رؤيتها عن قرب.

وبرغم اختلاف الأولويات من رحلة لآخر، فقد استطاعوا في نهاية المطاف تقديم صورة نابضة عن الحياة الاجتماعية، وفي مقدمتها الأحوال الصحية، برغم التعالي وعدم الإنصاف من بعضهم، مثل بالجريف وداوتي- تجاه الاسلام والتراث الطبى للعرب والمسلمين بصفة عامة.

ونظرا لانعدام الخدمات الصحية وندره وجود أطباء آنذاك، لم يكن هناك من سبيل سوى الاعتماد على البدائل التي رسمها التقيد الاجتماعى المهيمن، بغض النظر عن مدى نجاعتها. وبرغم تمسكهم بالحصول على التطعيمات والأدوية، إلا أن ذلك لم يحل دون لجوء البعض الى الرقى والتعاويذ واستخدام الاحجية، مهما كلفهم من مال.

وقد أوضح الرحالة العلاقة الوثيقة بين الصحة والبيئة، كما رصدوا شيوع العديد من الأمراض المرتبطة بملوحة المياه، وسوء بعض العادات الغذائية، كما عرضوا للأثار المدمرة الناجمة عن الكوارث البيئية، والأوبئة والأمراض الدورية التى حلت من آن لآخر.

وقد أبرز الرحالة دور المرأة على نحو فعال، فكن الأكثر ممارسة للتطبيب؛ في ظل الانشغال الدائم للرجال في الدفاع والغزو، كما كانت النساء الأكثر دراية بالأعشاب والنباتات الطبية وكيفية استخدامها، بل كان لذلك الجانب أثر هام في إعلاء مكانة المرأة الاجتماعية. ويمكن القول أخيرا: إن أدبيات الرحالة ربما لم تعرض حصرا كاملا لجميع الظواهر والجوانب الصحية؛ التى كانت سائدة بشمال الجزيرة العربية، إلا أنها أبرزت جوانب عديدة، منها على الأقل: الأمراض الأكثر شيوعا، ووسائل العلاج المتاحة آنذاك.

ولعله من نافذة القول؛ الإشارة إلى تعويل العديد من الشرائح الاجتماعية على تفاوتها، ولأسباب متباينة، بصورة متزايدة على ما يسمى بالطب الشعبي، على تعدد مسمياته وممارساته، ولعل ذلك يكون حافزا لإجراء المزيد من الدراسات البحثية، القائمة على الملاحظة المباشرة، من جانب الهيئات الطبية والاجتماعية المعنية، للوصول إلى آلية علمية واجتماعية تمكن من الاستفادة من ذلك التراث على نحو أمثل.



## المواضيع

- (١) العقبى، أحمد حسين، التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، دار الملك عبد العزيز، ١٤٣٠ هـ، ص ٧٨-٧٩.
- (٢) لم تسر الرحلات على وتيرة واحدة، كما تعددت بدورها الأهداف من رحلة لآخر فغلب على البعض رصد الجوانب السياسية والاجتماعية لعل من أبرزها أعمال بالجريف ودوتي، كما اهتم آخرين بالجوانب الطبوغرافية والبنية على نحو ما جاء في دراسات فالين، بينما حرصت أطراف أخرى بولع شديد على الاستحواذ على الشواهد الأثرية وشحنها إلى أوربا مثلما فعل هوبير وأيتنج مع حجر تيماء، راجع، بلى، لويس رحلة إلى الرياض، ترجمة، الشيخ، عبد الرحمن عبد الله، الجهني، عويضة مترك، الطبعة الأولى، ١٩٩١، المقدمة، ص ز، العثيمين، عبد الله صالح، قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٨٥.
- (٣) البادي، عوض، الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية، منطلقة حائل، ١٨٤٥-١٩٢٢، الجزء الأول، الطبعة الأولى، نادي حائل الأدبي، ٢٠١٤، ص ٩-١٠.
- (٤) كحالة، رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٣٦٤ هـ، ص ١٢٤.
- (٥) العثيمين، المرجع السابق، ص ٤٣-٤٤، الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، د.ت، ص ١١١-١١٢.
- (٦) الشمري، خليف بن صغير، إمارة حائل في عهد الأمير طلال ابن رشيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم، ٢٠١٤، ص ٣٨، البادي، مرجع سابق، ص ١١.
- (٧) المقصود دراسة الشبل، عبد العزيز بن صالح الهامة، بعنوان الأوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال ما كتبه الرحالة شارلز دواتي في كتابه رحلات في الصحراء العربية، الدرعية، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، يوليو ٢٠٠١.
- (٨) تعرضت الدراسة بحسب إطارها الزمني إلى الكتابات التي خلفها الرحالة على النحو الآتي:  
رحلة فالين (١٨١١-١٨٥٢) وقد زار جبل شمر مرتين، الأولى عام ١٨٤٥ والثانية عام ١٨٤٨، بالجريف (١٨٢٦-١٨٨٨) وكانت زيارته عام ١٨٦٢، جورماني (١٨٢٨-١٨٨٤) التي كانت زيارته عام ١٨٦٤، دواتي (١٨٤٣-١٩٢٦) وكانت رحلته عام ١٨٧٨، رحلة آن بلنت (١٨٣٧-١٩١٧) وزوجها ولغريد بلنت (١٨٤٠-١٩٢٢) عام ١٨٧٨، رحلة هوبير (١٨٤٧-١٨٨٤) الأولى عام ١٨٨٠، ثم كانت رحلته المشتركة مع أويتنج (١٨٣٩-١٩١٣) عام ١٨٨٣، وأخيرا رحلة البارون نولده (١٨٤٩-١٨٩٥) وكانت عام ١٨٩٣.

- (٩) راجع، البستاني، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٨٣، ص ٥٤٣.
- (١٠) ابن منظور، لسان العرب، ج ١، مادة طب، ص ٥٥٣ - ٥٥٤.
- (11) Abouseif, Doris Behrens. The Image of The Physician in Arab Biographies of The Post Classical Age. Der Islam. 1989. p.33
- (١٢) المقدمة، ص ١٨٠-١٨١.
- (١٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (١٤) المرجع نفسه، ص ١٧٩.
- (١٥) نفسه، ص ٢٢٤.
- (١٦) الطشاكبي، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١١، ص ٢٨٥-٢٨٦، وأيضاً، خليفة، حاجي، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، الجزء الاول، استنبول، ٨٩٢، ص ٣٨٦.
- (١٧) بالجريف، وليم جيمورد، وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٢-١٨٦٣) ترجمة، حسن، صبرى محمد، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠١، ص ٢١٠.
- (١٨) اشار بالجريف بنفسه الى ذلك المنحى وانه يعكس ما ذهب اليه كل من فالن وولستيد اللذان كانا اهتمامهما حصراً على الجوانب الطبوغرافية، المرجع السابق، ص ١٣.
- (١٩) المرجع نفسه، وربما كان ذلك لخدمة مشروعه السياسى ص ١٩٠.
- (٢٠) نفسه، ص ١٨١، ثم يكن ذلك موقف عاماً للمستشرقين، فالمستشرق الألماني ماكس مايرهوف (١٨٧٤ - ١٩٤٥) على سبيل المثال كان من أبرز المستشرقين الذين أنصفوا التراث الطبى للعرب والمسلمين وله الكثير من الدراسات في هذا الشأن، راجع Meyerhof. Max. The Book of Treasure, An Early Arabic on Medicine, The History of Science Society, Vol. 14. No. 1. May. 1930.
- (٢١) حصين، محمد كامل وآخرون، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت، ص ١٣.
- (٢٢) المرجع السابق، ص ١٣ - ١٤، وراجع أيضاً، نافعة، حسن، بوزورث، كليفورد، تراث الاسلام، الجزء الثانى، ترجمة، مؤنس، حصين، العدد، إحسان صدقى، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٢٨-١٢٩.
- (٢٣) المرجع نفسه، ص ١٧.
- (24) Ian Blecher. Robert, The Medicalization of Sovereignty :Medicine Public Health And Political Authority In Syria, 1861-1936. Stanford University, 2002. pp.36- 37.
- (25) Blunt. The future of Islam. London kegan paul. 1882. p.134
- Cromer. modern Egypt. London. vol 2. 1908 p.134 و راجع أيضاً
- (٢٦) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢١١، كان ذلك أيضاً هو موقف الرحالة داوتى الذى كان حريصاً في داخله على كبرياء العصر الفيكتوري واتهم بغلظة وجفاء منذ اللحظة الاولى

- العرب والمسلمين بالتعصب، راجع، شاز، راشد، الطريق الى الجزيرة العربية، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧، ص ١٨٨ وأيضاً ٢٣٦.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ٢٣، وقد اعتُبر في موضع آخر لانتحائه شخصية الطبيب متعللاً بظروف رحلته رغم انه لديه بعض الخبرة للحالات العادية، ص ١٧٦، وقد ذكر بالجريف اصطحابه لبعض المراجع الطبية وبعض العقاقير والأدوات الطبية، نفسه، ص ٢٢.
- (٢٨) نفسه ص ١٩٠، ويبدو أن التتكر في شخصية الطبيب كان أمراً شائعاً بين كثير من الرحالة، حيث تتكرر الرحالة الفرنسي لوكا Paul Lucas الذي زار مصر في مطلع القرن الثامن عشر في رى طبيب وجامع للأعشاب الطبية، راجع، ذهني، الهام محمد علي، مصر في كتابات الرحالة و القناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص ٥٧-٥٨.
- (٢٩) البادي، مرجع سابق، ص ١٨.
- (٣٠) الشبل، مرجع سابق، ص ٣٠٣.
- (٣١) لم يكن الأمر فاصراً على منطقة جبل شمر وحدها، بل كان شائعاً في كثير من بقاع شبه الجزيرة العربية، راجع، المعيرن، محمد بن مقرن، تطور القطاع الصحي في منطقة الرياض من عهد الملك المؤسس الى عهد خادم الحرمين الشريفين، قراءة تاريخية، دار الملك عبد العزيز، العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ، السنة الثلاثون، ص ٤٥.
- (٣٢) أبو عليه، عبد الفتاح حسن، تاريخ الدولة السعودية الثانية، ١٢٥٦-١٣٠٩ هـ، ١٨٤١-١٨٩١، الطبعة الرابعة، دار المريخ، الرياض، ١٩٩١، ص ٣١٥، ومما يذكر ان الأمير طلال ابن رشيد قد كثف من جهوده الدبلوماسية حتى نجح في ان يجعل طريق الحج العراقي المرور بجبل شمر ومن ثم فإن القوافل كانت تجتمع في الزبير أو النجف وتتجه جنوباً الى جبل شمر ومنها الى البقاع المقدسة وكان لهذا الإنجاز نتائج هامة على الصعيدين السياسي والاجتماعي، راجع، المفضل، مشعل بن مهجع، الصلات الحضارية بين جبل شمر وجنوب العراق، الطبعة الاولى، ٢٠١٤، ص ٣٣٦-٣٣٧.
- (٣٣) داوتي، تشارلز، رحلات داوتي في الجزيرة العربية، ترجمة عدنان حسن، الطبعة الاولى، دار الوراق، ٢٠٠٩، ص ٢٢٤.
- (٣٤) المرجع السابق، ص ٢٣١، وغير معروف على وجه الدقة هل تم استدعاء الطبيب الى حائل، أم أن الأمير ارتحل الى العراق لاستخراج الطلق الناري الذي كان يقدمه، ويبدو أن الرأي الأخير هو الأرجح، راجع، الحماد، حمد بن عبد الله، حكم محمد بن عبد الله الرشيد لتجد (١٢٨٩-١٣١٥ هـ) (١٨٧٣-١٨٩٧)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، ٢٠٠٤، ص ٦٦.
- (٣٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٧.
- (٣٦) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٧٧.



- (٣٧) المرجع السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣.
- (٣٨) داوتي، المرجع السابق، ص ٢٧١.
- (٣٩) أوتينج، يوليوس، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمه وعلق عليه، السعيد، سعيد بن فايز، دار الملك عبد العزيز، ١٩٩٩، ص ١٠٧.
- (٤٠) داوتي، مرجع سابق، ص ١٤٠-١٤١.
- (٤١) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٠١.
- (٤٢) داوتي، مرجع سابق، ص ٢٣٨.
- (٤٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٠١، ونوه البعض بأن الحكام كانوا يأمرؤن المصاب بمرض معد من مدينة حائل بالذهاب الى أحد الغيران (الكهوف) في جبل أجا خشية أن يصيب غيره، راجع، العربي، فهد، هذه بلادنا (حائل) الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض ١٩٨١، ص ١٢٩.
- (٤٤) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٨، ومن الأهمية الإشارة الى وجود قدر من الوعي لدى الناس، فضمن فهرس مكتبة البنيان كتاب تسهيل المنافع في الطب والحكمة، ومن الكتب الموقوفة التحفة المنتخبة في الأدوية للعامري، وأيضاً وقف سعيد غلام الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد عدة كتب منها **الأزرق** في علم الطب والتحفة المنتخبة في الأدوية المجربة، وأيضاً وقف خالد غلام حمود العبيد، الحزة الأول من كتاب الجامع لمفردات الأدوية لابن السيطر. راجع، الحماد، مرجع سابق، ص ١٢٨-١٣٠.
- (٤٥) القوي، محمد بن عبد العزيز، تراث الاجداد، دراسات لجوانب مختلفة من تاريخ ماثوراتنا الشعبية، ج ١، الطبعة الاولى، ١٩٨٢، ص ١١٤.
- (٤٦) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٩-١٨٠.
- (٤٧) المرجع السابق، ص ٤٤.
- (٤٨) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨٥-٢٨٦، وقد أشار هوبير الى تجربته الذاتية في هذا الصدد حيث أتى له مرافقة بابنه الوحيد ومعه فنجان من الماء وطلب منه ان يقرأ عليه شيئاً من الكلمات الضرورية للشفاء، راجع، هوبير، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، ١٨٧٨-١٨٨٢، الحماد، الشمر، القصيم، ترجمة، سعادة، اليسار، الطبعة الاولى، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٠.
- (٤٩) من الممارسات التي درج على القيام بها كثير من رجال الدين اليهود: ممارسة السحر والكهانة والعرافة، كما اشتهروا بكتابة التعاويذ والرقى والتعائم لطرد الأرواح الشريرة، راجع، مقار، شفيق، السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الاولى، الرئيس، رياض، للكتب والنشر، ١٩٩٠، ص ٣٤٩، والواقع انه في ظل سيادة الجهل وغياب العلم تم اللجوء الى السحر على تفاوت في كثير من البلدان مثل ايران ما بين القرنين ١٧ و ١٩ وايضاً مصر، راجع،

**A.Mohit.Mental Health and Psychiatry in The Middle East :Historical development.**  
**Eastern Mediterranean**  
**Journal.Vol.7.No.3.2001.p.343.**

- (٥٠) المرجع السابق، ص ٢٨٦، وقد أشار بالحريف الى أن عصر مد ظنوا أنهم يقومون بالبحث عن الكنوز المخفية على غرار المغامرين المغفرة نذر ديع صيتهم في الطب والطوم الطنسمية، ويعبرون من أجلها الصحراء، بالحريف. مرجع سابق، ص ٢٤، وراجع إشارة أويتنج لطلب أهد الرعاة أن يكتب له حجابا، ص ٣٧.
- (٥١) القويمى، ج١، ص ١٠٧.
- (٥٢) العرينى، عبد الرحمن بن على، الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد وأثر الدعوة السلفية فيها منذ القرن العاشر الهجرى الى سقوط الدرعية، (٩٠١ هـ - ١٢٣٣ هـ) (١٤٩٤ - ١٨١٨ م) رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ١٩٨٤، ص ٢٧٥.
- (٥٣) بالحريف، مرجع سابق، ص ١٩٤.
- (٥٤) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨١.
- (٥٥) بالحريف، مرجع سابق، ص ١٧٨ - ١٧٩.
- (٥٦) المرجع السابق، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.
- (٥٧) فالين، جورج أوجست، صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة: شبل، سمير سليم، راجعه، يوسف ابراهيم يزبك، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص ٩٠ - ٩١.
- (٥٨) المرجع السابق، ص ١٥٣.
- (٥٩) المرجع نفسه، ص ٣٢، بالحريف، مرجع سابق، ص ١٩٩، وقد امتدح داوتى المناخ الصحى لتنماء وجعلها في مأمن باستمرار من الأوبئة، ص ١١٨.
- (٦٠) فالين، مرجع سابق، ص ٧٦، وقد استفاد أويتنج في الحديث عن الإهمال وعدم نظافة مدينة العلا، مرجع سابق، ص ٢١٣، كما تحدث فالين عن مدينة تسكاكة ورغم أنه لم يزرها وكان يأتيه البعض من رجالها للاستشارة الطبية "فوجدتهم خشنى الملامح وفي حالة بشعة" وأشار الى أن "الحالات الصعبة في بلدتهم سيئة جدا، وأكثر الامراض التى وجدت فيها فىهم الزهرى فى التدرجتين الثانية والثالثة"، ص ٦١ - ٦٢.
- (٦١) بالحريف، ص ١١١.
- (٦٢) المرجع السابق، ص ٨٢.
- (٦٣) نفسه، ص ٨٨.
- (٦٤) بلنت، آن، رحلة الى بلاد نجد، ترجمة، محمد أنعم غالب، الطبعة الثانية، منشورات دار اليمامة، ١٩٧٨، ص ١٨٥، والجدير بالذكر أن "ولفرد بلنت" قد تأثر كثيرا في لقاءه برتشارد بيرتون وأيضا بعمل بالحريف، كما كان محررا ومشاركا في مؤلفات زوجته سواء الكتاب السابق أو كتابها عن القبائل البدوية على نهر الغرات، راجع.

Berdine.Michael.Denis ,The Accidental Tourist ,Wilfrid Scawen Blunt  
.Islamic Reform And The British Invasion of `Egypt  
1882,university of Arizona,2001,pp.35-36.

- (٦٥) هوبير، مرجع سابق، ص ٧٤.
- (٦٦) المرجع السابق، ص ٨٨ - ٨٩.
- (٦٧) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٩٧.
- (٦٨) المرجع السابق، ص ٤٨، وأيضاً فالين، مرجع سابق، ص ٢٩.
- (٦٩) فالين، مرجع سابق، ص ٢٤.
- (٧٠) المرجع السابق، ص ١٦٨ - ١٦٩.
- (٧١) بالجريف، مرجع سابق، ص ٤٧ - ٤٩.
- (٧٢) داوتى، مرجع سابق، ص ١٣٣ - ١٣٤.
- (٧٣) المرجع السابق، ص ١٣٥ - ١٣٦.
- (٧٤) بالجريف، مرجع سابق، ص ٤٦٧، وراجع، الحماد، مرجع سابق، ص ٣٩ - ٤٠.
- (٧٥) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٧٧. وكان الوباء قد بدأ في الهند وانتقلت العدوى مع الحجيج إلى مكة، انظر، فاسيلييف، اليكسى، تاريخ العربية السعودية، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٥، ص ٢٣٦.
- (٧٦) المرجع السابق، ص ٢٩٥.
- (٧٧) الفاخرى، محمد بن عمر، تاريخ الفاخرى، دراسة وتحقيق وتعليق، الشبل، عبد الله بن يوسف، ١٩٩٩، حديثه عن حوادث عام ١٢٧٤ هـ ومنها مرض الحجيج بعد عودتهم من مكة، وايضا حديثه عن وقوع مرض الجدري والسعال وهلاك كثير من الاطفال بسببه ص ٢١٥ - ٢٢١.
- (٧٨) داوتى، مرجع سابق، ص ٦٣.
- (٧٩) أوتينج، مرجع سابق، ص ١٣٤، وقد أوضح هوبير أن قرية موقق منهكة بسبب أنواع الحمى المستشرية بانتظام كل سنة منذ الخريف وحتى الصيف وفى عام ١٨٧٠ حصص مرض الكوليرا الذى جلبته قافلة عائدة من مكة ربيع السكان، هوبير، مرجع سابق، ص ٩٣.
- (٨٠) تفاوتت باستمرار التقديرات لعدد السكان فقدر فالين عدد السكان في مدينة حائل بنحو عشرين ألفا، بينما ارتفع التقدير لدى لوريمر الى خمس وخمسين ألفا ومن ثم فان التقديرات في ظل غياب وثائق محلية دقيقة، تظل في نطاق المؤشرات فحسب، راجع لوريمر، ج.ج، دليل الخليج، القسم الجغرافى، ج ١، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، قطر، ص ٢٢٤٨.
- (٨١) داوتى، مرجع سابق، ص ٢١٨ - ٢١٩، كما أشار هوبير الى تفشى الحمى في الحائط، هوبير، مرجع سابق، ص ١٢٣.
- (٨٢) أوتينج، مرجع سابق، ص ٤٠.

- (٨٣) داوتي، مرجع سابق، ص ١٧٤.
- (٨٤) هناك وصف للعديد من الكوارث البيئية في منطقة نجد مثل انتشار بعض الآوبئة والجفاف، راجع، الذكر، مقبل، مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود، البسام، عبد الله عبد الرحمن، الطبعة الاولى، ٣، راجع الحديث عن سنوات، ١١٢٦-١١٢٨-١١٣٢ هـ، ص ٨٢-٨٣.
- (٨٥) العثيمين، عبد الله صالح، نشأة إمارة آل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١ ص ٨٠.
- (٨٦) جوارماني، كارلو كلاويو، نجد الشمالي، رحلة من القدس الى عذبة في القصيم، ترجمة وتعليق، احمد ايض، الطبعة الاولى، المجمع الثقافي بأبوظبي، ٢٠٠٩، ص ٥٨.
- (٨٧) داوتي، مرجع سابق، ص ١٢٦.
- (٨٨) الالط وهو من مادة اللين وذلك بعد خضه يعمدون بعد ذلك الى طبخه مدة طويلة ثم يبرد ويشكل على هيئة قطع صغيرة ثم ينشر حتى يجف فيؤكل -القويحي ج ١، ص ١١٦.
- (٨٩) داوتي، مرجع السابق، ص ٢٥٢-٢٥٣، كما ذكر أنه أعطى بعض النساء مشروب الكينا المقاوم للحمى. مقابل بعض من السمن، نفسه، ص ٢٥٦.
- (٩٠) جوارماني، مرجع سابق ن ص ٦٣-٦٤.
- (٩١) المرجع السابق ن ص ٨٣.
- (٩٢) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨٣-٢٨٤.
- (٩٣) المرجع السابق، ص ٢٨٨.
- (٩٤) أوتينج، مرجع سابق، ص ٥٠، وعن طريقة الإجهاض للنساء كانت هناك وصفة متعارف عليها عبارة عن كأس من عرق الفرس بعد أن تتعرق في سباق تأخذها المرأة وتجهض بعدها مباشرة، راجع، الشمري، خليف، مرجع سابق، على نحو خاص الفصل الخامس.
- (٩٥) داوتي، مرجع سابق، ٩١-٩٢، وتترين المرأة البدوية بمختلف الأصباغ المعروفة آنذاك
- (٩٦) من النماذج في هذا الصدد اعتقاد البعض ان دم البرزان يشفى من داء الكلب، راجع، العريني. مرجع سابق، ص ٤٥١-٤٥٢، وراجع أيضا، معمر، عبد الله، الطب الشعبي: حقيقة العلاج وثقافة المرض، شؤون اجتماعية، السنة ٢٣، العدد، ٨٩، ٢٠٠٦، ص ١٨٨-١٨٩.
- (٩٧) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٢.
- (٩٨) المرجع السابق، ص ٢٩٩.
- (٩٩) المرجع نفسه، ص ١٨٥.
- (١٠٠) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٨-٢٩٩.

- (١٠١) المرجع السابق، ص ٢٩٩-٣٠١، وأيضاً لوريمر، مرجع سابق ج ٥، ص ١٦٩٧، وكثيراً ما تشكى الرحالة من الأحوال البيئية الصعبة في الحفاظ على الاموية مثل ارتفاع الحرارة وهبوب الرياح، نفسه، ص ٢٨٥.
- (١٠٢) - لوريمر، مرجع سابق، ج ٦ ص ٢٢٤٣.
- (١٠٣) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٤-٢٩٥.
- (١٠٤) القوي، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٢.
- (١٠٥) جورمانى، مرجع سابق، ص ٨٣.
- (١٠٦) داوتى، مرجع سابق، ص ٦٣.
- (١٠٧) حسنى، حسين، مذكرات ضابط عثمانى في نجد، الاوضاع العامة في منطقة نجد، ترجمة وتعليق صابان سهيل، الرياض ٢٠٠١، ص ٧٥.
- (١٠٨) داوتى، مرجع سابق، ص ١٦٠.
- (١٠٩) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٧، وفكر داوتى أيضاً ان حالات الصرع محدودة، ص ٣٠١.
- (١١٠) القوي، ج ١، ص ١٥٢.
- (١١١) وقد أبدى داوتى دهشة من بعض أساليب العلاج مثل "تناول المريض لجيف النمسور او روث الحمام وخطفه بالماء وبعض الحليب"، الشبل ص ٢٨٧، وربما كان وراء ذلك الاعتقاد ان تلك الوسيلة تسلم في طرد الأرواح الشريرة.
- (١١٢) القوي، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠١.
- (١١٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٣.
- (١١٤) حسين حسنى، مرجع سابق، ص ٧٥.
- (١١٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٣-١٨٤، وحول الصلْب، راجع، بلى، لويس، مرجع سابق، ص ١٤٩-١٥١ وراجع دراسة والفية حول الصلْب في، العرنى، مرجع سابق، الفصل الثانى، ص ١٤٢ وما بعدها.
- (١١٦) القوي، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٤١.
- (١١٧) المرجع السابق، ص ١٣٩-١٥١.

## مراجع الدراسة

### أولا العربية والمحربة

- ١- ابن منظور، لسان العرب، ج ١، القاهرة د.ت.
- ٢- العقبي، أحمد حسين، التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، دار الملك عبد العزيز، ١٤٣٠هـ.
- ٣- الطشاكبي، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١١.
- ٤- ذهني، الهام محمد علي، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢.
- ٥- فاسيلييف، اليكسي، تاريخ العربية السعودية، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٥.
- ٦- الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، د.ت.
- ٧- بلنت، آن، رحلة الى بلاد نجد، ترجمة، غالب، محمد أنعم، الطبعة الثانية، منشورات دار اليعامنة، ١٩٧٨.
- ٨- البستاني، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٨٣.
- ٩- داوتي، تشارلز، رحلات داوتي في الجزيرة العربية، ترجمة حسن، عنان، الطبعة الاولى، دار الوراق، ٢٠٠٩.
- ١٠- لوريير، ج.ج، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج ٥ - ٦، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، قطر، د.ت.
- ١١- فالين، جورج أوغست، صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة سمير سليم شبل، راجعه، يوسف ابراهيم يزبك، الطبعة الثانية، ١٩٩١.
- ١٢- خليفة، حاجي، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، الجزء الاول، استنبول، ١٨٩٢.
- ١٣- حسني، حسين، مذكرات ضابط عثمانى في نجد، الاوضاع العامة في منطقة نجد، ترجمة وتعليق سهيل صايان، الرياض ٢٠٠١.
- ١٤- شاز، راشد، الطريق الى الجزيرة العربية، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧.
- ١٥- كحالة، رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٣٦٤ هـ.
- ١٦- هوبير، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، ١٨٧٨-١٨٨٢، الحماد، الشمر، القصيم، ترجمة اليمار سعادة، الطبعة الاولى، بيروت، ٢٠٠٣.

- ١٧- مقار، شفيق، السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الاولى، رياض الريس للكتاب والنشر، ١٩٩٠.
  - ١٨- أبو علي، عبد الفتاح حسن، تاريخ الدولة السعودية الثانية، ١٢٥٦-١٣٠٩ هـ، ١٨٤٠-١٨٩١، الطبعة الرابعة، دار المريخ، الرياض، ١٩٩١.
  - ١٩- العثيمين، عبد الله صالح، نشأة إمارة آل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١.
  - ٢٠- العثيمين، عبد الله صالح، قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد، الطبعة الاولى، ٢٠٠١.
  - ٢١- البادي، عوض، الرحالة الاوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية، منطقة حائل، ١٨٤٥-١٩٢٢، الجزء الاول، الطبعة الاولى، نادي حائل الأدبي، ٢٠١٤.
  - ٢٢- العريفي، فهد، هذه بلادنا (حائل) الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض ١٩٨١.
  - ٢٣- جوارماني، كارلو كلاوديو، نجد الشمالي، رحلة من القدس الى عنيزة في القصيم، ترجمة وتعليق، احمد اييش، الطبعة الاولى، المجمع الثقافي بأبوظبي، ٢٠٠٩.
  - ٢٤- بوزورث، كليفورد، تراث الاسلام، الجزء الثاني، ترجمة، حسين مؤنس، احسان صدقي التمد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨.
  - ٢٥- بلي، لويس، رحلة الى الرياض، ترجمها وحقق لها، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، عويضة بن متريك الجهني، الطبعة الاولى، الرياض، ١٩٩١.
  - ٢٦- القويضي، محمد بن عبد العزيز، تراث الاجداد، دراسات لجوانب مختلفة من تاريخ مآثوراتنا الشعبية، ج ١، ج ٢، الطبعة الاولى، ١٩٨٢.
  - ٢٧- الفاخري، محمد بن عمر، تاريخ الفاخري، دراسة وتحقيق وتعليق، عبد الله بن يوسف الشبل، ١٩٩٩.
  - ٢٨- حسين، محمد كامل، وآخرون، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت.
  - ٢٩- المفضل، مشعل بن مهجع، الصلات الحضارية بين جبل شمر وجنوب العراق، الطبعة الاولى، ٢٠١٤.
  - ٣٠- بالجريف، وليم جيفورد، وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٢-١٨٦٣) ترجمة، صبرى محمد حسن، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠١.
  - ٣١- أوتينج، يوليوس، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمه وعلق عليه، سعيد بن فايز السعيد، دار الملك عبد العزيز، ١٩٩٩.
- ثانيا دراسات غير منشورة**
- الحماذ، حمد بن عبد الله، حكم محمد بن عبد الله الرشيد لنجد (١٢٨٩-١٣١٥ هـ) (١٨٧٣- ١٨٩٧)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، ٢٠٠٤.
  - الشمري، خليف بن صغير، إمارة حائل في عهد الامير طلال ابن رشيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم، ٢٠١٤.

- العريني، عبد الرحمن بن علي، الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد وأثر الدعوة السلفية فيها منذ القرن العاشر الهجري الى سقوط الدرعية، (٩٠١ هـ - ١٢٣٣ هـ) (١٤٩٤-١٨١٨ م) رسالة ماجستير، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٤.

#### ثالثا الدوريات

- معمر، عبد الله، الطب الشعبي : حقيقة العلاج وثقافة المرض ، شؤون اجتماعية، السنة ٢٣، العدد، ٨٩، ٢٠٠٦.
- الشبل، عبد العزيز بن صالح، ' الاوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال ما كتبه الرحالة شارلز داوتي في كتابه رحلات في الصحراء العربية '، الدرعية، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، يوليو ٢٠٠١.
- المقيرن، محمد بن مفرن، تطور القطاع الصحي في منطقة الرياض من عهد الملك المؤسس الى عهد خادم الحرمين الشريفين، قراءة تاريخية ، دار الملك عبد العزيز، السنة الثلاثون، العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ.

#### رابعا باللغة الانجليزية

- Blunt.The future of Islam.London Kegan paul.1882
  - Cromer.modern Egypt.London.vol 2.1908.
  - Abouseif.Doris.behrens.The Image of The Physician in Arab Biographies of The Post Classical Age. Der Islam.1989.
  - Denis Berdine.Michael,The Accidental Tourist ,Wilfrid Scawen Blunt ,Islamic Reform And The British Invasion of Egypt 1882,university of Arizona,2001.
  - Ian Blecher.Robert,The Medicalization of Sovereignty :Medicine Public Health And Political Authority in Syria,1861-1936.Stanford University ,2002.
- ب- دوريات
- A.Mohit.Mental Health and Psychiatry in The Middle East :Historical development. Eastern Mediterranean Journal.Vol.7.No.3.2001.p.343.
  - Meyerhof.Max.The Book of Treasure,An Early Arabic on Medicine,The History of Science Society,Vol.14.No.1. May. 1930.





## الموقف التركي من الأزمة السورية فيما بين عامي ١٩٥٥-١٩٥٧م

د محمد عزيز محمد سيف  
مدرس بكلية الآداب جامعة سوهاج

أولا. الخلف التركي-العراقي عام ١٩٥٥م وأثره في توتر العلاقات التركية-السورية<sup>(١)</sup> -  
علي أثر إعلان انتهاء الانتداب الفرنسي علي سورية، وحصولها علي استقلالها  
عام ١٩٤٦م؛ حدث تبادل للتمثيل الدبلوماسي بين سورية وتركيا، وظلت العلاقات بينهما  
في حالة من الفتور. ويبدو أن ذكريات الماضي القريب كان لها أثر في هذا الاتجاه،  
بدرجة لا بأس بها، فالأتراك يتذكرون دور القوميين العرب المناوئ لتركيا في الحرب  
العالمية الأولى، والسوريون يتذكرون الحكم العثماني السيئ، والطرق التي استعملها  
العثمانيون في محاولتهم قمع حركة القوميين العرب الحديثة النشأة. ولم يستطع  
الموريون أن ينسوا تحويل إقنيم الأسكندرونة، من قبل سلطات الانتداب الفرنسي، إلي  
أيدي الأتراك عشية الحرب العالمية الثانية<sup>(٢)</sup>.

ومن جهة أخرى: استاءت سورية، شأنها في ذلك شأن سائر الدول العربية،  
لاعتراف تركيا بقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، الأمر الذي جعلها - أي تركيا - معقوفة  
في العالم العربي، بسبب سياستها الموالية لإسرائيل<sup>(٣)</sup>. وعلي أثر انقلاب حسني الزعيم<sup>(٤)</sup>  
الزعيم<sup>(٥)</sup> في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩م وإطاحته بالرئيس شكري القنطي<sup>(٦)</sup> حدث تقارب  
سوري- تركي، بعد أن أعلن حسني الزعيم استعداده للتنازل عن لواء الأسكندرونة  
للأتراك، كما أنه كان شديد العداء للشيوعية؛ التي كانت تعاديها تركيا أيضا. ونتيجة  
للأوضاع السياسية غير المستقرة في سوريا، والتي شهدت عدة انقلابات عسكرية بعد  
انقلاب حسني الزعيم، تباينت العلاقات التركية - السورية حتي عام ١٩٥٤م.

وابتداءً من عام ١٩٥٥ م وهو العام الذي تولت فيه قوي اليسار الحكم في سورية، أخذت العلاقات السورية- التركية في التوتر، خصوصاً بعد أن أعلن حكام سورية أن سياستهم الخارجية تقوم علي أساس استنكار الأحلاف العسكرية، وتبني سياسة الحياد الإيجابي بين المعسكرين الشرقي والغربي.

وقد كان لمسياسة العراق الخارجية، في تلك الفترة، أثرها في زيادة حدة التوتر في العلاقات السورية- التركية، حيث سار العراق في طريق عقد الأحلاف مع الدول الغربية الاستعمارية المناوئة للعالم العربي. وقد بدأ العراق هذه الأحلاف بالدخول في مفاوضات مع الجانب التركي، لتوقيع حلف دفاعي مع تركيا. ونتيجة لتحقيق هذا الغرض، قام عدنان مندريس<sup>(١)</sup> رئيس الوزراء التركي، بزيارة إلى بغداد، تأكيداً لموقف العراق المعن تجاه الحلف المقترح. وكان البيان العراقي- التركي المشترك، في ١٣ يناير سنة ١٩٥٥ م، الذي صدر عقب تلك الزيارة، تنويعاً لهذا الموقف. ودعماً لهذا الاتحاد قام عدنان مندريس بزيارة إلى دمشق وبيروت، في طريق عودته من بغداد، ودعاها إلى الانضمام للحلف العراقي- التركي المقترح توقيعاً بين الجانبين، ولكنه لم يلق تأييداً<sup>(٢)</sup>.

وعلى إثر توقيع الحلف التركي- العراقي<sup>(٣)</sup> - الذي كان نواة لحلف بغداد-<sup>(٤)</sup> في الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥ م. تدهورت العلاقات السورية-التركية مرة أخرى، حيث قاومت سورية جهود تركيا المستمرة لحث سورية والدول العربية علي الانضمام إلى ذلك التحالف.<sup>(٥)</sup>

وبعد مرور يومين علي توقيع هذا الحلف 'التركي - العراقي'؛ قام السفير الأمريكي في دمشق، جيمس موس<sup>(٦)</sup> في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥ م، بزيارة رئيس الوزراء السوري صبري العسلي، ووزير الخارجية خالد العظم، وسلمهما مذكرة تتضمن وجهة نظر الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الحلف ومما جاء في هذه المذكرة<sup>(٧)</sup>.

١- إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت دائما تستند إلي جهود الدول الأخرى للقيام بتعاون يهدف إلي الوصول إلي أعلى درجة من التعاون بين الدول المهتمة بتحسين دفاع الشرق الأوسط ضد العدوان الشيوعي.

٢- ترحب الولايات المتحدة الأمريكية بالتحالف التركي- العراقي، كخطوة إنشائية للاعتراف بالحاجة للدفاع الفعال عن الشرق الأوسط، ضد التوسع الشيوعي<sup>(١)</sup>.

٣- تعتقد الولايات المتحدة الأمريكية أنه: علي الدول العربية أن ترحب بالاتفاق التركي- العراقي، من أجل تقوية دفاعاتهم ضد الأخطار الشيوعية.

ومن أجل الضغط علي سورية للانضمام للحلف العراقي- التركي قامت دولتا الحلف تركيا والعراق بحشد قوات عسكرية علي حدودهما مع سورية، للضغط عليها لحثها علي الانضمام لذلك الحلف، فتزايد بذلك قوة الجبهة الموالية للحلف، مما يشجع علي انضمام الدول العربية الأخرى، التي كانت لا تزال مترددة في الانضمام إليه، كالأردن ولبنان. وكان الحلف التركي - العراقي ينص علي إمكانية اشتراك دول عربية أخرى، لكن مصر اعتبرت أن ذلك يهدف إلي عزلها عن العالم العربي، واتهمت بإذاعة صوت العرب من القاهرة، التي كانت تحرك الشارع العربي<sup>(٢)</sup>، تركيا بإرسال فرقتين عسكريتين إلي الحدود السورية - التركية، لممارسة الضغط علي سورية لقبول حلف بغداد<sup>(٣)</sup>.

لكن الرد السوري علي التحالف التركي- العراقي جاء فوراً وقوياً، إذ أن رئيس الأركان السوري شوكت شقير ونائبه 'عدنان المالكي' اجتمعوا بعدد كبير من الضباط، ومن السياسيين، ومن ذلك الاجتماع أعلن أن حكومة سورية ترفض الحلف العراقي- التركي وجميع الأحلاف الأخرى<sup>(٤)</sup>. كما وافقت سورية علي إقامة حلف كامل مع مصر وعلي توحيد جيشهما، حيث قام وزير الخارجية السوري خالد العظم بتوجيه دعوة للصاع صلاح سالم أثناء وجود الأخير في لبنان، لزيارة سورية فزارها في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥م، وعرض الصاغ صلاح سالم أن تقوم الدول العربية بعقد حلف بينها، واقترح أن تبدأ سورية بعقد اتفاق ثنائي مع مصر، يشبه الاتفاق التركي- العراقي، ثم

توصل الاثنان "صلاح سالم" و"خالد العظم" إلى صيغة تصريح مشترك، عرضه خالد العظم علي مجلس الوزراء السوري فوافق عليه في الثاني من مارس سنة ١٩٥٥م، ومما جاء فيه: <sup>(١١)</sup>

١- عدم الانضمام إلى الحلف التركي - العراقي أو أية أحلاف أخرى .

٢ - إقامة منظمة دفاع عسكري وتعاون اقتصادي عربي مشترك.

وهكذا يتضح لنا أن حلف بغداد قد زاد من المشاعر الساخطة لسورية تجاه تركيا، وكان هو العامل الأساسي الذي دفعها إلى توقيع معاهدة عسكرية للقيادة الموحدة مع مصر. ونتيجة للاتفاق المصري-السوري؛ قامت مصر بإرسال وحدات من قواتها العسكرية، لترابط مع الجيش السوري علي الحدود السورية، تحسبا لهجوم محتمل علي سورية من قبل تركيا.

وحيال رفض سورية الانسحاق للمشروع الأمريكي؛ حرضت الولايات المتحدة الأمريكية تركيا علي التشرش بسورية، لإثارة المتعب في وجهها. فادعت تركيا أن حلف الدفاع العربي موجه ضدها، وحشدت قواتها العسكرية علي حدودها المتاخمة لسورية. وأرسلت تركيا إلي دمشق مذكرتين قاسيتين خاليتين من اللياقة والدبلوماسية، ولا تأخذان بعين الاعتبار حقوق سورية الطبيعية وسيادتها علي أراضيها <sup>(١٢)</sup>، وخلاصة ما جاء فيهما : "...إن الميثاق السوري - المصري يهدف إلي عزل تركيا عن العالم العربي. وأنه في حالة تحقيق هذا الميثاق من قبل سورية فإن تركيا تعتبر هذا العمل معاديا لها..." <sup>(١٣)</sup>. وردا علي موقف الحكومة التركية أصدرت الحكومة السورية، في الثاني والعشرين من مارس سنة ١٩٥٥م، بيانا جاء فيه <sup>(١٤)</sup> : -

إن الحكومة السورية إذ تؤكد مجددا رغبتها في الاحتفاظ بالعلاقات الطبيعية مع تركيا وعدم استهدافها إياها بأية نوايا عدوانية. إن الحكومة السورية تعلن أنها علي الرغم من كل هذه الأجواء المثيرة، ستبقي دائبة علي خطتها المسالمة في معالجة مشاكلها مع تركيا، وماضية، في الوقت نفسه، بتنفيذ ما جاء في برنامجها الوزاري الذي نال ثقة

المجلس النيابي، معتقدة أن خطتها في السعي لتأمين سلامة الوطن وتصفية الجو العربي تقتضيها المصلحة القومية العليا للأمة العربية".

وبعد الاحتجاج لسوري علي هاتين المذكرتين أعلن الاتحاد السوفيتي (عدو تركيا الأول) حمايته لسورية، ففي اليوم التالي-٢٣ مارس سنة ١٩٥٥م- تدخل الاتحاد السوفيتي مباشرة في الأزمة، إذ أعلم مولوتوف وزير الخارجية الروسي سفير سورية في موسكو "الدكتور فريد الخاني" أن الاتحاد السوفيتي يؤيد موقف سورية، ويرغب في تقديم جميع أنواع المساعدات إليها. بهدف حماية استقلالها وسيادتها<sup>(٢٢)</sup>. وقد أعلن الاتحاد السوفيتي صراحة أنه سيهب للدفاع عن سورية، في حالة تعرضها للهجوم من طرف أية دولة وقعت علي حلف بغداد<sup>(٢٣)</sup>.

كما أصدرت الحكومة السوفيتية عدة بيانات تكشف فيها عن أهداف الغرب من الحلف - من وجهة نظرها - مؤكدة أنها لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء تلك المؤامرات الغربية ضدها<sup>(٢٤)</sup>، كما نددت الحكومة السوفيتية. في هذه البيانات، بإجراءات الغرب وضغوطه لجر الدول العربية للحلف، وقدمت احتجاجا لدي الأمم المتحدة لوقف مثل هذه الضغوط<sup>(٢٥)</sup>.

ومن هذا يتضح لنا معارضة الاتحاد السوفيتي لحلف بغداد. وقد أحدثت تلك المعارضة السوفيتية نتيجة إيجابية في المنطقة العربية، حيث ظهرت جبهة عربية معارضة لذلك للحلف، كانت علي استعداد لتقبل المساعدات السوفيتية لإحباط أغراض الحلف. وبذلك وفر هذا الحلف للاتحاد السوفيتي حلفاء طبيعيين، فوجد لزاما عليه مساندتهم عسكريا وسياسيا واقتصاديا، وهذا ما حدث بالفعل في المساعدات الاقتصادية والفنية التي قدمها الاتحاد السوفيتي فيما بعد لسورية. ويعتبر البعض أن الحلف كان من أكبر العوامل التي أدت إلي ظهور الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط، إذ أصبح يمد يده إلي الدول العربية التي رفضت الانضمام لذلك للحلف، وكان في مقدمة هذه الدول العربية سورية

التي كانت في حاجة إلى حليف قوي يساندها، ويقف إلى جوارها ضد التهديدات الخارجية من ناحية تركيا وغيرها.

**ثانياً. مبدأ إيزنهاور وأثره في ازدياد حدة التوتر بين تركيا وسورية .**

نتيجة لذلك، أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تعيد النظر في سياستها الخارجية إزاء الشرق الأوسط، وخاصة بعد العدوان الثلاثي علي مصر سنة ١٩٥٦م، وإدراك الولايات المتحدة الأمريكية عجز بريطانيا وفرنسا عن القيام بمهمة الدفاع عن الشرق الأوسط، وفشلهما في التصدي للنفوذ السوفيتي بالمنطقة، وبخاصة بعد التهديد السوفيتي باستخدام القذائف الصاروخية ضد المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط<sup>(٢٤)</sup>. حيث طرح الرئيس الأمريكي إيزنهاور Eisenhower مبادئه لملء الفراغ<sup>(٢٥)</sup> في الشرق الأوسط، وهي تهدف إلى مقاومة النفوذ السوفيتي وانشيوعي المتغلغل في منطقة الشرق الأوسط، ومن هنا جاء إعلان الرئيس الأمريكي إيزنهاور عن سياسته الجديدة تجاه الشرق الأوسط في صورة رسالة وجهها إلى الكونجرس الأمريكي. في الخامس من يناير سنة ١٩٥٧م، حيث سعي الرئيس الأمريكي إيزنهاور للحصول علي سلطات من الكونجرس الأمريكي، تتيح له تقديم المساعدات لدول الشرق الأوسط سواء المساعدات المادية أو العسكرية، وهو ما عرف بمبدأ إيزنهاور Eisenhower doctrine<sup>(٢٦)</sup> ولقد كان لتركيا دور مهم في مساندته، استجابة لطلب الولايات المتحدة الأمريكية<sup>(٢٧)</sup>.

وكانت مبادئ إيزنهاور تنص علي: أن تقدم الحكومة الأمريكية المساعدات لصعد عدوان الشيوعية الدولية، وبناء علي طلب الحكومات المعنية في المنطقة. كما أنه في الوقت نفسه وفي ٢٥ من مارس سنة ١٩٥٧م أعلن إيزنهاور في لقائه مع 'ماكميلان Macmillan' رئيس وزراء بريطانيا عن رغبة بلاده 'الولايات المتحدة الأمريكية' في الانضمام إلى اللجنة العسكرية التابعة لحلف بغداد<sup>(٢٨)</sup>. وبذلك كان في استطاعة دولة مثل تركيا أن تستجد بالولايات المتحدة الأمريكية، بدعوي أن سورية تهدد أمنها، فقد

صار الغرب، وبخاصة الأمريكيون يكرهون سورية لتعاونها الاقتصادي مع الدول الشيوعية واعتبار ذلك تبعية<sup>(٢٢)</sup>.

كانت سورية أول من هاجم مبادرة إيزنهاور في الشرق الأوسط، ففي العاشر من شهر يناير سنة ١٩٥٧م، أي بعد أقل من أسبوع واحد من طرح الرئيس الأمريكي لمبادرته بشأن الشرق الأوسط وإرسالها إلى الكونجرس الأمريكي، أصدرت الحكومة السورية بياناً تعارض فيه نظرية الفراغ، وتعارض فكرة أن المصالح الاقتصادية تعطي أي دولة حق التدخل في المنطقة، وتذكر أن الشيوعية تشكل خطراً مباشراً على العالم العربي، فالإمبريالية والصهيونية هما الخطران الرئيسيان اللذان يظل العرب عرضة لهما<sup>(٢٣)</sup>.

وفي التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٥٧م، اجتمع قادة مصر وسورية والسعودية والأردن في القاهرة، حيث تم التوقيع على اتفاق رباعي، أكدت فيه تلك الدول على إيمانهم بضرورة التضامن والتعاون لتدعيم الكيان العربي واستقلاله<sup>(٢٤)</sup>، كما أعلنوا رفضهم لنظرية الفراغ الأمريكية<sup>(٢٥)</sup>. وأشاروا إلى أن المنطقة العربية لن تكون منطقة نفوذ لأية قوة أجنبية، وأن الوحدة القومية العربية هي وحدها القادرة على ملء ذلك الفراغ المزعوم<sup>(٢٦)</sup>، كما جاء في البيان الختامي الصادر عن ذلك الاجتماع: إن التهديد الحقيقي الذي تتعرض له دول المنطقة هو من جانب إسرائيل وليس من جانب الاتحاد السوفيتي<sup>(٢٧)</sup>.

على نقيض الموقف السوري من مبادرة إيزنهاور، جاء الموقف التركي على لسان صحيفة "ظافر" الناطقة باسم الحزب الديمقراطي الحاكم في تركيا، إذ أشارت إلى أن مبدأ إيزنهاور واضح وبسيط، فالهدف الذي يسعى إلى تحقيقه هو: أن يكون الشرق الأوسط لشعوب الشرق الأوسط، والضمان الذي يقدمه هو القوة العسكرية الأمريكية، والخير الذي يسعد به هو توفير المساعدة في المجال الاقتصادي للشرق الأوسط، من خلال المعونات المالية الضخمة، وسيحكم التاريخ بصحة مبدأ إيزنهاور أو خطئه، على أساس الوضع



والأهمية اللذين ستعطيتهما الولايات المتحدة الأمريكية لتركيا في هذه الخطط وحساباتها<sup>(٢٠)</sup>.

وقد أرسل الرئيس الأمريكي إيزنهاور مبعوثه الشخصي 'جيمس ريتشارد' إلى أنقرة في مارس سنة ١٩٥٧م، وذلك لشرح مبدأ إيزنهاور مع رئيس الوزراء التركي 'عدنان مندريس'. وبعد انتهاء المباحثات أصدرت الحكومة التركية بياناً رسمياً جاء فيه<sup>(٢١)</sup>:

.... إن الحكومة التركية تكرر مساندتها لاقتراح الولايات المتحدة الأمريكية من أجل دعم الاستقلال السياسي لدول الشرق الأوسط، وضمان سلامتها الإقليمية ضد تهديد الشيوعية الدولية.....<sup>(٢٢)</sup>.

ونتيجة لظهور هذا المبدأ، فقد تعرضت مجموعة من الدول العربية إلى ضغط شديد من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا، بغية حملها على قبول مبدأ إيزنهاور، وشنت الصحف التركية حملات ضد الدول العربية التي رفضت هذا المبدأ<sup>(٢٣)</sup>، ومن بين هذه الدول 'سورية' التي أعلنت في بداية عام ١٩٥٧م رفضها المطلق لهذا المبدأ. وفي الوقت نفسه قام خالد العظم وزير الداخلية السوري حينئذ ذات التوجهات اليسارية<sup>(٢٤)</sup> بزيارة الاتحاد السوفيتي لإجراء مباحثات مع الجانب السوفيتي، وقد تمخضت تلك المباحثات، التي جرت بين الطرفين في موسكو، عن توقيع اتفاقية اقتصادية وعسكرية واسعة المدى، في السادس من أغسطس سنة ١٩٥٧م بقيمة ٥٧٩ مليون دولار<sup>(٢٥)</sup>.

وإنني جانب موقف الرفض الذي وقفته بعض الدول العربية من مشروع إيزنهاور، والذي أثار قلق دول الغرب وتركيا باعتبارها - أي تركيا - الدولة التي تعهدت بالإسهام في تحقيق أهداف ذلك المشروع، فقد كان رفض سورية، خلال تلك الفترة، لعروض أمريكية<sup>(٢٦)</sup> بتمويل اقتصادها، والتجائها إلى دول الكتلة الشرقية في الحصول على حاجاتها من السلاح والمساعدات الاقتصادية أسوة بالطريق الذي انتهجته مصر، كل ذلك كان مثاراً لقلق أكبر من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، وأيضاً لتركيا التي كانت تنظر بحساسية شديدة تجاه أي نشاط سوفيتي في المنطقة، وبخاصة الدول التي تشترك معها

في الحدود مثل سورية. ولذلك بدأت الدعايات الأمريكية والتركية<sup>(١١)</sup> تركز اتهاماتها، ضد كل من مصر وسورية، بالسير في فلك الشيوعية، كما بدأت تركيا في الإعلان عن مخاوفها إزاء تطور العلاقات العربية - السوفيتية.

لذلك عمدت الولايات المتحدة الأمريكية علي تدبير مؤامرة ضد سورية، بالاتفاق مع دول حلف بغداد (العراق وتركيا) إضافة إلي الأردن ولبنان، ولكن الحكومة السورية كشفت عن هذه المؤامرة في الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٥٧م، وقامت بإبعاد ثلاثة من الدبلوماسيين الأمريكيين من العاملين بالسفارة الأمريكية في سورية<sup>(١٢)</sup>، وهم الملحق العسكري روبرت مالوي<sup>١</sup> والسكرتير الثاني "هارد ستون" ونائب القنصل "فرانسيس جيتون"، واعتبرت الحكومة السورية هؤلاء أشخاصا غير مرغوب فيهم، حيث اتهم هؤلاء بالتآمر مع الرئيس السوري المخلوع "أديب الشيشكلي" لقلب نظام الحكم<sup>(١٣)</sup>. وقد ردت واشنطن علي ذلك بطرد السفير السوري فريد زيب الدين وأحد موظفي سفارته<sup>(١٤)</sup>.

كما أُنزلت الولايات المتحدة الأمريكية رجال البحرية الأمريكية جوا في لبنان والأردن والعراق، وقد تطلّ دالاس<sup>٢</sup> وزير الخارجية الأمريكية، بأن تركيا تواجه خطرا عسكريا متزايدا، من جراء تدفق الأسلحة السوفيتية إلي سورية<sup>(١٥)</sup>. ولقد لعب 'عبد الحميد السراج' مدير المخابرات الحربية السورية<sup>(١٦)</sup> والضباط التقدميون؛ دورا مهما في كشف خيوط هذه المؤامرة. وكان من النتائج المباشرة لكشف هذه المؤامرة، توجيه مذكرة من الضباط التقدميين إلي رئيس الأركان "نظام الدين" بصيغة إنذار بضمن إجراء تغييرات بين الضباط المشكوك في ولائهم، أو تقديم استقالته فأثر الحل الثاني، كما قامت الحكومة السورية في ١٧ أغسطس عام ١٩٥٧م، بعدة إجراءات هدفت للتطهير الشامل في القيادات العسكرية، حيث أحالت نظام الدين رئيس أركان الجيش السوري المعروف باعتداله - بعد قبول استقالته - إلي التقاعد، وعينت بدلا منه العقيد غفيف البزري<sup>٣</sup> المعروف بتعاطفه مع السوفيت وذا الميول اليسارية<sup>(١٧)</sup>. كما تم توزيع المناصب القيادية الأخرى، والهامة أيضا، في الجيش السوري، حيث تم اختيار أمين النقوري<sup>٤</sup> مساعدا

لرئيس الأركان ومصطفى حمدون لرئاسة الشعبة الأولى وأحمد عبد الكريم لرئاسة الشعبة الثالثة، واستمر عبد الحميد السراج رئيساً للشعبة الثانية<sup>(١٨)</sup>. وفي الوقت نفسه جري تطهير الجيش السوري من عشرات الضباط، وراقبت تركيا والولايات المتحدة الأمريكية هذه التطورات في سورية عن كثب، واتهمتا سورية بأنها اتجهت نحو المصكر الشرقي<sup>(١٩)</sup>.

ولذلك أوفدت الولايات المتحدة الأمريكية، في الأول من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، مساعد وزير خارجيتها - لوي هندرسون - إلى تركيا، لبحث تطورات الموقف في المنطقة<sup>(٢٠)</sup>. حيث اجتمع مع عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي، وقد أصدر هندرسون بعد عودته إلى واشنطن بياناً قال فيه "إن الوضع في سورية خطير جداً، والولايات المتحدة الأمريكية. مهتمة اهتماماً عميقاً بما يجري في سورية التي أصبحت فريسة للشيوعية"<sup>(٢١)</sup>، وقد خلص هندرسون في ختام زيارته تلك إلى نتيجة مؤداها: أن سورية تمثل مصدراً للخطر على جارتها تركيا<sup>(٢٢)</sup>. كما نقل عن دالاس - وزير الخارجية الأمريكي، عقب اجتماعه بهندرسون، أنه يري ضرورة القيام بعمل عاجل، لو ثبت أن سورية على وشك أن تصبح دولة خاضعة للاتحاد السوفيتي، وأن تطورات الموقف في سورية تلقي على تركيا أعباء جديدة، فيما يتعلق بالدفاع عن الشرق الأوسط، الأمر الذي يستوجب تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية لتركيا، حتي تتمكن من تحصين حدودها مع سورية<sup>(٢٣)</sup>.

وقد كانت تركيا تشعر بعدم الارتياح تجاه الوضع في سورية، وبخاصة بعد أن أحرز الجناح اليساري تقدماً في انتخابات عام ١٩٥٧م، وقد انعكست نتيجة الانتخابات السورية هذه، عام ١٩٥٧م، على الصحافة التركية التي أشارت بوضوح إلى مدي القلق الذي انتاب تركيا من جراء وصول اليساريين إلى السلطة في سورية. وكان مما جاء في احدي هذه الصحف "أن تركيا كانت وما تزال "حينئذ" محاطة بقوات عدائية من الغرب

والشمال والشرق، وأصبحت الآن تحاصر بقوات عدائية من الجنوب، إذ أن سورية غدت قاعدة صواريخ روسية، ويعتبر هذا حصاراً جغرافياً علي تركيا..<sup>(٢١)</sup>:-

وفي العاشر من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، أعلنت الخارجية السوفيتية أن تركيا تنوي القيام بهجوم عسكري علي سورية، وأنه إذا سارت تركيا علي هذا النهج فربما وجدت نفسها في الهاوية. كما أعلن 'جروميكو' وزير الخارجية السوفيتي أن بلاده لا يمكن أن تظل مكتوفة الأيدي، وأنها تراقب عن كثب المحاولات التي تبذل لتحويل الشرق الأوسط والأدنى إلي مسرح للصراع المسلح.<sup>(٢٢)</sup>

وقد كشفت صحيفة الجيش السوفيتي 'النجم الأحمر' في ذات اليوم 'العاشر من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، النقاب عن مؤامرة أمريكية شيطانية لغزو سورية، وأكدت الصحيفة أن المؤامرة كانت تنطوي علي خطة ذات خمس مراحل لعبت فيها تركيا دوراً بارزاً وذلك علي النحو التالي<sup>(٢٣)</sup>:

أولاً : تقوم إسرائيل بتحركات عسكرية استنزافية علي حدودها مع سورية.  
ثانياً: تسارع تركيا عند ذلك إلي تجميع قواتها علي الحدود السورية الشمالية مثيرة احتمال حدوث صدام سوري - إسرائيلي.

ثالثاً: تقوم العراق بدورها بحشد قواتها، بحجة أنها تستهدف مساعدة سورية.  
رابعاً: تقوم الطائرات التركية والعراقية بغارات علي بعض المراكز علي الحدود، مدعية أن سورية قد خرقت حدودها.

خامساً: تسارع العراق وتركيا بالزحف علي سورية، وهما تناشدان في الوقت نفسه الولايات المتحدة الأمريكية لتقديم معونتها لصد العدوان السوري .

ويروي إيزنهاور في مذكراته، عن تلك الفترة، أنه كان هناك شبه إجماع بين قادة هذه الدول علي وجوب الإطاحة بالنظام القائم في سورية آنذاك<sup>(٢٤)</sup>.

وهكذا يبدو لنا مدي التغلغل التركي في الشأن السوري، وانسحاق تركيا وراء المخططات الأمريكية. وبالإجمال يمكن القول إن 'الموقف التركي كان مثيراً للاستفزاز في

سورية إلى حد أنه ابتداء من منتصف سبتمبر سنة ١٩٥٧م، أصبح الصدام السوري - الأمريكي أكثر جدية، غير أنه استبدل به صدام سوري - تركي تقف وراءه الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.<sup>(٥٨)</sup>

وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٧م اتهم رئيس الوزراء السوفيتي في ذلك الوقت "بولجانين" تركيا بأنها وضعت قوات عسكرية تركية علي الحدود السورية، بهدف القيام بهجوم مخطط له من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وحذر بولجانين من أن هذا النزاع المسلح علي سورية لن يقتصر علي تلك المنطقة فقط<sup>(٥٩)</sup>.

وقد حذر الاتحاد السوفيتي تركيا من القيام بعمل عسكري ضد سورية؛ لإدراكه أن تركيا هي أكثر الدول تهديدا لسورية. حيث بعث بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي برسالة شديدة اللهجة إلي رئيس الوزراء التركي "عدنان مندريس" جاء فيها "..... عندما تؤكد الأنباء أن الحشود تتجمع عند الحدود بين سورية وتركيا، فإن السؤال المنطقي الذي يتبادر إلي الذهن في هذه الحالة هو: ماهو شعور الأتراك في حالة وجود حشود أجنبية علي حدودهم؟ إن تركيا ستجر علي نفسها ويلات كثيرة، إذا سارت علي رأي الدول الأجنبية التي لاتهمها حماية السلام في الشرق الأوسط علي الإطلاق....."<sup>(٦٠)</sup>

ورد عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي علي رسالة رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي "بولجانين" قائلا: ".... إن الإدعاءات المزعومة التي ذهبت إليها، لا أساس لها من الصحة، كما أن اهتمام الاتحاد السوفيتي تجاه الوضع في سورية يثير دهشة تركيا، ولاسيما أن الدول المعنية لم تقدم أية شكوى ضد تركيا، كما أن شعور تركيا بعدم الارتياح عن التطورات في سورية طبيعي للغاية، إذ غدت سورية مستودعا للأسلحة السوفيتية...". وأذاعت وزارة الدفاع التركية في نفس الوقت بيانا فندت فيه إدعاءات الاتحاد السوفيتي، مؤكدة أن القوات التركية تقوم بمناورات روتينية، كان مقررا إجراؤها من قبل حلف شمال الأطلسي، حيث كانت تركيا أحد أعضاء ذلك الحلف<sup>(٦١)</sup>.

وتجدر الإشارة إلي أنه علي الرغم من التفوق العسكري التركي علي سورية<sup>(١١)</sup>، إلا أن تركيا لم تكن في حقيقة الأمر قادرة بمفردها علي القيام بهجوم عسكري علي سورية - بعد تراجع الدول العربية - حليفة تركيا - عن الاشتراك في الهجوم؛ لأن معني ذلك أنها - أي تركيا - ستعرض نفسها لهجوم سوفيتي عبر حدودها الممتدة مع الاتحاد السوفيتي<sup>(١٢)</sup>.

إضافة إلي أن مصر قد اتخذت خطوة جريئة، حين بعثت بقواتها إلي ميناء اللاذقية السوري، في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧م؛ لتربط تلك القوات إلي جانب القوات السورية علي الحدود مع تركيا، لصد أي هجوم محتمل من جانب الأتراك علي الأراضي السورية<sup>(١٣)</sup>، وذلك تنفيذا لميثاق الدفاع المشترك المعقود بين البلدين "مصر وسورية" سنة ١٩٥٥م.

وفي هذا الجو المفعم بالتوتر بادر الملك سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية حينئذ، للقيام بدور الوساطة بين سورية وتركيا. وسافر إلي بيروت لهذا الغرض، وبعث منها عدة رسائل إلي الدول المعنية، وقد أيدت تركيا وساطة سعود، أما بالنسبة إلي سورية فإنها رحبت في البداية بهذه الوساطة، غير أنها عادت وعدلت عن قرارها، وقد ترددت حينئذ أنباء مفادها أن سبب رفض سورية لوساطة الملك سعود بن عبد العزيز يرجع إلي<sup>(١٤)</sup>:

١- ممارسة الجيش السوري الضغط علي الرئيس السوري شكري القوتلي لرفض وساطة الملك سعود بن عبد العزيز .

٢- عدم رغبة مصر في وساطة سعود بن عبد العزيز، إذ أنها كانت تتهم الأخير بأنه ميال إلي السياسة الأمريكية.

وبعد رفض سورية وساطة الملك سعود بن عبد العزيز، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة مناقشة الأزمة السورية، في الثامن عشر من أكتوبر عام ١٩٥٧م، حيث تقدمت سورية بمساندة من الاتحاد السوفيتي، بشكوى إلي الجمعية العامة للأمم المتحدة

تتهم فيها تركيا بتعريض السلم العالمي للخطر، واستمرت هذه الجلسات حتي أول نوفمبر من نفس العام. وقد تحدث في هذه الجلسات وزير خارجية الاتحاد السوفيتي "جروميكو"، حيث أدان كلا من تركيا والولايات المتحدة الأمريكية، وطلب من الجمعية العامة مساعدة سورية في حالة وقوع عدوان عليها. وأكد جروميكو بأنه لدى الاتحاد السوفيتي وثائق وبيانات تثبت بأن وزارة الدفاع التركية تعد مشروعا للهجوم علي سورية. كما اتهم وزير خارجية الاتحاد السوفيتي تركيا بتدبير مؤامرة للإطاحة بنظام الحكم في سورية عن طريق بعض السوريين المقيمين في تركيا<sup>(٦٦)</sup>.

والقي المندوب التركي كلمة في الجمعية العامة للأمم المتحدة، أكد فيها بأن الاتحاد السوفيتي يحاول إيقاع العداوة بين تركيا والعالم العربي، بغية اتساع هوة الخلاف بينهما وهو يزنو، في نفس الوقت، إلي تعزيز مركزه في المنطقة<sup>(٦٧)</sup> وأن الاتحاد السوفيتي يقوم بمحاولة لإفساد العلاقات التركية- السورية، بإثارة شائعات مؤداها أن الحشود التركية علي الحدود متأهبة للهجوم علي سورية. وأعلن المندوب التركي بأن إحساس بلده بعدم الارتياح تجاه التطورات الأخيرة في سورية طبيعي للغاية؛ لأن هناك تهديدا مباشرا علي تركيا من الشمال والجنوب، كما أكد أن حكومته قد استفسرت من سورية عن سبب إنشاء قاعدة بحرية وقاعدة للغواصات في أراضيها، مع أنها لا تملك أسطولا، غير أنها لم ترد علي استفسارات الحكومة التركية<sup>(٦٨)</sup>.

وبعد هذه المناقشات قدمت عدة اقتراحات في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بشأن حسم النزاع بين سورية وتركيا، وهذه الاقتراحات هي: <sup>(٦٩)</sup>-

١- اقتراح قدمته سورية، وبدعم من الاتحاد السوفيتي، ويتضمن إنشاء لجنة تقوم بتقصي الحقائق علي الحدود السورية - التركية. علي أن يتم إبلاغ الجمعية العامة للأمم المتحدة بنتائج ما تتوصل إليه تلك اللجنة، وذلك في غضون أسبوعين.

٢- اقتراح قدمته سبع دول<sup>(٧٠)</sup> وتؤيده الولايات المتحدة الأمريكية، حيث خول هذا الاقتراح السكرتير العام للأمم المتحدة بالقيام بمناقشات مع ممثلي سورية وتركيا، والسعي

لإيجاد حل للأزمة بينهما بهذه الطريقة، غير أن الاقتراحين قد جري سحبهما قبل أن يعرضا للتصويت، وبعد مناقشات طويلة، وبناء علي اقتراح أندونيسيا، وافق الطرفان علي عدم فرض مشروع قرار، والدخول في مباحثات مباشرة، والعيش معا في وئام، بغية خدمة السلام في الشرق الأوسط والسلام العالمي.

ويمكن تلخيص أسباب الموقف التركي في ثلاثة دوافع هي<sup>(٧١)</sup>:-

١- خضوع الحكومة التركية لواشنطن بعد هيمنة مستشاري ما وراء الأطلسي عني كل مرفق من مرافق الحياة في البلاد.

٢- أمل الحكومة التركية في الحصول من واشنطن علي قروض مالية.

٣- تعزيز مركز الحكومة التركية، في داخل تركيا، ضد الأحزاب السياسية المعارضة

يتضح من التحليل السابق أن الولايات المتحدة الأمريكية، عن طريق استخدامها

تركيا، قد اتبعت كافة السبل لتغيير نظام الحكم وقتئذ في سورية، بنظام حكم آخر يقبل مبدأ إيزنهاور، لكي تصبح منطقة الشرق الأوسط داخل نطاق هذا المبدأ باستثناء مصر، لأن دول المنطقة بصفة عامة قد قبلت هذا المبدأ، سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر، إلا أن سورية لم ترضخ أمام كل هذه الأساليب، لإيمانها بارتباط سلامتها بسلامة كل دولة تعمل من أجل استكمال حقوقها وسيادتها.

وبجدر بنا هنا أن نحلل الأسباب التي حالت دون أن تسير تركيا قدما، في إجراءاتها العسكرية ضد سورية<sup>(٧٢)</sup> :

١- كانت تركيا هي وريثة الدولة العثمانية التي هيمنت علي البلاد العربية، وكانت من أسباب تخلفها حتي ثار عليها العرب وتخلصوا من حكم الأتراك. إن تركيا هذه لم تتخل عن رؤيتها لنفسها علي اعتبار أنها الأحق باليد العليا في المنطقة، ومن ثم فإن الأتراك حاولوا إعادة الكرة مرة أخرى، وخاصة فيما بين عامي ١٩٥٥ - ١٩٥٧م، وذلك باندفاعهم نحو السيطرة علي البلاد العربية وخاصة سورية. إلا أن سورية قد قامت بمسئوليتها التاريخية، وهي رفع شعار الكفاح ضد الأتراك، ومن أجل تدعيم القومية العربية مرة أخرى،



والإيمان بهذه الأيدلوجية، مما أدى إلي أن يتحول الشعب السوري كله إلي قوة مقاتلة، وتحول سورية إلي أرض من نار علي كل تركي يبطأ أرضها.

٢- إن مثل هذه المقاومة الضارية ضد أية قوة تركية غازية لسورية، ستؤدي إلي تحريك مشاعر الصديق والخصم، وتحول الأمور علي نحو ما حدث لكل من بريطانيا وفرنسا؛ خلال العدوان الثلاثي علي مصر.

٣- لاشك أن تركيا قدرت خطورة إثارة ثائرة الاتحاد السوفيتي؛ إذا ما أقدمت -أي تركيا- علي توجيه ضربة لدولة عربية صديقة له.

٤- لاشك أن تركيا اكتشفت أن الأسلوب العسكري؛ قد يؤدي إلي وضع شديد التعقيد، يصعب التعامل معه بسهولة.

٥- تراجع الولايات المتحدة الأمريكية عن حث تركيا علي مهاجمة الأراضي السورية، وإعلان "دالاس" وزير الخارجية الأمريكي أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تري ضرورة لتطبيق مبدأ إيزنهاور. فيما يتعلق بتطورات الأوضاع في سورية، وأنها ستجأ إلي الوسائل التفاوضية.

علي أية حال فإن التطورات السياسية، في تلك الفترة، كانت كفيلة بأن تخلق الجو الملائم للتقارب الحقيقي بين القطرين الشقيقين - سورية ومصر-، وفعلًا تم إعلان قيام الوحدة بينهما، في الأول من فبراير عام ١٩٥٨م. وبهذا الحدث انتهى مبدأ إيزنهاور، ومحاولات الولايات المتحدة الأمريكية استخدام تركيا لإجبار سورية علي أن تكون ضمن نطاق هذا المبدأ، ولكنه لم ينه التوتر التركي -السوري، بسبب قيام تلك الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨م، وتخوف تركيا من هذه الوحدة. ولقد ساعدت علي ذلك عوامل عدة أدت إلي قيام تلك الوحدة، منها:- (٣٣)

١- الضغط العسكري عني سورية من جانب قوات حلف شمال الأطلسي من الأراضي التركية، والذي ترتب عليه أن أسرعت مصر إلي إرسال جزء من قواتها إلي

الأراضي السورية، وإعلانها التصميم علي الوقوف إلي جانب سورية في حالة وقوع الهجوم عليها.

٢- نشاط الأحزاب اليسارية في سورية ذاتها، وارتباطها العضوي بأكثر من جهة خارجية.

٣- المنازعات الداخلية بين قادة سورية، سواء بين العسكريين أنفسهم، أو بينهم وبين الزعماء السياسيين وعدم مقدرة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية علي صد هذه التيارات.



## الهوامش

(١) تكتب سورية بالهاء المربوطة، وثمة تعميم في هذا الشأن من رئاسة الوزراء السوري، وبموافقة مجمع اللغة العربية بدمشق، وذلك في بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

(٢) خليل إبراهيم الناصري: التطورات المعاصرة في العلاقات العربية - التركية مطبعة الراية، بغداد، سنة ١٩٩٠م، ص ٩٨.

(٣) Ismail Social: Turkish Arab Diplomatic relations after the Second World War. Studies on Turkish Arab Relations, Ankara 1986, p.223.

(٤) ولد حسني الزعيم في مدينة حلب سنة ١٨٨٩م، من عائلة تعود في أصولها إلى الأكراد، ويعد حسني الزعيم من جيل الضباط العرب الذين خدموا في الجيش التركي، وعقب الحرب العالمية الأولى، تطوع في الجيش العربي تحت قيادة الملك فيصل، وأثناء الانتداب الفرنسي على سورية التحق عام ١٩٢٠م بالقوات الخاصة التي شكلتها فرنسا آنذاك وتلقى علومه العسكرية في الكليات العسكرية الفرنسية. وفي عام ١٩٤١م كال قد أصبح برتبة مقدم، وأثناء أحداث الحرب العالمية الثانية، اشترك في تلك الحرب إلى جانب قوات الفرنسيين الأحرار التي غزت سورية، التي كانت آنذاك تحت حكومة فيشي التي أسسها الألمان النازيون في فرنسا وعقب استسلام قوات فيشي، رفض تسليم نفسه وقبض عليه بعد ذلك وقدم للمحاكمة، وحكم عليه بالسجن لمدة عشرة سنوات، ثم أفرج عنه في نهاية هذه الحرب، بشرط أن يقيم في لبنان. وعلم سمح له بالعودة إلى سورية سنة ١٩٤٦م، تقدم بطلب للمسطات السورية للاتحاق بالجيش السوري. إلا أن طيبة قوبر بالرفض، فلم يجد أمامه إلا أن يرفع قضية أمام مجلس الدولة، الذي أصدر حكم لصالحه، وعلى هذا الأسس دخل الجيش على غير رغبة الحكومة القائمة وفي سنة ١٩٤٨م تقلد منصب المدير العام لشرطة والأمن العام وبعد فترة قصيرة أصبح رئيساً لأركان الجيش السوري. وفي أثناء معركة فلسطين تولي القيادة العامة للجيش السوري، وبقي في هذا المنصب حتى قيامه بأول انقلاب عسكري في سورية ضد الرئيس شكري القوتلي في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩م. ودبر حسني الزعيم ذلك الانقلاب بالاتفاق مع ضباط الجيش، ولذلك تم دون إراقة دماء. وفور نجاح انقلابه قام الزعيم بحل البرلمان وجميع الأحزاب القائمة حينئذ وأسس أول ديكتاتورية في سورية. وكان حسني الزعيم شديد الاعتداد بنفسه، وكان يصرح بأنه زعيم مضروب في ثلاثة زعيم بكنيته وزعيم برتيته وزعيم للسوريين، ولكنه كان متردداً وكان يحمل من صفات رجال النظام أكثر مما يحمل من صفات رجال السياسة، وقام بعدة إصلاحات منها إعطاء النساء حق الانتخاب، وأطيح به انقلاب قاده سامي الحناوي في الرابع عشر من أغسطس في نفس العام وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم على الفور. صلاح العقاد المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٣م، ص ٦٩ جلال يحيى: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، دار المعارف، سنة ١٩٨٥م، ص ٦٤٨ - ٦٤٩، خالد محمد عابد الضمور: العسكريون والحكم في سورية من سنة ١٩٤٩ - ١٩٥٨م رسالة ماجستير غير مشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨١م، ص ٧٤، بشير العوف: الانقلاب السوري مكتبة حسين النوري، دمشق، سنة ١٩٤٩م، ص ٢١ كذلك: مايلز كويلاند: حياة مايلز كويلاند الضابط في المخابرات المركزية ودوره في مصر وسورية ولبنان وإيران، ترجمة صادق عبده علي التركيبي، مكتبة مديولي، سنة ٢٠٠٧م، طبعة أولى، ص ١٤٣.

<sup>٤</sup> إنكري القوتلي: ولد في دمشق عام ١٨٩١م، تعلم في مدارس أستنبول، ثم التحق بالمكتب الملكي. ودرس العلوم السياسية والإدارية. التقى بالملك فيصل في دمشق عام ١٩١٥م. وتوطدت بينهما أواصر الصداقة. انتسب إلى الجمعية العربية الفتاة وسعى مع أعضائها إلى العمل للحصول على الاستقلال. اعتقل مرتين، وفي المرة الثانية حاول الانتحار بقطع شريانه بنفسه. وظل في السجن حتى أفرج عنه بعد نجاح الثورة العربية. وقف ضد الاحتلال الفرنسي وشارك في الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م. وفي عام ١٩٢٦م انتخب نائباً عن دمشق للمرة الأولى. وظل علياً صراره في مناهضة الفرنسيين فصدر الحكم عليه بالإعدام، فالتجأ إلى مصر. وبقي فيها حتى عام ١٩٣١م حيث صدر العفو عنه وعاد إلى دمشق. اشترك في الحياة السياسية مع الكتلة الوطنية وانتخب نائباً عن دمشق للمرة الثانية عام ١٩٣٦م، وظل ينادي باستقلال ووحدة الأراضي السورية، وهي نفس الأهداف التي رفعها الحركة الوطنية السورية. وبعد وفاة الرئيس تاج الدين الحسني جرت انتخابات عامة للمجلس النيابي فازت قائمته بالإجماع، وانتخب رئيساً للجمهورية، في السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٣م. وفي عهد رئاسته حصلت سورية على استقلالها بتاريخ السابع عشر من إبريل عام ١٩٤٦م، وتم جلاء الفرنسيين عن البلاد، وتم في عهده تعديل الدستور. لتحدد رئاسته بتاريخ السابع عشر من أغسطس عام ١٩٤٨م وفي عام ١٩٤٩م انتقلب عليه حسبي الزعيم وأجبره على الاستقالة، ثم اعتقله ثم أفرج عنه. وبعدها سافر إلى مصر وبقي بها حتى عام ١٩٥٥م، وسعى خلال وجوده في القاهرة، إلى توطيد العلاقة مع جمال عبد الناصر. وبعد انتخابات عام ١٩٥٥م استخه المجلس القومي رئيساً للجمهورية في السادس من سبتمبر سنة ١٩٥٥م. لقب بعد تنازله طوعاً عن الرئاسة في عهد الوحدة المصرية - السورية (بالمواطن العربي الأول) توفي في بيروت عام ١٩٦٨م. ودفن في دمشق مسقط رأسه. أنظر: سليمان عبد النبي: السياسة السورية العربية من عام ١٩٥٨-١٩٧٠م دراسة تحليلية للسياسة العربية السورية رسالة ماجستير، غير منشورة، توفقت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق سنة ٢٠٠٦م، ص ١٣-١٤.

<sup>٥</sup> عدنان مندريس: ولد في مدينة إيدن التركية في عام ١٨٩٩م، من أسرة ثرية، وكانت من كبار ملاك الأراضي، نال شهادة الحقوق من مدرسة الحقوق في أنقرة، كما درس في إحدى الجامعات الأمريكية. شارك في المعارضة السياسية. ومارس العمل السياسي وهو في الحادية والثلاثين من العمر، انضم إلى حزب الشعب الجمهوري، انتخب نائباً عن مقاطعة إيدن، وبقي في صفوف حزب الشعب الجمهوري حتى عام ١٩٤٥م. حيث طرد منه، لتؤسس الحزب الديمقراطي في العام التالي عام ١٩٤٦م، وقد كان مندريس يتمتع بشخصية قوية، وقد فهم فلسفة الشعب التركي ولاسيما الفلاح التركي، وكان يمتلك خصائص قيادية، استعان به جلال بايار - الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية التركية - لمساعدته في مجال المعارضة فأصبح مندريس رئيساً للوزراء بعد فوز الحزب الديمقراطي بالأغلبية في انتخابات عام ١٩٥٠م وذلك في ظل رئاسة جلال بايار لرئاسة البلاد. حكم عليه بالإعدام بعد انقلاب ٢٧ مايو سنة ١٩٦٠م. نفذ فيه الحكم عام ١٩٦١م. لمزيد من التفاصيل أنظر .

Bernard Lewis: The Emergence of modern turkey oxford univpress

(London 1966)p.139.

(<sup>٦</sup>) مصطفى بلاولي: التحولات السياسية في سورية بين تحقيق الاستقلال الوطني ١٩٤٦م وقيام الوحدة ١٩٥٨م رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سنة ١٩٩٤م، ص ١٧١.

(<sup>٧</sup>) لمزيد من التفاصيل عن الحلف التركي - العراقي وأهم نصوصه أنظر : عبد الحميد عبد الجليل أحمد شنيي : العلاقات السياسية بين مصر والعراق، ١٩٥١ - ١٩٦٣م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، سنة ٢٠٠٠م، ص ٢١٩ وما بعدها.

(<sup>٨</sup>) انضمت بريطانيا إلى الحلف التركي - العراقي في [بريل سنة ١٩٥٥م وباكستان في يونيو سنة ١٩٥٥م وإيران في نوفمبر سنة ١٩٥٥م، ليكون ما عرف باسم حلف بغداد.

(<sup>٩</sup>) خليل إبراهيم الناصري : المرجع السابق، ص ٩٨.

(<sup>١٠</sup>) Foreign Relations Of the United States 1955-1957 Volume x11 Near East

( Syria) United states Government Printing Office Washington 1988 p 573

كذلك : هاشم عثمان : تاريخ سورية الحديث. ربح الرئيس لكتب والنشر. الطبعة الأولى، يناير سنة ٢٠١٢م، ص ٢٧٩-٢٨٠. مذكروت حلد العظم، ثلاثة أجزاء. الطبعة الثانية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، سنة ١٩٨٤م، الجزء الثاني، ص ٢٨٢. ومما يجدر ذكره أن الولايات المتحدة الأمريكية علي الرغم من أنها كانت من أكثر الداعمين إلى تكوين حلف بغداد. إلا أنها لم تصمم بصورة رسمية وعينية لهذا الحلف، ويرى البعض أن من ضمن أسباب ذلك هو معارضة مصر والسعودية لحلف بغداد، حيث لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في إثارة عداء مصر و السعودية. فلقد صدقت توقيت إنشاء هذا الحلف، اقتراب موعد تحديد اتفاقية الطهرن، التي منحت المملكة العربية السعودية بمقتضاها الولايات المتحدة الأمريكية، حق استغلال قاعدة الطهرن، ذات الأهمية الإستراتيجية، ولذلك فلقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية، تخشى أن يؤدي انضمامها إلى حلف بغداد بصورة مطلقة إلى استياء السعوديين. واكتفت الولايات المتحدة الأمريكية بالانضمام إلى بعض لجان الحلف عام ١٩٥٧م أي بعد عامين من قيام ذلك الحلف، وهي اللجنة العسكرية واللجنة الاقتصادية ولجنة مكافحة التخريب والنشاطات الهدامة. وعني الرغم من أنها كانت بذلك تشارك عملا في نشاط ذلك الحلف، إلا أنه لم يكن عليها التزام قانوني بتقديم المساعدة العسكرية لبقية دول الحلف. ممدوح محمود مصطفى منصور : الصراع الأمريكي - السوفيتي في الشرق الأوسط، تصدير د محمد طه بدوي. مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٥م، ص ١٢٢.

(<sup>١١</sup>) مما يجدر ذكره أن عقد الخمسينيات من القرن العشرين قد شهد مسارا جديدا في العلاقات التركية الأمريكية، أساسه الدخول في مرحلة التحالف الاستراتيجي، الذي تجلت بوادره في سعي تركيا للانضمام إلى حلف شمال الأطلسي، وبالرغم من رفض هذا المسعى في بداية هذا الأمر من بعض دول الحلف، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت علي عاتقها مهمة تحقيقه، عندما نشطت الدبلوماسية الأمريكية آنذاك في تأييد مسعى تركيا للانضمام لهذا الحلف في محاولة إقناع أعضائه الآخرين بأهمية تركيا في تأمين الجناح الجنوبي الشرقي للحلف، فوافقت رئاسة الأركان الأمريكية في مارس عام ١٩٥١م علي العضوية الكاملة لتركيا في الحلف خدمة للإتزان اإتحيية الأمريكية. وفي ١٥ مايو سنة ١٩٥١م اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية علي بريطانيا وفرنسا عضوية تركيا، وتم قبول عضوية تركيا في

مؤتمر أوتواو بناء على توصية مجلس الحلف في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥١م واعتبارها عصوا كاملا. وتلا ذلك تنفيذ البروتوكول الخاص بانضمامها إلى الحلف في ١٨ فبراير سنة ١٩٥٢م لتمتد بذلك دفاعات الغرب حتى حدود إيران، ولتسد الفراغ في الحناح الشرقي لحوض البحر المتوسط، الأمر الذي ساهم في تقوية المعسكر الغربي بشكل عام وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الرامية لاحتواء النفوذ الشيوعي بشكل خاص. للمزيد انظر: منسي فائق مرعي العبيدي: العلاقات الأمريكية - التركية بعد أحداث ١١ أيلول سنة ٢٠٠١م وأثرها على القضايا العربية، رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٢م، ص ١٠٥-١٠٦.

١٧ ج. ب. ديروزيل: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني (١٩٤٥-١٩٧٨) ترجمة خضر خضر، الطبعة الأولى، لبنان، طرابلس، دار المنصور، سنة ١٩٨٥م، ص ٤٤.

١٨ (باتريك سيل: الصراع على سورية، دراسة لسياسة العربية، بعد الحرب ١٩٤٥-١٩٥٨م ترجمة سمير عبده، ومحمود فلاح، دار طلاس للنشر، بدون تاريخ، ص ٥٢٣، ٥٤٩.

١٩ (محمود حسن صالح المنسي الشرق العربي المعاصر، القسم الأول، الهلال الخصيب، سنة ١٩٩٥م، ص ٢٤٣، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٥٩٦.

٢٠ (هاشم عثمان: المرجع السابق، ص ٢٨٠، مذكرات خالد العظم الجزء الثاني، المرجع السابق، ص ٣٨٩.

٢١ (باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٤٤٦.

٢٢ (هاشم عثمان: المرجع السابق، ص ٢٨١، مذكرات خالد العظم: الجزء الثاني، المرجع السابق، ص ٢٨٩.

٢٣ (جريدة الشاطئ: العدد ٤٥٦ بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩٥٥. باتريك سيل، المرجع السابق ص ٥٤٩، إيهاب مجيد صالح: السياسة التركية تجاه مصر ١٩٤٥-١٩٦٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٠م، ص ٧٠.

٢٤ (باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٥٤٩-٥٥٠.

٢٥ (مايكل كوبلاند: لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني، بيروت، مايو سنة ١٩٧٠م، ص ١٣٤.

٢٦ (إسماعيل صبري مقلد: الصراعات العربية-العربية ١٩٤٥-١٩٨١م دراسة استطلاعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت سنة ١٩٨٨م، ص ٢٢-٢٤.

٢٧ (وثائق الخارجية المصرية: محظظة (٦٩٨) منف ١/٧/٢٠٣ ج ٨ (التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن) تقرير ١٠٠ من السفير المصري بواشنطن (أحمد حسين) إلى وكيل وزارة الخارجية، بشأن حديث السيد علي كامل فهمي مستشار السفارة مع السفير السوفيتي والوزير المفوض بالسفارة الإيرانية (سري) بتاريخ ١٩/٤/١٩٥٥م.

٢٨ (وثائق وزارة الخارجية المصرية: محظظة ١١٩٥، ملف ٧٥٨/٧/٨١/سري، من السفارة المصرية في واشنطن إلى الخارجية المصرية، بشأن الحلف الثلاثي ومقدمة الاتحاد المصري - السوري.

٢٩ (الفراغ من وجهة النظر الأمريكية، يعني بقاء منطقة الشرق الأوسط بدون سيطرة غربية، بعد جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن معظم دوله، أي أن حصول أي دولة من دول الشرق الأوسط

علي استقلالها ينشئ فراغا في نظام الاستعمار الغربي، ولا يمكن ملؤه إلا بالقوات والمصالح الأمريكية؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تبقى شعوب هذه المنطقة محكومة بقوي أجنبية موالية لها أنظر: فكرت نامق عبد الفتاح: سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣ - ١٩٥٨م، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد ١٩٧٨م، ص ٣٩١، جهاد مجيد محيي الدين: حلف بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الأدب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٠م، ص ٣٨

١١ ( ) جاء في رسالة إيرنهاور إلي الكونجرس الأمريكي إن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر المحافظة علي استقلال أمم الشرق الأوسط ووحدةها أمرا حيويا للمصلحة القومية والسلام العالمي، لهذه الغاية فالولايات المتحدة الأمريكية مضطرة علي تقديم العون أو استخدام القوة المسلحة لمساعدة أية أمة أو مجموعة من الأمم، عندما تطلب العون ضد العدوان المسلح من جانب أي قطر خاضع للشبوعية الدولية. أنظر: بيتر مانفولد، تدخل الدول العظمي في الشرق الأوسط ترجمة أديب شيش (دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر) طبعة أولي، دمشق سنة ١٩٨٥م ص ٨٧، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٧٨، مثنى فائق مرعي العبيدي: المرجع السابق، ص ١٠٩، مايلز كوبلاند: لعبة الأمم، مرجع سابق، ص ١٢٩.

١٢ (John Marlowe · Arab Nationalism British Imperialism Study in power Politics Frederick Praeger Publishers, N.Y. 1961, p.151.

١٣ ( ) وثائق الخارجية المصرية. محطة ١٥١٩، ميم ١٣٩ ١٢٣/٣٠ سري اجتماع برمودا بين إيرنهاور وماكسويل : تقرير ١٩ سري من المصور المصري بدمشق إلي وكيل الخارجية سري جدا بتاريخ ١٩٥٧/٤/٢٤.

١٤ ( ) محمود حسن صالح المنسي: المرجع السابق، ص ٢٤٥، باتريك سيل: ص ٦٧٩. ١٥ Foreign Relations of the United States 1955 1957 Volume xiii op.Cit. p. 579.

كذلك : باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٨٥.

١٦ ( ) عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي : المرجع السابق، ص ٢٦٥.

١٧ ( ) مما يجدر ذكره في هذا الشأن أن كل من المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية قد أعلنتا بعد ذلك قبولهما لمبدأ إيرنهاور، إثر خلافاتهما مع جمال عبد الناصر وتخوفهما من التساع لغزده في المنطقة العربية.

١٨ ( ) إسماعيل صبري مفك : المرجع السابق، ص ١٤٨.

١٩ ( ) أنظر النص الكامل للبيان الختامي الصادر عن ذلك المؤتمر، في الأهرام: العدد: ٢٥٧٠٤ في ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٧م.

٢٠ ( ) صحيفة ظافر التركية، أنقرة في ٤ يناير سنة ١٩٥٧م.

٢١ ( ) الأهرام: العدد: ٢٥٦٧٧ في ٢٤ مارس سنة ١٩٥٧م، ص ٤.

٢٢ ( ) أحمد نوري محمد النعمي: السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٣م، ص ٢٧٥.

٢٣ (Dawisha Karen: Soviet Foreign Policy towards Egypt(The Macmillan press Ltd., London, 1979) p.16 17.

(٢٢) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص ٢٧٦، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٩٠، روبنسن فيليب: تركيب والشرق الأوسط، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٣م، نقله إلى العربية ميخائيل نجم خوري، ص ٣٥-٣٦، ولويد رضوان: العلاقات العربية - التركية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩م، ص ١٢١.

(٢٣) الأهرام : العدد: ٢٥٨٣٤ في ٢ سبتمبر، سنة ١٩٥٧م ص ٤.

(٢٤) Emil Lengyel: the changing Middle East , The John Day Co., N.Y., 1960, P.143.

(٢٥) F.O.371/128242-NO. 3298-from Ankara to F.O. of 17November.1957.

كذلك:-

Douglas Little: Cold War and Covert Action, the United States and Syria 1945-1958 in Middle East, 1990. P.71.

أيضا : بيتر مانفولد : المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٦٨.

Dawisha Karen: Op.Cit.P. 17.)

(٢٦) مدود محمود مصطفى منصور: المرجع السابق، ص ٢٣٣، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٤٠.

(٢٧) رافت غنيمي الشيش - أمريكا والعالم، في التاريخ الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنشائية والاجتماعية، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٦م، ص ١٥٠.

(٢٨) كان يطلق عليها اسم الشبهة الثاقبة

Dawisha Karen: Op.Cit P 17.)

(٢٩) أحمد عبد الكريم: أصواء على تجربة الوحدة - مطبعة لإنشاء - دمشق، سنة ١٩٦٢م، ص ٧٦.

(٣٠) مدود محمود مصطفى منصور: المرجع السابق، ص ٢٣٣، باتريك سيل: المرجع السابق ص ٦٩٠. كذلك : Cremean, Charles : The Arab and The World , Nasers, s Arab

Nationalist policy Frederick Praeger publishers ,New York ,1936 , p.160.

(٣١) الأهرام : العدد: ٢٥٨٣٦ في ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٧م ص ٢.

(٣٢) Foreign Relations of the United States 1955-1957 Volume x111

Op.Cit.P.582

(٣٣) الأهرام : العدد : ٢٥٨٣٧ في ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م ص ٤.

(٣٤) الأهرام : العدد : ٢٥٨٣٨ في ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٧م ص ١.

(٣٥) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص ٢٧٨.

(٣٦) باتريك سيل : المرجع السابق، ص ٧١٢ كذلك :

Fleming, D, The cold War and its origins 1917 -1960-(Garden City, New York, 1961) p. 889.

(٣٧) صحيفة النجم الأحمر : (موسكو) في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧م نقلًا عن باتريك سيل. المرجع السابق، ص ٧١٤-٧١٥، كذلك: ولويد رضوان. المرجع السابق، ص ١٢٥.

Dawisha Karen: Op.Cit.P.17.)



- ٢٢ ( صحيفة نيويورك تايمز: واشنطن، ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
- ٢٣ ( باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٧١١، مثني مني فائق مرعي العبيدي: المرجع السابق،
- ٢٤ ( محمود حسن صالح المنسي: المرجع السابق، ص ٢٤٦. أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق،
- ص ٢٧٩.
- ٢٥ ( أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص ٢٧٩.
- ٢٦ ( لم تكن القوة العسكرية بين سورية وتركيا متكافئة على الإطلاق، إذ بينما كان الجيش السوري يتألف من خمسين ألف رجل، معظمهم لم يكتسب خبرة كافية، وكان وجودهم على الحدود مع إسرائيل ضروريا، وفي يدهم معدات عسكرية حديثة لم يتم تدريبهم عليها بعد، ويساندتهم شعب مكون من أربعة ملايين نسمة، كان الجيش التركي مكون من نصف مليون رجل مدربين تدريباً جيداً بأيدي ضباط أمريكيين لمدة عشر سنوات، ومسلحين بأحدث الأسلحة، ويشكلون القوة الميدانية الكبرى في حلف شمال الأطلسي، ويساندتهم شعب مكون من حوالي ثلاثة وعشرين مليون نسمة. رأفت غنيمي الشيش: المرجع السابق، ص ١٥٠.
- ٢٧ ( مدح محمود مصطفى منصور: المرجع السابق ص ٢٣٧.
- ٢٨ ( مصابط مجلس لنواب السوري جلسة ١١/١٤/١٩٥٧ ص ٢، مصطفى بلاوني: المرجع السابق، ص ١٦٧. وتجدر الإشارة إلى أنه عقب وصول القوات المصرية لسورية، أعلن أكرم الحوراني رئيس مجلس النواب السوري، في اليوم التالي لوصول تلك القوات إلى سورية ١٤ أغسطس سنة ١٩٥٧م، أمام المجلس عن ترحيبه بقدوم الجيش المصري إلى سورية، ثم قام الوفد من مجلس الأمة المصري برئاسة أنور السادات بزيارة سورية، وعقد المجلس الديني السوري جلسته في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٧م، حضرها الوفد المصري، وتقرر فيها إعلان رغبة الشعبين في سورية ومصر بترقية اتحاد فيدرالي بينهما، ودعا حكومتي سورية ومصر لتدخول فوراً في مباحثات مشتركة بغية استكمال تنفيذ هذا الاتحاد.
- مصطفى بلاوني: المرجع السابق، ص ١٦٧.
- ٢٩ ( أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص ٢٨١.
- ٣٠ ( باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٧٢٥.
- ٣١ ( أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص ٢٨١.
- ٣٢ ( أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص ٢٨٢.
- ٣٣ ( باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٧٢٥.
- ٣٤ ( الدول المسبح هي كندا -الدنمارك -اليابان -النرويج -سازاغواي- بيرو- أستراليا باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٧٢٥.
- ٣٥ ( أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص ٢٨٣.
- ٣٦ ( العلاقات العربية التركية من منظور عربي الجزء الأول، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٩١م إشراف محمد صفى الدين أبو العز، تسميق جمال زكريا قاسم ويونان ليبي رزق، ص ٢٧٥، مدح محمود مصطفى منصور: المرجع السابق، ص ٢٣٧.
- ٣٧ ( أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص ٢٨٤.

## المصادر والمراجع

أولاً: وثائق غير منشورة :-

أ- وثائق عربية غير منشورة :-

- وثائق الخارجية المصرية :-

- محافظ الأرشيف السري " غير مصنفة " :-

١- وثائق الخارجية المصرية: محفظة (٦٩٨) ملف ٧/٢٠٣ / ١ ج ٨ (التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن) تقرير " ١٠٠ من السفير المصري بواشنطن (أحمد حسين) إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن حديث السيد علي كامل فهمي مستشار السفارة مع السفير السوفيتي والوزير المفوض بالسفارة الإيرانية (سري) بتاريخ ١٩/٤/١٩٥٥م.

٢- وثائق وزارة الخارجية المصرية: محفظة ١١٩٥، ملف ٧٥٨/٨١/٢/سري، من السفارة المصرية في واشنطن إلى الخارجية المصرية، بشأن الحلف الثلاثي ومقدمة الاتحاد المصري - السوري.

٣- وثائق الخارجية المصرية: محفظة ١٥٩١، ملف ١٣٩/١٢٣/٣٠/سري " اجتماع برمودا بين إيزنهاور وماكميلان، تقرير ٩/سري من السفير المصري بدمشق إلى وكيل الخارجية (سري) جدا بتاريخ ١٩٥٧/٤/٢٤.

٤- وثائق الخارجية المصرية: محفظة ٣٤١١، ملف ٧٣٢/٨١/١٣/مقابلات السيد السفير في واشنطن، تقرير " ١٠٣ من السفير المصري بواشنطن (أحمد حسين) إلى وكيل وزارة الخارجية، سري جدا، بتاريخ ١٩٥٨/٣/١٣.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ب- وثائق أجنبية غير منشورة :-

- وثائق وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office وهي مطبوعات مودعة بدار الوثائق العامة Public Record Office وقد استعنا بمجموعة F.O.371 وهي كالتالي :-  
1-F.O.371/128242-No. 3298-from Ankara to F.O. of 17November.1957.

- وثائق أمريكية:

1) Foreign Relations of the United States 1955-1957 Volume x111 near East(Syria) United States Government Printing Office Washington 1988.

ثانياً: - وثائق عربية منشورة :-

١- مضايقات مجلس النواب السوري : جلسة ١٤/١١/١٩٥٧.

ثالثاً: - مذكرات شخصية :-

١- مذكرات خالد العظم ، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، الجزء الثاني، سنة ١٩٨٣م.

رابعاً: -المراجع العربية :-

١- أحمد عبد الكريم: أضواء علي تجربة الوحدة - مطبعة الإنشاء - دمشق، سنة ١٩٦٢م.  
٢- إسماعيل صبري مقلد: الصراعات العربية - العربية ١٩٤٥-١٩٨١م دراسة استطلاعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة ١٩٨٨م.

- ٣ - العلاقات العربية - التركية من منظور عربي، الجزء الأول، إشراف محمد صلي الدين أبو العز، تنسيق جمال زكريا قاسم ويونان ليب زكي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٩١ م.
  - ٤ - يشير العوف: الانقلاب السوري مكتبة حسين النوري، دمشق، سنة ١٩٤٩ م.
  - ٥ - جلال يحيى: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، دار المعارف سنة ١٩٨٥ م.
  - ٦ - خليل إبراهيم الناصري: التطورات المعاصرة في العلاقات العربية - التركية مطبعة الراية، بغداد، سنة ١٩٩٠ م.
  - ٧ - رأفت غنيمي الشيخ: أمريكا والعالم، في التاريخ الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٦ م.
  - ٨ - صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٣ م.
  - ٩ - عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي: العلاقات السياسية بين مصر والعراق، ١٩٥١ - ١٩٦٣ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، سنة ٢٠٠٠ م.
  - ١٠ - فكرت نامق عبد الفتاح: سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣ - ١٩٥٨ م، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد ١٩٧٨ م.
  - ١١ - محمود حسن صالح المنسي: الشرق العربي المعاصر، القسم الأول، الهلال الخصب، سنة ١٩٩٥ م.
  - ١٢ - معدود محمود مصطفى منصور: الصراع الأمريكي - السوفيتي في الشرق الأوسط تصدير د. محمد طه بدوي، مكتبة مديولي، سنة ١٩٩٥ م.
  - ١٣ - هاشم عثمان: تاريخ سورية الحديث، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، يناير سنة ٢٠١٢ م.
  - ١٤ - وليد رضوان: العلاقات العربية - التركية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٩ م.
- خامساً: الرسائل الجامعية :**
- ١ - أحمد نوري محمد النعمي: السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير، غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٣ م.
  - ٢ - إيهاب مجيد صالح: السياسة التركية تجاه مصر ١٩٤٥ - ١٩٦٣ م، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٠ م.
  - ٣ - جهاد مجيد محيي الدين: حلف بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٠ م.
  - ٤ - خالد محمد عابد الضمور: العسكريون والحكم في سورية من سنة ١٩٤٩ - ١٩٥٨ م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، سنة ١٩٨١ م.
  - ٥ - سليمان عبد النبي: السياسة السورية العربية من عام ١٩٥٨ - ١٩٧٠ م دراسة تحليلية للسياسة العربية السورية، رسالة ماجستير، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، سنة ٢٠٠٦ م.

- ٦- مثني فاتق مرعي العبيدي: العلاقات الأمريكية- التركية بعد أحداث ١١ أيلول سنة ٢٠٠١ وأثرها على القضايا العربية، رسالة دكتوراة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٢م.
- ٧- مصطفى بلاوني: التحولات السياسية في سورية بين تحقيق الاستقلال الوطني ١٩٤٦م وقيام الوحدة ١٩٥٨م رسالة دكتوراه، غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سنة ١٩٩٤م.

#### سادساً: المراجع الأجنبية المترجمة :

- ١- باتريك سيل : الصراع علي سورية دراسة للسياسة العربية، بعد الحرب ١٩٤٥ - ١٩٥٨م ترجمة سمير عبده، ومحمود فلاح، دار طلاس للنشر، طبعة أولى، دمشق، سنة ١٩٨٥م.
- ٢- بيتر مانفولد: تدخل الدول العظمي في الشرق الأوسط، ترجمة أنيب شيشن دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر طبعة أولى، دمشق، سنة ١٩٨٥م.
- ٣- ج. ب. ديروزيل: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني (١٩٤٥-١٩٧٨) ترجمة خضر خضر، لبنان، طرابلس، دار المنصور، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٥م.
- ٤- مايلز كوبلاند: لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني، بيروت، مايو، سنة ١٩٧٠م.
- ٥- مايلز كوبلاند: حياة مايلز كوبلاند الضابط في المخابرات المركزية ودوره في مصر وسورية ولبنان وإيران، ترجمة صادق عبده علي الركابي، الطبعة الأولى، مكتبة مندوبي، سنة ٢٠٠٧م.

#### سابعاً :- المراجع الأجنبية غير المترجمة :

- 1) Bernard Lewis: The Emergence of modern turkey oxford univpress(London 1966).
- 2) Cremeans, Charles: The Arab and The World ,Nasers, s Arab Nationalist policy Frederick P raeger publishers ,new York ,1936.
- 3) Dawisha Karen: Soviet Foreign Policy towards Egypt(The Macmillan press Ltd., London, 1979).
- 4) Douglas Little: Cold War and Covert Action, the United States and Syria 1945-1958 in Middle East, 1990.
- 5) Emil Lengyel: the changing Middle East, The John Day Go., N.Y., 1960.
- 6) Fleming, D.: The cold War and its origins 1917 - 1960-(Garden City, New York, 1961).
- 7) Ismail Social: Turkish Arab Diplomatic relations after the Second World War: Studies on Turkish Arab Relations, Ankara, 1986.
- 8) (John Marlowe : Arab Nationalism British Imperialism. Study in power Politics Frederick Praeger Publishers, N.Y. 1961.

**ملحق: - الصحف :**

- ١- جريدة الشاطئ: العدد ٤٥٦ بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩٥٥م.
- ٢- صحيفة ظافر التركية، أنقرة في ٤ يناير سنة ١٩٥٧م.
- ٣- الأهرام: العدد: ٢٥٦٧٧ في ٢٤ مارس سنة ١٩٥٧م.
- ٤- الأهرام: العدد: ٢٥٧٠٤ في ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٧م.
- ٥- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٤ في ٢ سبتمبر، سنة ١٩٥٧م.
- ٦- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٦ في ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
- ٧- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٧ في ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
- ٨- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٨ في ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
- ٩- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٩ في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
- ١٠- صحيفة النجم الأحمر: (موسكو) في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
- ١١- صحيفة نيويورك تايمز: واشنطن، في ١٥ سبتمبر، سنة ١٩٥٧م.

